تاريخ العرب قبل الإسلام

لوحة الفنان: عصمت أبو زيد

د. السيد عبد العزيز سالم

إهــــــــداء ٢٠٠٧
الدكتور / عاطف رمضان دياب
جمهورية مصر العربية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

دراسات فى تاريخ العرب

تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

د. السيد عبد العزيز سالم

ذاكرة الكتابة (١٢)

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى

رقم بريدى : ١١٥٦١

- الـكـتـاب : تاريخ العرب قبل الإسلام
- المـؤلـف : د. السيد عبد العزيز سالم
- الطبـعة الأولى : مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية
- الطبعة الثانيـة : الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٠

مقدمة الكتاب

إن البحث في التاريخ السياسي والاجتماعي للعرب في العصر السابق على ظهور الإسلام، ودراسة المنابت الأولى لحضارتهم يستثير اليوم اهتمام الكثير من أبناء العروبة في مختلف أنحاء العالم العربي، ممن يتطلعون إلى التعمق في معرفة ماضي أمتهم العربية، ومنبت قوميتهم، بغية الرد على أباطيل أعدائهم، والتزود من أحداث الماضي ووقائعه بعبرات وعظات، ومن تجارب أجدادهم القدامى بدروس قد تعينهم في الوقت الحاضر على إدراك تراثهم القديم الحافل بالأمجاد وتحدد موقفهم من قضاياهم المعاصرة.

ولا شك أن تاريخ العرب في الجاهلية من الموضوعات الهامة بالنسبة لتاريخ العرب العام، وتاريخهم الإسلامي بوجه خاص، لأنه أس هذا التاريخ، وركيزته التي يقوم عليها، ولا يمكن تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفنية في العصر الإسلامي إلا إذا بحثنا عن أصولها القديمة في عصر الجاهلية.

غير أن هذا التاريخ الجاهلي لم يلق من عناية الباحثين القدامى والمحدثين إلا حظاً يسيراً، إذ أن أخبار العرب في الجاهلية التي وصلت إلينا في المدونات التاريخية لا تعدو ان تكون أخباراً مضطربة تختلط فيها الحقائق التاريخية بالروايات الخرافية، ويسودها بوجه عام الطابع الأسطوري والعنصر القصصي.

ومثل هذه الأخبار والروايات لا يمكن الركون إليهـا والاعتماد عليها كمصدر رئيسي لكتابة هذا التاريخ دون التحقق منها بالرجوع بقدر المستطاع إلى مصدر آخر هام من مصادر التاريخ العربي القديم ، وهو الآثار الباقيـــة ، والنقوش الكتابية المسجلة عليها . والحـــق ان كثيراً من المستشرقين المحدثين ، وفريق قليل من علماء العرب ، بذلوا جهوداً أقل ما يقال عنها أنهـا مضنية ، وصرفوا جانباً كبيراً من هذه الجهود في ارتياد بلاد العرب ، ودراسة آثار اليمن والحجاز وجنوب الشام ، ونسخ ما عثروا عليه من النقوش الكتابية القديمة ، وترجمته إلى اللغات الأوروبية . ومع ذلك فإن ما صدر من بحوثهم يعد قليلاً للغاية ، ومـــا يزال تاريخ العرب في العصر الجاهلي يحتاج إلى مزيد من الجهود الأثرية والتاريخية التي تعين على وضع تاريخ للجاهلية يزيل من الأخبار المدونة ما اختلط بهـا من أساطير ، ويعتمـــد في أصوله على الحقائق العلمية التي يمكن أن تسفر عنهـــا الأبحاث الأثرية .

ومكتبتنا العربية –للأسف المرير– فقيرة للغاية في هذا النوع من الدراسات ، فلم يصدر عن تاريخ العرب في الجاهلية من المصنفات العربية الحديثة سوى عدد قليل من البحوث يعد على أصابع اليد ، أهمها جميعاً بدون جدال كتاب ضخم من ثمانيـة أجزاء للدكتور جواد علي يعتبر المرجع العلمي الأول لتاريخ العرب في الجاهلية مكتوباً باللغة العربية ، ومع ما قدمه مؤلفه من فضل تأليفـــه له باعتباره أفضل ما صدر من بحوث عربية حديثة في هذا المجال ، فقد بالغ في التوسع في فصوله ، وأغرق في تفصيلات موضوعه إلى حد يصعب على الدارس لتاريـــخ الجاهلية أن يلم بأطرافه ويحيط بكل جوانبه . ومنها بحث تاريخي أدبي للأستاذ جرجي زيدان ، يعتبر على الرغم من قدمه ، وبعده عن المنهـــج العلمي ، من المصنفات الجديرة بالاطلاع .

وقد دفعني هذا النقص الكبير في كتب التاريخ العربي القديم ، منذ أكثر من عشر سنوات ، إلى توجيه عنايتي لدراسة هذا التاريخ ، وذلك بعد أن أسندت

إلى جامعة عين شمس تدريس هذه المادة ، فاستهوتني دراسة تاريخ العرب القديم على ما هو عليه من صعوبة ، وأدركت ما يمكن أن يعود على المكتبة العربية من إصدار بحث جديد مترابط العناصر عن تاريخ العرب في الجاهلية ، أحيط فيه بكل جوانب هذا الموضوع سياسية وحضارية، وأوضح ما خفي من هذا التاريخ بطريقة سهلة مبسطة ، تعين القارىء العربي على الإفـــادة من تحصيل مادته ، وحاولت أن أفيد من قيامي بتدريس هذه المادة بعد ذلك بجامعة الاسكندرية ، في تحقيق هذا الهدف ، ووفقت أخيراً في محاولة أوليـة إلى إصدار الجزء الأول من « دراسات في تاريخ العرب » في أول عام ١٩٦٧. على أنني أدركت بعد ذلك بعامين ، تحقيقاً للفائدة التي تعود على الطلاب من دراسة هذا الموضوع ، ضرورة إعداد بحث جديد أقل توسعاً في التفاصيل مـــع الاحاطة بجوانب الموضوع ، يستطيع الطالب والباحث على السواء أن يثمر تحصليهما لمادته ، ولم أقصـد من هذه المحاولة الجديدة سوى تيسير المهمة على القارىء العربي. ارجو أن أكون قد حققت بهذا البحث المتواضع الغاية من إعداده ، والله ولي التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الباب الأول

دراسة تمهيدية

(١) المصادر

(٢) العرب وطبقاتهم

(٣) جغرافية بلاد العرب

- ١ -

مصادر تاريخ الجاهلية

مصادر تاريخ الجاهلية كثيرة ومتنوعة ، ولكنها تنحصر في ثلاثة أنواع :

الاول ، المصادر الأثرية : وتتضمن النقوش الكتابية والآثار المعمارية .

الثاني ، المصادر العربية المكتوبة : وأهمها القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير ، وكتب السيرة والمغازي ، وكتب التاريخ والجغرافية والشعر الجاهلي .

الثالث ، المصادر غير العربية : وتشتمل على التوراة والتلمود ، والكتب العبرانية ، وكتب التاريخ اليونانية واللاتينية والسريانية ، والمصادر المسيحية .

أولاً - المصادر الأثرية

١ - النقوش الكتابية :

تعتبر النقوش الكتابية الأثرية من أهم مصادر التاريخ بوجه عام والتاريخ العربي القديم بوجه خاص ، لأن أكثر ما وصل إلينا عن العصر الجاهلي في المصادر

العربيـــة المدونة لا يعدو أن يكون روايات يغلب عليها الطابع الأسطوري ، وتختلط فيها الحقيقة بالخيال ، ولهذا السبب تطلع الباحثون الأوربيون منـــذ أواخر القرن التاسع عشر إلى الاعتماد على دراسة النقوش العربية القديمـة التي تم العثور عليها في بـلاد العرب ، واستنباط مادة تاريخية من واقع ما ورد فيها من حقائق تتضمن أسماء الملوك وألقـابهم وأعمالهم ودياناتهم ، ولا شك أن هـــذه الكتابات الأثرية بمـا تتضمنه من أخبار تضم مادة أساسية لتاريخ العرب السابق على ظهور الإسلام وتاريخ حضارتهم ، لا سيما ما يختص منها بالدراسات اللغوية ، وهي لهذا السبب أيضاً تعتبر وثائق أصيلة يستندعليها المؤرخ في تأريخه للأحداث، لأنها كتابات محايدة غير مغرضة ، بالإضافة إلى كونها معاصرة لهـذه الأحداث التي تسجلها ، لم تشوهها الروايات والنقول [1] . فمن المعروف أن النقوش الأثرية تثبت حقائق ثابتة ، وتتضمن تواريخاً صحيحة ، وأعلاماً يقل فيها التحريف ، بينما نجد معظم ما وصل إلينا من الكتابات قد شوهته إما الروايات الخرافية أو التحيز لعصبية ضد الأخرى .

ومعظم ما وصل إلينـــا من النقوش العربية القديمـة يرجع إلى بلاد العرب الجنوبية ، وقليل منها يرجع إلى العربية الشمالية [2] ، ولعـــل ذلك هو السبب

---

(١) زكي محمد حسن ، دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الاسلامي ، مجـلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ١٢ ، ج ١ ، مايو ١٩٦٠ ، ص ١٦٢ - سيدة اسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٣ - السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ١٥١ .

(٢) أهم هذه النقوش العربية الشمالية،نقش النمارة الذي عثر عليه الأستاذ رينيه ديسو على جبل الصفا الواقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق ، وهو شاهد قبر الملك اللخمي امرىء القيس بن عمرو ابن عدي (٢٨٨ - ٣٢٨) ، وهو نقش مكتوب بحروف نبطية في لغة عربية (رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ١٩٠٩ ص ٣٦ - ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٤٩) .

في إنكار بعض المستشرقين وجود كتابة عند عرب الشمال ، إستناداً إلى ما ذكره ابن خلدون من أن الخط العربي انتقل من دولة التبابعة الحميريين إلى الحيرة، ثم انتقل بعد ذلك من الحيرة إلى الحجاز [1] ، وإن كان الدكتور خليل يحيى نامي ينفي انقطاع الخط العربي من المسند الحميري ، ويرى أن العلاقة بينهما لا تخرج عن كونهما من أصل سامي واحد . ويعتقد أن العرب اشتقوا كتابتهم من كتابة شعب النبط الذي كان يسكن في مدين وما يجاورها من المناطق الشمالية لبلاد العرب ، ثم تطورت الكتابة النبطية في الحجاز تبعاً لحركة التجارة حتى أصبحت الكتابة النبطية تعرف باسم الكتابة العربية في أوائل القرن الخامس الميلادي [2]

٢ - الآثار الباقية :

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالمعابد أو المنقولة كالتحف المعدنية والعملات والتحف الخشبية والخزفية وأدوات الزينة والنقوش وغير ذلك من المواد التي يسهل حملها ونقلها ، من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابته التاريخية ، لأن الوثائق المكتوبة لا تكفي وحدها لهذا الغرض ، إما لندرتها أو لتناقض ما جاء فيها ، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير . أما الآثار فتتضمن نقوشاً كتابية أصيلة معاصرة للأحداث، غير قابلة التصحيف والتحريف ، كما أن الآثار العربية القديمة تعتبر سجلاً تاريخياً حياً لأعمال الملوك والأمراء في المراحل المختلفة الباقية من التاريخ الجاهلي ، وشاهداً مادياً ماثلاً لحضارة العرب في عصر الجاهلية . على هذه الآثار الباقية في مواضعها من بلاد

(١) ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ج ٣ ص ٩٥٠ .

(٢) خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، مايو ١٩٣٥ ، ص [illegible]

العرب استطعنا أن نقف على مدى ما وصل إليه العرب القدامى من نهضة حضارية، ونكشف النقاب عن حقائق تتعلق بتاريخ العمران العربي القديم في المراكز الحضارية العربية المختلفة في العصر الجاهلي ، ونستنبط منها التيارات الفنية التي وكت بصماتها في إنتاج العرب القديم ، والمصادر المختلفة التي أثرت على فنون العمارة سواء كانت أشورية أو بابلية أو يونانية . وكما أن الآثار المعمارية الباقية تعيننا على تفهم درجة الإتقان الفني عند العرب في الجاهلية ، فإن العملات العربية بنقوشها التي تتضمن ألقاباً ملكية ، وأسماء للمعبودات ، تعتبر مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الجاهلي . ونستدل من العملات الحميرية وعملات القتبيين والغسانية المتأثرة بالعملات اليونانية ، كما نستدل من الأختام العربية الجنوبية ، وبعض الجعارين المصرية ، والأختام الساسانية التي وجدت طريقها إلى بلاد العرب الجنوبية ، على قيام نوع من التبادل التجاري بين بلاد العرب الجنوبية وبلاد الشام ومصر والعراق ، تجاوز نطاقه الأصلي إلى الفنون [1] كما نستدل منها على اشتغال العرب في الجاهلية بالتجارة العالمية بين الدول المطلة على المحيط الهندي ، والواقعة على البحر المتوسط [2] .

ثانياً – المصادر العربيّة المكتوبة

١ – القرآن الكريم :

يعتبر القرآن الكريم أساس التشريع الإسلامي ، والمصدر الأول لتاريخ العرب في عصر الجاهلية ، وأصدق المصادر العربية المدونة على الإطلاق ، لأنه

---

(١) ليتكوليس ودومركاكيس ، الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ١٧١ .

(٢) فؤاد حسنين ، العرب قبل الاسلام ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٤٧

تنزيل من الله تعالى لا سبيل إلى الشك في صحة نصه [1] ، ففيـــه ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفيه ذكر لبعض أخبار الشعوب البائدة (عاد وثمود) ، وفيه أخبار عن أصحاب الفيـــل (أبرهة الحبشي وجيشه) ، وسيل العرم (وهو السيل الذي دمر سد مأرب) ، وأصحاب الأخدود (وهم أهل نجران النصارى الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخدود حفره لذلك الغرض) ، هـــذه الأخبار أوردها الله تعالى في كتابه العزيز عبرة وموعظة للعرب المعارضين للإسلام ، بما أصاب الله الشعوب البائدة من قصاص لتكذيبهم الرسل والأنبياء . وقد أثبتت الحقائق التاريخية الثابتـــة والكشوف الأثرية صحة ما جاء في القرآن الكريم من أخبـــار العرب البائدة ودقتها [2] ؛ ومن المعروف أن الشعوب العربية البائدة إنما انقرضت لعاملين : الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربيـــة وفي الأحقاف ، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير شامل لمدن كانت عامرة [3] . ولقد ورد في القرآن الكريم أن قبائل عاد وثمود بادت بصاعقـــة دمرت كل شيء ، وأن الله أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية أتت على كل شيء . وفي عاد وثمود يقول الله سبحانه وتعـــالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ؟أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحـــاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما

---

(1) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٢٧ ص ٦٨ — جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، القسم السياسي ، ج ١ ، ١٩٥٠ ، ص ٥٠ - صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ٢٩٣ - عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٦

(2) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ،طبعة دار الهلال بمراجعة الدكتور حسين مؤنس، ص ١٧ .

(3) عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص ٥٤

ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثموداً كفروا بربهم ألا بُعداً لثمود ﴾ [3] .

ونستدل من هذه الآيات البينات على أن قوم ثمود وعاد هلكوا على أثر ريح عاتية أو على أثر تفجر بركان صحبته رجفة عنيفة .

وسيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم إنما يقصد به السيل الذي أدى إلى انهيار سد مأرب وتخريبه ، وكان سد مأرب أهم سدود اليمن جميعاً ، وإليه يرجع الفضل الأعظم في تحويل مدينة مأرب إلى جنة يانعة ، وفي تعريف بلاد اليمن ببلاد العرب السعيدة [4] وبالبقعة الخضراء والأرض الخضراء لكثرة مزارعها وأشجارها وثمارها [5] . وما زالت آثار السد وآثار الجنتين الواقعتين على يمينه وعلى يساره ظاهرة حتى يومنا هذا ، تؤكد صحة ما جاء في القرآن الكريم : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم

---

(١) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١ آية ١٥ – ١٧

(٢) القرآن الكريم ، سورة الذاريات ٥١ آية ٤١ – ٤٥

(٣) القرآن الكريم ، سورة هود ، ١١ ، آية ٦٧ – ٦٨

(٤) عرفها اليونان باسم Arabia Felix

(٥) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، نشره الأستاذ محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٥١

سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [1] .

ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المستشرقين لا يعتبرون الكتب المقدسة ، ومن بينها القرآن الكريم ، مصادر تاريخية يعول عليها ، لأن ما جاء فيها لا يتضمن تفصيلات تاريخية ، كما أنها تهدف إلى عبرة أخلاقية بالإضافة إلى أن بعض أخبارها لا يزال غير واضح ، وينقصه التحديد الزماني والمكاني [2] .

وعلى الرغم من هذا ، فإن القرآن الكريم يعتبر مصدراً لا يرقى إليه الشك للتأكيد على وقوع بعض أحداث في الجاهلية مثل حادثة أصحاب الأخدود ، وحادثة سيل العرم ، وقصة أصحاب الفيل ، ثم إنه مرآة صادقة للحياة الجاهلية ، يصور الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أيضاً أصدق تصوير [3] .

٢ – الحديث وكتب التفسير :

أما الحديث وهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ، لأنه يتضمن أحكاماً وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور ، فيعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لتدوين تاريخ الجاهلية القريب من الإسلام ، على الرغم من أن الحديث لم يدون بالفعل إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وسبب ذلك أن الحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين وأدقها لاعتماده على الإسناد ، بالإضافة إلى تعرض الأحاديث لكل ما

---

(١) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، آية ١٤ – ١٦

(٢) سيدة اسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ، ص ١٦

(٣) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص و – ط من المقدمة .

كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[1].
ولما كان كثير من الأحاديث موضوعة ، انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات التي بعدت عن مقاصد الرسول ، فلا بد للباحث في الأحاديث من الاعتماد على المجموعات الصحاح كجامع الصحيح للبخاري (ت٢٥٧) وشروحه، وصحيح مسلم ،(ت ٢٦٢) وسنن أبي داود (ت ٢٧٥) ،وسنن الترمذي (ت ٢٧٩) .

ويلي القرآن والحديث في طبقات المصادر التاريخية الخاصة بالعصر الجاهلي كتب التفسير التي تتضمن شروحاً مفصلة لما ورد في القرآن الكريم من أخبار مختصرة عن بعض الأحداث في الجاهلية وفي عصر النبوة الأول ، أو لما أغلق علينا فهمه من تشبيهات واستعارات . وقد نشأ التفسير في عصر النبي ﷺ أول شارح للقرآن الكريم ، ثم تولى صحابته من بعده هذه المهمة ، باعتبارهم «الواقفين على أسراره ، المهتدين بهدى النبي ﷺ »[2] ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبدالله بن عباس ، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين ، فجمعوا أقوال من تقدمهم ، وصنفوا التفاسير [3] . ثم اتجه العلماء في تفاسيرهم اتجاهات متباينة ، فكان ما يسمى بالتفسير المأثور [4]، ومن أشهر كتب هذا التفسير التفسير التاريخي المعروف بتفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، ويسمى كتابه « جامع البيان في تفسير القرآن » [5] ، ومنها أيضاً تفسير ابن كثير الدمشقي [6] (ت ٧٧٤هـ) ، وهو

---

(١) نفس المرجع .

(٢) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢ ص ٣٣١

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣

(٤) يعرف أيضاً بالتفسير النقلي ، لأنهم لجأوا فيه إلى طريقة النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين (عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٦)

(٥) طبعة بولاق ، في ٣٠ جزءاً ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

(٦) طبعة مصر في ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

يقارب تفسير الطبري إن لم يكن يفوقه في بعض المسائل . وكان هناك ما يسمى بالتفسير بالرأي ، ويعتمد المفسر فيه على اللغة ومعاني الألفاظ ، ولذلك عرف أيضاً بتفسير الدراية أو التفسير العقلي ، وفيه تعددت المناهج وكثر الاختلاف. وأشهر التفاسير بالرأي تفسير الزمخشري [1] (ت٥٣٨هـ) ويعرف بالتفسير اللغوي ، وتفسير فخر الدين الرازي [2] (ت ٦٠٦ هـ) ، وهو تفسير عقلي بحث عني فيه الرازي ببحث الكونيات ، وقد قسم الآيات التي يتولى تفسيرها إلى عدد من المسائل ، قام بتأويلها مدافعاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة [3] ، ومنها تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » [4] ، وفيه يعنى بإثبات الأدلة على أصول أهل السنة ، ومنها تفسير أبي السعود ، وتفسير النسفي ، وتفسير الخازن .

٣ - كتب السيرة والمغازي :

دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله للاقتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي ، وفي النظم الإدارية ، المؤرخين الأول إلى الكتابة في سيرة الرسول وفي مغازيه ومغازي الصحابة [5] . وقد تعرضت كتب السيرة والمغازي لأخبار الجاهلية القريبة من الإسلام أو المتصلة بحياة النبي ﷺ ، ولذلك فهي من المصادر الهامة لتاريخ العرب قبل الإسلام ، فكتاب سيرة ابن هشام مثلاً (ت ٢١٨ هـ) أول كتاب عربي وصل إلينا يؤرخ لسيرة النبي والعرب قبل الإسلام ، وابن هشام في سيرته يعتمد على الرواية الشفوية كما يعتمد على كتب

---

(١) حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، طبعة مصر في جزأين ، القاهرة ١٣٠٧ هـ .
(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، طبعة القاهرة ، في ٨ أجزاء ، ١٣٠٨ هـ .
(٣) صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص١٧
(٤) طبعة بولاق ، في جزأين ، القاهرة ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ هـ .
(٥) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج٢ ، القاهرة١٩٣٨ ص ٣١٩ - عبد العزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ص ١١٩-٢٠

ضاعت أمها كتاب في سيرة النبي لأبي عبدالله محمد بن إسحاق(ت ١٥١ هـ)[١].
ومن أقدم كتاب المغازي عروة بن الزبير الذي وصلتنا بعض رسائله في كتب الواقدي والطبري ، وأبان بن عثمان بن عفان ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، وشرحبيل بن سعد ، والواقدي ، ومحمد بن سعد .

ومعظم كتّاب السيرة والمغـــازي من أهل الحجاز ومن المدينة بالذات ، باعتبارها دار هجرة الرسول ودار السنة التي عاش فيها الصحابة ، وسمعوا أحاديث الرسول ، ورووها بدورهم إلى التابعين . بينما تألقت حركة أخرى للتأليف في السيرة والمغازي في البصرة نتيجة طبيعية للصراع الحزبي والاقليمية والقبلية .

وينقسم مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة إلى ثلاث طبقات ، فبرز في الطبقة الأولى منهم أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد . ومن كتّاب الطبقة الثانية : عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، وعاصم بن عمرو بن قتادة ، وابن شهاب الزهري ، ومن كتّاب الطبقة الثالثة : موسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحق بن يسار ، والواقدي . وكلهم من المدينة دار السنة باستثناء ابن شهاب الزهري فهو مكي ، وتضيف إليه وهب بن منبه الذي كتب في السيرة بجانب كتاباته في قصص الأنبياء وأخبار القدامى . وفيما يلي دراسة موجزة لأعلام هذه المدرسة المدنية .

الطبقة الأولى

(١) ابان بن عثمان بن عفان(ت ١٠٥هـ) :

كان والياً على المدينة في خلافة عبد الملك بن مروان ، واشتهر بالحديث

---

(١) جمع ابن هشام أخبار السيرة من ابن إسحق ودونها وتناولها بالنقد والاختصار وذكر ما فات ابن إسحق ذكره من روايات (راجع مقدمة ابن هشام ، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ي)

والفقه ، ولكنه كان يميل إلى دراسة المغازي ، وكتابته في السيرة لا تعدو أن تكون صحفاً تضمنت أحاديث عن حياة الرسول. ولم ينقل له أو يرو عنه أحد من كتاب السيرة الأول أمثال ابن سعد و بن هشام شيئاً في السيرة [1] ويعلل الدكتور الدوري ذلك بأنه كان يمثل مرحلة انتقالية بين دراسة الحديث ودراسة المغازي [2].

(٢) عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٢هـ) :

ينتسب إلى بيت من أشرف بيوت العرب [3] ، ويدخل في عداد الطبقة الأولى من كتاب السيرة . وكان ثقة فيما يرويه من الحديث ، فقد مكنته نسبه من أن يروي الكثير من الأخبار عن النبي ﷺ ، فروى منها عن أبيه الزبير وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة [4] ، وعن أبي ذر الغفاري الصحابي . نشأ عروة في المدينة ، وأخذ الحديث عن كثير من الصحابة أمثال : أبوه الزبير ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وأبو هريرة ، وعبدالله بن عمرو ، وابن عباس [5] ، ثم رحل إلى مصر وأقام بها ما يقرب من سبع سنوات ، وتزوج فيها ، وزار دمشق عدة مرات.

وعن عروة أخذ ابنه هشام بن عروة ، وابن شهاب الزهري ، وكان لعروة بن الزبير فضل كبير على كتاب السيرة كابن هشام وابن سعد ، إذ يدين كلاهما بجزء كبير من كتابتهما لما رواه ، وكذلك رجع إليه الطبري في صفحات

---

(١) سيدة كاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ، ص ٢٦
(٢) الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ٢٦
(٣) أبوه الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وأخوه عبدالله بن الزبير ، وخالته عائشة أم المؤمنين
(٤) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٢
(٥) ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ، طبعة ليدن ، تحقيق الدكتور سخاو ، ١٣٢٢هـ (١٩٠٥م) ج ٥ ص ٣٣

عديدة من تاريخه ، كما وردت فقرات من مغازيه في مصنفات الواقدي تتناول جوانب متعددة من حياة الرسول[1] .

(٣) شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ) :

كان مولى من موالي الأنصار ، روى كثيراً عن زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة [2] ، وقد أسهم شرحبيل في كتابة السيرة بقوائم أثبت فيها أسماء الصحابة البدريين الذين اشتركوا في غزوة بدر ، وأسماء الصحابة الذين اشتركوا في غزوة أحد ، كما أورد أسماء المهاجرين إلى الحبشة وإلى المدينة بعد ذلك ، ولكنه لم يبلغ مع ذلك ما بلغه أبان بن عثمان بن عفان أو عروة بن الزبير من مكانة في هذا المضمار ، فلم يرو عنه ابن إسحق والواقدي شيئاً [3]

الطبقة الثانية

(١) عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري(ت١٣٥) :

كان مدنياً من أهل المدينة ،وكان جده الأعلى عمرو بن حزم الأنصاري أحد كبار الصحابة ، ولاه النبي ﷺ نجران باليمن ، وكتب له حين بعثه إلى اليمن كتاباً أمره فيه بتقوى الله في أمره كله ، وأخذ خمس المغانم وعشر ما سقي بالسواقي والدواليب من الصدقات ، ونصف العشر مما سقي بالدلو [4] . أما جده محمد بن عمرو فقد توفي يوم الحرة ، وأما أبوه أبو بكر فقد ولي قضاء المدينة في

---

(١) الدوري ، المرجع السابق ، ص ٢١

(٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٢

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢٢

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٨٤

ولاية عمر بن عبد العزيز ، ثم ولي أمر المدينة في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وعرف أبو بكر بقدرته في رواية الحديث ، ولذلك عهد إليه عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث . وورث ابنه عبدالله بن أبي بكر هذه المواهب ، فاختص برواية الحديث المتصل بالمغازي ، فكان حجة في ذلك ، وعنه روى ابن إسحق والواقدي وابن سعد والطبري روايات تتعلق بأخبار الرسول في المدينة .

(٢) عاصم بن عمر بن قتادة الظفري (ت ١٢٠ هـ) :

كان أنصارياً من أهل المدينة ، شهد جده قتادة موقعة بدر ، واشترك فيها مع المسلمين ، وكان عاصم بن عمر راوية للعلم ، له معرفة بالمغازي والسير ، ولذلك عهد إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز بالجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن المغازي وعن مناقب الصحابة ، وقد اعتمد عليه كل من ابن إسحق والواقدي [١]

(٣) ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) :

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب من بني زهرة ، ويعتبر من أعظم مؤرخي المغازي والسيرة ، إذ يرجع إليه الفضل في تأسيس مدرسة التأريخ في المدينة ، وإليه يرجع كذلك الفضل في توضيح خطوط السيرة . أخذ الزهرى على كبار المحدثين في المدينة ، وهم سعد بن المسيب ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن . وكان ابن شهاب يعتز بتلقيه العلم عليهم ، فكان يقول : «أدركت أربعة بحور : عبيدالله بن عبدالله أحدهم » ، وقال أيضاً : « سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فلما لقيت عبيدالله بن عبدالله كأني كنت في شعب من الشعاب ، فوقعت في الوادي » ، وقال مرة : « صرت كأني لم أسمع من العلم شيئاً [٢]

---

(١) ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٥

(٢) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ج ٨ ص ١٧٨

استقى ابن شهاب الزهري معظم مادته في السيرة من الحديث ، فهي تكاد تخلو من قصص الأنبياء ، كما أنه لم يستخدم الشعر في كتابته إلا في أحوال نادرة. وقد عرف الزهري بقوة أسانيده ، ولكنه يمتاز عن غيره في ذلك بنوع جديد من الإسناد هو الإسناد الجمعي ، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل ، وقد سار بذلك خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة[1]. وقد اعتمد الزهري في المغازي على عروة بن الزبير اعتماداً كبيراً ، ولذلك فإن روايات عروة تعتبر المصدر الأول للزهري فيما وصل إلينا من مغازيه[2].

كذلك اعتمد في الرواية على سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة[3] اللذين كان يعتز كل الاعتزاز بتلقيه العلم عليهما.

ولم يقتصر الزهري على الكتابة في السيرة والمغازي ، بل شملت كتاباته الأنساب ، وتاريخ صدر الإسلام فصنف كتاباً في نسب قريش اتخذه المصعب الزبيري مصدراً لكتابه « نسب قريش »[4] ، كما تناول فترة الخلافة الراشدة حتى انتقال الخلافة إلى الأمويين.

---

(١) عبد العزيز الدوري ، ص ٢٤ ، ٩٤.

(٢) نفسه ، ص ٧٩.

(٣) الواقدي ، مغازي رسول الله ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٦١ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ٢٦٤ — البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٩٨ ، ١٠٠ ، ٢٧٢ ، ١٦٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣٥٦ ... إلى آخره.

(٤) المصعب بن عبدالله الزبيري ، نسب قريش ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٣.

(١) موسى بن عقبة (ت ١٤١) :

كان مولى لآل الزبير ، واشتهر بالمغازي متبعاً طريقة مدرسة المدنيين إذ تتلمذ على الزهري ، واستفاد بآثاره ، بالإضافة إلى كتابات غيره من كتاب المغازي ، وكتب كتاباً في السيرة ذكروا أنه جاء مختصراً ، وصلت إلينا بعض مقتطفات منه فيما كتبه ابن سعد والواقدي والطبري[١] .

(٢) محمد بن اسحق (ت ١٥٢) :

هو أشهر تلاميذ الزهري ، من أصل فارسي ، إذ كان مولى لعبدالله بن قيس ابن مخرمة بن عبد المطلب، وإليه تنسب أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ، وكتابه المغازي وصل إلينا مختصراً في سيرة ابن هشام[٢]. وتنقسم سيرة ابن اسحق إلى ثلاثة أقسام :

١ – المبتدأ، ويبحث في هذا القسم في تاريخ الجاهلية مبتدئاً به منذ الخليقة .

٢ – المبعث ، وأفرده لتاريخ حياة النبي ﷺ حتى السنة الأولى للهجرة .

٣ – المغازي ، وتناول في هذا القسم حياة الرسول في المدينة وغزواته حتى وفاته ﷺ ، وفي مغازي ابن اسحق يقول الإمام الشافعي : « من أراد التبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحق »[٣].

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج٢ ص٣٢٧ — الدوري ، ص ٢٧

(٢) السخاوي ، الأعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، نص نشره روزنتال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ٥٢٦ .

(٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢١٩ – السخاوي المصدر السابق ، ص ٥٢٦ .

وكان ابن اسحق مكروهاً من هشام بن عروة بن الزبير ومالك بن أنس، أما كراهية هشام بن عروة له فيرجع سببها إلى أن ابن اسحق روى بعض أخباره عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر، وفاطمة كانت زوجة هشام بن عروة، فلما بلغ هشام ذلك أنكره وقـــال: «العدو الله الكذاب يروي عن امرأتي؟ من أين رآها»[1]. وأما عداء مالك بن أنس له فيرجع سببه إلى أن ابن اسحق طعن في نسب مالك بن أنس كما طعن في علمـــه، فكان يقول: «ائتوني ببعض كتبه حتى أبين عيوبه، أنا بيطار كتبه»[2]. فكرهه مالك لذلك، وعاداه، واتهمه بالكذب والدجل، فكان يقول فيه «إنه دجال من الدجاجلة»، وقال فيه أيضاً: «محمد بن اسحق كذاب». كذلك اتهم ابن اسحق بالتشيع على مذهب القدرية. وأمام هذا العداء رحل ابن اسحق إلى العراق بعد قيـام الدولة العباسية، فنزل الكوفة والجزيرة والري وبغداد، واتصـل بالمنصور، وألف له كتاباً في التاريخ منذ أن خلق الله آدم إلى يومه، واختصره في كتابه المغازي[3]. وقد نقد ابن اسحق لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية، فقد نقل عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول، وعن أهـــل التوراة، وأخذ عن وهب بن منبه، وأخذ عن العجم، ولأنه أورد كثيراً من الشعر المنحول، ولأنه وقع في أخطـاء في الأنساب التي أوردها في كتابه[4]. ومع ذلك فقد كان لابن

---

(١) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٢٢

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٤ - ياقوت الرومي، كتاب إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، (معجم الأدباء) طبعة مرجليوث، ج ٦، القاهرة ١٩١٣ ص ٤٠٠

(٣) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٩

Margoliouth, lectures on arabic historians calcutta, 1930, p. 84

(٤) ياقوت معجم الأدباء، ج ٦، ص ٤٠١ - Margoliouth, op.cit.p.85 - جب علم التاريخ، دائرة المعارف الاسلامية، المجلد ٤، العدد ٨، ص ٤٨٧ - عبد العـزيز الدوري، ص ٢٩

اسحق الفضل في الجمع بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته. ويعلق جب على كتابة ابن اسحق بقوله: «وكتابه في السيرة كان ثمرة تفكير أبعد أفقاً وأوجب نطاقاً من تفكير سابقيه ومعاصريه، لأنه نزع فيـــه لا إلى تدوين تاريخ النبي فحسب، بل إلى تاريخ النبوة بذاتها»[1].

(٣) محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧) :

كان مولى لبني هاشم، وقيل لبني سهم بن أسلم، وكان معاصراً لابن اسحق، أخذ العلم عن شيوخ عصره في المدينة، فأخذ عـــن مالك بن أنس في الحديث وعن أبي معشر السندي في التاريخ وعن معمر بن راشد اليماني، ولذلك يعتـــبر الواقدي الثاني بعد ابن اسحق في اتساع علمه بالمغازي والسيرة والتاريخ، بـل فاق ابن اسحق في دقة المادة والأسلوب مع زيادة الإهتمام بتحقيق تواريـــخ الأحداث وتوضيح الإطـار الجغرافي المتصل بالمواقع[2]. اهتم الواقدي بالمغازي والسيرة وبأحداث التاريخ الإسلامي بوجه خاص، فقد ذكر الخطيب البغدادي نقلاً عن إبراهيم الحربي أن الواقدي كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما الجاهلية فلم يعمل فيها شيئاً»[3]. وقد ألف الواقدي عدداً كبيراً من الكتب في المغازي والتاريخ، من بينها كتاب مغازي رسول الله ﷺ وهو الكتاب الوحيـد الذي وصل إلينا[4]. وكتاب «الطبقـــات الكبير»، وكتاب السيرة، وكتاب

---

(١) جب، علم التاريخ، ص ٤٨٧

(٢) الدوري، ص ٣٠، ٣١. كان الواقدي يمضي إلى مواضع المعارك والمواقع ليدرسها على الطبيعة وقد عبر عن ذلك بقوله: «ما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه». (الخطيب البغدادي، ج ٣ ص ٦)

(٣) نفس المصدر، ج ٣ ص ٥

(٤) نشر المستشرق فون كريمر جزءاً منه في كلكتا في سنة ١٨٥٥-١٨٥٦م، وأعيد نشره في مصر سنة ١٩٤٨

التأريخ والمغازي والمبعث ، وكتاب أخبـار مكة ، وكتاب حرب الأوس والخزرج وغيرها .

★★★

وتختتم مجموعة كتاب السيرة والمغازي في مدرسة الحجاز بكاتب مهم من كتاب مدرسة البصرة هو محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) تلميذ الواقدي وكاتبه ، ولذلك عرف بكاتب الواقدي . وكان ابن سعد مولى لبني عبدالله بن عبيد الله ابن العباس ، ولد في البصرة وعاش فيها الفترة الأولى من حياته ، ثم رحل إلى المدينة ثم إلى بغداد ، حيث اتصل بالواقدي . وقد حفظ لنا من كتبه كتاب « الطبقات الكبرى » ويتألف من ثمانية أجزاء ، أفرد الجزءان الأولان لسيرة النبي ﷺ ومغازيه ، وخصص الأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين ورتبها وفقاً للأمصار الإسلامية . وسيرة ابن سعد في الطبقات أوفى بكثير ممن تقدمه من كتاب السيرة ، إذ تتضمن كثيراً من الأخبار عن رسائل النبي وسفاراته .

٤ — كتب التاريخ والجغرافية :

انصرف مؤرخو العرب الذين دونوا التـاريخ الجاهلي إلى رواية أنساب القبائل ووصلها بعدنان وقحطان أو إسماعيل أو أبناء نوح ، وتقسيم العرب إلى طبقات . والكتابات التاريخية العربية نوعان :

الأول يتناول أخبار العرب في الجاهلية الأولى ، وهي مجموعة من القصص الشعبي والأساطير المتأثرة بالتوراة أخذت من مصادر مختلفة أو كانت من ابتكار الرواة ، من أمثال هذه الكتب التاريخية التي تدخل في هذا النوع من الكتابات التاريخية كتاب في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها لعبيد بن شرية الجرهمي ، ويتضمن هذا الكتاب كثيراً من الأشعار زعم مؤلف الكتاب أنها مما حفظ عن

البائدة ، كذلك يتضمن الكتاب أخباراً لعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ، كما جاء فيه أخبار وقصص عن بني إسرائيل

أما النوع الثاني فيتناول أخبار العرب في الجاهلية القريبة من الاسلام[1] ، أو المتصلة بحياة النبي ، كأيام العرب ، وهي الأخبار التي تروي ما كان يحدث من حروب ووقائع بين القبائل العربية المختلفة ، هذه الأخبار هي أقرب إلى الحقيقة التاريخية لأنها كانت ما تزال تعيها ذاكرة القوم ، ثم إنها بالإضافة إلى ذلك أخبار قريبة العهد بالاسلام .

ولم يتم تدوين أخبار الجاهلية كما سبق أن أشرنا إليه إلا في العصر الأموي عندما ثبتت دعائم الاسلام واستقرت أركان الدولة العربية ، وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة ، فشهد القرنان الأول والثاني للهجرة اهتماماً خاصاً بدراسة أخبار العرب في الجاهلية والاسلام وأخبار الأمم التي اتصلت بهم ، وتألف من مجموع هذه الأخبار مجموعة من الكتابات التي أشرنا إليها . ومن المؤرخين العرب الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الاسلام : عبيد بن شرية الجرهمي اليمني ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) ، ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ، وابنه أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩ هـ) ، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) . وإلى هؤلاء الأخباريين نضيف علماً من أعلام الجغرافيين العرب هو أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (ت ٣٣٤ هـ) الذي عني بوصف جزيرة العرب وذكرها ومواضعها وآثارها

١ - عبيد بن شرية الجرهمي اليمني :

اختلفوا في أصله فروى أنه كان من أهل صنعاء ، وقيل إنه من الرقة بالعراق ،

---

(١) أحمد أمين ، فجر الاسلام ص ٦٦

والأرجح أنه كان يمنياً وجرهمياً بالذات ، وكان قصاصاً أخبارياً ، برز في بلاط معاوية بن أبي سفيان[1] ، وذكروا أنــــه ألف لمعاوية ، كتاب الملوك وأخبار الماضين[2] الذي طبع في ذيل ، كتاب التيجـــان في ملوك حمير ، المطبوع في حيدر أباد دكن في الهند ١٣٤٧هـ بعنوان ، أخبار عبيـــد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، لأبي محمـــد بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ) . وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، كما يشتمل على كثير من الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة . كذلك يضم الكتاب بعض أخبار عن بني إسرائيـــل ، ويغلب على جميع هذه الأخبار الطابع القصصي المتأثر بالاسرائيليات[3]. وقد أفاد الهمداني في كتابه من أخبار عبيد بن شرية ، فنقل نتفاً منها .

٢ – وهب بن منبه :

كان يمنياً من أهل ذمار ، وأصله فارسي ، وقيل أنه كان يهوديـــاً وأسلم ، وينســبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية ، وقد ركز وهب ابن منبه اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية ، وهو في ذلك يعتمد على مصادر نصرانية ، إذ أن روايته عن نصارى نجران تطابق الروايات النصرانية[4].

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ طبعة محيي الدين عبـــد الحميد القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٥ . ويذكر المسعودي أيضاً أنه كان يسمع معاوية كل ليلة شيئاً من أخبار العرب وأيامها وأخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها . (راجع مروج الذهب ج٢ص ٤٠) .

(٢) راجع مقدمة الدكتور نبيه أمين فارس الجزء الثامن من كتاب الاكليل ، برنستن ، ١٩٤٠ بيروت ـ سيدة كاشف ، ص١٣ ـ فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٧٥ .

(٣) جواد علي ، العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٤٤

(٤) جواد علي ج ٢ ص ٥٥٥

ومن الكتب المنسوبة إليه « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » ، وقد وصلت إلينا أجزاء منه في كتاب التيجان لابن هشام .

ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي والخرافي ، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه « وعبيد بن شرية » يدلانا « ببرهان ساطع على أن العرب الأول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين ، حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما »[1] .

وينسب إلى وهب كذلك « كتاب المبتدأ » الذي يشير عنوانه إلى ابتداء الخليقة ، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه أحمد بن محمد الثعلبي في كتابه « عرائس المجالس في قصص الأنبياء » . كذلك ينسبون إليه كتاب المغازي الذي لم يبق منه سوى مجموعة أوراق مخطوطة محفوظة في مكتبة هيدلبرج بألمانيا[2] ، وقد اقتبس الطبري في تفسيره الكبير للقرآن كثيراً من أقوال وهب بن منبه[3] .

وكان وهب بن منبه يجيد عدداً من اللغات القديمة ، فقد كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، كما كان يستطيع قراءة الكتابات القديمة التي يتعذر على العلماء قراءتها ، وفي ذلك يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب نقلاً عن عثمان ابن مرة الخولاني : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم

---

(١) هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ١٤٢

(٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج٢ ص ٣٢٣ سيدة كاشف ، ص ٢٨

(٣) هاملتون جب ، المرجع السابق ص ١٤٤

يقدروا على قراءته ، فوجه به إلى وهب بن منبه فقال : هـذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، فقرأه »[1].

٣ – هشام بن محمد بن السائب الكلبي :

كان أبوه محمد بن السائب عالماً بالأنساب ، ثم خلفه في هذا العلم ابنه أبو المنذر هشام ، الذي يعتبر من أعظم الأخباريين في تاريخ العرب في الجاهلية ، إذ كان يعتمد على الأصول والمصادر التاريخيـــة ، الأمر الذي يجعل منهجه في الرواية أقرب إلى منهج المؤرخين[2]. وقد اهتم هشام بصفة خاصة بجمع الأخبار التاريخية عن الحيرة[3] وأمرائها من المصادر المدونة ، واعتمـــد في ذلك على مخطوطات كنائس الحيرة ، وعلى المواد الفارسية المترجمة ، وله كتب كثـــيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست يبلغ عددها نحو ١٤٠ كتاباً ، وقد وصل إلينا من كتبه كتاب « الجمهرة في الأنساب » مخطوطـــاً ، و « كتاب الأصنام » الذي نشر بمصر[4] وكتاب « نسب فحول الخيل في الجاهلية والاسلام »[5].

وقد اتهم هو وأبوه بالوضع[6] وتجنب جماعة من العلماء الرواية عنه ، ولكن

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٦٦ وما يليها .

(٢) جواد علي ، ج٦ ، ص ٧ ، – تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص الأستاذ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ص ٢٦ .

(٣) ذكر ابن النديم في الفهرست له كتابين بعنوان : «كتاب الحيرة » وكتاب «الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » (راجع روزنتال ؛ ص ٢٩٠) .

(٤) ابن الكلبي ، كتاب الأصنام ، نشره أحمد زكي باشا ، بولاق ١٣٣٢هـ ، وصورته الدار القومية ١٩٦٥ .

(٥) نشره وحققه أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

(٦) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج٢ ، ص١٩ ، مقدمة كتاب الأصنام ص ١٤

الأستاذ بروكلمان يدافع عنه[١] ، وكذلك يدافع عنه الأستاذ أحمد زكي محقق كتاب الأصنام[٢].

٤ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي :

هو فارسي الأصل ، يهودي الآباء ، ولكنه عربي تيمي أو تميمي بالولاء[٣] ، وهو لذلك السبب كان على جانب كبير من الثقافة والاطلاع إذ جمع بين الثقافات الفارسية واليهودية والعربية ، ويعتبر أبو عبيدة من طلائع مؤرخي العـــرب في الجاهلية ومن أكثرهم علماً بأخبار العرب وأنسابهم وقبائلهم وأيامهم . ولقد اهتم أبو عبيدة بصفة خاصة ببلاد العرب الشمالية ، فروى عن أخبار قبائلها وأيامها ، وامتدت مؤلفاته إلى العصر الاسلامي فشملت تاريخ العرب في عهد النبوة والفتوحات الاسلامية[٤] . وذكر في الفهرست أنه كان شعوبياً يطعن في الأنساب ويؤلف في مثالب العرب[٥] . ويعلل الأستاذ أحمد أمين نزعته الشعوبية بأصله الفارسي الذي حرره من الخضوع للعصبية العربيـــة[٦] ، ولكن الأستاذ جب يرفع عنه هذه التهمة[٧].

---

(١) جب ، المرجع السابق ص ١٤٧ ، — جواد علي ، ج ١ ص ٤٧

(٢) مقدمة كتاب الأصنام لابن الكلبي ، ص ١١ ، ٣٧

(٣) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، جـ ٢ ص ٣٠٤

(٤) من بين كتبه في الفتوحات فتوح أرمينية ، وكتاب السواد وفتحه ، وكتاب فتوح الأهواز ، وكتاب خراسان (راجع روزنتال ص ٤٨٢).

(٥) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٦٥ ، ضحى الاسلام ، جـ ٢ ص ٣٠٤ ، وله كتاب في ذلك بعنوان المثالب (راجع روزنتال ص ٢٩٩)

(٦) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ص ٣٠٤

(٧) هاملتون جب ، ص ١٤٦

٥ - أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك الهمداني :

هو مؤرخ يمني ، عرف بسعة الاطلاع ، ودقة التعريف بمواضع جزيرة العرب بوجه عام واليمن بوجه خاص ، ووصفها ، وذكر قبائلها وتاريخها . ولد في صنعاء في تاريخ غير معروف ، ونشأ بصنعاء، ثم رحل إلى بلاد العرب وارتادها دارساً معالمها وآثارها ، وأقام بمكة حيناً من الوقت اتصل خلاله بعلمائها ومؤرخيها ، ثم عاد إلى اليمن وأقام بصعدة ، إلى أن اتهم بهجاء النبي ، فزج به في السجن ، ومات في عام ٣٣٤هـ وهو سجين[١] . ويعتبر كتابه صفة جزيرة العرب من أهم مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام خاصة في القسم الجنوبي من بلاد العرب ، لدقته البالغة في وصف الآثار ، واعتماده على المشاهدة[٢]. وقد ساعدت معرفته بخط المسند الحميري على قراءة الكتابات الأثرية والنقوش التي شاهدها في المواضع التي ارتادها[٣].

أما كتابه الإكليل فهو أهم ما ألفه في ماضي اليمن قبل أن يصنف كتابه « صفة جزيرة العرب » ، ويتكون الإكليل من عشرة أجزاء لم يصل إلينا منها

---

(١) السيوطي ، بغية الوعاة ، القاهرة ، ١٣٢٦هـ ص ٢١٧

(٢) الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب ، نشره محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٣) وردت في كتابه الاكليل عبارات نفهم منها أنه كان عارفاً بالخط المسند من ذلك قوله : « وفي مسند من مساندها » : آمرها علهان ونهفان ابنا تبع بن همدان ، الكبير وصكنه وقشان وبنوه بنو همدان ، لهم الملك قديماً كان » (الاكليل ج ٨ ، نشره نبيه أمين فارس ، ص ٤٢) ومنها قوله في قصر شحرار : « وفي بعض مساندها هذان البيتان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف أسسه تبع يتوف
يسكنه القيل ذي معاهر نحر قدامه الأتوف

(راجع الاكليل ج ٨ ، ص ٤٣)

سوى الجزآن الأولان ، والجزآن الثامن والعاشر . وتتناول هذه الأجـــزاء الموضوعات الآتية :

١ - مختصر من المبتدأ وأصول الأنساب .

٢ - في نسب ولد الهميسع بن حمير .

٣ - في فضائل قحطان .

٤ - في السيرة القديمة إلى عهد أسعد تبع أبيكرب .

٥ - في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى ذي نواس .

٦ - في السيرة الأخيرة إلى ظهور الاسلام .

٧ - في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة .

٨ - في ذكر قصور حمير ومحافدها ومدنها ودفائنها وما حفـــظ من شعر علقمة بن ذي جدن .

٩ - في أمثال حمير وحكمها واللسان الحميري وحروف المسند .

١٠ - في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها[1] .

والقسم الأعظم من كتاب الإكليل يتضمن وصفاً لآثار اليمـــن المعمارية من قصور وسدود وقلاع ومدن وهياكل ، وصفها الهمداني وصفاً دقيقاً اعتمد فيه

---

(١) راجع مقدمة الجزء العاشر من الاكليل ، نشره محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨ هـ ص ج - ي .

على المعاينة والفحص الدقيق ، ويعتبر الهمداني لذلك أول رحالة عــربي ارتاد اليمن ووصف آثارها وقرأ نقوشها قبل أن يقوم الرواد الأوروبيون في العصر الحديث بهذا العمل بقرون طويلة .

٥ – الشعر الجاهلي :

يعتبر الشعر العربي في الجاهلية من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم في ذلك العصر ، إذ يصور لنا كثيراً من أحوال العرب الاجتماعية والدينية كما يصور لنا طباعهم وأخلاقهم . والشعر الجاهلي « ديوان العرب »[١] ، لأنه سجل لأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، « ومنه تعلمت العربية »[٢] ، وفيــه ذكر لأيام العرب ووقائعهم ، وهو لذلك يتضمن كثيراً من عادات العرب وطبائعهم في الجاهليـــة ، وهو لذلك السبب أيضاً مرآة تنعكس عليها صورة حياتهم في الحرب وفي السلم[٣] .

وعلى الرغم من أن الشعر الجاهلي تعرض للضياع بتركه يتناقــل على ألسنة الرواة شفاها نحو قرنين من الزمان إلى أن دون في تاريخ متأخر ، وعلى الرغم من أن ما وصلنا منه على قلته مشكوك في أصالته متحول عليه[٤] ، لعوامل

---

(١) القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، بولاق ١٣٠٨ ، ص ٣ . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٥٧ .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، شرح الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٣) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٥٧ . أحمد محمد الحوفي ، الحيـــاة العربية من الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٤٩ .

(٤) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٢٧ ص ٦٥ .

دينية وسياسية وجنسية [١]، فان ما وصلنا في الشعر العربي الجاهلي ، منحولاً أو أصيلاً ، يعتبر مصدراً أساسياً لتصوير حياة العرب في الجاهلية ، ذلك أن القائمين بتزييفه ونحله كانوا يحرصون على أن يقلدوا خصائص الشعر الجاهلي المعنوية واللفظية في مهارة وحذق لدرجة أن الناقد كان يصعب عليه أن يفرق بين قول المزيف وقول الجاهلي [٢]. وعلى هذا النحو فالشعر المنحول يــدل من حيث تصويره للحياة في العصر الجاهلي ، على ما يدل عليه الشعر الثابت »[٣].

ومن أشهر شعراء الجاهلية : امرىء القيس ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وأوس بن حجر ، وطرفـــة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزه ، والنابغة الذبياني ، وعنترة بن شداد ، وأعشى قيس ، وصعلوك الغنوي ، وغيرهم .

ثالثاً – المصادر غير العربية

أ – التوراة والتلمود :

التوراة ، كتاب اليهود المقدس ، أقدم المصادر غير العربية لتاريخ العرب قبل الاسلام ، فقد ورد ذكر العرب في مواضع متعددة من أسفار التوراة لتفسير الصلات بين العبرانيين والعرب كسفر حزقيال ، وسفر المزامير ، وسفر عاموس ، وسفر دانيال. كذلك ورد ذكر العرب في التلمود الذي يكمل أحكام التوراة [٤]

---

(١) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٥٠ - ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٧٤

(٢) نفس المرجع ص ٨١

(٣) عمر فروخ ، ص ١٥

(٤) التلمود كلمة عبرانية تعني « تعليم » وهو التوراة الشفوية التي تولى أحبار اليهود =

وهو لذلك من مصادر تاريخ العرب القديم .

ب – الكتب العبرانية :

إلى جانب التوراة والتلمود هناك مصادر عبرانية هامة لمؤرخين يهود أمثال المؤرخ يوسيفوس فلافوس Josephus Flavus (٣٧ – ١٠٠م) الذي ألف كتاباً في تاريخ حروب اليهود منذ استيلاء أنطيوخوس إبيفانيوس على القدس سنة ١٧٠ ق.م إلى استيلاء الامبراطور طيطس عليها سنة ٧٠ م وهذا الكتاب يتضمن أخباراً هامة عن العرب ، وخاصة عن الأنباط الذين كانوا يقطنون منطقة جنوبي فلسطين فيما بين البحر الأحمر وغربي الفرات .

ج – كتب التاريخ اليونانية واللاتينية والسريانية :

تشتمل هذه الكتب على ما فيها من أغلاط تاريخية على معلومات تاريخية وجغرافية هامة عن العرب قبل الاسلام،ذلك أن مصنفي هذه الكتب اعتمدوا في تصنيفها على أخبار زودهم بها المحاربون اليونان والرومان، والرحالة والتجار الذين كانوا يوغلون في بلاد العرب ويختلطون بهم ، وخاصة في بلاد الأنباط.ومن أقدم هؤلاء المصنفين : أخيلس أو ايسكيلوس اليوناني (٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م) ، وهيرودوت (٤٨٠ – ٤٢٥ ق.م) الذي ذكر العرب عندما تعرض لتاريخ الحرب التي قامت بين فارس ومصر في عصر قمبيز . ومنهم أيضاً تيوفراست (٣٧١ – ٢٨٧ ق.م) ، وايراتوستينس (٢٧٦ – ١٩٤ ق.م) ، وديودور

= تسجيلها كتابة فيما بعد ، وقوامه مجموعة من القواعد والأحكام والوصايا والشرائع والشروح والتعاليم والروايات التي توارث شفاهياً ثم دونت . والتلمود تلمودان أورشليمي وبابلي ، والبابلي يتداوله اليهود (راجع : نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ – ٢٧٢) .

الصقلي (ت ٤٠ ق.م) .

ومن الجغرافيين اليونان الذين وصفوا مدن العرب ووصفوا أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة ، وذكروا ما شاهدوه في حملة إيليوس جالوس على اليمن في سنة ٢٤ ق.م الجغرافي الكبير استرابون (٦٤ ق.م-١٩م) الذي ساهم في الحملة الرومانية ، وعاين بنفسه أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية ووصفها [١] . ومنهم أيضاً بطليموس كلوديوس المعروف بالقلوذي (ت ١٤٠ م) ، الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي ، وقد ألف كتاباً عاماً في الجغرافية عرف بجغرافية بطليموس جمع فيه ما شاهده وما سمعه وما عرفه العلماء اليونان عن أقطار الأرض ، ويتضمن الكتاب وصفاً لبلاد العرب ودراسة لأحوالهم التجارية والاجتماعية [٢] . ومنهم أيضاً بلنيوس سيجوندوس (ت ٧٩) ، الذي وصف بلاد العرب ، وعدد خيراتها .

د - المصادر المسيحية :

وتشتمل المصادر التاريخية المسيحية على كثير من أخبار العرب وعلاقتهم باليونان والفرس ، وتمتاز هذه المصادر بدقتها من الناحية التاريخية ، وأشهر من ساهم في هذا المجال يوزيبيوس (٢٦٥ - ٣٤٠ م) ، وروفينوس تيرانيوس (ت ٤١٠ م) ، ومنهم أيضاً شمعون الأرشامي مؤلف رسائل الشهداء الحميريين ، وهي رسائل تصور ما تعرض له نصارى نجران من تعذيب على يد ذي نواس ملك حمير . ومنهم أيضاً بروكوبيوس (ت بعد ٥٦٥ م) مؤرخ القائد البيزنطي

---

(١) The Geography of Strabo, trans. H. L. Jones, London, 1949

(٢) جواد علي ، العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٨ - ٢٩ ، جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٦

المشهور بليزاريوس ، وصاحب كتاب تاريخ الحروب [1] الذى أشار فيه إلى الحروب بين الغساسنة والمناذرة ، وحملة الأحباش على اليمن .

وهناك عدد كبير آخر من مؤرخي العصر البيزنطي الذين كتبوا عن العرب أورد الدكتور جواد علي أسماء بعضهم [2].

---

(١) ترجم إلى الانجليزية في سنة ١٩٥٤ ، بعنوان : History of the wars. trans Dewing. 7 vols. , London, 1594 .

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٣٠ - ٣٢

- ٢ -

العرب وطبقاتهم

أ ـ العرب :

وردت لفظة « عرب » بكثرة في الوثائق الآشورية والبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد في صيغ متعددة منها Aribi ، و Urbi ، و Arbi بمعنى البادية الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين وهي بادية العراق (١) . ثم ظهرت لفظة Arbaya (عربانية) فيما يقرب من سنة ٥٣٠ ق.م لأول مرة في النصوص الفارسية المكتوبة بالأكاميلية بمعنى البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء (٢) . كذلك وردت اللفظة في الأسفار القديمة من التوراة بمعنى البدو ، في حين كان السكان الحضر يسمون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع التي ينزلون

---

(١) A. Grohman, Encyclopaedia of Islam, New edition, art. al-Arab, 525

برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، تعريب الأستاذين نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ص ٩

(٢) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ص ١٧١

فيها . ثم أخـــذ اليونان يذكرون لفظة عرب في أواخر القرن الخامس ق.م ، فذكرها اسكيلوس سنة ٤٥٦ ق.م عند الإشارة إلى قائد عربي كان معروفاً في جيش أحشويرش ، ثم ذكرها هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وقصد بها سكان شبه جزيرة العرب كلها بما في ذلك صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر [١] ، وأصبح هذا اللفظ مألوفاً بعد ذلك عند جميع كتاب اليونان ، ولم يرد هذا اللفظ في المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً فقد جــاء في النقوش السبئية المتأخرة التي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبــل الميلاد ، ولكنها وردت في هذه النقوش بمعنى الأعراب ، في حين كان أهل المدن يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم . كذلك ورد اللفظ في نقش شاهد النمارة المكتوب بالآرامية النبطية في ٣٣٠ ق.م بمعنى الأعراب الذين يسكنون البادية .

ولا نعرف على وجه الدقة متى استعمل لفظ «عرب» للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس العربي . والقرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيــه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن هذا المعنى ، مما يدل على وجود كيان قومي خاص يشير إليه هذا اللفظ قبل نزول القرآن الكريم بوقت لا يمكننا تحديده ، فليس من المنطقي أن يخاطب القرآن الكريم قوماً بهذا المعنى إلا إذا كان لهم سابق علم به .

ويشك مولر في صحة ورود كلمــة « عرب » علماً لقومية العرب في الشعر الجاهلي وفي الأخبار المدونة . والواقع أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا يخلو من وجود صيغة « عرب » للتعبير عن هذا المعنى القومي للجنس العربي ، وذلك لاستغراق عرب الجاهلية في المنازعات الداخلية والحروب . فلما وقف العرب قبل نهاية العصر الجاهلي أمام الفرس بدأوا يستشعرون شيئاً من الكراهية للفرس ، ويعبر عنترة عن تلك الكراهية بقوله :

---

(١) برنارد لويس ، ص ١٧

شربت بماء الدحرضين فأصبحت   زوراء تنفر عن حياض الديلم[1]

وواضح أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربي وردت فيه صيغتا أعراب وعرب ، فقد وردت فيه لفظة « أعراب » عشر مرات ، كما وردت لفظة عربي ١١ مرة ، منها عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة[2]، ثم استخدمت مرة واحدة لتنعت شخص الرسول في قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد »[3].

أما في الشعر فقد هدى استعمال لفظة « العرب » في القرآن الكريم السبيل

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة « دلم » مجلد ١٢ ص ٢٠٤ . والدحرضين ماءان هما دحرض ووسيع ، ويقصد عنترة بالديلم الأعداء .

(٢) يقول تعالى : « انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (سورة الزخرف ٤٣ ، آية ٣) .

ويقول تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » (سورة الشورى ٤٢ ، آية ٦) .

ويقول تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » (سورة فصلت ٤١ ، آية ٣) .

ويقول تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (سورة الأحقاف ٤٦ ، آية ١٢) .

وقال تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (سورة يوسف ١٢ آية ٢) .

(٣) سورة فصلت ٤١ آية ٤٤

أمام الشعراء منذ الهجرة للتعبير الذي لم يتوصل إليه عنترة ، فكعب بن مالك يقول مذكراً الرسول :

بدا لنا فاتبعناه نصدقــه وكذبوه فكنا أسعد العرب

وانتقد حسان بن ثابت بني هذيل عندما اشترطوا على النبي أن يحل لهم الزنا لكي يدخلوا في الإسلام فيقول :

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما قالت ولم تصب
سألوا رسولهم ما ليس معطيهم حتى الممات وكانوا سبة العرب

وقال قيس بن عاصم يهجو عمرو بن الأهتم :

ظللت مفترشاً هلبــاك تشتمني عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
ان تبغضونا فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب[1]

ولا شك أن للاسلام الفضل في بعث روح القومية عند العرب ، فقد أخذ العرب منذ ظهور الإسلام وقيــام الدولة العربية الإسلامية يتباهون بجنسهم العربي ، ويتمثل ذلك في بيت ليربوع بن مالك في زمن الفتوحات :

إذا العرب العرباء جاشت بحورها فخرنا على كل البحور الزواخر

★★★

وقد عرف العرب أيضاً عند الكتــاب اليونان وحتى الأوروبيين في العصر

---

(١) ديوان سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ ، ص ١٢٧

الحاضر باسم Saracens ، ويفسر المسعودي أصل هذه التسمية بقوله: « وأنكر (نقفور ملك الروم) على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس تفسير ذلك عبيد سارة ، ضغنا منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وأنها كانت أمة لسارة ، وقال تسميتهم عبيد سارة كذب. والروم إلى هذا الوقت تسمي العرب ساراقينوس »[1].

ولكن تفسير المسعودي يعتمد على المعنى العربي لكلمة سارة قينة « أو جارية سارة » ، وهو لذلك السبب تفسير غير صحيح . وتفسير هذه التسمية يوضحه بطليموس في جغرافيته إذ يطلق اسم السركوا Sarakenoi على منطقة تقع إلى جنوب إقليم الثادبتاي Theditai أو الإقليم الذي تنزل فيه قبيلة طيىء بين منطقة الشراة وصحراء النفوذ. وعلى هذا الأساس يصبح إقليم السركنوا واقعاً في النصف الشمالي الغربي من الإقليم الذي يعرف في الوقت الحاضر باسم شمر. ويحدد بطليموس منطقة الثمودبتاي Thamyditai التي كان يسكنها شعب ثمود ، ومركزهم منطقة حسمى ، غربي السركنوا ، وعلى هذا النحو يصبح مدلول السركنوا الإقليم الذي يقع إلى الشرق من ثمود ، وكان يطلق على جميع البدو من العرب الذين يسكنون شرقي مملكة الأنباط في البادية العربية [2].

ب – طبقات العرب :

يكاد الرواة والأخباريون يتفقون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاث طبقات [3]:

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ ص ٦٨ .

(٢) موسل ، شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ١٩٥٢ ص ١٢٦ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٢٤ – جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ص ٤٤ جواد علي ، ج ١ ص ٢٢٠ =

١ – العرب البائدة .

٢ – العرب العاربة .

٣ – العرب المستعربة أو المتعربة .

والطبقة الثانية والثالثة يطلق عليها اسم العرب الباقية [١] . ويعنون بالعرب البائدة الشعوب العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب ، ثم بادت ودرست أخبارهم بعاملين: الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة وفي الأحقاف ، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير المدن[٢] . أما العرب العاربة فهم الراسخون في العروبة والمبتدعون لها بما كانوا أول أجيالها[٣] ، وينتسبون إلى قحطان أو يقطان أو يقطن الذي ورد اسمه

= وهناك من يقسم العرب إلى ثلاث طبقات هي ، عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة ، ويقصدون بالعاربة العرب البائدة ، وبالمتعربة القحطانية ، وبالمستعربة العدنانية (عمر فروخ ، ص ٤٥) . وهناك من يقسم العرب إلى طبقتين فقط : قحطانية باليمن ، وعدنانية بالحجاز (طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٩) .

ويقسمهم ابن خلدون إلى أربعة طبقات متعاقبة تاريخياً : العرب العاربة وهم البائدة ، ثم العرب المستعربة وهم القحطانية ، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة ، ثم العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الاسلامية .(كتاب العبر ، مجلد ١ ، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٨ وما يليها) .

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٨٥

(٢) عمر فروخ ، ص ٤٥

(٣) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٤ ـ الألوسي ، ج ١ ص ٩ . وذكر البلاذري أن العرب العاربة هم عاد وعبيل وجرهم وطسم وجاسم وعمليق وثمود وجديس (أنساب الأشراف ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٥٠٣) .

في التوراة [١] ، وهو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [٢] ، وكان موطنهم اليمن . وأما العرب المستعربة أو المتعربة فينتسبون إلى عدنان ابن أدد من ولد نابت بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن قيدر بن اسماعيل بن ابراهيم، فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم أو المعديون من ولد معد بن عدنان [٣] ، وقد سموا بالعرب المستعربة لأن اسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية ، فلما صاهر اليمنية تعلم العربية . ولا شك أن مصدر هذا الانقسام بين العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ما ورد في التوراة في سفر التكوين ، ومنه أخذ كتاب البدء ، أي الذين عنوا في أخبارهم ببدء الخلق أمثال وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وعبدالله بن سلام ، وهم من أهل الكتاب [٤].

ولكن القرآن الكريم لم يفرق بين عرب قحطانية وعرب عدنانية ، وكل ما جاء فيه في هذا الشأن يشير إلى أن العرب يرتفعون إلى جد واحد هو اسماعيل ابن ابراهيم ، وأن ابراهيم عليه السلام هو أبو العرب [٥] . كذلك لم يرد في الشعر

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح العاشر . وهو يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ابن نوح .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٤ — المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧١ — النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢ ص ٢٩٢

(٣) أنساب الأشراف ، ج ١ ص ١٢ وما يليها — المطهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ، باريس ١٩٠٣ ، ص ١٠٥

(٤) أحمد أمين ، فجر الاسلام ص ٥ ، جواد علي ، ج ٦ ص ٢٢٦

(٥) يقول سبحانه وتعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » (سورة الحج ٢٢ آية ٧٨) .

الجاهلي ذكر لتقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية ، وكل ما ورد فيه لا يعدو أبياتاً قيلت في التفاخر بقحطان أو بعدنان[1] ، وحتى هذا الشعر الجاهلي لا يمثل عصر الجاهلية الأولى ، لأن معظمه قيل قبيل الاسلام[2] . يضاف إلى ذلك أن علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) لم يلاحظوا وجود فوارق جثمانية بين العدنانيين والقحطانيين .

وإلى جانب ما ذكرناه لم يظهر أي انقسام بين العرب في حياة النبي ، كما لم يظهر هذا الانقسام لا في خلافة أبي بكر ولا في عهد عمر بن الخطاب وبالإضافة إلى ذلك لم يرد في الروايات الخاصة بتنظيم عمر بن الخطاب لديوان العطاء ما يشير إلى انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية ، كذلك لا نشهد مثل هذا التقسيم في توزيع الجيوش العربيـــة في زمن الفتوحات ، وحتى في أيام الصراع الحربي بين علي بن أبي طالب وخصومه[3] .

يستند دعاة الانقسام إلى عدنانية وقحطانيـــة على حقيقة هامة هي تأصل العداء بين الجماعتين[4] في الجاهلية والإسلام . ويرد الأستاذ جواد علي على هؤلاء بأنه إذا كان النزاع بين القبائل المعدية أو العدنانية والقبائل القحطانية مستحكماً في الجاهلية فقد كان هناك عداء بين القحطانيــين بعضهم بعضا وبين العدنانيين بعضهم بعضاً . ثم يضيف قائلا : « وكيف يجوز لنا أن نتصور انقسام العرب إلى قسمين : قحطانيين وعدنانيين ، انقساماً حقيقياً وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد تكون مزيجة من قحطان وعدنان؟

---

(١) في التفاخر بابراهيم يقول جرير بن عطية التميمي :

أبونا خليل الله لا تنكرونه   فاكرم بابراهيم جداً ومفخراً

(المسعودي ، كتاب التنبيه والأشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٠٩)

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٢٢٢

(٣) نفس المرجع ج١ ص ٢٣٢

R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne. t. I. Leyde, (٤)
1932 p. 17. 70

فاذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل ، فكيف تحالفت « جديلة » وهي من طيء مع بني شيبان وهي من عدنان لمحاربة بني عبس ؟ وكيف يفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية لمحاربة قبائل يمنية ، أو لعقد محالفات دفاعيـــة هجومية معها ؟»[1].

ويخرج الدكتور جواد علي من كل ذلك النقاش بنتيجة هامة ، هي أن تقسيم العرب إلى عدنانيين ويمنيين عرف في العصر الأموي ، إبان النزاع الحزبي ، وبعد شيوع نظرية التوراة في الأنساب ، ورجوع النسابين إلى أهل الكتاب للأخذ منهم ، إذ أن الانقسام المذكور لم يظهر في العصر الاسلامي السابق لظهوره في عهد مروان بن الحكم[2].

وإذا كان هناك من يرجع جذور هذا التقسيم إلى عدنانية وقحطانية إلى أيام النزاع الذي كان قائماً في الجاهلية بين يثرب ويمثلها الأوس والخزرج اليمنيين ، وبين مكة ، وتمثلها قريش العدنانية ، وفي الاسلام بين الأنصار وهم اليمنيون والمهاجرين وهم العدنانيون ، فان هذا النزاع لم يكن سوى عداء طبيعياً بين البداوة والحضارة[3] ، فلقد كان العرب من الناحية الاجتماعية ينقسمون إلى أهل وبر وأهل مدر ، وأهل الوبر هم البدو وأهل المدر هم الحضر الذي يقيمون مبانيهم من المدر أو الطين. واتخذ هذا التقسيم الاجتماعي تعبيرات وصوراً مختلفة فيقال للحضر أهل القارية ويقال لهم أيضاً أهل الحجر أي الذين يقيمون في بيوت من الحجر ، أما البدو فيقال لهم أهل البادية ويقال لهم أيضاً أهل الحدر[4].

ومثل هذا العداء كان قائمـــاً في بلاد المغرب منذ قديم الزمان بين البربر المتحضرين وهم البرانس والبربر المتبدين وهم البتر ، ويرجع بعض الباحثين هذا النزاع المتأصل بين طائفتي البرانس والبتر إلى أن هاتين الطائفتين تمثلان موجتين

---

(١) جواد علي ، ج١ ص ٢٦٤

(٢) نفس المرجع ، ج١ ص ٣٣٢

(٣) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٦ – جواد علي ، ج١ ص ٣٣٣

(٤) عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٩

بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين والأخرى تمثل الوافــدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم[١] ، ولكننا نرجع سبب هذا العداء بينهما إلى اختلاف أحوالها الاجتماعية واغارة الرحل من زناتة البترية على مزارع صنهاجة البرانسـة ، وقـــد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح . وتجلى هذا العـداء في العصر الاسلامي بصورة واضحة عندما حالفت قبيلة زناتة الممثلة للبتر العرب الفاتحـين منذ السنين الأولى للفتح بينما تولى البرانس عبء المقاومة ، وأيدهم الروم في ذلك ، وعندما حالفت كتامـــة البرانسـة الفاطميين ، بينما حالفت زناتة الأمويين في الأندلس . وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجاً من تشابههم معهم في البداوة في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ومستقرين في المدن[٢] .

ومن العرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وجاسم، وسنتحدث عن بعض هذه الشعوب العربية البائدة .

عـاد :

هم قوم هود عليه السلام[٣] ، ويعتبرهم الأخباريون أقدم العرب البائدة[٤] ، ويضربون المثل بعاد في القدم ، فاذا شاهدوا آثاراً قديمة لا يعرفون تاريخهـــا أطلقوا عليها صفة « عادية »[٥] . وقد ورد ذكر عاد في أشعار العرب في الجاهلية

---

(١) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣١

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، الاسكندريـة ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ — ١٤٠

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ج ١ ص ٢١ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ١ ص ٣٦

(٤) يقول المسعودي : « عاد الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلها » (مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠)

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠ — جواد علي ، ج ١ ص ٢٢٦

وفي أشعار المخضرمين من العرب ، كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودا فما أبقى »[1] وفي قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد »[2]. ونستدل من قوله تعالى : « وأنه أهلك عادا الأولى » أن هناك عاداً ثانية[3]. وقد أخبر الله عن ملكهم ، ونطق بشدة بطشهم ، واهتمامهم بالبنيان الضخم ، في قوله تعالى : « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين »[4].

ولقد وردت في القرآن الكريم أخبار عن عاد ونبيهم هود ، وكيف عصوه واستكبروا في الأرض ، فعاقبهم الله تعالى أشد العقاب ، إذ أرسل عليهم ريحاً صرصراً[5] ، وصواعق ، دمرت مساكنهم ، وقضت عليهم ، وأصبحوا

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ آية ٥٠ ، ٥٧

(٢) القرآن الكريم ، سورة الفجر ٨٩ آية ٦ ، ٧

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٤٠

(٤) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، ٢٦ آية ١٢٣ - ١٣٠

(٥) يقول تعالى : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى ، في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » سورة فصلت ٤١ : آية ١٦

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم؛ كذلك نجزي القوم المجرمين » سورة الأحقاف ٤٦ آية ٢٤ ، ص ٢٥

وقال تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر » (سورة القمر ٥٤ آية ١٨ - ٢٠) . وفي عقاب عاد أيضاً يقول تعالى « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » سورة الذاريات ٥١ آية ٤١ ، ٤٢)

عبرة لمن اعتبر . وفي ذكر عاد يذكر المؤرخون العرب أنه كان رجلاً جباراً عاتياً عظيم الخلقة ، وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح[1] ، وينسبون إلى ابنه شداد بن عاد مدينة ارمُ ، واختلفوا في هذه المدينة ، فذهب بعضهم إلى أن المقصود بها دمشق[2] ، وذهب آخرون إلى أنها الاسكندرية[3]بينما ذهب الزمخشري إلى أن شداد هو الذي بنى مدينة إرم في صحراء عدن[4] أو الاسكندرية . وأغلب الظن أن السبب الذي دعا إلى الزعم بأن دمشق أو الاسكندرية هي إرم ذات العماد كثرة وجود المباني الضخمة والمنشآت المظيمة في هاتين المدينتين . وكانت دمشق من جهة ثانية من أهم مراكز الآراميين، ولهذا السبب أكد بعض الباحثين ان إرم تعني آرام ، وأن عادا من الآراميين ، وان « عاد ارم » إنما تعني « عاد آرام » ، فالتبس الأمر على المؤرخين ، وظنوا أن ذات العماد صفة ، فزعموا أنها المدينة التي أسسها عاد. ولكن هذا القول لا يستند

(١) المسعودي ، ج٢ ص ٠١ - ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٢٥

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥٨ - الاكليل ، ج٨ ص ٣٣ . يقول الهمداني: « ان ارم ذات العماد دمشق لكثرة ما فيها من عمد الحجارة » (راجع أيضاً المسعودي ج٢ ص١٣٢). وينسب المسعودي بناء دمشق إلى جيرون بن سعد بن عاد - الذي حل بها فمصرها وجمع لها عمد الرخام والمرمر وسماها ارم ذات العماد .. واليه ينسب سوقها المعروف بجيرون . (راجع أيضاً القلقشندي ، صبح الأعشى ج٤ - ص ٩٢)

(٣) ذكر ابن عبد الحكم أن شداد بن عاد هو الذي بنى الاسكندرية (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٦٠) . وذكر ابن عبد الحكم والسيوطي رواية عن ابن لهيعة جاء فيها أنه وجد بالاسكندرية حجر مكتوب عليه النص التالي : « أنا شداد بن عاد وأنا الذي نصب العماد وحيد الأحياد ، وسد بذراعه الوادي ، بنيتهن إذ لا شيب ولا موت ، وإذ الحجارة في اللين مثل الطين » (ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ١٥٤ السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج١ ص ٣٧، مصر، ١٣٢٧ - المقريزي ، الخطط ، ج ١ طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، ص ١٤٩)

(٤) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٢٥

على أساس علمي يدعمه[1]. ويرد ابن خلدون على هذه المزاعم بقوله : « والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها ارم وانما هذا من خرافات القصاص ، وانما ينقله ضعفاء المفسرين ، وارم المذكورة في قوله تعالى (إرم ذات العماد) القبيلة لا البلد »[2] .

أما السبب الذي حمل الأخباريين على الزعم بأن الاسكندرية هي إرم ذات العماد فمرجعه أثر قصص الاسكندر في الأساطير العربية الجنوبية ، ذلك الأثر الذي نجده في كتب القصاص اليمنيين أمثال وهب بن منبه ، وقد حاول الاسكندر غزو اليمن ، فأصبح شداد بن عاد بانيا للاسكندرية ، وأصبح الاسكندر مكتشفاً لها[3] .

ويذهب المؤرخون العرب إلى القول بأن مساكن عاد كانت تقوم في الأحقاف من اليمن ، بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر[4] ، وذلك استناداً إلى قوله

---

(١) جواد علي ، ج١ ص ٢٣٣

(٢) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٠

وفي المقدمة يقول : « وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض ، وصحاري عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن . وما زال عمرانه متعاقباً ، والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ، ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم . ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة ارم ، وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن تكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم ، على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات . . . » (المقدمة ، ج ١ ص ٢٢٨)

(٣) جواد علي ج١ ص ٢٣٣

(٤) المسعودي ، ج٢ ص ٤٠ أبو الفداء ، ج١ ص ١٢٢ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، مجلد ٢ ص ٣٠

تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »[1] . ولكن القرآن الكريم لم يحدد موقعَ الأحقاف بالنسبة إلى شبه جزيرة العرب وانما حدده المفسرون ، ولما كانت لفظة الأحقاف تعني الرمال، فقد اندفع معظم الأخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحراء ، وأخذوا ينسجون حولها القصص والأساطير . ولكن بطليموس يذكر أن شعب Oaditae أو عاد كان يسكن في المناطق الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب ، وفي منطقة حسمي بالذات ، على مقربة من منازل ثمود Thamydeni . ومما يؤكد صحة ماذكره بطليموس أن عاد اقترن ذكرها في القرآن الكريم بثمود ، « الذين جابوا الصخر بالواد »[2] ، والمقصود بالواد وادي القرى ، أحد الأودية التي تتخلل سلسلة جبال حسمي ، ومن بينها جبل إرم[3] الذي يعرف اليوم باسم جبل رم[4] ، كما أن منطقة حسمي الجبلية تعتبر أقرب إلى مواضع ثمود « الذين جابوا الصخر بالواد » من مناطق الأحقاف الرملية التي حدد المفسرون موقعها بين اليمن وعمان . ونضيف إلى هذه القرائن ما رواه البكري في معجمه، إذ يذكر أن الأحقاف التي كانت منازل عاد جبل بالشام أو هي خشاف من حسمي[5] ، والخشاف الحجارة في الموضع السهل . واسم الأحقاف « حقاف » نجده اليوم في المنطقة الجنوبية الغربية من مدين[6] .

(١) القرآن الكريم ، سورة الأحقاف ٤٦ : آية ٢١

(٢) القرآن الكريم ، سورة الفجر ٨٩ آية ٩

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، طبعة بيروت ١٩٥٥ ص ١٤٤

(٤) جواد علي ، ج١ ص ١٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ - موسل ، شمال الحجاز ، ص ١٣٠ ، وهو جبل يقع على بعد ٢٥ ميلا شرقي العقبة ، قريباً من عين ماء . وقد عثر في هذا الموضع على آثار من العصر الجاهلي (جواد علي ، ج١ ص ٣٣٥)

(٥) البكري ، معجم ما استعجم.

(٦) موسل ، شمال الحجاز ، ص ١٢٧

ثمـــود :

هم قوم النبي صالح الذي دعاهم إلى عبادة الله فخالفوه . وقد ورد اســـم ثمود مع اسم عاد أو مع اسم نوح في عـــدة سور من القرآن الكريم لأن المراد بذكرهم ترهيب المشركين وانذارهم بما أصاب هذه الشعوب من قصـــاص الله لتكذيبهم الأنبياء والرسل[1] .

ونستدل مما ورد في القرآن الكريم أن ثمود هلكوا على أثر تفجر بركان صحبته رجفة عنيفة أو زلزال، قال تعالى: « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين »[2] ، وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود »[3]. وقال تعالى : « وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون »[4] ، وقال تعالى : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر »[5].

كذلك ورد ذكر ثمود في أشعار الجاهليين على سبيل التمثيل بمصيرهم التعس مما يدل على معرفة عرب الجاهلية بأخبارهم . ولم يحدد القرآن الكريم موضع منازل ثمود، ولكنه أشار إلى أنهم نحتوا بيوتهم في الصخر بالوادي : « وثمود الذين

---

(١) القرآن الكريم : سورة الأعراف ٧ آية ٧٣ - ٧٨ ، وسورة هود ١١ ، آية ٦٧-٦٨ ، وسورة الشعراء ٢٦ آية ١٤١ - ١٥٨ ، وسورة النمل ٧ آية ٤٥ - ٥٢ ، وسورة فصلت ٤١ آية ١٣ - ١٨ ، وسورة الذاريات ٥١ آية ٤٣ - ٣١ ، وسورة القمر ٥٤ آية ٣١

(٢) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧ آية ٧٨

(٣) القرآن الكريم ، سورة هود ١١ ، آية ٦٧-٦٨

(٤) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١ آية ١٧

(٥) القرآن الكريم ، سورة القمر ٥٤ آية ٣١

جابوا الصخر بالواد » ، وقد فسرت الآية بأن قوم ثمود نقروا بيوتهم في صخور الجبال في وادي القرى . ويذكر المسعودي أن منازلهم كانت تقع بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي ، وأن ديارهم بفج الناقة ، وبيوتهم كانت ما تزال في عصره أبنية منحوتة في الجبال، ورسومهم باقية، وآثارهم بادية في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى [١] . ويؤكد ابن خلدون أن ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام ، وقد مر النبي ﷺ على خرائب ديارهم في غزوة تبوك ونهى عن دخولها [٢] . كذلك ورد اسم ثمود في كتب اليونان ، وحددها بلنيوس فيما بين مدينتي دومة الجندل Domata ومدينة الحجر Haegra ، كما حددها بطليموس بالقرب من ديار عاد Oaditae في أعالي الحجاز [٣]. ومن الملاحظ أن الحجر كانت محطة تجارية هامة في الطريق التجاري بين اليمن وبين الشام ومصر والعراق [٤] .

وقد تمكن العلماء في العصر الحديث من الكشف عن عدد كبير من النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء وفي جبل رم وفي الطائف [٥].

ويعتقد دي برسيفال أن هناك ثمة تقارب بين الثموديين الذين نحتوا بيوتهم

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٩ . وفي موضع آخر يذكر أنهم كانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز (ج ١ ، ٤٠٢) . كذلك شاهد الاصطخري آثار ثمود .

راجع أيضا Caussin de perceval , Essai sur l'histoire des Arabes , Paris 1847 ; t. I, p. 25.

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، مجلد ٢ ص ٤٠١

(٣) جواد علي ، ج ١ ص ٢١٨

(٤) جواد علي ، ج ١ ، ص ٢٤٨ وما يليها — موسل ، شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ١٩٥٢ ص ١٣١

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٥٠ ، تسيب الحلاني ، من الساميين إلى العرب ص ١٦٠

في الجبال وصاحبهم قدار الأحمر الذي تسبب في نكبتهم حتى قيل (أشأم من أحمر ثمود أو أشأم من عاقر الناقة) وبين الحوريين أو سكان الكهوف في بلاد سعير وزعيمهم كدر لعومر الواردة أخبارهم في التوراة [١] . ويعتقد بوسيفال أن الثموديين هم الحوريون سكان بلاد سعير حتى برية فاران، ويعلل خلط الأخباريين بينهم بأن الثموديين كانوا يسكنون في مناطق مجاورة للحوريين [٢].

طسم وجديس :

يقترن اسم طسم بجديس في المصادر العربية اقتران عاد بثمود ، وطسم وجديس قبيلتان عربيتان من قبائل العرب البائدة ، يرتفع نسبها إلى لاوذ ابن إرم [٣] ، ولم يرد لهاتين القبيلتين ذكر في القرآن الكريم ، ولا نعرف من أخبارهما إلا ما ورد في تاريخ العرب القديم . وكانت منازلهما في اليمامة والبحرين [٤] ، وكانت اليمامة من أخصب بلاد العرب وأعمرها وأكثرها خيراً وعمراناً [٥] ، « فيها صنوف الشجر والأعناب ، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة » [٦] . ويذكر الأخباريون أنه ملك طسم ملك غشوم يقال له عملوق « لا ينهاه شيء عن هواه مع إضراره وإقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم » [٥] ، وانتهاك حرمتهم ، فقامت امرأة من جديس اسمها الشموس وهي

---

(١) التوراة ، سفر التكوين ، اصحاح ١٤/٤

(٢) Caussin de Perceval, op. cit. p. 26.

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٢

(٤) نفس المصدر — أبو الفدا ، المختصر ج ١ ص ١٢٥ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٤٣

(٥) ابن خلدون ، المجلد ٢ ص ٤٤

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٦

(٧) نفس المصدر — ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٤٤

هفيرة ابنة غفار بن جديس بتحريض قومهـا على الثورة على عملوق ، ويوردون لها أبيات من الشعر في تحريض قومها ، منها :

فلو أننا كنا الرجالَ وكنتم ... نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراماً، واصبروا لعدوكم ... بحرب تلظى في القرام من الجزل

ولا تجزعوا للحرب يا قوم إنما ... تقوم بأقوام كرام على رجـل

ونجحت الشموس في استثارة قومها على طسم ، فتولى زعيم جديس ويسمى الأسود بن غفار قتل عملوق الطسمي ، وتولى قوم جديس قتـــل بني طسم ، وانتهبوا ديارهم ، فنجا رجل من طسم يقال له رياح بن مرة الطسمي ، فشخص إلى حسان بن تبع الحميري ملك اليمن ، فاستعاذ به على جديس ، فنصره حسان وأقبل بجموع حمير ، وأغار على منازل جديس باليمامة ، فاستباح أهلهـا قتلاً وأبادهم [1]

وظلت اليمامة أطلالاً دارسة بعد أن خربها الحميريون إلى أن نزلها بنو حنيفة واستوطنوها حتى ظهور الإسلام [2] .

ومن المواضع المنسوبة إلى طسم حصن المشقر ويقع بين نجران والبحرين ، وقصر معنق ، وقصر الشموس من بناء جديس [3] باليمامة ، هذا إلى حصون وقصور عديدة [4] .

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٤٥

(٢) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٦ ;

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٦٥

(٤) راجع جورجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ص ٧٩ — ٨٠

جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٥

أميم وعبيل :

هم أخوة عملاق بن لاوذ ، ومن أميم وبار بن أميم الذين نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشحر [١] . ويزعم الأخباريون أن أميم نزل أرض فارس [٢]، ولذلك يعتز الفرس بأنهم من ولد كيومرث بن أميم ، وفي ذلك يفخر بعض شعراء فارس في العصر الإسلامي :

أبونا أميم الخير من قبل فارس ... وفارس أرباب الملوك بهم فخري

وما عد قوم من حديث وحادث ... من المجد إلا ذكرنا أفضل الذكر [٣]

وينسبون إلى شعب أميم أنهم أول من ابتنى البنيان وسقف السقوف واتخذوا البيوت والآطام من الحجارة [٤] .

وعبيل من ولد عوص أخي عاد [٥] . ويذكر الأخباريون أنهم نزلوا بموضع مدينة يثرب فاختطوها ، وتم ذلك على يد رجل منهم هو يثرب بن بائلة بن مهلهل ابن عبيل . وأقامت عبيل بيثرب إلى أن أبادهم العماليق [٦] . وقد ورد في التوراة اسم ولد من أولاد يقطان هو عيبال [٧] أو عوبال [٨]. ولعل المقصود بهذا

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦١

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٢

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٤

(٤) المسعودي ، ج ١ ص ١٤٤ – ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٥١

(٥) ابن خلدون ج ٢ ص ١٣

(٦) المسعودي ، المروج ، ج ٢ ، ص ١٤٨

(٧) أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الأول ، ص ٦٢٣

(٨) سفر التكوين ، اصحاح ١٠ ص ١٦

الأمم آل عبيل ، المعروفة في المصادر العربية . وقد بادت عبيل بسبب سيل جارف دمر مواضعهم بالجحفة واجتحفهم إلى البحر ، فسمي الموضع بالجحفة[1].
ويشير بطليموس إلى موضع يقال له Avalitae ولعله عبيل العربية ، كما ورد هذا الاسم عند بلنيوس محرفاً بعض الشيء Abalitae [2].

جرهم :

من بني أرفشخذ بن يقطن بن عـابر بن شالخ ، وكانت ديارهم باليمن ، ثم نزلت جرهم الحجاز لقحط أصاب اليمن ، وأقاموا في مكة حتى قدمها اسماعيل عليه السلام ، وصاهرهم [3] . وآلت إليهم ولاية البيت حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة ، فنزلوا بين مكة ويثرب ثم هلكوا بوباء تفشى بينهم [4] .

ومن العرب البائدة أيضاً عبد ضخم بن إرم ، وكانوا يسكنون الطـائف ، وقد هلكوا ببعض غوائل الدهر فدثروا ، ويذكر الأخباريون أنهم أول من كتب بالعربية[5]. ومنهم أيضاً حضورا وكانت منازلهم بأرض السماوة[6]، وقد خالفوا نبيهم شعيب بن ذي مهرع ، وقيـل بن مهدم بن حضورا ، وقتلوه وبادوا

---

(1) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٦

(2) جواد علي ، ج ١ ص ٢٥٨

(3) المسعودي ، ج ٢ ص ١٤٣ - ابن خلدون ، المجلد الثاني ص ٣٥

(4) البلاذري ، أنساب الأشراف، ص ٧-٨

(5) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ - ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ص ٣٩

(6) نفس المصدر ، ص ١٥١

وبادت ديارهم [١] . ويعتقد بعض العلماء [٢] أن بني حضورا هم نفس بني هدورام ابن يقطـــان المذكور في التوراة[٣]. ومنهم وبار بن أميم ، وكانوا يسكنون بالقرب من عدن ، وكان نبيهم حنظلة بن صفوان ، فخالفوه فهلكوا . ومنهم بنو داسم وكانت ديارهم بالجولان وجازر من أرض لوى من بلاد حوراج والبثنية [٤] .

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ، ص ٥٣

(٢) Caussin de Perceval, op. cit. p. 30

(٣) التوراة ، سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، آية ٢٧

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤١

-٣-

جغرافية بلاد العرب

أ – طبيعة بلاد العرب :

عرفت بلاد العرب عند مؤرخي اليونان والرومان باسم Arabia ، بينما عرفت عند مؤرخي العرب وجغرافييهم باسم جزيرة العرب، وهي تسمية مجازية لأن بلاد العرب ليست جزيرة وإنما شبه جزيرة ، ولكن العرب كانوا يسمون شبه الجزيرة جزيرة ، فهم يسمون شبه جزيرة أيبيريا جزيرة الأندلس ، ويسمون ما بين النهرين في العراق بجزيرة أقور [١] . وقد سموا بلاد العرب بجزيرة العرب « لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها ، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، ذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى عبادان » [٢] . وذكر ابن خلدون أن جزيرة العرب بين بحر

---

(١) عبدالوهاب عزام ، مهد العرب ، سلسلة اقرأ رقم ٤٠ ، القاهرة ١٩٤٦ ص ٢١ – الألوسي ، ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب ، نشره المؤرخ محمد عبدالله بن بليهد النجدي ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٧٤ – ارجع أيضاً إلى ياقوت ، معجم البلدان مادة جزيرة العرب ، مجلد ٢ ، ص ١٣٧

فارس والقلزم ، وكأنها داخلة من البر في البحر ، يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب ، وبحر القلزم من الغرب ، وبحر فارس من الشرق ، وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما »[1].

وتختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها ، فالقسم الأكبر منها بادية تتخللها واحات وجواء أو أغوار تتجمع فيها مياه الأمطار أو تتسرب في الأرض ، أما الوديان فقليلة وتقع في أطراف شبه الجزيرة . وقد كان ذلك الاختلاف الواضح في طبيعة بلاد العرب الجغرافية سبباً في وجود نوعين من السكان : البدو ، ويعرفون أيضاً باسم الأعراب ، ويسكنون في البادية [2] ، والحضر ويسكنون في المدن ، ويشتغلون بالزراعة أو التجارة أو الصناعة . وهم أهل المدر أو أهل الحجر أي سكان المدن [3] .

ولقد قسم اليونان والرومان بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية [4] التي كانت عليها بلاد العرب في القرن الأول الميلادي هي :

١ - بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea أو Arabia Petrix ، وتقع في الشمال من بلاد العرب ، جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط

(١) ابن خلدون ، المقدمة ج ١ ص ٢٨١-٢٨٢

(٢) الألوسي ، ج ١ ص ١٢ . يفرق أهل اللغة بين لفظي عرب وأعراب ، والمتفق عليه أن العرب هم سكان المدن والقرى ، والأعراب هم سكان البادية . ولكن ابن خلدون يستخدم لفظ عرب بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بالرعي ويتخذون الخيام مساكن لهم (راجع مقدمة ابن خلدون ، ج ٢ حاشية رقم ٣٥٩ ص ٤٠٩) .

(٣) ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٠

(٤) جواد علي ، ج ١ ص ١١٧ - حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٤

٢ – بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ، والمقصود بهـا بلاد اليمن أو الأرض الخضراء .

٣ – بـلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta ، وكانت تطلق على بادية الشام ، ثم شمل اسمها البادية الواسعة والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل المتبدية في شبه جزيرة العرب كلها .

وبلاد العرب الصحراوية في الواقع هي القسم الأعظم من هذه الأقسام الثلاثة لكثرة صحراواتها في الوسط والشمال والجنوب ، والصحراء العربية تتنوع وتختلف من موضع إلى آخر ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – الحرات أو الحرار :

الحرة على حد تعريف صاحب كتاب المعجم « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار »[١] . والحرة عادة مستديرة الشكل ، فإذا كان فيها شيء مستطيل غير واسع فذلك الكراع واللابة[٢] . والحرار تكونت بفعل البراكين ، بل هي أثر من آثار ما تخرجه البراكين من جوفهـا[٣] .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة حرة ، ص ٢٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٣) نشطت بعض البراكين في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بقرن واحد ، وقد وصف عنترة بن شداد بركاناً يقذف الحمم ، وهناك شاعر اسمه عرعرة من بني نمير يصف بركاناً ثائراً في حرة القوس فيقول :

بحرة القوس وحمي عقد ... كالخضر بين الشعل

أجيج

Henri Lammens, Le Berceau de l'Islam t. I, Rome, 1914, p. 73

والحرار كثيرة في بلاد العرب ، وتبتدىء من شرقي حوران ، وتمتد متناثرة حتى المدينة [1] ، وقد أحصى ياقوت منها تسعاً وعشرين حرة من بينها حرة أوطاس وحرة تبوك وحرة تقدة وحرة حقل وحرة الحارة ، وهي حرات ذكرت في أيام العرب ، ومنها أيضاً حرة راجل ، وتقع بين السر ومشارف حوران [2] ، وحرة رماح بالدهناء ، وحرة ضرغد في جبال طيء . ومن أشهر حرات العرب حرة النار قرب خيبر ، وقيل بين وادي القرى وتيماء بالقرب من حرة ليلى ، التي يطؤها الحاج في طريقه إلى المدينة [3] . والمدينة نفسها تقع بين حرتين هما : حرة واقم أو الحرة الشرقية ، وحرة الوبرة أو الحرة الغربية ، ولذلك يقال عن المدينة كلها « ما بين اللابتين » ، أما حرة واقم فقد سميت كذلك نسبة إلى أطم من آطام المدينة [4] ، وكانت وقت الهجرة النبوية أكثر عمراناً من حرة الوبرة ، إذ كانت تسكنها قبائل اليهود من بني النضير وبني قريظة وعشائر يهودية أخرى ، كما كانت تسكنها أيضاً أهم بطون الأوس وهم بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وبنو حارثة وبنو معاوية . وأصبحت هذه الحرة منذ أن قامت دولة الرسول في المدينة دار حرب عندما حاصر النبي يهود بني النضير حتى أجلاهم ، ثم يهود بني قريظة حتى قضى عليهم [5] ، وفيها كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ، بين جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري ، ومعه من القواد الحصين بن نمير السكوني ، وجيش

---

(١) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢ - جواد علي ج ١ ص ٨٩

(٢) ياقوت ، مادة حرة ، ص ٢٤٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٩

(٥) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٨٨

ابن دلجة القيني ، وروح بن زنباع الجذامي ، وبين أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن مطيع العدوي عن قريش، وعلى الرغم من استبسال أهل المدينة في القتال فقد انهزموا هزيمة نكراء، وقتل من أصحاب رسول الله ثمانون رجلا ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف ، وارتكب جند يزيد كثيراً من الفظائع في أهل المدينة . وفي هذه الوقعة يقول محمد بن أسلم

فإن تقتلونا يوم حرة واقم ... فنحن على الإسلام أول من قتل[1]

أما حرة الوبرة فتقع على بعد ثلاثة أميال غربي المدينة ، في أول الطريق إلى مكة ، وتفصل هذه الحرة بين المدينة ووادي العقيق ، وكان وادياً خصباً كثير المياه والآبار والعيون [2] ، كثير الشجر والنخل والغروس . ومن بين آباره بئر عروة المنسوب إلى عروة بن الزبير ، وبئر رومة [3]

(١) في وقعة حرة واقم راجع : أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٦٤ ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٢٢٨ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، ص ٣٧٤ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٧٨ ـ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ١٠٧ ـ ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة حرة واقم ، ص ٢٤٩ ـ جمال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٨ ـ علي حسني الخربوطلي ، الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٠٢ وما يليها .

(٢) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٨٩

(٣) ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة عقيق ، ص ١٣٩ ـ عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٦٣

٢ – الدهناء أو صحراء الجنوب :

تشغل هذه الصحراء مساحة كبيرة من شبه جزيرة العرب، فهي تمتد من صحراء النفود ، المسماة قديماً بادية السماوة ، شمالاً إلى حضرموت في الجنوب ، ومن اليمن غرباً إلى عمان شرقاً ، وتقدر مساحتها بخمسين ألف ميل مربع ، وتخترقها تلال رملية أو كثبان تموج مع الرياح وتنتقل معها عند الهبوب ، وتعرف الأجزاء الجنوبية منها في الوقت الحاضر باسم الربع الخالي لخلوها من النــاس ، وكانت تعرف قديماً بمفازة صيهد [١] ، أما القسم الغربي من الدهناء فيطلق عليه اسم الأحقاف . وأرض الدهناء على الرغم من جفافها وخلوها من المـاء كانت إذا سقطت عليها الأمطار الموسمية نبتت فيها الأعشاب مدة ثلاثة أشهر ، ولعـل الدهناء سميت بذلك الاسم لاختلاف النبت والأزهار في عراضها ، لأن الدهان يعني الأديم الأحمر [٢] .

٣ – صحراء النفود :

كانت تسمى قديماً بادية السماوة أو رملة عالج [٣] ، وتقع في شمال الجزيرة العربية ، وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمـة اللينة التي يصعب على المرء أن يسير فيها ، إذ يبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو ١٥٠ متراً . وتمتد صحراء النفود على مساحة كبيرة من الأرض فيبلغ طولهـــا من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ ك . م ، وعرضها من واحة الجوف إلى جبل شمر يمتد إلى ٢٥٠ كيلو متراً [٤] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ مادة صيهد ص ٤٤٨

(٢) ياقوت ، نفس المصدر ، مجلد ٢ ، مادة دهناء ، ص ٤٩٦

(٣) ياقوت ، مجلد ٤ ، ص ٧٠

(٤) جواد علي ، ج ١ ، ص ٩٣

ب – أقسام جزيرة العرب :

ويقسم العرب (المدائني) بلادهم خمسة أقسام كبرى هي : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن [١] ، ويزيد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق وبادية الجزيرة ، فيما بين دجلة والفرات ، وبادية الشام [٢].

١ – تهامة :

تشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً ، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة أعظم جبال العرب . وقد سميت تهامة بذلك الاسم من التهم ، وهو شدة الحر وركود الريح ، لشدة حرها وركود ريحها ، وقيل سميت كذلك لتغير هوائها . وقيل إن التهمة هي الأرض المتصوبة نحو البحر [٣] ، ولانخفاض أرض تهامة سميت بالغور [٤] .

ويتألف إقليم تهامة من عدة تهائم ، منها ما يدخل في اليمن ، ومنها ما يدخل في الحجاز . وتمتد تهامة شمالاً حتى حدود مكة ، وجنوباً حتى حدود

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٧ – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة جزيرة العرب ، ص ١٣٧ – القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ – الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ١٨٧

(٢) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٢٩

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تهامة ، مجلد ٢ ، ص ٦٣

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٤ ، ص ٢١٧

صنعاء [١] وتهامة اليمن سهل خصب تنحدر إليه الأودية من الجبال وتكثر فيه الأشجار والزروع ، ومن مدنه الساحلية الحديدة ومخا وقنفذة [٢] ، ومن مدنه زبيد قصبة التهائم ، وفرضتها على البحر غلافقة [٣] . ومن مؤرخي العرب من يجعل مكة من تهامة [٤] ، ومن تهامة أيضاً ينبع وهي مدينة صغيرة تقع قريباً من البحر ، كانت منزلاً لبني الحسن بن علي بن أبي طالب [٥] . ومنها أيضاً جدة فرضة مكة وكانت عامرة بالتجارة [٦] .ومن تهامة كذلك الحديبية وتبوك وهي واحة تقع بين الحجر وبين أول الشام .

٢ - نجد :

هي الهضبة الوسطى في شبه جزيرة العرب ، وتقع بين بادية السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً . وهي أوسع أقاليم جزيرة العرب ، وتتخللها أودية كثيرة منها وادي الرمـــة وروافده ، ووادي حنيفة ، وكان يسمى فلجاً [٧] ، ووادي عاقـل ، ولذلك كانت نجد أطيب أراضي الجزيرة العربية [٨] ، فترنم الشعراء برباها ورياضها .

---

(١) ابن حوقل ، ص ٢٤
(٢) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٩٣
(٣) الألوسي ، ج ١ ص ٢٠٦
(٤) ياقوت ، مادة تهامة ، ص ٦٣ - الألوسي ، ج ١ ص ١٩٤
(٥) الألوسي ، ج ١ ص ١٩٥
(٦) ابن حوقل ، ص ٣٩
(٧) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٧٧
(٨) الألوسي ، ج ١ ، ص ٢٩٩

وقسمها العرب قسمين : نجد السافلة ونجد العالية ، فالسافلة ما ولى العراق ، والعالية ما ولى الحجاز وتهامة [1] . وبنجد جبلان مشهوران صعبا الارتقاء هما جبلا أجأ وسلمى المنسوبان إلى طيء ، وفيها يقول زيد بن مهلهل الطائي :

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخب نزائعاً خبب الركاب

ويصف لبيد كتيبة للنعمان :

كأركان سلمى إذ بدت أو كأنها مضاب أجأ إذ لاح فيه مواسل [2]

وبأدنى جبل أجأ مدينة حائل ، وعلى سفح جبل سلمى بليدة فيد ، الواقعة في طريق الحاج العراقي [3] .

٣ – الحجاز :

الحجاز ما بين نجد وتهامة ، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة ، وامتداده بينهما بحذاء الساحل [4] ، ويقال أيضاً أنه سمي حجازاً لأنه يحجز بين الغور والشام [5] ، والأرجح التعليل الأول (وصاحبه هشام بن الكلبي) ، وهو أن جبل السراة [6] المعروف بجبل

---

(١) ياقوت ، مجلد ٥ ، مادة نجد ، ص ٢٤٥

(٢) ياقوت ، مجلد ١ ، مادة أجا ، ص ٩٦

(٣) ياقوت ، مجلد ٤ ، مادة فيد ، ص ٢٨٢

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٢ ، مادة حجاز ، ص ٢١٩

(٥) نفس المصدر ـ القلقشندي ، ج ٤ ص ٢٤٦

(٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٨

الحجاز « حجز بين الغور ، وهو تهامة ، وهو هابط ، وبين نجد ، وهو ظاهر ، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها ، ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها ، وغار من أرضها الغور غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله ، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله ، وصار الجبل نفسه ، وهو سراته ، وهو الحجاز وما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازاً، والعرب تسميه نجداً وجلساً وحجازاً، والحجاز يجمع ذلك كله ... »[1].

ويضم الحجاز من المدن المدينة والطائف وخيبر وفدك والجار فرضة المدينة وتيماء .

٤ – العروض :

تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما [2] ، وقد سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق . وكانت اليمامة تسمى قديماً جواً وذلك عندما نزلتها طسم وجديس، فعرفت باليمامة ،نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم [3]. وقاعدة اليمامة في القديم مدينة حجر . أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربي، وكانت قاعدتها هجر [4] ، وقصبة هجر الأحساء التي عمرها وحصنها أبو طاهر

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة حجاز ، ص ٢١٩

(٢) نفس المصدر ، مجلد ٤ ، مادة عروض ، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع، مادة يمامة ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٢

(٤) نفس المرجع ، مادة هجر ، ص ٣٩٣

سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي [١] .

٥ – اليمن :

منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض ، وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب إليها ، لأنها أيمن الأرض [٢] . والأرجح أنها سميت اليمن من يمنات الواردة في نص يرجع إلى أيام الملك شمر يهرعش [٣] .واهل يمنات من اليمن والخير ، لما أودع الله فيها من البركة ، ولذلك عرفت عند العرب بالخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها ، وأشجارها وثمارها [٤] ، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة . وفي خيرات اليمن يقول الكلاعي :

هي الخضراء فاسأل عن رباها	يخبرك اليقين المخبرونا
ويعطرها المهيمن في زمان	به كل البرية يظمؤونا
وفي أجبالها عز عزيز	يظل له الورى متقاصرينا
وأشجار منورة وزرع	وفاكهة تروق الآكلينا [٥]

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت عليه بلاد اليمن من حضارة وعمران ، فيقول تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا

---

(١) نفس المرجع ، مادة الاحساء ، مجلد ١ ، ص ١١٢

(٢) نفس المرجع ، مادة يمن ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧

(٣) جواد علي ، ج ١ ، ص ١٣٥

(٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ – الالوسي ، ج ١ ص ٢٠٣ – ياقوت ، المعجم ، مادة يمن ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧

(٥) الالوسي ، ج ١ ، ص ٢٠٣

من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل »[1] .

وسنعود إلى ذكر بلاد اليمن عندما نتعرض لتاريخها .

ج – المناخ :

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بوجه عام ، والمطر يندر سقوطه ، ولذلك فإن أكثر أراضي جزيرة العرب صحراوية ، ومع ذلك فهناك أودية كثيرة تسيل فيها المياه في موسم الأمطار ، وهي أودية شديدة الانحدار تصب في البحر الأحمر أو في بحر العرب ، والأمطار تسقط في الخريف والشتاء في الشمال ، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن . وإذا سقط المطر في البادية فإنه يتسبب في إنبات عشب وشيك ينمو سريعاً ثم يذوي سريعاً ، ولذلك فإن الحياة في البادية هي التي أملت على البدوي الترحال والانتقال حيث موارد المياه والعشب .

١ – الرياح :

يذكر المسعودي أن الرياح أربعة : إحداها تهب من جهة المشرق ، وهي القبول ، والثانية تهب من المغرب ، وهي الدبور ، والثالثة من التيمن وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهي الشمال [2].

---

(١) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، ٣٤ آية ١٥-١٦

(٢) أخبار عبيد بن شرية ، ملحق بكتاب التيجان ص ٣١٥ – المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٣٢

أما رياح القبول فهي التي يسمونها ريح الصبا ، وهي ريح طيبـــة مقبولة والنفس تصبو إليها ، وأكثر هبوبها على إقليم نجد ، وكان العرب يفضلون هذه الريح لرقتها ولأنها تجيء بالسحاب والمطر وفيها الري والخصب ، وهي عندهم اليمانية [1] . وريح الشمال عادة ريح باردة وتهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت بالشامية [2] ، وكانت مكروهة لمـــا يصحبها من برد ولأنهـــا تذهب بالغيم والخصب ، وتعرف أيضاً بالحدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه [3] ، وهنا يتجلى كرم العرب في فتح دورهم للضيف فيمدحون بالجود والكرم عندما تهب هذه الريح ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

لقد علم الضيف والمرملون	إذ أغبر أفق وهبت شمالا
بأنك ربيع وغيث مريع	وأنك هنـــاك تكون الثمالا [4]

وقال آخر :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه	إلى كل شخص فهو للسمع أصور
بصف أنف من الريح بارد	ونكباء ليل من جمادى صرصر [5]

---

(١) الألوسي ، ج ٣ ، ص ٣٦ ـ عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٦

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٧٩ (يتحدث عن الطائف فيذكر أنها شامية الهواء) ، ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة حدواء ص ٢٢٩

(٣) H. Lammens, le Berceau de l'Islam. p. 18

(٤) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٦

(٥) الالوسي ، ج ١ ص ٥٩ . والنكباء ريح تتنكب طريق الرياح المعروفة .

وقال حاتم الطائي يأمر غلامه بإيقاد نار ترشد الأضياف في الليالي الباردة :

أوقد فإن الليل ليل قر   والريح يا واقد ريح صر

عل يرى نارك من يمر   إن جلبت ضيفا فأنت حر[1]

وكان لبيد بن ربيعة وأبوه ، إذا هبت ريح الصبا ، أطعموا الناس ، لأن الصبا لا تهب إلا في جدب ، وفي ذلك تقول بنت لبيد بن ربيعة العامري :

إذا هبت رياح أبي عقيل   ذكرنا عند هبتها الوليدا[2]

أما الدبور فكانت تهب مصحوبة بأمطار ولذلك عرفت أيضاً بالذاريات والمعصرات[3] ، أما الرياح الحارة فكانت تسمى السهام والهيف والسموم .

وفي رياح الجنوب يحن بعض الأعراب إلى اليمن فيقول :

وإني ليصبيني الصبا ويميتني   إذا ما جرت بعد العشي جنوب

وأرتاح للبرق اليماني كأنني   له حين يبدو في السماء نسيب

وقال آخر

أما من جنوب تذهب الغل ظلة   يمانية من نحو ليلى ولا ركب

يمانون نستوحيهم عن بلادهم   على قلص يدمى بأخفافها الجدب[4]

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٩٤

(٣) نفس المرجع ، ج٣ ، ص ٣٦١

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ مادة يمن ، ص ٨٠٤

٢ – الأمطار :

لما كانت معظم بلاد العرب صحراء فقد اعتمدوا على الأمطار في الرعي وفي الزراعة ، ولذلك السبب اهتم العرب بتمييز أنواع السحب الممطرة وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر ، وسموا السحاب الذي يرجى منه المطر « الخلق » ، وسموا السحابة التي يدوم مطرها بالسحابة الداجنة [١].

وتسقط الأمطار على جبال اليمن العربية بغزارة في فصل الصيف ، وينزل في تهامة اليمن في الشتاء أحياناً ، ويبلغ تأثير الرياح الموسمية حتى الطائف ، فلهذا تنزل الأمطار في أواخر الصيف . أما في فصل الشتاء فتسقط الأمطار في شمال بلاد العرب وفي وسطها ، والأمطار في بعض الأحيان تشح وقد تنقطع وينتج عن ذلك جدب وقحط يطول أمده [٢] ، وفي ذلك يقول الشاعر :

إذا سنة طالت وطال طوالها ... وأقحط عنها القطر وابيض عودها [٣]

ومن هنا أطلق العرب على السنوات التي لا تنزل فيها مطر بالسنين البيض أو السنيات البيض ، وأحياناً يسمونها السنوات الشهباء [٤] . وإذا شح المطر ينتقل البدو من مضاربهم ويتتبعون مواضع القطر أو الغيث ، ويعتبر ذلك ايذانا بالهجرة نحو الشمال .

وفي حالة الأمطار الغزيرة والسيول ، تتعرض البلاد للأخطار ، فتتساقط

---

(١) الألوسي ، ج٣ ص ٣٦٢

(٢) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٧ ، ٢٨

(٣) Lammens, op. cit. t. I, p. 19

(٤) Ibid.

المنازل والدور وتطيح السيول بالزروع ، وقد بادت بالسيول والفيضانات شعوب وأمم عربية ، مثل شعب سبأ الذي باد على أثر سيل العرم .

أما في حالة الأمطار المعتدلة فالناس يشربون ويسقون حيواناتهم ، ويروون مزروعاتهم وتمتلىء الغدران والآبار والخزانات والدارات بالميـــاه . والدارة رمل أبيض مستدير ، في وسطه فجوة مستديرة ، وغالباً ما تكون الدارات محاطة بالجبال ، وتكثر فيها الزراعة . وقد أحصى ياقوت من دارات العرب نحو ستين دارة[1].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة دارات ص ٤٢١ وما يليها

الباب الثاني

عرب الجنوب

الفصل الأول : اليمن منذ قيام الدولة المعينية حتى سقوط الدولة الحميرية

الفصل الثاني : اليمن في ظل الأحباش والفرس .

الفصل الأول

اليمن منذ قيام الدولة المعينية حتى سقوط الدولة الحميرية

١ – بلاد اليمن

(أ) اسم اليمن .

(ب) ثروة اليمن الاقتصادية في العصر الجاهلي .

(ج) المسالح والقصور والمحافد

(د) أمثلة من مدن اليمن القديمة

٢ – الدولة المعينية (١٣٠٠ ق.م – ٦٥٠ ق.م تقريباً)

٣ – الدولة السبئية (٨٠٠ ق م – ١١٥ ق.م)

٤ – الدولة الحميرية (١١٥ ق.م – ٥٢٥ م)

- ١ -

بلاد اليمن

أ - اسم اليمن :

لكل اسم مدلول عند العرب، فالحجاز سمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين تهامة ونجد ، ونجد سميت نجدا لارتفاعها ، وتهامة من التهم وركود الريح ، والمغرب الأدنى لأنه أقرب أقسام المغرب إلى المشرق الاسلامي ودار الخلافة ، والمغرب الأقصى لتطرفه عن مركز الخلافة .

أما اليمن فاسم اختلف الأخباريون في تفسير مدلوله : فابن الكلبي يعلل تسميتها بهذا الاسم بأن يقطن بن عابر نزل في موضع اليمن فقال العرب تيمن بنو يقطن . وذكر ابن عباس ان اليمن سميت يمنا لأنها تقع على يمين الكعبة وهو التيمن بخلاف الشام الذي سمي شاما لوقوعه على شمال الكعبة . وقيل أيضاً أن اليمن سمي يمناً ليمنه والشام شاما لشؤمه[1] ، ويرد ياقوت على ذلك بقوله :

---

(١) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ ، ص ٣٣ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦٩ - الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة يمن ص ٤٤٧

« قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه نظر ، لأن الكعبة مربعة ، فلا يمين لها ولا يسار ، فاذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين ، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليماني فانه أجلها ، فاذا يصح »[1] .

والواقع أن بلاد اليمن لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ولا بهذا المعنى او بذاك ، فقد ورد اسم اليمن في نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنت ، ومن البديهي أن اسم اليمن اشتق من يمنات . ولعل يمنات تعني اليمن والخير ، فلقد كانت بلاد اليمن في أقدم عصورها التاريخية بلاداً كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى انها عرفت لذلك السبب باليمن الخضراء ، وفيها يقول الكلاعي :

هي الخضراء فاسأل عن رباها	يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن في زمان	به كل البرية يظمؤونا
وفي أجبالها عز عزيز	يظل له الورى متقاصرينا[2]

كذلك عرفت بلاد اليمن قديماً عند اليونان ببلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية[3] نتيجة للأمطار الموسمية التي استغلها أهلها من سقاية أراضيهم المرتفعة . وقد ذكر الهمداني

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة يمن ص ٤٤٧

(٢) الألوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج١ ص ٢٠٣

(٣) في رخاء اليمن وتعدد ثرواتها يقول ابن الفقيه الهمداني : « وباليمن من أنواع العصب وغرائب الثمر ، وطرائف الشجر ، مما يستصغر ما ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة » (مختصر كتاب البلدان ص ٣٤) . وقال أبو الحسن الكلاعي « وفي هذه البراري والسهول من المنافع والفضائل والخير الطائل =

أنه كان بمحصب الملو ، أحد مخاليف اليمن ، ثمانون سدا ، ذكرها تبع بقوله :

وبالربوة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقلس الماء سائلا [١]

ويظن الأستاذ فيليب حتي أن صفة «السعيدة» التي تقترن عند ذكر بلاد اليمن، كانت محاولة لترجمة كلمة اليمن العربية (ويقصد بها إلى اليد اليمنى) فخلطت بكلمة اليمن (بضم الياء) ومعناها السعادة [٢] . وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر العلاقة بين اسم تدمر المشتقة من تامار أي التمر وكلمة بالميرا ؟ أو العلاقة بين كلمة البتراء وسلاع العبرية التي تؤدي نفس معنى بترا Petrocca (أي الصخرة) والموجودة بهذا المعنى في التوراة [٣] ؟

ب – ثروة اليمن الاقتصادية في العصر الجاهلي :

ولقد عرفت بلاد اليمن قديما بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس [٤] ، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر

= ما لا يحصى له عدد ، ولا يبلغ له أمد .. وذكر أن فيها من الخيرات والفضائل ما لا يخفى إلا على جاهل أو متجاهل، وكم فيها من البساتين » (الألوسي، بلوغ الأرب، ج٢ ص٢٠٣)

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٠١

(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٥٣ (ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع) ص٧٨

(٣) سفر أشعياء ، إصحاح ١٦ ، آية ٢ ، ص ١٠٤٣

(٤) يقول الأصمعي : « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا باليمن : الورس (نوع من النبات ينبت بجبل الذخيرة أحمر يشبه الزعفران يستخدم في الصباغة) (ابن حوقل ، ص ٤٣) والكندر (نوع من البخور) والخطر (لعله سائل) والعصب (نسيج) » ياقوت ، مادة يمن ، ص ٤١٥ – المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٦

الفرعونية ، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني والصومالي مع البخور في المعابد ، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى . وبالاضافة إلى قيام أهل اليمن بتصريف منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فمن طريق اليمن كانت لآلىء الخليج الفارسي[1] ، والتوابل والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والذهب الأثيوبي ، تصل إلى مصر والشام والعراق[2] .

ولقد أشار عدد كبير من كتاب اليونان والرومان إلى ثروات اليمن فامتدحها هيرودوت لأنها « تزفر أريجا عطرياً » ، لأنها البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمر والقصعة والقرفة واللادن »[3] . وقد سمع من المصريين روايات عن الأخطار التي يتعرض لها من يجمع هذه الطيوب ، فان أشجارها تحميها أفاعي مجنحة[4] .

ويتحدث ثيوفراست ، تلميذ أرسطو ، في كتابه « تاريخ النبات » عن طيوب بلاد العرب الشهيرة فيذكر أشجار الصبر والبخور وطرق زراعتها الشهيرة ويقول : « تحدث شقوق في الشجيرات يقطر منها سائل صمغي بقطرات شبيهة باللؤلؤ ، ويكوم كل واحد نصيبه من الصبر والبخور بالطريقة ذاتها ،

---

(١) كان أهل عمان والبحرين وقطر يشتغلون بالغوص على اللؤلؤ وقد وصف المسعودي طريقة استخراجه (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١١٨ وما يليها)

(٢) فيليب حتي ، ص ٥٩ – صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ١٥ .

(٣) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٥٦

(٤) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، ص ٢٨

ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها »[1] . ويشير ثيوفراست » في جملة ما ذكره عن بلاد اليمن ، إلى السبئيين ، فيصفهم بأنهم محاربين وزراع وتجـار يسافرون على ، جو ، البحار في السفن أو زوارق من الجلد للتجارة[2] . كذلك وصف ديودور الصقلي بلاد سبأ فقال : « تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي ، ... وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفـة ، وهي نبتة من نوع خاص ، لطيفة المنظر عندما تقطع ، ولكنها سريعة الذبول . وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيهـا أشجار البخور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية .. أمـا السبئيون فإنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين ،وغيرهم من الشعوب ،بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص .. »[3] .

ويذكر استرابو أن السبئيين جمعوا ثروات هائلة من التجارة في الطيوب ، وقد انعكس ذلك في صناعاتهم وفنونهم كما انعكس في حياتهم الاجتماعية والتحف الرائعة التي تزخر بها قصورهم ، التي بالغوا في تزيينها وتزويقها على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان[4] .

وقد أكد بلنيوس هذه المميزات التي اختصت بهـا بلاد اليمن ، واعتبر السبئين أشهر قبائـل العرب في إنتاج اللبان والبخور[5] . وذكر الهمداني أن سقطري – وهي جزيرة قريبة من ساحل اليمن بالقرب من عدن – تشتهر

---

(١) جاكلين بيرين ، المرجع السابق ، ص ٢٩

(٢) نفس المرجـع

(٣) نفس المرجع ص ٣٠ — فيليب حتي ، ص ٥٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٣١ — فيليب حتي ، ص ٥٧

(٥) فيليب حتي ، ص ٥٧

بنوع من الصبر المنسوب إليها[1]، كما كانت تشتهر أيضاً بنوع من الصمغ لا يتوفر إلا فيها يقال له دم الأخوين ، ويسمونه القاطر[2] .

وإلى جانب شهرة اليمن وحضرموت بالطيوب واللادن ، اشتهرت كذلك بتوافر معدن الذهب ، فلقد أشار ديودور الصقلي إلى أن الذهب في مناجم بلاد العرب ذهب خالص للغاية لا يحتاج إلى صهر [3] ، وليس أدل على وفرة ذهب اليمن مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر : « ما أصنع بالمال ، وتراب أرضي ذهب وفضة » [4] . وذكر الألوسي نقلاً عن كتاب نشر المحاسن اليمانية ، أن معدن عثم ومعدن ضنكان باليمن هما معدنا ذهب جليلان [5] ، وعثم وضنكان من مخلاف تهامة [6] ، وأشار بن رستة إلى وفرة الذهب في مأرب [7] .

ومن معادن اليمن أيضاً الرصاص والفضة والحديد [8] ، فالرصاص يتوفر بين فهم وبين خولان ، والحديد يوجد بمعدن وفي الأراضي الممتدة بين صعدة

---

(1) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥٢ — المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ص ٩٨

(2) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة سقطرى ، مجلد ٣ ص ٢٢٧

(3) فيليب حتى ، ص ٥٧

(4) وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٣٠٤ — ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢ ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ ، — الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ص ٩٤٧ — النويري ، نهاية الارب ، ج ١٥ ، ص ٣١١

(5) الالوسي ، ج ١ ص ٢٠٤

(6) المقدسي ، ص ٨٨

(7) ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، طبعة ليدن ، ١٨٩٢ ، ص ١١٢

(8) نفس المصدر ، ص ٩٧ — الالوسي ، ج ١ ص ٢٠١

والحجاز ، وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد، وفي نقم وغمدان أيضاً معدن الحديد ، واشتهرت الرضراض بالفضة [١].

أما الأحجار الكريمة فمنها العقيق الذي يكثر في جبل شبام [٢]، وفي مخاليف صنعاء . وأجود العقيق ما استخرج من معدن يسمى مقرى ، وقرية يقال لها الهام ومن جبل قساس ، فيصنع بعضه باليمن ، ويحمل بعضه إلى البصرة [٣]. ومن الأحجار النفيسة معدن الجزع وهو يشبه العقيق بل هو نوع منه ، وأجود الجزع البقراني، ومن الجزع أيضاً أنواع منها العرواني، والفارسي، والحبشي، والمشاري، والسعواني ، والبلور ، والمعسل ، والمعرق . والمعرق من الجزع تتخذ منه الأواني لكبره [٤] . ومن شبام أيضاً يستخرج حجر الجمست [٥].

أما العنبر ودم الأخوين فهما من مصادر ثروة اليمن في العصر الجاهلي ، ويكثر وجودهما بسواحل عدن وما يليها [٦] . وعنبر البحر الحبشي (البحر الأحمر الجنوبي) قليل ، وأكثره يقع في ساحل الشحر ، وهو المدور الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك ، وبعض أهالي الشحر يستخرجونه من بطون الحيتان [٧]. ويغاص للؤلؤ بالقرب من عدن [٨]، وعمان [٩] وقطر [١٠] وهجر [١١].

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٢

(٢) ابن حوقل ، ص ٤٤

(٣) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٦ — الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ٣٠

(٥) الهمداني ، الاكليل ، ص ٣١ — ابن حوقل ، ص ٤٤ — ويستخرج الشب اليماني الابيض من اليمن (ابن الفقيه ، ص ٣٦)

(٦) نفس المرجع ، ص ٣٢ — المقدسي ، ص ١٠٢

(٧) المسعودي ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠

(٨) ابن حوقل ، ص ٢٥

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٥

(١٠) المسعودي ، ج ١ ص ١٢٨

(١١) المقدسي ، ص ١٠١

ومما عرفت به اليمن صناعة الجلود المعروفة بالأدم أو الأنطاع وصباغتها ، وذلك في صنعاء ونجران وجرش وصعدة [1] ، وزبيد [2] . وصناعة المنسوجات من الصناعات الهامة في اليمن ، وأشهرها الحلل اليمانية والثياب السعيدية بصنعاء والعدنية [3] .

واختصت عدن بصناعة الشروب التي تفضل على القصب ، واختصت المهجرة بصناعة المد الذي يسمى ليقا ، واختصت سحولا والجريب بالبرود [4] . والشروب أو الشرب هي منسوجات رقيقة تصنع من الكتان ويدخل في لحمتها خيوط الذهب ، وأشهر البلاد التي تنتج الشرب دبيق وشطا بمصر .

وقد لخص المقدسي خيرات اليمن بقوله : « واليمن معدن العصائب ، والعقيق ، والأدم ، والرقيق ، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم ، والساج ، والساسم ، والعاج ، واللؤلؤ ، والديباج ، والجزع ، واليواقيت ، والأبنوس ، والنارجيل ، والقند ، والاسكندروس ، والصبر ، والحديد ، والرصاص ، والخيزران ، والغضار ، والصندل ، والبلور ، والفلفل ، وغير ذلك . وتزيد عدن بالعنبر ، والشروب ، والدرق ، والحبش ، والخدم ، وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب » [5] . وفي موضع آخر يذكر خيرات اليمن فيقول : « ومن خصائص نواحي هذا الأقليم أدم زبيد ونيلها الذي لا نظير له كأنه لازورد ، وشروب عدن

---

(1) ابن حوقل ، ص ٢٣ — المقدسي ، ص ٩٨

(2) المقدسي ، ص ٩٨

(3) ابن الفقيه ، ص ٣٦

(4) المقدسي ، ص ٩٨

(5) المقدسي ، ص ٩٧

تفضل على القصب ، ومسد المهجرة يسمى ليفا ، وبرود سحولا والجريب ، وأنطاع صعدة وركابها ، وسيدي صنعاء وعقيقها ، وقفاع عثر ، وأقداح حلى .... وكندر مهرة وحيتانها ، وورس عدن ،.... وصبر اسقوطرة ومصاين عمان[1] »

ج – المسالح والقصور والمحافد :

كانت بلاد اليمن في الجاهلية أكثر بلاد العرب تحضراً ، وكانت كثيرة الحصون والمسالح والقصور ، وكانت القصور تعرف بالمحافد . ومحافد اليمن كثيرة ، منها غمدان ، وتلفم ، وناعط ، وصرواح ، وسلحين بمأرب ، وظفار ، وهكر ، وضهر ، وشبام ، وغيمان ، وبينون ، وريام ، وبراقش ، ومعين ، وروثان ، وأرياب ، وهند ، وهنيدة ، وعمران[2] . ويعرف صاحب المحفد والقصر بذي ، وجمعها أذواء ، فيقال : ذو غمدان ، وذو صرواح وذو معين . وإذا تجمع عدد من المحافد والقصور في مقاطعة كبيرة سمي مخلاف ، ويتولى شؤون المخلاف أمير يقال له قيل ، جمعها أقيال[3] . واليمن بلد يتميز بمخاليفه[4] ومن أشهرها مخلاف صنعاء ، ومخلاف شاكر ، ومخلاف نجران ، ومخلاف همدان ، ومخلاف خولان ، ومخلاف رعين ، ومخلاف شنكان ، ومخلاف المذيخرة ، وقد أحصى اليعقوبي عدد مخاليف اليمن فوجد أنها ٨٤ مخلافاً[5] . ومن أشهر قصور اليمن ، قصر غمدان ، وسلحين ، وبينون ، وفيها يقول الشاعر :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٨

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٢

(٣) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ١١٦

(٤) المقدسي ، ص ٨٨

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبع ١٨٦١ ، ص ٣١٧

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر   وبعد بينون يبني الناس بيتاً

وهي قصور لا نظير لها في عظمة البناء وفخامته ، « وقد تفاخرت الروم وفارس بالبنيان ، وتنافست فيه ، فعجزوا عن مثل غمدان ، ومأرب ، وحضرموت ، وقصر مسعود ، وسد لقمان ، وسلحين ، وصرواح ، ومرواح وبينون ، وهندة ، وهنيدة ، وفلثوم »[2] . ويعتبر قصر غمدان من القصور الأسطورية التي أبدع الإخباريون في وصفها وتصويرها ، كما يعتبر أقدمها وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً[3] . وقد اختلف الرواة في ذكر بانيه ، فذكر قوم أن « الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء : غمدان وسلحين وبينون »[4] ، وقيل بناه ايشرح بن يحصب ، على رواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي[5] . وقيل بنـــاه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب[6] ، وقيل بناه الملك شرحبيل ابن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد من ملوك حمير[7] . ويذكرون أن غمدان مشتق من غمد الشيء أي غشاؤه ، فكان هذا القصر غشاء لما دونه من المقاصير

---

(1) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥ — ياقوت ، مجلد ٤ ص ٢١٠

(2) ابن الفقيه ، ص ٣٤

(3) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ٢ ، ٢١

(4) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة غمدان ص ١٢٠

(5) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ٢١ ، وايشرح هذا هو ايلي شرحبيل من ملوك حمير ، في القرن الاول الميلادي .

(6) الالوسي ، ج ١ ص ٢٠٤

(7) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٥

والأبنية [1]. وقد بنى قصر غمدان بالحجر على أربعة أوجه ، كل وجه له لون يختلف عن الآخر ، فوجه أبيض ، ووجه أحمر ، ووجه أصفر ، ووجه أخضر. وكان القصر يتألف من سبعة أسقف ، بين كل سقفين أربعون ذراعاً ، وقيل عشرين سقفاً [2] ، بين كل سقفين عشرة أذرع ، وجعل في أعلاه مجلس بني من الرخام الملون ، سقفه قطعة واحدة من الرخام [3] ، ونصب في كل ركن من أركان هذا المجلس تمثال لأسد ضخم رابض من النحاس كلها مجوفة ، فكانت الريح إذا هبت إلى ناحية تمثال من تلك البلدان دخلت من دبره وخرجت من فيه ، فيسمع له زئير كزئير السباع [4]. وكان يؤمر بالمصابيح فتسرج في ذلك المجلس العلوي ليلاً ، فكان سائر القصر يلمع لماناً يخطف الأبصار. وفيه يقول ذو جدن الهمداني :

وغمدان الذي حدثت عنه	بناه مشيداً في رأس نيق
بمرمرة وأعلاه رخـام	تحـام لا يعيب بالشقوق
مصابيح السليط يلحن فيه	إذا يمسي كتومـاض البروق
فأضحى بعد جدته رمـادا	وغير حسنه لهب الحريق [5]

والبيت الأخير فيه ذكر لما أصيب به القصر ، فقد أحرق [6] في عهد النبي

---

(1) ياقوت ، المرجع السابق

(2) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ١٢ .

(3) نقل الهمداني عن وهب بن منبه : « انه لما بنى صاحب غمدان قصر غمدان ملق سقف غرفته العليا برخامة واحدة ، وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحداة من تحت الرخامة » الاكليل ج ٨ ص ١٨

(4) ابن الفقيه الهمداني ، ص ٢٥ ـ ياقوت ، المرجع السابق

(5) ياقوت ، المرجع السابق

(6) ابن الفقيه الهمداني ، ص ٢٥

على يدي فروة بن مسيك ، وبدىء بهدمه أيام حركة الردة [١]. وفي خلافة عثمان بن عفان استكمل هدمه وتخريبه [٢]. وقد شاهد ابن حوقل أطلال قصر غمدان ، وعبر عن ضخامة آثاره بقوله : « وبها آثار بناء عظيم قد خرب ، فهو تل كبير يعرف بغمدان ، وكان قصراً لملوك اليمن ، وليس باليمن بناء أرفع منه على خرابه » [٣] ، وكذلك شاهده المسعودي في سنة ٣٣٢ ، وهو « خراب قد هدم فصار تلاً عظيماً » [٤] ، فقال : « ورأيت غمدان ردماً وتلاً عظيماً قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأن لم يكن » [٥] ، ويبدو أن آثار هذا القصر الهائلة ، وما كان له من تاريخ أسطوري قديم ، حفزت أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان ، على أن يعيد بنـــاء القصر بحالته الأولى ، وذلك أثناء إقامته بغمدان فنصحه يحيى بن الحسين الحسني بعدم التعرض لشيء من ذلك، فعدل عنه [٦].

د ـ أمثلة من مدن اليمن القديمة :

من أشهر مدن اليمن التاريخية مدينة مأرب التي كانت تعرف قديمـاً باسم سبـأ [٧] ، نسبة إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك هذه الأسرة

---

(١) الهمداني ، الاكليل ، ص ٢١

(٢) ابن الفقيه ص ٣٥ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٣٦

(٣) ابن حوقـل ، ص ٤٢

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٢٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ ، ٢٤٠ . كذلك رأى الهمداني من خرائب هذا القصر اجزاء من جدرانه تجاه ابواب جامع صنعاء (الاكليل ، ص ٥) .

(٦) نفس المصـدر .

(٧) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ط. ١٨٩١ ص ١١٢ ـ القدسي ، ص ٨٧ ـ الالوســي، ج ١ ص ٢٠٧

السبئية [1]. والواقع أن اسم سبأ لم يكن يطلق إلا على منطقة نفوذ السبئيين ؛ أما مأرب فاسم قصر كان لهم [2]، ثم أصبحت مأرب عاصمـــة السبئيين ، وفي قصر مأرب يقول الشاعر أبو الطمحان :

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه ... وما حواليه من سور وبنيان[3]

وقال جهم بن خلف :

ولم تدفع الأحساب عن رب مأرب ... منيته وما حواليه من قصر [4]

وتقع مأرب إلى الجنوب الشرقي من صنعاء ، في أرض ترتفع عن مستوى البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم ، وتبعد عن صنعاء بنحو ٦٠ ميلاً . وقـــد ازدهرت مأرب (ماريابا القديمة Mariaba) في عصر السبئيين ، وتألقت كمركز تجاري هام الطريق القوافل بين حضرموت في الجنوب والحجاز في الشمال ، وكانت تحيط بها الجنات والبساتين ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم باعتبارهـــا « بلدة طيبة » . وتنعكس آثار الازدهار الذي أصابته مأرب في ظل السبئيين فيما شيدوه من سدود ومعابد وما أقاموه من قصور وحصون بقيت آثارها حتى اليوم ومن بينهـــا قصر سلحين والقشيب ، وسنشير في دراستنا عن مظاهر الحضارة إلى آثار سد مأرب الشهير الذي كان سبأ في عظمتها . ومنذ أن تخرب هذا السد اضمحلت الدولة السبئية ، وفقدت البلاد ما كانت تجنيه من وراء هذا السد ، فتفرق أهلها في الأرض حتى قيل : « ذهبوا أيدي سبا » أي تفرقوا [5] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١

(٢) نفس المصدر ، مجلد ٥ ، مادة مأرب ، ص ٣٤

(٣) الهمداني ، الإكليل ، ج ٨ ص ٤٥

(٤) ياقوت ، مادة مأرب ، ص ٣٨

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١

ومن مدن اليمن القديمة صنعاء ، وقد ذكر ابن حوقل « أنهـــا كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم »[1] ، والمعروف أن الحبشيين ، بعد حملة إيليوس جالوس على اليمـــن ، نقلوا عاصمتهم من مأرب إلى دمار[2] ويذكر ياقوت أن دمار قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء ، كما يذكر عن بعض الرواة أن دمار اسم لصنعاء .[3] ومنذ ذلك الحين ازدهرت صنعاء ، ثم اتخذهـا الأحباش حاضرة لهم في اليمن وأقاموا فيها القليس المشهور ، وقد امتدح الجغرافيون مناخها ونظافتها وأسواقها[4] التي يباع فيها الأدم ، والنعال المشعرة والأنطاع ، والبرود المرتفعـــة ، والمصمت ، والأردية ، والأواني القرابيـة وسموانية ، والجزع ، وأنواع الخرز[5] ومنها أيضاً مدينة نجران بمخلاف نجران ، وكانت من أهم المـدن التجارية في اليمن ، اختصت هي ومدينـــة جرش القريبة منها بالأدم والأنطـاع[6] وتاريخها في الجاهليـة مرتبط بانتشار المسيحية في اليمن ، فقد كانت مركزاً للنصرانيـة في جنوب شبه الجزيرة منذ أن تمكن فيميون الراهب من نشر المسيحية بها في سنة ٥٠٠ م ، وأسس بها كنيسة على المذهب المونوفيزيتي .

وقد ذكرها وهب بن منبه[7] ، ولعلها الكنيسة الكبرى التي سماها العرب كعبة نجران[8] ، وكانت مقامة من أدم من ٣٠٠ جلد ، وكانت لعبد المسيح بن دارس

---

(١) ابن حوقل ، ص ٤٢

(٢) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ٤١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة دمار ، ص ٧

(٤) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ص ٩ — ١١٢ ، الهمداني صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٥ — ١٩٧

(٥) ابن رسته ، ص ١١٢

(٦) المقدسي ، ص ٨٧ — ابن حوقل ص ٤٢

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة نجران ، ص ٢٦٦

(٨) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٤٥

ابن عدي بن معقل ، وفيها يقول الأعشى -

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيدا وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها
وشاهدنا الورد والياسمـ ـين والمسمعات بقصابها[1]

وعلى الرغم من قضاء ذي نواس الحميري على نصارى نجران بالحرق ، فقد عادت نجران في ظل الأحباش والفرس إلى مثل مـا كانت عليه حتى ظهور الإسلام . وفي العـام التاسع للهجرة قدم وفد من نصارى نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم وفيهم عبد المسيح والأسقف أبو حارثة ، وصالحوا النبي ، فكتب لهم كتاباً . وفي خلافة عمر أجلاهم من بلادهم ، فانتقلوا منها إلى موضع الكوفة وواسط[2] .

وصرواح من المدن التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ اليمن القديم ، وتقع بين صنعاء ومأرب ، وينسبون بناءها إلى سليمان بن داود[3] ، وقد اتخذ السبئيون مدينة صرواح بادىء ذي بدء حاضرة لهم ، وفيهـا أقاموا المعابد للإله المقه (القمر) ، ثم انتقلوا منها إلى مأرب. ومعبد صرواح الكبير اليوم من أهم آثار اليمن القديمة ، أقيم في القرن الثامن قبل الميلاد عندمـا كانت صرواح حاضرة لمكربي سبأ ، على يد المكرب يدع ايل ذريح[4] ومعين ، وكانت في العصور القديمة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٨ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٧٦ — ٨١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، مادة صرواح ، ص ٤٠٢

(٤) أحمد فخري ، اليمن ، بحث في المؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقد في فاس سنة ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٢٤ .

حاضرة للمعينيين ، وإحدى مدينتين معينيتين هامتين ثانيهما براقش[1] التي كانت تسمى يثيل ، وكانت تقع في بلاد الجوف . ولم تكن معين تسمى بهذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم قرنا أو قرنة ، وما زال موضع معـــين يضم كثيراً من الآثار القديمة . وفي معين وبراقش يقول علقمة بن ذي جدن :

وقد أسوا براقش حين أسوا   بلقعة ومنبسط أنيـــق

وحلوا من معـــين يوم حلوا   لعزهم لدى الفج العميق

وظفار أيضاً من المدن اليمنية القديمة ، وكانت تعرف عند العرب بمخلـــل يحصب ، وكانت ظفار عاصمة الحميريين ، حتى قيل من دخل ظفار حمر . وظفار الحميرية تقع على الطريق الموصل من صنعاء إلى ذمار وتريم في الجنوب ، وتقع على بعد نحو ١٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي من مخا . وكانت ظفار من أعظم مدن اليمن ، وإليها ينسب الجزع الظفاري المشهور[2] ، وفيهـــا شيد الحميريون القصور السامقة التي تردد ذكرها في شعر العرب ، ومن بينها قصر ذي يزن الذي يقول فيه علقمة :

ومصنعة بذي ريدان أست   بأعلى فرع متلفـــة حلوق

ومنها أيضـاً قصر ريدان وهو قصر ملوك ظفار ، وقصر شوحطان الذي يقول فيه علقمة أيضاً : « وبذلك شوحطان له قريم » (أي نقوش) . ومنها قصر كوكبان ، وسمي بذلك لأنه كان مؤزر الخارج بالفضة وما فوقها أحجار بيض ، وداخله منطق بالعود والفسيفساء والجزع وصنوف الجواهر[3] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة معين ، ص ١٦٠

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة ظفار ، ص ٦٠

(٣) الهمداني ، الإكليل ، ج ٨ ، ص ٢٢

- ٢ -

الدولة المعينية
(١٣٠٠ - ٦٣٠ ق.م)

تعتبر الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن ، إذ دامت من سنة ١٣٠٠ تقريباً قبل الميلاد إلى سنة ٦٣٠ ق.م ، ولم يرد لهذه الدولة ذكر في المصادر العربية ، وحتى ما تضمنته هذه المصادر خاصاً ببلدتي معين وبراقش لا يتجاوز كونهما موضعين في الجوف بين نجران وحضرموت أو محفدين من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة[1] . وقد ورد اسم المعينيين في المصادر اليونانية الرومانية ، فسماهم استرابون وديودور الصقلي وبلينوس Minaei وذكر استرابون أن عاصمتهم مدينة قرناو Karna . وقد ذهب بعض العلماء قبل الكشف عن آثار معين في اليمن في سنة ١٨٧٤ إلى أن لفظة Minaei إنما تطلق على جبل منى الواقع بالقرب من مكة[2] ، في حين اعتقد بعضهم أن كلمة ماعون أو معون Maon الواردة في التوراة إنما يقصد بها معان الواقعة جنوب شرقي البتراء[3] في بلاد الأدرميين .

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٢ — الاكليل ، ج ٨ ص ١٠٥ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ مادة معين ص ١٦٠ .

(٢) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٠

(٣) جواد علي ، ج ١ ص ٢٨١ — فيليب حتي ، ص ٦٢ — الويس موسل ، شمال الحجاز ، ص ٢ .

وظلت حضارة المعينيين غير معروفة لدى العلماء حتى تمكن جوزيف هاليفي من الكشف عن آثار معين عاصمة المعينيين [1] ، وقد نشر هاليفي تقريراً عن هذا الكشف في الجريدة الأسيوية في سنة ١٨٧٤ ضمنه عدداً كبيراً من النقوش التي نسخها من آثار معين ، ومعظمها له صلة بالقرابين والعطايا [2] . وقد ازدادت ثروتنا في هذه النقوش بفضل جهود جلازر وجوسن . وقام مولر بدراسة هذه النقوش دراسة علمية ، ومنها استطعنا أن نعرف الكثير عن هذه الدولة وعن ملوكها . وقد حصر مولر عدد الملوك الذين قرأ أسماءهم في هذه النقوش ، فوجده ٢٦ اسماً يتوزعون على خمس أسرات . بينما جمل هومل من أسماء ملوك معين ثلاث طبقات . أمـــا فلبي فقد ذكر أسماء ٢٢ ملكاً معينيين ، نظمهم في خمس أسرات . كذلك تمكنا بفضل هذه النقوش من معرفة الألقاب الملكية عند المعينيين ، فمنها لقب « يطوع » أي المخلص ، ولقب « صدوق » أي العادل ، ولقب « ريام » أي المضيء . وكان الملوك يلقبون بلقب « مزود » أي مقدس [3] و « كبير » أي كبير وعظيم .

ظهرت الدولة المعينية في الجوف أي في المنطقة السهلة الواقعـــة بين نجران وحضرموت ، ولم يكن المعينيون وافدين من الشمال كما يعتقـد بعض الباحثين [4] ، وإنما كانوا من أهل البلاد الجنوبية . وقد اشتغل المعينيون

---

(١) جرجي زيدان ، ص ٣٠ ، ١٢٠ — ديتلف نيلسن ، بلاد العرب الجنوبية ، فصل من كتاب التاريخ العربي القديم ص ١٢ — ١٧

(٢) I. Guidi, L'arabie antéislamique, Paris, 1921 p. 66

(٣) فرتز هومل ، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٦٤ — ٧٥ — تعليق الدكتور فؤاد حسنين بعنوان (استكمال) ص ٢٦٧ — ٢٧٩

(٤) Guidi, l'Arabie antéislamique, p.64 حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ص ٢٣ ، (يعتقد الدكتور حسن ابراهيم ان المعينيين هاجروا من بلاد العراق) =

بالتجارة ، وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ، ولم يلبث نفوذهم السياسي أن أدرك شمال الحجاز ،فدخلت معان وديدن (العلا الحديثة) ، في فلك دولتهم استناداً إلى الكتابات المعينية التي أسفر عنها البحث الأثري والكشوفات في منطقة معان والعلا (ديدن) . وعلى هذا النحو نستنتج أن هذه المواضع الشمالية كانت تابعة لحكومة معين الجنوبية [1] . وفي ذلك يقول موسل : « خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب واقعاً في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية . وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحد ، ولكنهم كانوا يتنافسون السيادة لا في بلادهم فحسب ، بل في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية أيضاً ، فكانت تقيم في كل واحة من الواحات المهمة — التي تقع على طول الطريق التجاري — جالية من عرب الجنوب ، وكان يقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب كذلك ، وكانت مهمته الإشراف على ملوك الإقليم ورؤسائه ، ومراقبتهم لكي لا يفعلوا شيئاً من شأنه أن يضر بمصالح سيده السبئي أو المعيني الذي قد يكون على رأس المملكة الجنوبية السبئية أو المعينية ، تبعاً لاختلاف العهود التاريخية » [2] .

ومن المعروف أن الطريق التجاري البري الموصل بين اليمن والشام ومصر

— والتمسوا مقرا متحضرا يقيمون فيه ، ويرجح من دراسة احوالهم السياسية والاجتماعية ، ومن اسماء رجالهم والهتهم انهم ينتسبون في الاصل الى منطقة العراق ، ولما نزلوا في جنوب الجزيرة شيدوا القصور والمعابد على مثال ما شاهدوه في بابل . ولا نوافق الدكتور حسن ابراهيم حسن على هذا الراي .

(1) الويس موسل ، شمال الحجاز ، ص ١ ، ٢
جواد علي ، ج ١ ص ٢٦٨

(2) موسل ، المرجع السابق ، ص ١ ، ٢

كان يمر غربي تيماء ، وكان هذا الطريق الأعظم أحياناً في سيطرة المعينيين ، وأحياناً أخرى في أيدي السبئيين الذين كانوا يعاصرونهم ، وفي جميع الواحات التي يمر عليها هذا الطريق في الشمال الغربي من بلاد العرب مثل واحة مدين وواحة ديدان المذكورة في الكتاب المقدس باسم ددن أو ديدن والتي تقع قريباً من واحة العلا ، ومثل واحة معون أي معان الحديثة ، كانت تقيم طائفة من حكام معين أو سبأ تؤيدها حاميات عسكرية وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية ، كما كانت تقيم معها جالية من الافريقيين الكوشيين باعتبار أن هؤلاء الكوشيين كانوا يمارسون التجارة مع المعينيين أو السبئيين بحكم الجوار .[1]

وأدى توسع المعينيين في الشمال إلى احتكاكهم بأشور وفينيقية ومصر ، وكان حكام أشور بسورية بحكم إقامتهم بعيداً عن طريق التجارة الرئيسي يتفاوضون مع المقيمين المعينيين في هذه الواحات لا على أنهم يمثلون ملكاً معيناً وإنما على أساس أنهم الملوك الجنوبيين ، وفي هذا تفسير الاشارات التي وردت في الوثائق السريانية والعبرية عن السبئيين والمعينيين ، إذ تذكرهم هذه الوثائق على أن بلادهم تقع في الجنوب الشرقي للبحر الميت [2]

وكما خضع المونيون لملوك العرب الجنوبيين ، اعترف سكان أدوم الذين كانوا يسكنون سعير [3] بسيادة الملوك الجنوبيين من بلاد العرب .

وقد استلزم اشتغال المعينيين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات التجارية والكتابة ، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها ، ودونوا بها لغتهم . وقد عثر على كتابات معينية في مصر في الجيزة ، وفي جزيرة ديلوس من جزر اليونان ،

---

(١) بوسيل ، نفس المرجع ، ص ٨٧ ، ٨٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢

(٣) تقع في المنطقة الجنوبية من البحر الميت .

ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد[1] ، وتشير هذه الكتابات إلى الصلات التي كانت تربط مصر واليونان بالدولة المعينية في اليمن ، كما تشير إلى أن المعينيين حتى بعد سقوط دولتهم بزمن طويل ظلوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي ، وتقاليدهم التجارية[2] . كذلك عثر على نقوش معينية في أور والوركاء في العراق[3] .
ومن ملوك المعينيين اليفع وقه الذي عثر على اسمه في الخربة السوداء ، وهي مدينة « نشان » في الكتابات المعينية ، كما عثر على اسمه في نقش عثر عليه في براقش أو « يثيل » المعينية . وقد ذكر معه اسم ابنه وقه ايل صدق الذي خلفه في حكم اليمن . كذلك ورد اسم اليفع وقه مع اسم ابن له يدعى « أبو كرب يثع » في نقش عثر عليه في ديدن (العلا)[4] . ومن ملوك معين أيضاً الملك « أب يدع يثع » الذي عثر على اسمه في خرائب معين نفسها ، وقد دون هذا النقش بمناسبة قيام رهط من أشراف قرناو (معين) بترميم خنادقها وإصلاح أسوارها . ومنهم « وقة ايل ريام » ، و « يثع إيل صديق » الذي بنى حصن يشبوم . ومن ملوك معين المتأخرين « يثع ال ريم » وابنه « تبع كرب » ، ويتضمن النقش الذي ورد فيه اسماهما عبارة تشير إلى الحالة السياسية السيئة التي آلت اليها معين في هذه الفترة ، ويكشف عن خضوع معين وقتئذ لنفوذ سبأ السياسي ، إذ تتضمن اعترافاً من المعينيين بآلهة سبأ وبملوك سبأ وبشعب سبأ عليهم[5] .

ونستدل من الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجوف اليمني وفي ديدن (العلا) على أن حكومة معين كانت حكومة ملكية ، كما نستدل منها أيضاً على

---

(١) جواد علي ، ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٦٧ – ويرجع تاريخ نقوش معين في مصر الى سنة ١٥٦ ق.م في العام ٢٢ من حكم بطليموس السادس فيلوماتر .

(٢) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٧ ، ١٨

(٣) Philby, The background of Islam, p. 42

(٤) جواد علي ، ج ١ ص ٢٨٧

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٦٢ .

أن لقب ملك كان من الجائز أن يتلقب به اثنان في آن واحد من أبناء أو أشقاء الملك . وكانت للمدن المعينية مجالس تدير شؤونها في السلم والحرب تعرف باسم « مسود » على النحو الذي كانت عليه « دار الندوة » في مكة في العصر الجاهلي[1] . كذلك نستدل من النقوش المعينية على أن الضرائب كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع : ضرائب تعود جبايتها لخزانة الملك ، وضرائب تؤول إلى المعابد ، وضرائب إلى المشايخ والحكام . وضرائب المعابد نوعان : نوع يقال له أكرب ، أي تقدمها القبائل تقرباً للآلهة ، ونوع إجباري كان يفرض على الأفراد يقال له عشر[2] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

-٣-

الدولة السبئية

(٨٠٠ق.م – ١١٥ ق.م)

أ – السبئيون :

جاء ذكر السبئيين في النقوش الأشورية التي ترجع إلى أيام الملك تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني وسنحريب ، مما يشير إلى أن هؤلاء الملوك فرضوا الجزيات على ملكي سبأ يثعمر وكرب ايلو[١] . كذلك ورد اسم سبأ في التوراة بأنها بلاد تنتج الطيوب واللبان[٢] والأحجار الكريمة ومعدن الذهب[٣] ، وأن ملكة سبأ زارت سليمان في أورشليم ، وحملت إليه الطيوب والذهب الكثير والأحجار الكريمة[٤]، كذلك جاء ذكر ملكة سبأ في القرآن الكريم في

---

(١) المقصود بملوك سبا في النصوص الاشورية ، حكام سبأ المقيمين في واحات ديدن وبحان وتيماء ممثلين لملوك سبا (ارجع الى : موسل ، شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ ص ٩٦–٩٧ ،

Moscati, histoire et civilisation des peuples sémetiques, Paris, 1954, p. 180

(٢) الكتاب المقدس ، سفر ارمياء ، اصحاح ٦ ، آية ٢٠ ص ١٠٨٢

(٣) سفر حزقيال ، اصحاح ٢٧ ، آية ٢٣ ، ٢٤ ص ١٢١٩

(٤) سفر الملوك الاول ، اصحاح ١٠ ، آية ١ ، ٢ ، ص ٥٥١

سورة النمل[1].

وقد اختلف المؤرخون في أصل السبئيين، فبينما تذكر الروايات العربية أن سبأ من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان وتسميه بعبد شمس، وتفسر تسمية بسبأ بأنه كان يسبي الذراري والأطفال فسمي لذلك بسبأ[2]، نجد أن اسم سبأ ورد في التوراة باعتباره من كوش بن حام مرة[3]، ومن ولد يقطان مرة ثانية[4]. واغلب الظن أن السبئيين كانوا في الأصل شعب بدوي يتنقل بين شمال شبه جزيرة العرب وجنوبها، ثم استقر هذا الشعب في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق.م نتيجة لضغط الآشوريين عليهم من الشمال، واستغل السبئيون ضعف المعينيين، فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب دولة معين، فلما قوي أمر السبئيين قضوا على الدولة المعينية، وأقاموا دولتهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها، وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر. ويرى الأستاذ هومل أن السبئيين كانوا يستوطنون الجوف في بلاد العربية الشمالية، غير أنهم تركوا

---

(١) يقول الله تعالى: «فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون» إلى قوله تعالى: «قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (القرآن الكريم، سورة النمل - ٢٧، آية ٢٢ - ٤٤).

(٢) وهب بن منبه، كتاب التيجان في ملوك حمير، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧، ص ٤٨ — عبيد بن شرية، أخبار عبيد بن شرية، ملحق بكتاب التيجان، ص ٣٩٧ — البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥، ص ٤ — المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٧٤

(٣) أخبار الأيام الأول، إصحاح ١، آية ٩ ص ٦٣٢

(٤) سفر التكوين، إصحاح ١٠، آية ٢٨ ص ١٦

مواطنهم وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد ، واتخذوا صرواح ثم مأرب عاصمة لهم . ويعتقد الأستاذ هومل أنهم كانوا في الأصل يقيمون في المواضع التي أطلق عليهـا الأشوريون اسم عربي أو أريبي ، ووردت في التوراة باسم يارب أو يعرب ، فلما استقروا في اليمن أسسوا عاصمتهم مأرب التي سميت كذلك نسبة إلى اسم موطنهم الأصلي أريبي أو يارب[1] . وتؤكد النقوش السبئية أن أول مكارب سبأ أو رؤسائها المقدسين والمؤسس الأول لدولة سبأ ، هو سمه على الذي قدم في حشود من شعبه من شمال شبه جزيرة العرب ، وجاء ذكر هذا المكرب السبئي الأول في نقش يشير إلى قيامه بتقديم البخور نيابة عن شعبه إلى الإله المقه إله القمر .

استطاعت دولة سبأ أن تنمو وتزدهر لعظم ثراء شعبها ، نتيجة لاحترافهم الزراعة[2] ، وسيطرتهم على الطريق التجاري البري الذي يربط الجنوب بالشمال . وقد أطلق عليهم الأستاذ فيليب حتي اسم « فينيقيي البحر الجنوبي »[3] ، وأصبح لسبأ نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز الشمالية شمالاً ، وأصبحت أيضاً تسيطر على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوب شبه الجزيرة بسورية ومصر ، وكانت حكومة سبأ تبعث حكاماً يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق التجاري ، إلى جانب حاميات عسكرية ، لتضمن بقاء هذه المحطات التجارية في دائرة النفوذ السبئي . وكانت واحة ديدن (العلا) المركز الرئيسي الذي تمارس فيه سبأ نفوذها على شمال بلاد العرب .

ويمكننا بفضل النقوش السبئية أن نقسم عصر الدولة السبئية إلى مرحلتين

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ١٠٦

(٢) يشير القرآن الكريم الى هذا الثراء العريض الذي أصابته سبأ عن طريق الزراعة في قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية . جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . » (القرآن الكريم ، سورة سبأ (٣٤) آية ١٥) .

(٣) فيليب حتي ، ص ٦٠

تاريخيتين متتابعتين :

الأولى – مرحلة المكارب ، وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب أي المقرب من الآلهة والناس، أو الوسيط الذي يقرب بين الآلهة والناس. وقد اتخذ مكارب سبأ صرواح عاصمة لهم ، ثم نقلوها إلى مأرب، ويمتد عصر المكارب من سنة ٨٠٠ ق.م إلى سنة ٦٥٠ ق.م.

الثانية – مرحلة ملوك سبأ ، وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ بلقب ملك سبأ ، وقد استمرت هذه المرحلة إلى سنة ١١٥ ق. م.

ب – مكارب سبأ :

ذكرنا أن أول مكارب سبأ هو سمه على الذي أسس دولة سبأ ، وقد وصلنا من عصر هذا المكرب نقش تلبين منه أنه كان يقدم البخور باسمه للإله المقة . وخلفه ابنه يدع ايل ذريح (فيما يقرب من سنة ٧٨٠ ق . م) الذي أسس معبداً للإله المقة في صرواح ، كما أقام معبداً آخر للإله المقة في مأرب [١] ، وقدم القرابين إلى الإله عثتر [٢].

وخلفه يدع إيل ذريح ابنه يثع أمر الذي ينسبون إليه بناء معبد للإله المقة في بلدة داير الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف ، ونستدل من الموضع الذي أقيم فيه هذا المعبد على أن السبئيين اضطدموا بالمعينيين [٣]. وقام يدع إيل بين بن يثع

---

(١) احمد فخري ، الاكتشافات الاثرية في اليمن ، معبد المساجد ببلاد مراد ، بحث ابحاث المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية المنعقد في فاس في ١٩٥٩ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٥٥ – ٢٦٥

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ – صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٦ . وعثتر يرمز للكوكب الزهرة ، وهو ابن المقة

(٣) Philby, The Background of Islam , Alexandria, 1947, p. 40-41

أمر وخليفته من بعده بتحصين أبراج مدينة نشق المبنية [1]

واهتم مكارب سبأ منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية، فقد ورع كرب إيل بـين الأراضي الواقعة حول نشق الفلاحين لاستصلاحها واستغلالها زراعياً، ونهج ابنه ذمر علي ذريح نفس السبيل. وينسب إلى سمه علي ينف بن ذمر علي تنفيذ أعظم مشروع للري عرفته بلاد العرب في العصر القديم وهو إنشاء سد على فم وادي ذنة بمأرب يعرف باسم سد رحب سنة ٦٥٠ ق.م، وذلك لحجز مياه الأمطار والسيول، والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي. وقد ساعد هذا السد على تنظيم ري المناطق المجاورة للسد طوال العام، ولكنه لم يكن يفي بجميع حاجات الأراضي المزروعة، ولذلك عمد يثعمر أمر بين بن سمه علي ينف إلى زيادة سد رحب طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وأقام سداً أعظم منه يعرف بسد حبابض[2]. وبذلك نجح يثع إمر بين في مد الرقعة الزراعية بمأرب وزيادة ثروات البلاد. وكان لهذين السدين[3] بمأرب أعظم الأثر في تحويل مأرب (البلدة الطيبة في القرآن الكريم) إلى جنتين عن يمين وشمال.

وسد مأرب المذكور مقام على فم وادي ذنة حيث تتجمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار، ويبلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعاً، وقد بني بالحجارة والتراب، وينتهي أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه، ويرتكز السد على جبلين، ويتفرع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب، لها فتحات تترك مفتوحة لري سطح الجبلين، ثم تغلق بعد ذلك. وقد أصلح هذا السد ورمم في العصور التالية، إلا

---

(١) Philby, op. cit. p. 37 ـ جواد علي، ج ٢ ص ١١٩

(٢) Ibid. p. 39 ـ أحمد فخري، الاكتشافات الأثرية في اليمن، ص ٢٢٥

(٣) أقام الملك يثع أمر بين غير هذين السدين سدوداً أخرى منها سد يقران وسد يلحن وسد منهيت وسد كهلم (جواد علي، ج ٢ ص ١٢٠).

أن اضطراب أحوال الدولة الحميرية وإهمالها له عجل بتصدعه وانهيـــاره بعد ذلك ، وترتب على تدميره أن تحولت الأراضي المزروعة إلى أراض قفراء الأمر الذي أدى إلى هجرة بعض القبـائل إلى مشارف الشام كالأزد الغسـاسنة أو إلى البحرين كالتنوخيين أو إلى العراق فيما بين الحيرة والأنبار كالمناذرة .

وآخر مكارب اليمن هو كرب إيـل وتر الذي نقض سياسة التعمير السلمي وجرى على سياسة التوسع العسكري ، فهاجم الدولة المعينية وقضى عليهـا ، وانتصر على القتبانيين الذين كانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن على تخوم حضرموت وجنوبي مناطق نفوذ السبئيين[1] .وقد سجل كرب إيل وتر هذه الانتصارات على جدران معبد صرواح قربانا لآلهة سبأ المقة وعثتر[2] ، ثم نبذ هذا المكرب لقبه وتلقب بملك سبأ ،وأصبح بذلك أول حكام سبأ الذين تلقبوا بلقب « ملوك سبأ » .

ج – ملوك سبأ :

كان لسبأ في عصر الملكية أسطولها التجاري الكبير الذي كان يزود المعابد المصرية بالبخور والطيوب من اليمن والحرير والتوابل من الهند ، وكان من الطبيعي أن يتفوق السبئيون في الملاحة إذ أن بلادهم كانت تضم سواحل يطل بعضها على بحر القلزم ، والبعض الآخر على بحر الهند ، أهم مرافئها عدن[3] .

---

(١) عاصمة القتبانيين مدينة تمنع أو تمنا الواقعة في وادي بيحان قريبا من باب المندب، وتعرف حاليا باسم كحلان . وكانت الدولة القتبانية معاصرة لكل من الدولتين المعينيـــة والسبئية ، ولكنها سقطت فيما يقرب من عام ٢٥ ق.م.

(٢) Philby , op . cit. p. 40-41 – جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٧–١٤٦ – فؤاد حسنين ، ص ٢٦٢

(٣) Aly Moh. Fahmy, Muslim sea - power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966, p. 41

وفي عهد ملوك سبأ ، وبالذات منذ سنة ٥٠٠ ق.م فما بعدها ، بدأت تظهر أسرات قوية لعبت دوراً خطيراً في سياسة بلاد العرب الجنوبية ، من بينها أسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش من ملوك سبأ ، كما ظهرت آلهة جديدة لم نكن نسمع عنها مثل « ذو السماء » أو « ذو سماوي » أو « رب سماوي » ، وهي أسماء تعكس تطوراً خطيراً في حكومة سبأ ، وتغيراً هاماً في السياسة وفي الدين وفي النظم الاجتماعية[1].

ثم أخذ مركز ملوك سبأ يضعف منذ أن عمل البطالمة في مصر على احتكار التجارة الشرقية ، ولاقى ملوك سبأ منذ سنة ٣٥٠ ق.م كثيراً من المتاعب التي أثارها الهمدانيون ورؤساء القبائل الأخرى الطامعة في العرش ، وكان ملوك سبأ يهدفون إلى القضاء على استقلال الإمارات ودمجها في المملكة ، ولكن هذه السياسة القومية اصطدمت سريعاً بالمصالح الإقطاعية التي عز عليها أن تتنازل عن استقلالها ، ونتج عن ذلك قيام اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أضرت بالوضع الاقتصادي والسياسي لمملكة سبأ ، ومكن الدول الأجنبية من التدخل في شؤونها ، وأدى بالتالي إلى فقدان السبئيين السيطرة على البحر الأحمر وسواحل افريقيا ، بعد أن انتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان .

ويسجل العصر الأخير من ملوك سبأ قيام نزاع خطير حول العرش السبئي كان له أعظم الأثر فيما أصاب البلاد من تخريب وتدمير ، وفي تحول كثير من الأراضي المزروعة إلى صحراوات ، وفي غمرة هذا النزاع حاول الريدانيون[2] والحميريون الإفادة منه ، وتمكنوا في النهاية من انتزاع العرش السبئي ، وأسسوا في سنة ١١٥ ق.م أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب « ملوك سبأ وذي ريدان » ، وهم الحميريون الذين سنتحدث عنهم .

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٦

(٢) الريدانيون شعب عربي جنوبي ، كان يسكن قرب الساحل الجنوبي للجزيرة العربية الى الشمال من حضرموت ، بينما كان الحميريون يسكنون الى الغرب من حضرموت .

— ٤ —

الدولة الحميرية

(١١٥ ق.م — ٥٢٥ م)

اتفق المؤرخون على أن عصر «ملوك سبأ وذي ريدان» والعصر التالي له المعروف بعصر «ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت» هما العصران اللذان برز فيهما الحميريون على مسرح الأحداث في بلاد العرب الجنوبية ، ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصري الدولتين الحميرية الأولى والثانية .

أ — الدولة الحميرية الأولى (ملوك سبأ وذي ريدان)
(١١٥ ق.م — ٣٠٠ م)

مؤسس هذه الدولة «ذو آل شرح يحضب الذي ينسب إليه الأخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن [١] . وفي عصر هذه الدولة كانت الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية في سنة ٢٤ ق. م. للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها ملوك سبأ ، واستغلال

---

(١) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، تحقيق الدكتور نبيه أمين فارس ، برنستن ١٩٤٠ ، ص ١٩

ثروات اليمن[1] ، وتطهير البحر الأحمر من القراصنة . واعتمد اليوس جالوس في حملته على مساعدة الأنباط في عهد ملكهم عبادة الثاني الذي وعد الرومان بتقديم كافة المساعدات ، كما وضع وزيره صالح «سايليوس» تحت تصرفهم ليكون دليلا لهم في بلاد العرب. ويذكر استرابون أن الحملة خرجت من ميناء لويكة كومة ميناء الأنباط المعتقد أنها الحوراء ، وسلكت الطريق البري عبر الحجـــاز ، ووصلت إلى مارسيابا مارة بنجران ونشق ، بعد ستة أشهر تعرض الجند خلالهـــا لأمراض وأوبئة فضلا عن متاعب لا حصر لها بسبب وعورة الطرق ، ثم عادت الحملة بعد ذلك إلى مصر عن طريق نجران بعد أن فقد قائد الحملة معظم رجاله من الجوع والمرض [2]. وهكذا أخفقت الحملة الرومانية وأصيب رجالها بكارثة ألقيت تبعتها على عاتق صالح النبطي الذي اتهم بالخيانة وسوء المشورة ، كما اتهم بالسعي عمداً لإهلاك أجناد الرومان [3].

ولقد خيبت حملة اليوس جالوس آمـــال الرومان في بلاد العرب ، إذ كانوا يظنون أنهم سيخترقون جنات يانعة وعمراناً متصل[4]،واضطروا بعد انتصارات حربية هزيلة لا تتعادل مع ما لاقوه من مشاق الطريق ، إلى العدول عن خطتهم في فتح جزيرة العرب[5]. ويبدو أن فشل حملة اليوس جالوس كان السبب في قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية نحو بلاد العرب ، فعدلوا نهائياً عن فتح هذه

---

(١) Philby, op. cit. p. 100 ـ فيليب حتي ، ص ٥٦ — جواد علي ، ج ٢ ص ٢٨٤

(٢) Ibid. p. 101

(٣) فيليب حتي ، ص ٥٦ — جواد علي ، ج ٢ ص ٢٨٦

(٤) D.G. Hogarth, Arabia. Oxford, 1922 , p. 5

(٥) سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة الاستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٨ . ومن بين المعارك التي اشتبك فيها الرومان مع العرب معركة في موضع يبعد عن نجران مسيرة ستة ايام ، لم يخسر فيها الرومان سوى جنديين (راجع جواد علي ، ج ٢ ص ٢٨٨) .

البلاد عسكرياً ، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البحرية ، وتدعيم مصالحهم التجارية في هذه البلاد عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي . ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري «Periplus Maris Erythraei» أن الرومان عقدوا حلفاً مع ملك الحميريين الذي كان يملك مناطق واسعة من سواحل بلاد العرب الجنوبية على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندي حتى حضرموت، كما كان يملك ساحل عزانيا في افريقيا[1].

وفي هذا العصر الحميري الأول بدأ الضعف يدب في كيان دولة سبأ وذي ريدان ، وتطلع البطالسة ومن بعدهم الرومان إلى احتكار الطريق التجاري عبر البحر الأحمر، والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجار العرب في اليمن وحضرموت[2]. وكان ميناء لويكة كومة Lueke Kome أو المدينة البيضاء أهم الموانىء التجارية على سواحل الحجاز في أيام البطالسة ، ومن هذا الميناء كانت السفن تصل إلى الساحل المصري لتفرغ حمولتها هناك ، فتنقل منه بالقوافل البرية أو بالسفن عبر القناة القديمة الموصلة بين البحر الأحمر والنيل إلى داخل البلاد[3]. ورأى الرومان بعد أن أخفقت حملتهم على اليمن أن يقتصروا على السيطرة على الطريق التجاري البحري المذكور وإقامة علاقات ودية مع حكومة الحبشة . وقد أضر ذلك باقتصاديات اليمن إضراراً بالغاً أكثر مما أضر بها انكسار سد مأرب[4]. وآخر ملوك دولة حمير الأولى المعروفين في المصادر العربية بالتبابعة هو الملك « ياسر ينعم »، ويعرف في المصادر العربية باسم ناشر النعم[5]، أو ناشر ينعم[6]، أو ياسر

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٦٩ — ٧٢

(٣) جواد علي ، ج ٢ ص ٢٧٨

(٤) I. Guidi, l.' Arabie antéislamique, p-67

(٥) وهب بن منبه ، كتاب التيجان من ملوك حمير ، ص ٢١٩ ، ٢٦٠ ـ الاكليل ، ص ٧ ج ٢

(٦) حمزة بن الحسن الاصفهاني ، كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، برلين ١٣٤٠ ، ص ٨٣

ينعم[1] ، وهو عند الأخباريين مالك بن يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ[2] ، ويزعمون أنه عرف بهذا الاسم لأنه أحيى ملك حمير بعد أربعين عاماً أيام سليمان بن داود[3]، أي أنهم يرجعون عهده إلى أيام سليمان ، مع أنه من ملوك حمير في القرن الثالث الميلادي[4].

وينسب الرواة إليه الفتوحات العظمى ، فزعموا أنه وجمع حمير وقبائل قحطان وخرج بالجيوش إلى ماحوى آباؤه والتبابعة العظماء ، فوطىء موطئاً من الأرض عظيماً ، واشتد سلطانه ، فخرج إلى المغرب حتى بلغ إلى البحر المحيط فأمر ابنه شمر وهو شمر يرعش بن ناشر النعم – وإنما سمي يرعش لأنه منه ارتعاش من شرب الخمر ، وقال الأيلي كان يسمى شمر يرعش والشمر البوار في لغة حمير – أن يركب البحر المحيط، فركب في عشرة آلاف مركب وسار يريد وادي الرمل ، وقال له لا ترجع حتى تعبره وترجع إلي بما رأيت ، فركب شمر ونزل ناشر النعم على صنم ذي القرنين ، فأخرج عساكر إلى الافرنج والسكس ، وعبرت عساكره إلى أرض الصقالبة فغنموا الأموال وسبوا الذراري ، ورجعوا إليه بسبي من كل أمة في جزائر البحر . . »[5] . وزعموا أيضاً أنه غزا الحبشة واستولى عليها[6] ، وغلب على أرض الترك وطبرستان وجبال الصغد[7] ، إلى

---

(1) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨ ، ج ١ ، ص ١٨٥

(2) كتاب التيجان ص ٢١٦ ، ويسميه الهمداني مالك بن عمرو بن يعفر بن حمير بن المنتاب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ

(3) التيجان ص ٢١٦ ، وذكر عبيد بن شرية أنه سمي كذلك لأنه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم (كتاب التيجان ص ٤٢٦) .

(4) جواد علي ، ج ٢ ص ١٤٠

(5) كتاب التيجان ، ص ٢٢٠

(6) نفس المصدر ، ص ٢٢٠

(7) نفس المصدر ، ص ٢٢١

أرض الكرد والزط والخزر وفرغان فغلب عليهم ، وأنه مات بدبنور[1] .

وواضح أن هذه الروايات خرافية ،فقد عاش ناشر النعم هذا في القرن الثالث الميلادي ، وقد ورد اسمه في نقش مؤرخ في سنة ٢٧٠ ميلادية[2] .

ب – الدولة الحميرية الثانية : (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) (٣٠٠ م – ٥٢٥ م) :

مؤسس هذه الدولة شمر يهرعش المعروف عند الأخباريين بشمر يرعش بن ناشر النعم (٢٧٠ – ٣١٠ م) الذي تلقب فيما يقرب من عام ٢٩٠ م بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت . وشمر هذا عند الأخباريين هو تبع الأكبر[3] . الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين »[4] . وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية ،وهزم الترك ،وهدم المدائن بدبنور وسنجار ،ودخل مدينة السغد وهدمها فسميت شمر كند[5] أو شمر كنداي عند الفرس ، من شمر أي خرب في زعمهم ثم عربت إلى سمرقند[6] ،أو لأن شمر هدمها فسميت به[7] ،وقيل في رواية أخرى أن شمر يهرعش لما افتتح سمرقند هدمها ثم أمر ببنائها[8] . وذكروا أيضاً أنه

---

(١) الاكليل ، ص ٢٠٨

(٢) فرتز هومل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ص ٩٨ — جواد علي ، ج ٢ ص ٤٤١

(٣) كتاب التيجان ، ص ٢٢٢ — الاكليل ، ص ٢١٠ . وقد سمي بالاكبر لانه لم يقم للعرب قائم قط احفظ لهم منه ، وكان افضل من رأوه من الملوك واعلاهم همة واشدهم مكرا لمن حارب .

(٤) القرآن الكريم ، سورة الدخان ، رقم ٤٤ آية ٣٧

(٥) اخبار عبيد بن شرية ، ص ٢٩ ،

(٦) كتاب التيجان ، ص ٢٢٧

(٧) اخبار عبيد بن شرية ، ص ٢٩ ،

(٨) نفس المصدر ، ص ١٢٢ — الاكليل ، ص ١٢٥

يسط نفوذه على الهند وغلب على أرض الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر[1].

وذكر الهمداني نقلاً عن عبد الملك بن هشام بن السائب الكلبي أنه أول من أمر بصناعة « الدروع السوابغ المفاضة التي منها سواعدها وأكفها ، وهي الأبدان »[2].

ولا شك أن ما رواه العرب عن فتوحاته لا يعدو قصصاً خرافية ، والثابت أنه انتصر على مناطق كثيرة من بلاد العرب الجنوبيــة ، وأنه تغلب على قبائل تهامة التي كانت تسكن على ساحل البحر الأحمر ، ولعل هذه الانتصارات القليلة التي أحرزها أحد ملوك حمـير في عصر ظهور الأحباش وتطلعهم إلى التوسع في بلاد العرب الجنوبية سبباً دعا هؤلاء الأخباريين إلى المبالغة في تعظيم شمر يهرعش ونسبة هذه الأعمال الخارقة إليه . فمن المعروف أن الفترة التي تمتد ما بين تاريخ وفاة شمر يهرعش والاحتلال الحبشي الأول لبـلاد اليمن وريدان في سنة ٣٤٠ ميلادية فترة غامضة في تاريخ العربية الجنوبية ، بل إن خبر احتلال الحبشة لليمن لم يعرف إلا من كتابات عثر عليها في أكسـوم عاصمة مملكة أكسـوم القديمة ، ففي هذه الكتابات لقب نجاشي الحبشة « بملك أكسـوم وحمـير وذو ريدان والحبشة وسبأ وصلع وتهامة والبجاه وكسو »[3].

وغزو الأحباش الأول لليمن لا يرجع إلى عوامل دينية ، إذ لم يكن ملك الحبشة قد نبذ بعد الوثنية واعتنق المسيحية ، ولم يرد في الأخبار أن الاعميدا ، وهو النجاشي الذي افتتح اليمن ، كان مسيحيا ، ويرجح الدكتور جواد علي أن

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٢٢٧ — ٢٣٦

(٢) الاكليل ، ص ٢١١

(٣) جواد علي ، ج ٢ ص ١٤٨

هناك عوامل اقتصادية لها اعتبارها في غزو الأحباش لليمن[1]. وأعتقد أن غزو الأحباش الأول لليمن كان رد فعل لسيطرة الحميريين في القرن الأول الميلادي على ساحل أزانيا أو لتأديب الحميريين بسبب تجرئهم على مهاجمة التجارة الحبشية .

فترة الاحتلال الحبشي الأول لليمن في عصر الدولة الحميرية الثانية :

يعتقد فريق من العلماء أن الحبشة (حبشت) كانوا في الأصل جماعات عربية يمنية كانت تعيش على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية شرقي حضرموت ، ثم هاجرت غرباً ، وعبرت مضيق باب المندب ، واستوطنت المناطق المقابلة لليمن على ساحل البحر الأحمر من القارة الافريقية[2] . وقد تم عبور هؤلاء العرب الجنوبيين تدريجياً في زمن قديم لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ، والأرجح أنه حدث قبل طليعة القرن الرابع ق.م. وتمكن هؤلاء العرب الجنوبيون من تأسيس مستعمرة تجارية على الشاطىء الاريتري ، ولم يلبثوا أن مدوا نفوذهم إلى الهضبة الأثيوبية على حساب شعوب الكوش التي كانت تعيش في هذه البلاد قبل هجرتهم . ومضي الزمن تأفرق هؤلاء المهاجرون ، وأخذوا ينشرون بذور الحضارة السامية في البلاد ، ومنذ القرن الأول الميلادي نجح هؤلاء العرب الجنوبيون في تأسيس مملكة أكسوم . ومعلوماتنا عن هذه المملكة في هذا العصر مستقاه من صاحب كتاب « الطواف حول البحر الاريتري » الذي يصف ثغر أودليس (زلع) ، ومدينة أكسوم ، عاصمة المملكة الحبشية والمركز الرئيسي لتجارة العاج[3] ، بالاضافة إلى نقوش أثرية أحدها عثر عليه الرحالة اليوناني كوزماس وترجع إلى ملك من

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٤٩

(٢) صاحب هذا الرأي هو جلاسر في كتابه
Die Abessinier in Arabien Und Afrika, München, 1895
وتبعه في ذلك جمهور كبير من العلماء من بينهم رينان وكونتي روسيني وموسكاتي وجويدي ، ولم نتوصل بعد الى معرفة موضع حبشت .

(٣) Guidi, L'Arabie Antéislamique, p. 69 - Moscati, Histoire et Civilisation de peuples sémitiques, p. 214 - 215

ملوك أكسوم الذين عاشوا في القرن الأول الميلادي[1]، وآخر يوناني وصلنا جزء منه ، هذا إلى وثائق أكسومية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي[2].

ازدهرت مملكة أكسوم في القرن الثالث الميلادي وأخذت تمد نفوذها وسيطرتها على المناطق المجاورة لها في الشمال والجنوب والشرق. وفي هذه المرحلة التوسعية من مراحل تاريخ مملكة أكسوم دخلت المسيحية في الحبشة عن طريق بعض المبشرين فيما يقرب من عام ٣٢٠م ، وأصبحت المسيحية بعد أن اعتنقها عزانا ملك أكسوم الدين الرسمي للمملكة الأكسومية[3]. ولم يمض عشر سنوات على انتشار المسيحية في الحبشة حتى أقيم في أكسوم أول أسقف واسمه فرومنتيوس، وفي الوقت نفسه كان المبشرون المسيحيون السوريون يقومون بنشر المسيحية في اليمن[4].

كان غزو الأحباش لليمن في عهد النجاشي الاعميدا فيما يقرب من سنة ٣٤٠م، كما سبق أن أوضحت، رد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة ، ولم يكن للعوامل الدينية دخل في هذا الغزو . وتم الغزو في عهد يريم يرحب بن شمر يرعش، ومنذ ذلك الحين تلقب ملك أكسوم بلقب ملك أكسوم وحمير وذي ريدان وحبشت وسبأ وتهامة، وفر ملك حمير وأبناؤه إلى يثرب[5]، مركز اليهودية في الجزيرة العربية ، منذ أن حطم طيطس بيت المقدس في سنة ٧٠ م. وبينما تأثر ملكي كرب يهأمن بن يريم يرحب الحميري وابنه أبو كرب

---

(١) ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ، الفصل الاول من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٤

(٢) نفس المرجع

(٣) Guidi, L'Arabie Antéislamique, p.72-Mosscati, op.cit. p.216

فؤاد حسنين) استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠١

(٤) philby, op. cit. p. 112.

(٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ (النجف ١٣٥٨ هـ) ص ١٦٠

أسعد باليهودية في يثرب فتهودا ، نجد الأحباش يشجعون على نشر المسيحية في اليمن، فيقوم المبشرون السوريون بالدعوة لها في العربية الجنوبية، وينجح الراهب فيميون في تنصير عدد كبير من سكانها ويؤسس كنيسة في نجران [١].

ولم يطل أمد الاحتلال الحبشي لليمن ، ففي عهد الملك الأكسومي عزانا ، الذي اعتنق المسيحية في سنة ٣٥٠م كدين للدولة الحبشية، قامت بعض الثورات في مناطق إفريقية من مملكته ، فانتهز اليمنيون فرصة انشغاله باخماد هذه الثورات وتمكن ملكي كرب يهمن من استرداد البلاد، وطرد الأحباش منها فيما بين عامي ٣٧٠ ، ٣٧٨ م. وقد ورد اسم هذا الملك مع ابنيه أبي كرب أسعد وورو امر أيمن في نقش يرجع تاريخه إلى سنة ٣٧٨ م، جاء فيه أن هؤلاء جميعاً أقاموا معبداً للاله « ذو سموي » أي إله السماء أو رب السماء [٢]. ويعلل الأخباريون العرب انتشار اليهودية في اليمن بعد أن استردها أبو كرب أسعد بأنه لما رجع إلى اليمن عن معه من الجنود والحبرين اليهوديين دعا قومه إلى الدخول في اليهودية فحال قومه بينه وبين دخولها ، وقالوا له : «لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا . قال إنه خير من دينكم ، فقالوا له : حاكمنا إلى النار . قال نعم . وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم شيئاً . فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدين بها حتى قعدا للنار عند مخرجها ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها . فأمرهم من حضر بالصبر ، وصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما . فاتفقت عند ذلك حمير على دينه ، فمن هناك كان أصل دين اليهودية »[٣].

---

(١) فؤاد حسنين ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ١٥٢

(٣) كتاب التيجان ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧

فترة الانتقال بين الغزوين :

لا تدل عبارة « ذو سموي » عند الحميريين بعد ٣٧٨ م على انتشار اليهودية في بلاد اليمن ، كما تشيع الروايات العربية ، ولكن انتشار هذه العبادة يدل على اتساع أفق العرب الجنوبيين الديني بعد احتكاكهم بالمبشرين المسيحيين وبالأحباش المتنصرين وبالأحبار اليهود ، ويعتقد الدكتور جواد علي أنه يفهم من ذلك أن عرب الجنوب خطوا « خطوة نحو التوحيد ، خطوة نحو تصفية الحساب مع العقيدة الوثنية القديمة التي تعترف بآلهة عديدة مع الآلهة المحلية ، والاعتقاد بوجود إله واحد أعلى قاهر هو رب السماء »[1].

وخلف أبو كرب أسعد أخوه وروامر أيمن فيما يقرب من سنة ٤١٥ ، ثم انتقل الحكم من بعده إلى أخيه شرحبيل يعفر سنة ٤٢٠ م . وفي عهده تم ترميم سد مأرب في ٤٤٩م . ويبدو أن هذه الأعمال لم تجد نفعاً ، فقد تهدم السد بعد ترميمه بعام واحد في سنة ٤٥٠ ـ ٤٥١م ، وأدى ذلك إلى فرار جماعات كبيرة من سكان هذه المنطقة إلى الجبال ، فقام الملك شرحبيل من جديد ببناء السد ، وتم ذلك في سنة ٤٥١م . وسجل الملك شرحبيل هذه الأعمال في نقش طويل تضمن فيما تضمنه عبارة تدل على انتشار عقيدة التوحيد في اليمن في زمن شرحبيل نصها «بنصر وردا الهن بعل سمين وأرضن» أي بنصر وبعون الاله سيد السماء والأرض ، وهي تعبير لا يتفق مع الديانتين المسيحية واليهودية[2].

ويرجع جلاسر تهدم سد مأرب في زمن شرحبيل يعفر إلى غزو الأحباش لليمن ، بينما يرجعه آخرون إلى ثورة الهمدانيين وانتصارهم ، أو إلى تحول التجارة من مأرب إلى الطريق البحري عبر البحر الأحمر واستئثار الرومان بالتجارة

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ١٥٢

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٥٨

البحرية مما أضاع على الحميريين ما كانوا يجنونه من ثروات ، فأهملوا ترميم السد فتهدم[1] . ويمكننا أن نستنتج من النقش المذكور أن هجرة القبائل اليمنية التي كانت تسكن بجوار مأرب تم بسبب تهدم سد مأرب وعجز ملوك حمير عن ترميمه ترميماً يتهيأ معه أن يقوم بوظيفته ، وهذا يبرر الروايات التي رواها الأخباريون عن تهدم سد مأرب وتفرق سبأ .

وخلف شرحبيل ملك يدعى عبد كلال لم ينعم طويلاً بالملك ، ورد ذكره في المصادر العربية على أنه عبد كاليل[2] بن ينوف أو عبيد كلال بن مثوب[3]، وأنه كان مؤمناً على دين عيسى . كذلك ورد اسم عبد كلال في نص أثري يتضمن عبارة تشير إلى عقيدته في التوحيد نصها : « بردا رحمنن » أي بعون الرحمن . واتفاق الرواية التاريخية والنقش الأثري دليل على صحة الاسم .

وتتابع بعد عبد كلال على عرش المملكة الحميرية عدد من الملوك تنتهي قائمتهم بالملك المشهور ذي نواس (٥١٠ – ٥٢٥م) آخر ملوك حمير ، ويسجل عام ٥٢٥م سقوط الدولة الحميرية على أيدي الأحباش .

الغزو الحبشي الثاني لليمن وسقوط الدولة الحميرية الثانية :

كان تحول ملوك أكسوم إلى المسيحية إيذاناً بتقارب هذه المملكة مع بيزنطة حامية نصارى الشرق ، وكان الأحباش يطمعون في السيطرة على بلاد اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية[4] دون أن تتعرض للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون . ويبدو أن نفوذ الأحباش على اليمن ظل قوياً حتى بعد أن تمكن أبو كرب أسعد

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٦

(٢) كتاب التيجان ، ص ٢٩٦

(٣) حمزة الاصفهاني ، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٨٧

(٤) مراد كامل ، مقدمة لكتاب سيرة الحبشة ، تأليف الحيمي الحسن بن أحمد ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦١

من تحرير اليمن من حكمهم ، ولعل هذا النفوذ أو الضغط السياسي الذي كان يمارسه ملك الحبشة على اليمن دعا ملكها ذا نواس[1] إلى أن يربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد نفوذ الأحباش السياسي في البلاد ، ولذلك عول على تحويل نصارى نجران عن دينهم بالقوة[2]. وعندئذ وجد كالب ملك الحبشة فرصته المواتية لغزو اليمن بحجة وضع حد لسياسة ذي نواس التعسفية مع النصارى . وجاءت اللحظة التي تهيأ له فيها التدخل المباشر عن طريق الغزو ، إذ قام ذو نواس بمهاجمة نجران أكبر مركز للمسيحية في اليمن في سنة ٥٢٣م ، وخيّر أهلها بين نبذ المسيحية أوالقتل حرقاً، فتخيروا القتل، وآثروا الاستشهاد، فحفر لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم ، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج ، إذ يقول تعالى « قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود »[3] وأحدثت هذه الفظائع صدى عميقاً عند ملكي النصرانية نجاشي الحبشة وامبراطور بيزنطة وأثارت غضبهما على ذي نواس . ويذكر وهب بن منبه أن ذا نواس « احتفر أخاديد في الأرض وملأها ناراً، فمن تابعه على دينه خلى عنه، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها ، حتى أتى بامرأة ومعها صبي صغير ابن سبعة أشهر فقال لها ابنها : أمضي يا أماه على دينك ، فانها نار وليس بعدها نار، فرمى بالمرأة وابنها في النار رجل يقال له ذو ثعلبان واسمه دوس ، فسار في البحر إلى ملك الحبشة فأخبره بما فعل ذو نواس بأهل دينه ، فكتب ملك الحبشة إلى قيصر يعلمه بما فعل ذو نواس ويستأذنه في التوجه إلى اليمن، فكتب إليه يأمره

---

(١) يسميه بعض الاخباريين العرب زرعة ذي نواس بن تبان اسعد (كتاب التيجان ، ص ٣٠٠) ويسميه آخرون بيوسف ذي نواس (الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج ٢ قسم ١ ص ١١٩) .

(٢) ذكر حمزة الاصفهاني ان ذا نواس كان قد « نزل يثرب مجتازاً بها فاعجبته اليهودية فتهود ، وحملته يهود يثرب على غزو نجران لامتحان من بها من النصارى « الذين اعتنقوا النصرانية بفضل تعاليم رجل قدم اليهم من بلاد الغساسنة (حمزة الاصفهاني ، ص ٨٨) .

(٣) القرآن الكريم ، سورة البروج ٨٥ ، آية ٤–٧

بالمسير إليها ...»[1] . وفي رواية أخرى لليعقوبي يقول : وملك ذو نواس بن أسعد ، وكان اسمه زرعة ، فعتا ، وهو صاحب الأخدود ، وذلك أنه كان على دين اليهودية ، وقدم اليمن رجل يقال له عبدالله بن الثامر ،وكان على دين المسيح ، فأظهر دينه باليمن ، وكان إذ رأى العليل والسقيم قال أدعو الله لك يشفيك ، وترجع عن دين قومك ، فيفعل ذلك ، فكثر من اتبعه ، وبلغ ذا نواس ، فجعل يطلب من قال بهذا الدين ويحفر لهم في الأرض الأخدود، ويحرق بالنار ، ويقتل بالسيف، حتى أتى عليهم، فسار رجل منهم إلى النجاشي وهو على دين النصرانية فوجه النجاشي إلى اليمن بجيش ... »[2] . وذكر صاحب الأخبار الطوال أن ذا نواس سار إلى مدينة نجران ليهود من فيها من النصارى ، فدعا أهلها إلى ترك دينهم والدخول في اليهودية، فأبوا، فأمر بكبيرهم عبدالله بن الثامر ، «فضربت هامته بالسيف ، ثم أدخل في سور المدينة ، فضم عليه ، وخد للباقين أخاديد ، فأحرقهم فيها ، فهم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله عز اسمه في القرآن . وأفلت دوس ذو ثعلبان ، فسار إلى ملك الروم فأعلمه ما صنع ذو نواس بأهل دينه من قتل الأساقفة واحراق الانجيل وهدم البيع ، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فبعث بأرياط ..»[3]. وقد أورد الطبري رواية مماثلة لرواية الدينوري، وأضاف عليها أن قيصر كتب إلى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ، ويأمره بنصر ذي ثعلبان وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه ، فلما قدم ذو ثعلبان على النجاشي ومعه كتاب قيصر ، سير معه سبعين ألفاً من الأحباش يقودهم قائد يقال له أرياط[4] .

وقد لقي ذو نواس مصرعه في المعركة التي قامت بينه وبين أرياط ، وبقتله

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٣٠١

(٢) اليعقوبي ، ص ١٦١

(٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٦٢

(٤) الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٢٧

يبدأ عهد جديد خضعت فيه بلاد حمير للأحباش

* * *

ومن المرجح أن ذا نواس كان وثنياً ولم يكن يهودياً كما يزعم الأخباريون ، وكان يتحامل على النصارى دون اليهود لأنه ربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد النفوذ البيزنطي والحبشي في بلاده. وكان العدد الأعظم من الحميريين وثنيين وقد عارضوا ثيوفيلوس الراهب الذي أرسله الامبراطور قسطنطين للتبشير في بلاد اليمن. أما النصارى الحميريون فقد كانوا -وفقاً للرواية الحبشية- يرسلون بهداياهم إلى النجاشي ويدفعون إليه الضرائب ، وكان من الطبيعي لذلك ألا يسكت ملك حمير على هذا التدخل[1]. ونستنتج مما جاء في القرآن الكريم خاصاً بأصحاب الأخدود أن ذا نواس دعا أهل نجران النصارى إلى الرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية لأن النصرانية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن كانتا ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى[2]، ولا شك أن أصحاب الأخدود كانوا وثنيين لم ينقموا من أهل نجران إلا لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، ويتضح ذلك في قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء شهيد »[3] .

وقد زار فلبي وادي نجران وعثر فيه على خرائب أثرية قديمة ، ويعتقد فلبي أن الخرائب الموجودة حالياً في بلدة رقمت بنجران هي آثار الأخدود الذي احتفره ذو نواس[4] .

---

(1) جواد علي : ج ٣ ص ١٧٩

(2) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤

(3) القرآن الكريم ، سورة البروج ، ٨٥ آية ٩

(4) J.B. Philby, Arabian highlands, New York, 1952, pp. 237-273.

الفصل الثاني

اليمن في ظل الأحباش والفرس

(١) استيلاء الأحباش على اليمن في ٥٢٥م .

(٢) الأحباش في اليمن .

أ - تولية أبرهة على اليمن .

ب - حملة أبرهة على مكة في عام الفيل (سنة ٥٧٠ م) .

ج - سياسة مسروق بن أبرهة الاستبدادية ونتائجها .

(٣) اليمن في ظل الفرس .

- ١ -

استيلاء الأحباش على اليمن في ٥٢٥م

ذكرت بعض المصادر العربية في أسباب غزو الأحباش لليمن أن الروم أرادوا أن يثأروا لشهداء المسيحية في اليمن، فكتب ملكهم إلى نجاشي الحبشة يأمره بغزو اليمن. هذا التعليل لا يبدو متماسكاً أمام الحقائق التاريخية التي نستخلصها من الوقائع السابقة على الغزو الحبشي، وأغلب الظن أن الغزو الحبشي لليمن يرجع إلى عوامل سياسية اقتصادية، فقد كانت بيزنطة تسعى إلى السيطرة على الطرق التجارية الموصلة للمحيط الهندي، وبالتالي بسط نفوذها السياسي على العرب لمناوءة أعدائها الفرس. كذلك كانت الحبشة تسعى إلى تأديب الحميريين الذين كانوا يتحرشون بقوافلها التجارية في البحر الأحمر، ومن هنا وجد تقارب سياسي بين بيزنطة وأكسوم. ولا يخفى أيضاً أن العامل الديني كان له اعتباره في هذه المسألة، فبيزنطة وأكسوم اتخذتا من اضطهاد الحميريين لنصارى اليمن ذريعة للتدخل باعتبار أن الامبراطور البيزنطي جستنيان كان يعد نفسه حامياً للكنيسة الشرقية. فالسبب الظاهري لحملة الأحباش سبب ديني، ولكن السبب الحقيقي لها سياسي اقتصادي على النحو الذي أوضحناه في الفصل السابق.

وأياً ما كان الأمر فقد أعد النجاشي كالب جيشاً ضخماً يقدره الأخباريون بنحو سبعين ألف مقاتل بقيادة رجل يقال له أرياط بن أصحمة[1] ، أوصاه نجاشي الحبشة بأن ينتقم أشد انتقام من ذي نواس وأجناده ، وعهد إليه بأن يقتل ثلث رجالهم ، ويخرب ثلث بلادهم ، ويسبي ثلث نسائهم وأولادهم[2] . فأبحر الأحباش في سفنهم من « بلاد ناصع وزيلع » ، وحطوا على « ساحل زبيد من أرض اليمن »[3] ، وحشد ذو نواس جيوشه والتقى مع جيش الأحباش ، فانهزم الحميريون هزيمة نكراء ، وتفرقوا عنه ، « فلما رأى ذو نواس افتراق قومه وانهزامهم ، ضرب فرسه واقتحم به البحر ، فكان آخر العهد به »[4]. وذكر الهمداني أنه « اقتحم بفرسه البحر لما غلب في قتال الحبشة على ساحل البحر[5] ، وذكر آخرون أنه قتل في المعركة ، ودخل أرياط دمار التي سميت بصنعاء[6] ، وذهب بذلك ملك الحميريين .

وانتقم الأحباش من الحميريين ، فهدموا قصور اليمن مثل قصر سلحين وبينون ، وفي ذلك يقول الشاعر علقمة ذو جدن :

أو ما رأيت وكل شيء هالك ... بينون خاوية كأن لم تعمر

أو ما رأيت وكل شيء هالك ... سلحين خاوية كظهر الأدبر

أو ما رأيت بني عطاء باهتا ... قد أصبحت تسفي عليهم صرصر

---

(١) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢ — المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٨

(٢) الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٢٧

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٨ . وذكر الدينوري ان المعركة قامت في ساحل عدن ، الاخبار الطوال ص ٦٢)

(٤) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢

(٥) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ص ٢٢٦

(٦) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٦٢ — جواد علي ، ج ٢ ص ١٩١

أو ما سمعت بحمير وقصورها　　　　أمست معطلة مساكن حمير

فابكيهم أما بكيت لمعشر　　　　لله درك حمير من معشر[1]

وقد عرف ذو نواس في النصوص المسيحية باسم ديمنوس Dimnus، ودامیان Damian، وديميانوس Dimianos ، بينا عرف في النصوص الحبشية باسم فنحاس Phinhas[2] . أما ملك الحبشة فقد اختلفوا في اسمه فدعاه بروكوبيوس باسم هليستاوس Hellestheaeus ، ودعاه آخرون باسم Eleesbaas و Elisbahaz ، وهو اسم مشتق من ايلا صباح في الحبشية ، كذلك دعاه يوحنا الإفسي باسم أيدوج Aidug وأنداس Andas ، أما في الروايات الحبشية فقد سمي كالب Kaleb Ela Asbeha[3] ، ومن الواضح أن التسمية الحبشية أصح إذ أن أيدوج أو أنداس يعني به الاعمدا الذي كان معاصراً للامبراطور البيزنطي قسطنطين ، وكان أول من تنصر من ملوك الحبشة . أما أرياط الوارد اسمه في الروايات العربية ، فنعتقد أنه نفس الشخص الذي دعاه ثيوفانس باسم اريتاس Arethas[4] أو الحارث، وما أقرب أريتاس من أرياط. وقد اشترك معه في الحملة أبرهة المعروف في المصادر المسيحية باسم ابراميوس Abramios ، ولعله هو نفس ابراهام Abraham الذي ذكره بروكوبيوس ، وواضح اقتراب لفظة ابراهام من لفظة أبرهة التي حرفها الأخباريون .

ومن المتفق عليه بين الأخباريين أن ذا نواس كان آخر ملوك حمير ، ولكن

---

(1) كتاب التيجان ، ص ٣٠١ — الاكليل ، ج ٨ ص ٢٢٧

(2) جواد علي ج ٣ ص ١٩٠

(3) نفس المرجع ، ص ١٩١
Philby, The Background of Islam, p. 121 - Moscati. op. cit. p. 216

(4) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩٦

حمزة الأصفهاني يذكر أن ذا جدن بن ذي نواس تولى الملك من بعده[1] ولقى نفس مصير أبيه ، وقد عثر ولسند في حصن غراب باليمن على نقش حميري جاء فيه أن الأحباش فتحروا أرض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والارحبيين في سنة ٦٤٠ من التأريخ الحميري الموافق لسنة ٥٢٥ م ، فتحصن سميفع أشوع وأولاده في حصن مويحت (الغراب)[2] .

ويرجح بعض العلماء أن السميفع أشوع المذكور كان من قواد ذي نواس وتخلى عنه بعد الهزيمة ، وتحصن هو وأولاده في حصنهم حتى تم للأحباش دخول اليمن ، فاستخدموه ملكاً[3] . ويتفق هذا الرأي مع ما ذكره بروكوبيوس من أن الذي حكم حمير بعد مقتل ملكهم رجل اسمه ايسيميفاوس Esimiphaeus ، اختاره النجاشي من بين نصارى حمير ليكون ملكاً على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية[4] . ولا شك أن اسم السميفع أشوع الذي ورد ذكره في نص حصن غراب هو نفس ايسيميفاوس الذي ذكره بروكوبيوس .ويؤكد ذلك نقش حميري محفوظ في متحف اسطنبول يتضمن في مطلعه العبارة الآتية : « نفس قدس سميفع أشوع ملك سبأ » ، وفي آخر النص « بسم رحمنن وبنهو كوشتش غلبن » ، ومعناها : « بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب » ، وتعبر هذه الجملة على أن السميفع كان ملكاً على سبأ وأنه كان على دين المسيحية .

مما سبق ذكره يمكننا أن نستنتج أن النجاشي نصب على اليمن ملكاً تابعاً له هو السميفع أشوع حتى لا يثير عليه الحميريين .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ٨٦

(٢) جرجي زيدان ، ص ١٥٠ — جواد علي ، ج ٢ ص ١٦٩

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ١٧٠ من وتكر

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٦١

- ٢ -

الأحباش في اليمن

أ - تولية أبرهة على اليمن :

تذكر المصادر العربية أن أرياط لما دخل اليمن وضبطها، درت عليه الأموال، فجعل يؤثر بها من يحب ، فأثار بذلك ثائرة الأحباش ، فانضموا إلى أبرهة ، وبايعوه ، وانقسم معسكر الأحباش إلى فريقين : فريق يؤيد أرياط ، والفريق الآخر يؤيد أبرهة ، وتبارز كل من أرياط وأبرهة ، « فدفع أرياط عليه حربته ، فوقعت في وجه أبرهة ، فشرمته ، ولذلك سمي الأشرم ، وضرب أبرهة أرياط بالسيف على مفرق رأسه ، فقتله ، وانحازت الحبشة إليه ، فملكهم ، وأقره النجاشي على سلطان اليمن »[١] .

غير أن ما ذكره الأخباريون يتناقض مع ما ذكرناه من قبل ، إذ أشرنا إلى أن نجاشي الحبشة نصب على اليمن أميراً مسيحياً من حمير هو السميفع أشوع الذي ذكره بروكوبيوس . فكيف نوفق إذن بين ما رواه الأخباريون العرب

---

(١) الدينوري ، ص ٦٢ ـ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٦٢ ـ الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٢ ـ المسعودي ، ج ٢ ص ٧٨

وما ذكره بروكوبيوس ، يعضده في ذلك نص حصن غراب ؟

وللاجابة على ذلك لا بد من الرجوع إلى ما ذكره بروكوبيوس بعد حديثه عن السميفع ، فهو يذكر أن الأحباش في اليمن أعلنوا الثورة على السميفع وحاصروه في قلعته، وأقاموا مكانه عبداً نصرانياً اسمه ابراهام، فغضب النجاشي وسير قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لتأديبه وتأديب من انضم إليه . فلما قدمت القوة المذكورة انحاز جنودها إلى أبرهة بعد أن وثبوا على قائدهم . واتفق أن توفي نجاشي الحبشة ، فصالح أبرهة النجاشي الجديد على دفع جزية سنوية ، على أن يعترف به نائباً عن الملك في اليمن، فأقره النجاشي على ذلك[1] . ونخرج من ذلك بأن عهد السميفع كان قصيراً ، وأن أبرهة الذي كان قد تغلب على أرياط اغتصب الحكم في اليمن، وأن النجاشي أقره على حكم اليمن نظير جزية يدفعها له . ويؤكد ذلك ما ذكره المسعودي وغيره ، [2] إذ يقول : « ثم وثب عليه أبرهة الأشرم أبو يكسوم (يقصد أن أبرهة وثب على أرياط) فقتله وملك اليمن، فلما بلغ ذلك من فعله إلى النجاشي غضب عليه، وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته، ويريق دمه ، ويطأ تربته – يعني أرض اليمن – فبلغ ذلك أبرهة ، فجز ناصيته وجعلها في حق من العاج ، وجعل من دمه في قارورة ، وجعل من تراب اليمن في جراب ، وأنفذ ذلك إلى النجاشي ملك الحبشة ، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافاً، وكتب إليه يعترف بالعبودية ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته، وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه ، وقد أنفذت إلى الملك ناصيتي فليجزها بيده ، وبدمي في قارورة فليهرقه ، وبجراب من تربة بلادي فليطأه بقدميه ، وليطفيء الملك عني غضبه ، فقد أبررت يمينه ، وهو على سرير ملكه، فلما وصل ذلك إلى النجاشي استصوب رأيه، واستحسن عقله ، وصفح عنه »[3].

---

(١) جواد علي - ج ٢ ص ١٩٢ (نقلا عن بروكوبيوس)

(٢) راجع اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢

(٣) المسعودي ، مروج الذهب - ج ٢ ، ص ٧٨

ونستدل من النص المعروف بنص أبرهة ، وهو نص طويل يتألف من ١٣٦ سطراً ، سجل فيه أبرهة ترميمه لسد مأرب في سنة ٥٤٢ م وفي السنة التالية ، الحقائق الآتية

١ – أن أبرهة لقب نفسه باللقب الرسمي لملوك حمير في دولتهم الثانية مع إضافة عبارة تشير إلى أنه نائب ملك الحبشة في اليمن فيقول : « إن أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحز زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد وفي تهامة » .

٢ – يتضمن النص حديثاً عن ثورة قام بها يزد بن كبشت (يزيد بن كبشة) أحد رؤساء الحميريين ، كان أبرهة قد أنابه عنه واستخلفه على قبيلتي كدة ودا ، وانضم إلى يزيد أقيال حميريون هم ذو سحر ومرة وثمامة وحنش ومرثد وحنف وذو خليل ويزن ، بالإضافة إلى القيل معد يكرب بن سميفع . ولإخماد هــذه الثورة سير أبرهة جيشاً هزمه يزيد واستولى على بعض مواقع ،فعزز أبرهة قواته بقوات أخرى من الأحباش والحميريين وجهها إلى مواطن الثورة في أودية سبأ وصرواح وعبران ، وانتهت الحملة باستسلام يزيد .

٣ – يشير النص إلى تصدع سد مأرب ، وتهدم أجزاء منـه ، كما يشير إلى مبادرة أبرهة بترميم ما وهى منه [١].

٤ – يذكر النص أنه وفد إلى أبرهة أثناء إقامته بمأرب وفود من النجاشي ومن ملك الروم ، ومن كسرى فارس ، كما وفد إليه رسل من المنذر ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة الغساني .

ويعتقد جلازر أن الأقيال الذين انضموا إلى الثورة يمثلون الطبقة الأرستقراطية

---

(١) راجع : جواد علي ، ج ٢ ص ١٩٨ — ٢٠١

القديمة في سبأ ، ومعظم أسماؤهم قد وردت في نصوص المسند والكتابات السبئية القديمة التي يرجع تاريخها إلى أيام المكربين . كما يعتقد أن يزن هم قبيلة سيف بن ذي يزن الحميري الذي قام بالثورة على الأحباش فيما بعد، أما معد يكرب بن سميفع فمن المعتقد أنه ابن السميفع أشوع الذي نحاه أبرهة عن حكم اليمن. أما فيما يختص بالوفود التي قدمت إلى أبرهة في مأرب والتي ورد ذكرها في النص ، فتقديم وفد النجاشي على غيره يدل على اعتراف أبرهة بسيادة مملكة أكسوم عليه ، كما يدل إرسال مندوب من النجاشي إليه على استقلال أبرهة بحكم البلاد وإدارتها. أما تقديم وفد ملك الروم على وفد ملك فارس في النص فيعبر عن صلة الدين والسياسة بين الحبشة والروم واليمن[1].

ويفسر الدكتور جواد علي المغزى الذي يمكن أن يعبر عنه قدوم هؤلاء الرسل إلى عاصمة سبأ القديمة بالصراع القائم بين الروم والفرس من أجل ضم اليمن إلى جانب هؤلاء أو أولئك فيقول: « ولم يكن مجيء هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة في معجمات السياسة ، لكن كانت لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم، هي جر أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك ، وترجيح كفة على أخرى ، وخنق التجارة في البحر الأحمر، أو توسيعها ، ومن وراء ذلك إما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم ، وإما ربح وافر يصيبهم لا يقدر . لقد كان العالم إذ ذاك كما هو الآن ، جبهتين: جبهة غربية ، وجبهة أخرى شرقية : الروم والفرس ، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة والمشيخات يطبلون ويزمرون ، ويرضون أو يغضبون، ويثيبون أو يعاقبون إرضاء للجبهة التي هم فيها ، وزلفى إليها وتقربا. لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو إبعادها عن الفرس ، وعن الموالين إليهم على الأقل ، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠٣

وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندي، والاتجار مع بلاد العرب. . .»[1].

ب - حملة أبرهة على مكة في عام الفيل (٥٧٠ م) :

كان من أهم أعمال أبرهة نشر الدين المسيحي في اليمن، وبناء كنيسة في صنعاء سماها القليس (من لفظة Ekklessia اليونانية) . وذكر ياقوت أن أبرهة استذل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعاً من السخر، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم ، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس»[2]، واستخدم في بنائها الذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الأصباغ . فلما استتم بنيانها كتب إلى النجاشي: « إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهى حتى أصرف إليها حج العرب »[3].

وتحدث العرب بذلك ، فغضب رجل من النسأة من بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ، وعزم على تدنيس القليس ، فخرج الفقيمي إلى القليس ودنسه ببعض القاذورات ، واتصل خبر ذلك بأبرهة ، فغضب غضباً شديداً وساءه أن يفعل ذلك رجل من أهل البيت الذي يحج إليه العرب بمكة، وأقسم ليسيرن إلى الكعبة ويهدمنها حجراً حجراً، ثم إنه أمر بإعداد جيش كبير، وتقدم جيشه فيل

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٠٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قليس ، مجلد ٤ ، ص٣٩٥ - ابن كثير ، السيرة النبوية ، ج ١ ص ٣٠

(٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ - ياقوت ، نفس المصدر ، ص ٣٩٥

أرسله إليه النجاشي يقال له محمود [1] (لعله معرب من لفظة Mammouth ، ويقصد بها فيل ضخم مغطى بالشعر الكثيف كان يعيش في العصور الجيولوجية).
ومر أبرهة على الطائف في طريقه إلى مكة ، فبعثت معه رجلا يدله على الطريق يقال له أبو رغال [2]، فهلك أبو رغال في موضع يقال له المغمس بين الطائف ومكة، فرجم قبره بعد ذلك ، والعرب تتمثل بذلك [3].

ولما اقترب أبرهة من مكة بث طائفة من جنده للغارة، من بينهم رجل يقال له الأسود بن مقصود ، فأصابوا إبلا لعبد المطلب . وتقدم أبرهة حتى اقترب من مكة ، وأتى أنصاب الحرم، فنزل بالموضع المعروف بحب المحصب [4]، وعندئذ أتاه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف سيد قريش، فأدخل في حضرة أبرهة، وكان عبد المطلب وسيماً ، و له غديرتان ، أهدب الأشفار، دقيق العرنين أشمه، رقيق البشرة ، سهل الخدين » [5] ، فعظمه أبرهة وهابه وأجله ، ثم قال له : « سلني يا عبد المطلب . فأبى أن يسأله إلا إبلا له . فأمر بردها عليه ، وقال : ألا تسألني الرجوع ؟ فقال: أنا رب هذه الإبل ، وللبيت رب سيمنعه منك » [6].

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ١ ص ٥٦ — الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٦٣ . وفكر الزمخشري أن الفيل المذكور كان معه ١٢ فيلا أخرى (الزمخشري ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٢٥ ص ٦٠٥) .

(٢) وقيل النفيل بن حبيب الخثعمي (البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦٧ — طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٦) .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٦١

(٤) وهو موضع فيما بين مكة ومنى وهو الى منى أقرب ، وهو موضع رمى الحصباء (راجع ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٦٢) .

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦٨

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥١

البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٣٩ — المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٢٨

ثم انصرف عبد المطلب إلى قومه وهو يقول :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك — مع الفيول على أنيابها الزرد

هذا النجاشي قد سارت كتائبه — مع الليوث عليها البيض تتقد

يريد كعبتكم ، والله مانعه — كمنع تبع لما جاءها حرد

ثم انه أمر قريشاً بأن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال من معرة الحبشة ، ووقف بباب الكعبة وهو يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا — يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا — فامنعهم أن يخربوا قراكا[1]

وذكر الطبري أن ذا نفر ، أحد قادة حمير ، تولى عبء جهاد أبرهة عن بيت الله ، ولكن أبرهة هزمه وأسره ، ثم أرسل إلى عبد المطلب سيد مكة يخبره بأنه لم يقدم للحرب وإنما قدم ليهدم البيت [2] . وعندما عزم أبرهة على هدم الكعبة برك الفيل بالمغمس ، فلم يتحرك ، ونخس بالرماح ، فلم ينهض ، ثم بعث الله على الجيش طيراً ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فألقتها عليهم ، فلم ينج منهم شفره[3] . وذكر المؤرخون أن هذه الطير التي وصفت في القرآن الكريم بالأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، وأنها كانت ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر[4] . وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة أبرهة وأصحابه

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٤٧ — الطبري ، ج ٢ ص ٩٢٨ .

وذكر اليعقوبي أن جماعة من قريش اجتمعت الى عبد المطلب وقد أقام في الحرم ، ليقاتلوا الى أن يكفيهم ذلك (اليعقوبي ج ١ ص ٢١٠) .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٦٧

(٤) المسعودي ، ج ٢ ص ١٢٩

بقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول . » [1].

ويربطون بين ما أصاب جيش أبرهة بسبب هذه الطيور الأبابيل وبين وباء تفشى في جيشه مما كان سبباً في هذه الكارثة، فقد أشارت بعض المصادر العربية إلى أن وباء الحصبة والجدري أول ما عرف بأرض العرب في عام الفيل[2]. وقد تكون هذه الحجارة الصغيرة كما يرى الأستاذ يوسف أحمد نوعاً من الطين المختلط بذرات رملية بمقدار حبة العدس، حملتها الطيور من منطقة مجدورة في بلاد العرب أو في غيرها، إلى مكان جيش أبرهة، فتساقطت عليهم هذه الحجارة، وأدى ذلك إلى انتشار الوباء بين جنود أبرهة [3]. ويعتمد الأستاذ يوسف أحمد في هذا الظن على ما ذكره المؤرخ بروكوبيوس بظهور الجدري في بيلوز في سنة ٥٤٤ م وفي القسطنطينية في سنة ٥٦٩ م وهو قريب من الوقت الذي ظهر فيه الوباء في جيش أبرهة حول مكة[4].

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الفيل ١ - ٥ .

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥٦ — ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ طبعة ليدن ١٣٢٢ ص ٥٦ — وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، ص ٣٠٢ — الطبري ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٥

(٣) يوسف أحمد ، المحمل والحج ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٧٧

(٤) نفس المرجع ص ٧٧ .

ويتفق مع يوسف أحمد في هذا الرأي الدكتور جواد علي (العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ص ١٩٧) ، والاستاذ احمد ابراهيم الشريف (مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ١٣٨) .

ويذكر الزمخشري في تفسيره نقلاً عن عكرمة أن من أصابته هذه الاحجار من جيش ابرهة جدرته ، وهو أول جدري ظهر (الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل ، ج ٢ ص ٥٦١) ؛ كذلك ذكره الطبري .

ويعتقد الدكتور صالح العلي ان الرواية القائلة بأن أبرهة أراد أن يحول العرب وبصرفهم إلى القليس رواية هزيلة ، فيقول: « فإن أبرهة إذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى ، لا يستطيع إجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، وإذا كان قد فعل ذلك فإن نطاق أمره ينحصر في اليمن، وهي البلاد التي يحكمها ، ولا يمتد إلى غيرها من المناطق ، فمكة إذا لا تغتاظ من إنشاء كنيسة نصرانية ، لأن مركزها الديني لا علاقة للنصارى به، كما أنه ليس لأبرهة سلطة عليها، فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها ، فلماذا تستاء من القليس ؟ »[1].

ويذكر الدكتور جواد علي أن بروكوبيوس ذكر أن الروم ، وهم حلفاء الأحباش، حرضوا أبرهة على مهاجمة الفرس، فلم يهاجمهم إلا بعد لأي ، ثم أوقف هجومه وتراجع . ثم يقول : « ولم يشر هـذا المؤرخ إلى المواضع التي هاجمها والأماكن التي كان الفرس فيها ، فهل أراد بذلك مسير أبرهة لفتح مكة وبقية مدن الحجاز ليهاجم من هناك العراق وحدود امبراطورية الفرس، وليمهد بذلك الطريق إلى الاتصال بالروم ، أو أنه عنى مهاجمة الفرس من مواضع أخرى تقع في العربية الجنوبية أو سواحل الخليج ؟ »[2]. ويعتقد الدكتور صالح العلي استناداً على ما رواه بروكوبيوس أن ملك الحبشة أمر أبرهة نائبه في اليمن بالقيام بحملة ضد الساسانيين ومساعدة الروم حلفاء الأحباش ، ففعل أبرهة ما أمره به الملك ، وسلك الطريق البرية للقوافل ، وهي الطريق التي تصل إلى الشام مارة بمكة [3].

(١) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ٢٦٠

(٢) جواد علي ، ج ٤ ص ١٩٧

(٣) صالح العلي ، المرجع السابق

وهناك من يعتقد بأن الهدف من حملة أبرهة كان هدفاً سياسياً ، لأن البيزنطيين كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت نفوذهم ضد الفرس . ويستند هؤلاء على ما أورده بروكوبيوس إذ يقول « أما فيما يختص بحمير فقد كان من المرغوب فيه أن يقيموا قيساً زعيمة على معد ، ويسيروا جيشاً منهم ومن المعديين لغزو فارس » ، ولم يكن أبرهة يزهد في استغلال مثل هذه الفرصة لمد نفوذه على بلاد العرب [1].

وأياً ما كان الدافع من وراء حملة أبرهة ، فالثابت أنه مني بهزيمة نكراء ، وأن مشروعه الذي كان يرمي من ورائه إلى هدم الكعبة أو مهاجمة الفرس أخفق إخفاقاً ذريعاً ، وعاد أبرهة إلى اليمن منهزماً ، وهلك بعد عودته من الحرم ، فخلفه على اليمن ابنه يكسوم ، وكان ظالماً غاشماً ، عم أذاه سائر اليمن ، واتبع سياسة تقوم على إذلال أهل اليمن واضطهاد العناصر الوطنية فيها حتى يضمن بذلك انضواء اليمن تحت لوائه .

ج - سياسة مسروق بن أبرهة الاستبدادية ونتائجها :

ظل يكسوم بن أبرهة يحكم اليمن بعد وفاة أبيه نحواً من عشرين سنة [2]، أذل خلالها أهل اليمن ، فكان « شراً من أبيه وأخبث سيرة » . فلما توفي خلفه أخوه مسروق الذي كان يتولى إمارة مخلاف شناتر في عهد أبيه ، ولعل ذلك كان سبباً في أن يسميه ثيوفانيس سنطرق Sanaturces ، وهي لفظة محرفة

---

(١) Richard Bell, The origin of Islam in its christian environment, London. 1926 p.40.

(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٨٠ . وقيل ١٩ سنة (الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٦٣) وقيل سبعة عشرة سنة (حمزة الاصفهاني ، ص ٨٦) .

من شناتر[1].

ولم يكن مسروق أرحم من أخيه يكسوم بل كان أكثر تعسفاً منه في معاملة الحميريين ، فكان « شراً من أخيه وأخبث سيرة »[2] . وقد كانت هذه المعاملة السيئة سبباً في نفور أهـل اليمن من حكم الأحباش ، ورغبتهم في التخلص من استبدادهم . فلما طال البلاء على أهل اليمن من الأحباش ظهر زعيم وطني من حمير يقال له سيف بن ذي يزن ويكني أبا مره[3].وعقد سيف بن ذي يزن عزمه على تخليص قومه من بطش مسروق وتحرير بلاده من احتلال الأحباش . ولكنه رأى استحالة قهرهم بالسيف ، إذ كان الأحباش قد جردوا الوطنيين من قواهم وضربوا بين القبائل اليمنية ، ولم يجد أمامه بدأ من اصطناع السياسة في اخراج الأحباش من اليمن.فركب سفينة في البحر إلى القسطنطينية ،وقيل إلى أنطاكية ، وقدم على الامبراطور البيزنطي (جستين الثاني) ملتمساً منه العون على تحقيق أمنيته، ويبدو أنه مناه بالوعود التي تكفل لبيزنطة السيطرة على اليمن إقتصادياً وسياسياً ،فأطمعه في موالاة الوطنيين في اليمن للبيزنطيين[4].وطال مقام ابن ذي يزن ببلاط الامبراطور البيزنطي حتى قيل أنه أقام ببابه سبع سنين ، ولكن طلبه قوبل بالرفض ، وأبى الامبراطور أن ينجده ، وهو أمر طبيعي ، لما كان يربطه بحلفائه الأحباش من علاقات دينية وسياسية واقتصادية ، ثم إن مناصرة قيصر للعناصر الوطنية في اليمن لن تزيده شيئاً على ما كان يلقاه من امتيازات في اليمن ، فرد سيف قائلا : « أنتم يهود والحبشة نصارى ، وليس في الديانة أن

(1) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠٧

(2) الاخبار الطوال ، ص ٦٣ . ويقول المسعودي انه زاد على ابيه واخيه في الاذى (ج ٢ ص ٨٠) .

(3) وهب بن منبه ، كتاب التيجان ص ٣٠٢ ، وقد ذكر وهب ان حركة سيف بن ذي يزن ظهرت في عهد يكسوم بن أبرهة ، بينما ذكرها اخرون في عهد مسروق (راجع الدينوري ، ص ٦٣ ــ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٠) .

(4) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ ــ الطبري ، ج ١ قسم ١ ، ص ٩٤٦

تنصر المخالف على الموافق »[1]. ولما يئس ابن ذي يزن من استجابة البيزنطيين لمطالب أهل اليمن ، لم يجد بداً من التحول بطلبه إلى زعيم الكتلة الشرقية ويمثلها كسرى أنو شيروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ، على أمل أن يقوم هذا بنجدته تحقيقاً لحلم فارس في السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر . ولكي يضمن استجابة كسرى له رأى أن يعرض الأمر على النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي يرتبط برابطة الولاء والتبعية مع كسرى فارس ، حتى يقدمه بنفسه أمام كسرى. فمضى إلى الحيرة ، وشكا إلى النعمان ما يلقاه العرب في اليمن من استبداد الأحباش. فاستضافه ووعده بأن يقدمه إلى كسرى[2] ، ثم خرج معه فأدخله عليه . فلما دخل سيف إيوان كسرى وشاهد ما بين يديه من مظاهر الأبهة والعظمة ، لم يبهره شيء مما رآه ، بل تقدم في جرأة إلى كسرى وطلب منه أن يساعد قومه على طرد الأحباش وتحرير اليمن[3] ، فاستهان كسرى لأمره وقال له : « بعدت أرضك من أرضنا ، وهي أرض قليلة الخير وإنما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به » ، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم وخلع عليه. فغضب ابن ذي يزن من ذلك ونثر دراهم كسرى بعد خروجه من حضرته على الناس . ولما علم كسرى بذلك أمر به فأحضر أمامه ، فقال له : « عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس . فقال : ما أصنع به ، ما جبال أرضي كلها إلا ذهب وفضة »[4] . وعندئذ طمع كسرى في بلاد اليمن لوفرة معادنها وكثرة ثرواتها ، وعقد مجلساً

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) الدينوري ، ص ٦٢ – الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٦

(٣) ذكر وهب بن منبه أنه قال لكسرى : « أيها الملك غلبت الأغربة علينا في بلادنا فقال كسرى أي الأغربة : السند أم الحبشة ؟ فقال له : الحبشة ، وجئتك لتنصرني ويكون ملك أرضي لك . قال له كسرى : بعدت أرضك مع قلة خيرها ، ما كنت لأورط فارس في بلاد الحبشة ، لا حاجة لي بذلك » كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ .

(٤) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ – ابن هشام : السيرة ، ج ١ ص ٦٥ – الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٧

من وزرائه ، وقال : « ما ترون في أمر هذا الرجل وما حاله ؟. فقال رجل منهم: أيها الملك إن في سجونك رجالاً حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه فان يهلكوا كان الذي أردت بهم ،وإن أظفروا كان ملكاً زاده الملك إلى ملكه »[1]. فبعث كسرى بمن كان في سجونه معه ، وكانوا ثمانمائة رجل ، استعمل عليهم رجلاً يدعى وهرز بن الكامجار كان متقدماً في السن ذا تجربة وخبرة ، وأبحروا في ثمان سفن ، غرقت منها اثنتان ونجت ست ، أرست إلى ساحل عدن .

ويختلف المسعودي في ذلك مع الطبري ، فيذكر أن كسرى وعد سيف بن ذى يزن بالنصرة ، ثم شغل بحرب الروم ، ومات سيف بن ذى يزن في هذه الأثناء ، فدخل ابنه معد يكرب على كسرى أنو شروان وطالبه بالوفاء بوعده لأبيه ، فوجه معه كسرى قائداً يدعى وهرز[2]، فأبحر وهرز في أهل السجون في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعددهم ، حتى أتوا أبلة البصرة ، فركبوا في سفن البحر حتى أرسوا إلى ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب[3].

ويتضح مما سبق أن سيف بن ذى يزن تولى عبء إخراج الأحباش من اليمن، وأنه اتصل باديء ذى بدء بالبيزنطيين وأطمعهم في البلاد ، فلما أخفق معهم أعاد محاولته مع الفرس . ولا شك أن محاولة ابن ذى يزن الاستنصار بأعظم قوتين في العالم في هذا الوقت واستجابة الفرس له ، تعبر عن قيام منافسة بين الروم والفرس للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الهند[4] . وقصة لجوء سيف بن ذى يزن إلى كسرى وحثه إياه على فتح اليمن وتحريرها من الأحباش ،

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ — الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٨ .

(٢) وذكروا أن وهرز هو اسم مرتبة من مراتب كبار الناس ، واسم وهرز الاصلي وفقا لما ذكره حمزة الاصفهاني خرزاد بن نرسى (تاريخ سني ملوك الارض ، ص ٩١) .

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٨١ — الطبري ، ج ٢ قسم ١ طبعة ليدن ص ٩٥١ .

(٤) نجد نفس هذه السياسة يطبقها في العصر الاسلامي عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام في الاندلس ، عندما اتصل أولا بحزب القيسية ، فخذله زعيم هذا الحزب، فاستغل النزاع بين القيسية واليمنية لمصلحته ، وأعاد الكرة مع اليمنية فنصروه .

قصة لا تبدو لنا غير معقولة ، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ في اليمن حركات قومية مناهضة للأحباش ، وقد رأينا في نص حصن غراب ما يشير إلى قيام ثورة على أبرهة بعد فتح الأحباش لليمن مباشرة. كذلك لا نشك في الدور الذي قام به سيف بن ذي يزن لتحرير بلاده من الأحباش ، ولكننا نستبعد ما دار بينه وبين كسرى من ذلك الحديث الساذج ، فقد كان كسرى يعرف تمام المعرفة عظم ثروات اليمن ، وكان يتلهف السيطرة عليها ما دام في ذلك وسيلة يتوسل بها للقضاء على نفوذ الروم السياسي والاقتصادي في اليمن . كذلك نستبعد ما زعموه من أن الجيش الذي سيره لتحرير اليمن كان جيشاً من السجناء ، فليس طبيعياً أن يستهين كسرى بمثل هذا الفتح ، إذ كان يحرص كل الحرص على نجاح الحملة .

ويذكر المسعودي أن وهرز أمر جيشه بحرق السفن ليعلموا أنه الموت ، ولا وجه يؤملون الفر إليه فيجهدون أنفسهم [1] . وقد ردد المؤرخون العرب مثل هذه الخطبة عند نزول أرياط والأحباش في أرض اليمن ، كما رددوه عند نزول طارق بساحل الأندلس [2].

نجحت حملة وهرز نجاحاً تجـــاوز كل تقدير في الحسبان ، وانهزم مسروق ابن أبرهة وقتل في المعركة ، ودخل وهرز صنعاء ، وضبط اليمن ، وكتب إلى كسرى بالفتح ، فكتب إليه كسرى يأمره بقتل كل أسود باليمن ، وبتمليك سيف عليها [3] ، وأن يعود بعد ذلك إلى فارس . ويبدو أن كسرى قنع بإقامة حكم وطني في اليمن يرتبط بالتبعية له ، فقد كان أنو شروان قد اشترط على

(1) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨١ — الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٤

(2) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٧٩

(3) الدينوري ، ص ٦٤

ابن ذي يزن نظير مناصرته له عدة شروط، منها أن يتزوج الفرس من نساء اليمن ولا يتزوج اليمنيون من نساء الفرس، ومنها أن يحمـل سيف بن ذي يزن الخراج إليه [1].

ويبدو أيضاً أن أنو شروان أبقى وهرز في اليمن في صحبة سيف بن ذي يزن [2] وأنه لم يستدعه إليه كما يذكر بعض الأخباريين [3]، وقد يكون قد استدعاه إليه بعد أن ترك في اليمن جماعة من أصحابه [4]. ونستدل من ذلك أنه قامت في اليمن حكومة مشتركة من أهل اليمن والفرس، تولى رئاستها سيف بن ذي يزن الذي تولى الملك من قبل أنو شروان، فالمسعودي يشير إلى أن وهرز توج معد يكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضه ألبسه إياها [5].

وهكذا لم يفعل سيف بن ذي يزن سوى أن أبدل الأحباش بالفرس، وظلت اليمن أرضاً محتلة .

---

(1) المسعودي، ج ٢ ص ٨٢
(٢) حمزة الاصفهاني، ص ٩٠
(٣) الدينوري، ص ٦٤ — الطبري، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٠ — المسعودي ج ٢ ص ٨١
(٤) المسعودي، ج ٢ ص ٨٢
(٥) نفس المصدر

- ٣ -

اليمن في ظل الفرس

لم يفض سيف بن ذي يزن نهائياً على الأحباش ، وإنما استبقى بقـايا منهم ، بالغ في اضطهادهم واستذلالهم ،وذكروا أنه اتخذ منهم عبيداً حرابة يمشون بين يديه بالحراب إذا ركب ، واتفق أن اختلوا بــه يوماً في متصيد له ، فزرقوه بحرابهم ، فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال »[١].وكان سيف بن ذي يزن أو ابنه معد يكرب ، آخر ملوك حمير في اليمن» « وانقضى ملك حمير فصارت اليمن بأيدي عمال ملوك الفرس »[٢] وعقب مصرعه رد كسرى وهرز إلى أرض اليمن ومعه أربعة آلاف من الفرس ، استأصل بهم من بقي في اليمن من الأحباش [٣] .

ويبدو أن الفرس طمعوا في ملك اليمن لأهميته الاقتصادية،ولعل سيف بن ذي يزن أحس بتدخلهم في شؤون البلاد ، فعمدوا الى التخلص منهم ، وفطن الفرس إلى ما ينتويه ، وليس ببعيد أنهم هم الذين تآمروا على قتله حتى يخلو لهم الجو من بعده وتصبح اليمن أرضاً تابعة للامبراطورية الساسانية .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٩٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٩١ — المسعودي ، ج ٢ ص ٨٥

(٣) الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٧ — ٩٥٨ — المسعودي ، ج ٢ ص ٨٧

وتتابع على اليمن ولاة من قبل الأكاسرة بفارس اختلف حمزة الأصفهاني والمسعودي والطبري في ذكر أسمائهم[1].

وقائمة حمزة الأصفهاني التي تنتهي باسم دادويه أولى بالتصديق، فيما يظهر، من قائمتي الطبري والمسعودي.

وكسب الفرس كثيراً من ضم اليمن إلى حوزتهم، فقد أصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر، كما سيطروا كذلك على الطريق البري أو طريق الحجاز[2]. ولم يلبث الفرس أن توجوا جهودهم بفتح الشام ومصر في سنة ٦١٤ م، وأدرك هرقل أن الفرس أصبحوا أصحاب السلطان الفعلي على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر، وأنهم خنقوا دولة أكسوم الحبشية حليفة الروم، ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير سريعاً، إذ تمكن هرقل من استرداد سلطانه على الشام ومصر، بفضل حملة بحرية واحدة[3]، أما اليمن فقد دخلت في فلك دولة الرسول في المدينة.

---

(١) حمزة الأصفهاني، ص ١١ - ١٢؛ المسعودي، ج ٢ ص ٨٧، ٨٨ - الطبري، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٨

(٢) جواد علي، ج ٣ ص ٢١٢

(٣) إبراهيم احمد العدوي، قوات البحريه العربية في مياه البحر المتوسط، القاهرة ١٩٦٢ ص ١١

الباب الثالث

الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق

الفصل الثالث : الأنباط والتدمريون

الفصل الرابع : الغساسنة والمناذرة

الفصل الثالث

الأنباط والتدمريون

(١) الأنباط :

ا — الأنباط وأشهر ملوكهم .

ب — حضارة الأنباط وآثارهم .

(٢) التدمريون :

ا — تفسير اسم تدمر .

ب — تاريخ تدمر .

ج — حضارة التدمريين وآثارهم .

— ١ —

الأنبـــاط

ا ــ الأنباط واشهر ملوكهم :

كان للنشاط التجاري في بلاد اليمن والحجاز أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في العصر السابق على ظهور الإسلام، فقد كانت بادية الشام وجنوبي فلسطين مركزاً لهجرات متتابعة من جنوب الجزيرة العربية منذ أوائل التاريخ المسيحي مثل قبيلة تنوخ وقبيـــلة بني سليح وآل جفنة ، وكانت قرية بوريكة باللجة يطلق عليها في العصر الروماني اسم بوريكة السبئيين [1] . إلا أن استقرار قبائل عربية في بادية الشام يرجـــع في حقيقة الأمر إلى عصور سابقة للعصر الرومـاني ، ومن أقدم الشعوب العربية التي استقرت في جنوب فلسطين شعب الأنباط .

ومملكة الأنباط قامت في شمال الحجاز، وتنتسب إلى شعب من شعوب العرب يعرف عند اليونان باسم Nabataei أو النبط ، سكنوا في بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً. ولم نعثر في المصادر العربية على أخبار

(١) ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ١١

عن الأنباط، كما لم نعثر على أخبار عنهم في الوثائق الخاصة بحملات الآشوريين على الشام ومصر ، وإنما وقفنا على أخبارهم من كتابات الإغريق[1] ، ومن النتائج والكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران .

ولقد اتخذ الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية ، والخط النبطي على هذا النحو خط آرامي ، ولكنه متطور من الخط الآرامي القديم ، وقد عرف لذلك بالخط النبطي ، تمييزاً له عن بقية الخطوط الآرامية[2] . ومن أقدم الرقم النبطية رقيم النمارة في شرقي حوران ويرجع إلى سنة ٣٢٨ م. ، ولقد أرخ به قبر امرىء القيس بن عمرو من ملوك الحيرة . وعثر على كتابات نبطية مؤرخة أيضاً في جرش[3] ومادبا[4] . والخط النبطي قريب من الخط الكوفي القديم ، الأمر الذي دعا كثير من العلماء إلى القول بأن هذا الخط مشتق من الخط النبطي .

وتتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء، قليلة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب ، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبط ، فطبعتهم بطابعها ، ولذلك عرف الأنباط بشدة المراس والعنف، كما عرفوا بميلهم إلى الغزو. وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على مقاومة أعدائهم، فصعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم لهم، ولهذا السبب لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو الإغريق

---

(١) وعلى الاخص ما كتبه المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس (٣٧ — ١٠٠ م) ، وديودور الصقلي واسترابون .

(٢) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٦

(٣) جرش مدينة أثرية في الأردن ، تقع في واد كثير المياه ، وهي مدينة رومانية من حيث التخطيط ومن حيث نظام العمارة ، ويرجع الفضل في الكشف عن آثارها إلى الرحالة الألماني سيتزن في سنة ١٨٠٦ .

(٤) مادبا مدينة قديمة ورد ذكرها في التوراة ، في سفر يشوع ، أصحاح ١٣ — ٩ ، وأخبار الأيام الأول ١٩/٧ ، وقد أصبح لهذه المدينة شأن كبير في العصر الروماني ثم في العصر البيزنطي .

من قهر هـذا الشعب . ولقد سمى الإغريق بلادهم للسبب نفسه باسم بلاد العرب الصخرية ، كما سميت عاصمتهم بالبتراء Petraea ، أي الصخرة ، وهي تقارب في معناها كلمة سالع العبرانية المذكورة في التوراة [١] ، وتعني الشق في الصخر ، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية . ونلاحظ أن التسمية العبرانية أكثر دقة ، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم السيق ، ولعله لفظ نبطي متوارث ، حرفه الناس عن كلمة الشق في السبئية القديمة [٢] .

وتعرف البتراء في المصادر العربية باسم الرقيم[٣]، وهي تسمية عربية أطلقت على آثار هذه المدينة بعد ظهور الإسلام، ولعلها كلمة معربة لاسم كان لهذه المدينة كان الإغريق يعرفونها به وهو Arke ، فحرفها العرب ، وقالوا : الرقيم ، ولما كانت هذه الكلمة تعني النقش القديم فقد زعم الأخباريون أنها المدينة التي أقام فيها أهل الكهف [٤] . واشتهرت أطلالها في العصر الأموي بوجه خاص ، وكان ينزلها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك [٥] . أما اليوم فالبتراء تعرف بوادي موسى أو باسم البتراء وهو الاسم اليوناني المعرب ، وتقع موقعاً استراتيجياً هاماً على سطح هضبة قاحلة يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ قدم ، وتحيط بها الجبال من سائر الجهات بحيث يتعذر الدخول إليها إلا من الممر الضيق المعروف بالسيق .

وقد أشار المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم إلى موضع البتراء[٦]، كما وصف

---

(١) التوراة : سفر أشعيا ، اصحاح ١٦/١ ، ١١/٤٢

(٢) لانكستر هاردنج ، آثار الأردن ، تعريب سليمان موسى ، عمان ، ١٩٦٥، ص ١١٧

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٦٠.

(٤) نفس المصدر .

(٥) ياقوت ، نفس المصدر ، مجلد ٣ ص ٦٠

(٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٧٥

الاصطخري بعض أبنيتها المنحوتة في الصخور [1] . ولعله يقصد بهـذه الأبنية الصخرية ، البنـاء المعروف باسم الخزنة ، وهو بناء منقور في الصخر شأنه شأن بقية منشآت البتراء . ويتميز الطـابق العلوي منه بوجود إفريز مثلث الشكل يتوسطه جوسق مستدير ، ويعلو الإفريز جرة كبيرة أحدثت فيها كـسور كثيرة نتيجة لتعرضها لرصاص البنادق ، إذ كان كثير من الناس يعتقدون أن بداخلها كنزاً من الذهب ، ولهذا عرف البناء كله بالخزنة ، والواقع أن الجرة المذكورة هي قطعة منحوتة من الصخر الأصم [2]. أما الطابق الأدنى فمتوج بإفريز ذي أشرطة بارزة تؤلف مثلثاً على نحو نظام واجهات المعابد الإغريقية ، وتقوم الواجهة على أعمدة ضخمة ، وتزدان بنقوش وكتابات نبطية ، وكانت الخزنة فيما يظهر معبداً لكثرة ما كانت تزدان به من تماثيل .

وقد استغل الأنباط الانقسام بين قواد الاسكندر ، ومدوا مملكتهم من غزة إلى أيلة في مناطق صخرية ، وازدهرت البتراء في نهـاية القرن الرابع ق. م. وظلت زهاء أربعمائة سنة تشغل مكاناً هاماً على طريق القوافل الذي يمتد ما بين اليمن والشام ومصر [3].

وأقدم ما وصلنا في كتب التاريخ عن بلاد الأنباط ما ذكره ديودور الصقلي (المتوفى سنة ٥٧ ق.م.) ، إذ يشير إلى غارة انتيجوناس Antigonas ، حاكم سوريا اليوناني ، على مدينة البتراء في سنة ٣١٢ ق.م بسبب موالاة الأنباط لبطليموس ، فذكر أنه أعد حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة وستمائة فارس يقودهم صديقه أثنيوس ، لكي يرغمهم على التحالف معه ، وقـد أوصى أنتيجوناس قائـد الحملة بأن يحرص على مفاجأة النبط ، وأن يسلب منهم كل ما كانوا يمتلكونه من

---

(1) الاصطخري ، كتاب مسالك الممالك ، طبعة ليدن ، ١٩٢٧ ص ٦٤

(2) هاردنج ، ص ١٢٦

(3) فيليب حتي ، ص ٨٢

ماشية . ونفذ القائد تعاليم أنتيجوناس ، وفاجأ البتراء بهجومه في منتصف الليل في غياب معظم شبابها ، وتمكن من الاستيلاء على الصخرة (البتراء)، وقتل من قاومه من الأنباط، وأسر منهم عدداً كبيراً،ثم تراجع هو ورجاله يحملون ما غنموه من اللبان والمر والبخور والتوابل ، ومن الفضة ما يصل وزنه نحو ٥٠٠ وزنة . فلما قطع مسافة مائتي استاديون وأدرك رجاله التعب،اضطر إلى التوقف، ونصب معسكر لإراحة عسكره ، وكان شباب الأنباط قد عادوا إلى البتراء وشاهدوا ما أصاب أهلها على أيدي الإغريق ، فبادروا باللحاق بهم ، ولم يكن الإغريق يتوقعون أن يعود العرب بهذه السرعة ، فأهملوا الحراسة ، وأغفلوا الرقابة ،وبينما كانوا ينعمون بالنوم هاجمهم الأنباط، وأذرعوا فيهم بالسيوف قتلاً، فلم ينج من جيش انتيجوناس إلا خمسون فارساً استطاعوا النجاة بأنفسهم ، واستولى الأنباط على معسكر الإغريق ونهبوه . ثم عادوا إلى الصخرة وكتبوا إلى أنتيجوناس يبررون له ما حدث رغبة في إزالة ما بنفسه ، ويعتذرون له عما بدر منهم .وتظاهر انتيجوناس بالاقتناع والرضا ، وأعلن صداقته لهم ، بينما كان في الباطن يعد عدته لمعاودة الكرة والانتقام من الأنباط .

ولم يمض وقت طويل حتى أعد حملة ثانية قوامها أربعة آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان بقيادة ابنه ديمتريوس. ولم يكن النبط هذه المرة يهملون حراسة صخرتهم ، فقد بثوا العيون والحراس في المناطق المشرفة للإنذار باقتراب العدو، فلما علموا بزحف ديمتريوس نحو صخرتهم أسرعوا بحمل أمتعتهم، وأمنوا أموالهم وما لم يستطيعوا حمله من متاعهم في مواضع غاية في الحصانة والمنعة ،يصعب وصول الأعداء إليها ، ووضعوها تحت حراسة قوية، ثم تفرقوا في الصحراء ، فلما وصل ديمتريوس إلى الصخرة لم ينجح في اقتحامها ، وانتهى به الأمر أخيراً إلى الرحيل عنها بعد أن قنع بما تلقاه من هدايا الأنباط [1].

---

(١) راجع جورجي زيدان ، ص ٨٥ – جواد علي ، ج٣ ص ١٨ – هارمنج ، ص ١١٩ ، ١٢٠ – صالح العلي ، ص ٣٧

ونستدل مما ذكره ديودور الصقلي على أن الأنباط بلغوا من القوة ما جعلهم يردون جيش أنتيجوناس على أعقابه . كما نستدل مما ذكره على أن البتراء لم تكن قد بلغت من العمران بعد ما بلغته في العصور التالية ، فلم تكن مدينة مسورة ، ومن المرجح أن السورين اللذين تم اكتشافهما بالبتراء قد أسسهما الأنباط بعد أن عقدوا الصلح مع أنتيجوناس .

وأصبحت البتراء في القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب ، وساعد موقع البتراء على ازدياد أهميتها كمحطة تجـارية في ملتقى الطرق التجارية من العراق شرقاً ، واليمن جنوباً ، وسوريا وفلسطين شمالاً ، ومصر غرباً . وقد أثرى الأنباط ثراء فاحشاً بسبب اشتغالهم بالتجارة ، فلما عمل البطالمة على احتكار التجارة البحرية والسيطرة على البحر الأحمر عن طريـق إنشاء محطات وموانىء على سواحله[1] ، وإقامة علاقات مع عرب الجنوب الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر ، أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يتهددهم ، كما أدركوا الأضرار الفادحـة التي يمكن أن تصيب مصالحهم التجارية بسبب ذلك[2] ، فاضطروا إلى التحرش بسفن البطالمة ، وقطع الطرق البحرية عليها والاستيلاء على حمولاتها ، الأمر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ ق.م.) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية ، وتمكن بذلك من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة[3] ، ولكن النبط انتهزوا فرصة اشتغال بطليموس بالحرب مع سلوقيي سورية ، فعاودوا مهاجمة سفن البطالمة .

---

(١) بنى فيلادلفوس مدينة Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من سفن النبط

(٢) بفضل انشاء المحطات التجارية على البحر الاحمر اصبح البطالمة يسيطرون على البحر الاحمر والطريق التجاري الساحلي القريب منه ، وضمنوا في نفس الوقت شراء جميع ما يلزمهم من منتجات جزيرة العرب عن طريق هذه المحطات (جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠)

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩ ـ صالح العلي ، ص ٢٨

ب - أشهر ملوك الأنباط :

وأول ملوك النبط الذين ورد ذكرهم في كتب التاريخ وفي الفصل الخامس من أسفار المكابيين هو الملك Aretas أريتاس الأول أو الحارث (١٦٩ ق.م - ١٤٦ ق.م) ، وكان معاصراً لأنطيوخوس الرابع السلوقي ملك سوريا ، وبطليموس فيلوماتر ملك مصر . وقد حالف الحارث النبطي جيرانه المكابيين بني حشمناي ضد السلوقيين [١] ؛ ففي سنة ١٦٨ ق.م قام يهوذا المكابي بالثورة على السلوقيين ونجح في احتلال بيت المقدس [٢] .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثاني الذي تولى مملكة الأنباط فيما بين ١١٠ ق.م و ٩٦ ق.م وكان يعرف باسم ايروتيموس Erotimus [٣] . وفي عهده طلب يوناثان الذي تولى الأمر بعد مصرع أخيه يهوذا المكابي سنة ١٦١ ق.م من النبط أن ينصروه على أعدائه ، وقد سير لهـذا الغرض أخاه يوحنا ، ليسأل النباطيين أولياءه أن يعيروهم عدتهم الوافرة [٤] ، مما يدل على أن علاقة الأنباط بالمكابيين كانت حسنة للغاية ، وأن الأنباط كانوا على درجة كبيرة من القوة . إلا أن جماعة من العرب الذين يسكنون ميدبا ويعرفون ببني عمرى [٥] غدروا بيوحنا المكابي وقتلوه .

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين ، ج ١ ، بيروت ١٩٥٨ ص ٤١٩

(٢) تاريخ يوسيفوس ، طبعة صادر ، بيروت ، ص ٧٠

(٣) G.A. Cooke, Ency. of Religion and Ethic. Article Nabataei, Vol. 9, p. 121. (1930).

(٤) جواد علي ، ج ٢ ص ٢١

(٥) ويعرفون أيضا باسم بني عمرى حسبما يذكره يوسيفوس .

ولكن سياسة حسن الجوار والتحالف القائمة بين الأنباط والمكابيين لم تلبث أن تبدلت إلى سياسة عداء ، فقد تبين للأنباط أنهم بسياستهم السابقة أضروا بمصالحهم الخاصة ، و فلم تكن سياسة المكابيين مقتصرة على طلب الاستقلال التام والخلاص من الحكم الأجنبي،بل كانت تنطوي على الاستيلاء على الأردن،والتوغل في مناطق النبط نفسها وإنشاء حكومة قوية قد تزاحم حكومتهم في يوم من الأيام ، فرأى الأنباط أن من الخير لهم أن يدعوا هذا التأييد ، وأن يقاوموا إن احتاج الأمر إلى مقاومة [١] ، وقد أدت المنافسة بين المكابيين والأنباط إلى اصطدامات مسلحة .

ويعتبر الحارث الثالث النبطي (٨٧ - ٦٢ ق.م) أشهر ملوك الأنباط على الاطلاق ، فاسمه يقترن بفتوحات كبرى وانتصارات هيأت المجال للأنباط أن يوسعوا نطاق أملاكهم على حساب السلوقيين واليهود في آن واحد، ولذلك يعتبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط [٢]. استغل الحارث ضعف السلوقيين عند بداية ظهور رومة على أعتاب الشرق ، وعندما بدأ أنطيوخوس ديونيسوس هجومه على بلاد الأنباط، اصطدم مع الحارث الثالث في سنة ٨٦ ق.م في معركة عنيفة حدثت عند قرية Cana الواقعة على ساحل يافا ، وفيها انهزم السلوقيون هزيمة نكراء وسقط ملكهم صريعاً . واستجاب الحارث بعد هذا الانتصار الكبير إلى دعوة سكان دمشق ليقيم نفسه حاكماً عليها وعلى الأقاليم الملحقة بها بما فيها من سهول مثل سهل البقاع ، وذلك في سنة ٨٥ ق.م [٣]، وتخلص سكان دمشق بذلك من أسوأ مصير فيما لو سقطت في يد الأمير الإيتوري الذي كان يطمع في عرش سورية .

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٢

(٢) فيليب حتي ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٤١٦

(٣) صالح العلي ، ص ٣٨

وهكذا ضيق الانبــاط على مملكة يهوذا المتداعية من الشرق والجنوب ، وأصبح من الطبيعي بعد ما ناله الحارث من انتصارات على اليهود والسلوقيين أن يدس أنفه في شؤون المكابيين في بيت المقدس ، ولم يلبث أن اشتبك معهم في معركة حدثت عند موضع يعرف باسم Addida (الحديثة) على مقربة من اللد ، وفيها تمزق جيش اليهود وانهزم هزيمة نكراء أرغمته على طلب الصلح بما يرتضيه الأنباط من شروط [1] .

وشهد الحارث الثالث استيلاء بومبي على دمشق في سنة ٦٤ ق م ، فكانت فترة تبعيتها له فترة قصيرة ،وقد أحبه أهل دمشق ولقبوه بلقب محب الهلينيين « Philhellene » [2]. ونستنتج من أسلوب البناء في البتراء أن الحارث كان مغرماً بالفن الهلنستي الشائع في سورية، وقد تابعه خلفاؤه في هذا السبيل. وعثر على عملات نبطية نقش عليها اسم الحارث الثالث، وهي عملات متأثرة، بنظائرها التي ضربت بدمشق في أيام ديمتريوس الثالث .

وتولى مملكة الأنباط بعد الحارث ابنه الملك عبادة الثاني (٦٢-٤٧ ق.م) ، وفي أيام عبادة هذا امتد نفوذ الرومان على الشرق ، فاستولوا على آسيا الصغرى وسورية ومصر ، وانتزع الرومان في الشام ما كان الحارث الثالث قد استولى عليه من قبل ، ويبدو أن سياسة الانبــاط بعد الحارث الثالث كانت تهدف إلى المحافظة على استقلال مملكتهم وحمايتها من العواصف والأنواء التي أثارهـا الغزو الروماني لسورية ، فارتبطوا منذ عهد عبادة الثاني مع الرومان برابطة الحلف والولاء ، فاشتركوا في عهد مالك الأول Malichus (٤٧ - ٣٠ ق.م) بفرقة

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ٢٦

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ٢٨ ــ صالح احمد العلي ، ص ٣٨ ــ فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ص ٤٢٠

من الفرسان في حملة يوليوس قيصر على الاسكندرية في سنة ٤٧ ق.م [١]. وفي عهد مالك الاول، تمكن الرومان، ويمثلهم أنطونيوس الذي عهدوا إليه بشؤون الشرق ، من إسقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس ، ووضعوا مكانها الأسرة الهيرودية الموالية لهم .

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠ ق.م - ٩ ق.م) اشترك الانباط في الحملة التي أرسلها أغسطس قيصر بقيادة اليوس جالوس لغزو بلاد اليمن ، وتولى صالح Syllaeus وزير عبادة مهمة إرشاد الجيش الروماني إلى الطرق التي يسلكها في بلاد العرب ، ولكن الحملة انتهت بكوارث تعرض لها الجيش الروماني ، وأخفق الرومان في الاستيلاء على اليمن . ويعزو استرابون هذا الفشل إلى خيانة سايلوس (صالح) دليل الحملة ، الذي سار بالجيش في أكثر مناطق العرب وعورة وأشدها جفافاً حتى أن عدداً كبيراً من الرومان ماتوا عطشاً [٢].

وفي عهد مالك الثاني بن الحارث الرابع (٤٠ - ٧١ م) ، اشترك الانباط بفرقة من الجيش عدتها ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة ، في سنة ٦٧ ، في الحملة التي سيرها الامبراطور الروماني طيطس لمهاجمة بيت المقدس [٣]. وقد وصلت إلينا من عهده عملات فضية وبرنزية نقش عليها صورته وصورة شقيلة زوجته وأخته في آن واحد . ومن الملاحظ أن ملوك الانباط بدأو ينقشون صورهم وصور زوجاتهم منذ أيام عبادة الثالث ، ومن الملاحظ أيضاً أن زوجات الانباط

---

(١) جورجي زيدان ، ص ٨٨ - فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٨٢ - فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ص ٤٠٢ - صالح احمد العلي ، ص ٣٩

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٥٦ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٤٢٠ - هارديج ، ص ١٢٢

(٣) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٢

كن شقيقاتهم على عادة الفراعنة والبطالمة .

وآخر ملوك الانباط هو الملك مالك الثالث (١٠١–١٠٦)، وفي عهده قضى الامبراطور الروماني تراجان على مملكة الانباط ، ففي سنة ١٠٦ م أنفذ تراجان حملة بقيادة كورنيليوس بالما نائب تراجان في سورية إلى البتراء ، وعلى يـــدي تراجـان سقطت مملكة الانبـــاط ، وأدمجت هذه المملكة في الكورة العربية Provincia Arabia التي أسسها الرومان لتحمي سورية من هجمات البدو، وجعلوا عاصمتها مدينة بصرى التي ورثت البتراء اقتصادياً وسياسياً [١].

ومع ذلك فقد واصلت البتراء ازدهارها فترة من الزمن بعـــد سقوط دولة الانباط ، وأصبحت في العصر الروماني مركزاً اقتصادياً هاماً . ولكنها أخذت تفقد مكانتها الاقتصادية تدريجياً وتتخلى عنهـا لتدمر . ثم انتشرت المسيحية في البتراء في القرن الثالث ، وأصبحت البتراء مركزاً أسقفيـــاً ، وظلت مأهولة بالسكان حتى بداية العصر الإسلامي .

ج – حضارة الأنباط وآثارهم :

حضارة الانباط حضارة مركبة على حد قول الدكتور فيليب حتي [٢]، فهي عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها، ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية ، ولكنها مع كل ذلك عربية في جوهرها ، فالأنبـاط عند مؤرخي اليونان والرومان عرب ، ويؤكد هذه الحقيقة أن أغلب الأسمـاء التي

---

(١) كانت بصرى قديما سوقا تجارية نبطية ، فلما اتخذت هذه المدينة عاصمة للكورة العربية اصبحت مركزا لشبكة من الطرق اقامها الرومان في حوران ، فمن بصرى كان يمتد الطريق الجنوبي الذي يمر بعمان ويصل الى خليج العقبة ، ومنها ايضا كان يبدأ طريق ثان يصل الى الازرعات ، وطريق ثالث الى دمشـــق ، ورابع الى سلخد فاستناك فقلعـة الازرق (رنيه ديسو ، ص ٨ ، ٩)

(٢) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٦

كانت شائعة عندهم تشبه الأسماء التي كان يستعملها عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة ، من هذه الأسماء حارثة ومالك وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصي وعدي وعائذ وعمرو وعميرة ويعمر ومعن ووهب الله [1] وعلي وحبيب وسعيد [2] وجميلة وهاجر وشقيلة وهانىء وجدلة وعبد الملك وسعد الله وحميد وحوشب [3].

ومما لا شك فيه أن لغة الانباط لهجة عربية شمالية ، فكثير من الكلمات الواردة في النقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة مثل قبر ، بل إننا نلاحظ في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية [4].

ومن حيث الديانة شارك الانباط العرب في عبادة بعض الأصنام المعروفة في الحجاز في العصر الجاهلي مثل « ذي الشري » ، المعروف عندهم « بذو شري » وهو الإله الرئيسي عندهم ، ويعني أنه صاحب أرض بهذا الاسم لعلها الشراة ، وهي منطقة جبلية حول البتراء . ويتمثل هذا الإله في صورة كتلة من الصخر أو عمود صخري ، وذو شري هو إله الشمس . ومن آلهتهم اللات « الت » إلهة القمر وهي أم الآلهة ، وقد تحولت إلى أثينا ، ومنها أيضاً مناة « منوتن » ، وهبل « هبلو » ، و « شيع القم » أي حامي القوم وهو إله القوافل ، ومنها العزى ، ومعظمها آلهة ورد ذكرها في القرآن الكريم . وبعض هذه الآلهة انتقلت عبادته إلى مكة على يدي عمرو بن لحي الخزاعي بعد عودته من البلقاء [5].

---

(١) صالح احمد العلي ، ص ٤٢

(٢) ايليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٦

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧

(٤) G. A. Cooke. a text book of North semitic inscriptions .. Oxford 1903 p. 214

(٥) هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٨ — سيرة ابن هشام ، ج ١ ص ٧٩

وحضارة الانبـــاط تقوم أساساً على التجارة ، إذ أن البتراء كانت المركز التجاري والاقتصادي الرئيسي للطرق التجارية ما بين غزة وبصرى ، وما بين دمشق وأيلة ، وقد امتد النشاط التجاري للأنباط إلى مناطق نائية ، فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والاسكندرية ورودس ومليتوس وديلوس وموانىء سورية ، بل إن بعض الآثار الكتابية عثر عليهـا مبعثرة عند مصب الفرات . وكانت أهم السلع التي يقومون بالتجارة فيها العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين ، والحناء العسقلاني ، واللآلىء من الخليج العربي ، هذا بالاضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة[1]. ومن ناحية الصناعات كانت صناعة الأواني الفخارية أهم ما كانوا يشتغلون به من صناعات ، وكان فخارهم من الرقة ودقة الصناعة بحيث كان لا يقـل في الجودة عن الخزف الصيني ، وكانت الجفان الفخارية تزدان بنقوش دقيقة تدهن باللون الأسود[2] . وتميز القطع الخزفية التي أسفر عنهـــا الكشف الأثري سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق في هذه الصناعة ، فهي من الرقة بحيث تشبه قشر البيض[3].

وقد تبقت من عمائر الانباط آثار كثيرة أهمهـــا البناء المنقور في الصخر ، المعروف باسم الخزنة ، وقد أشرنا إليه من قبل ، ومنها آثار المسرح الذي يفضي إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر ،ولبعض هذه الكهوف واجهات منقوشة[4] . ومن أهم آثار الانباط أيضاً بناء يعرف بالدير ، وهو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو ٥٠ متراً ويصل ارتفاعه حتى قمة الجرة إلى ٤٥ متراً ، ويزدان بواجهة من الطراز الهللنستي . وبداخل الدير قاعة فسيحة زود

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٥
(٢) هاردنج ، ص ١١٦
(٣) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢١
(٤) من المعتقد أن هذه الكهوف كانت مساكن الحوريين القدامى (جورجي زيدان، ص ٨٢)

جدارها الخلفي بجوفة أقيم فيها نصب حجري يمثل الإله ذا شري. ويرجع تاريخ بناء الدير إلى القرن الثالث الميلادي [1]. كذلك تبقت آثار بناء يعرف بقصر البنت أو قصر بنت فرعون وهو بناء مشيد غير منقور في الصخر لعله أقيم في العصر الروماني، ومن آثار البتراء آثار ضريح يقال له ضريح الجرة، يزدان بواجهة من أروع ما تبقى من الآثار ذات الطابع الهللنستي، وآثار ضريح القصر، وآثار ضريح سكستوس فلورنتينوس المشيد في سنة ١٤٠ م [2].

ومعظم آثار البتراء تدل على تأثر فن البناء النبطي بالفن الهللنستي. أما النقوش الكتابية النبطية فقد عثر عليها في مناطق مختلفة، ومعظم النقوش النبطية عثر عليها في مدينة الحجر وفي البتراء وفي منطقة حوران وفي سيناء، الامر الذي الذي يدل على امتداد نفوذ الانباط جنوباً في الجزيرة العربية حتى الحجر، وغرباً حتى سيناء، وشمالاً حتى حوران.

---

(١) هاردنج، ص ١٢٩

(٢) نفس المرجع، ص ١٢٠، ١٢١

- ٢ -

التدمريون

١ - تفسير اسم تدمر :

تقع آثار مدينة تدمر بالقرب من حمص وعلى مسافة تبعد نحو ١٥٠ كم إلى الشمال الشرقي من دمشق [١] ، في منتصف الطريق تقريباً ما بين دمشق والفرات ، ولذلك كانت تدمر مركزاً هاماً للقوافل التجارية التي تصل ما بين العراق والشام .

وما زال أصل تسميتها بتدمر مجهولاً على الرغم من الأبحاث التي قام بها العلماء في هذا السبيل . واسم تدمر ورد لأول مرة في نقش يرجع تاريخه إلى أيام الملك تجلات بلاسر الأول على هذه الصورة « تدمر أمورو » . وقد عرفت تدمر عند كتاب اليونان باسم بلميرا Palmyra ، ولوحظ أن المقطع الثاني من بلميرا وهو « Myra » قريب من المقطع الثاني لكلمة تدمر « Mor » الأمر الذي دعا إلى التساؤل عما إذا كان هناك ثمة صلة بين التسميتين ، وأن اليونانية أو اللاتينية حرفت اسم المدينة الأصلي من تدمر إلى Palmyra . ويعتقد بعض العلماء أن كلمة بلميرا

---

١ - Enc. Britanica. 1964. Vol. 17. p. 161

مشتقة من كلمة Palma اللاتينية بمعنى النخل ، وأن تدمر سميت ببلميرة منذ أن تغلب عليها الاسكندر وذلك لكثرة ما كان يزرع فيها من أشجار النخيل[1].

ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة بلميرة ترجمة لكلمة تامار العبرانية التي تعني النخلة ، وأن تامار العبرانية اسم موضع أو بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من يهوذا وفقاً لما ورد في التوراة [2] ، ويذكرون أن تامار هي البلدة التي بناهـا سليمان ، وورد ذكرها في التوراة في جملة المدن التي أسسها سليمان ولكنها ذكرت تحت اسم تدمر[3]، وأن ورود اسم تامار على هذه الصورة كانت نتيجة خطأ ارتكبه كتبة أسفار أخبار الأيام ، فخلطوا بين تامـار الواقعة جنوبي البحر الميت وبين تدمر المدينة المشهورة، ثم كتبت في سفر الملوك الأول تحت اسم تدمر بدلاً من تامار[4]، وأصبحت تدمر على هذا النحو من بين المدن التي أسسها سليمان . ومن هنا ارتبط اسم تدمر بتامار أي النخيل وجاءت التسمية اليونانية ترجمة لمعنى كلمـة تامار ، وذلك بعد تدوين « أخبار الأيام »[5] . ونتج عن ذلك التحريف والخلط أن أصبح بناؤها منسوباً إلى سليمان سواء في المصادر العبرية أو العربيـة ، فقد ذكر يوسيفوس أن تدمر من بناء سليمان [6] واعتمد في ذلك على التوراة والروايات التي تواترت على ألسنة القوم ، جيلاً بعد جيل حتى وصلت إليـه . وتزعم الروايات العربيـة التي أخذت عن التوراة أن تدمر مما بنته الجن لسليمان ، ويتضمن شعر النابغة الذبياني هذه النسبة إلى سليمان في قوله :

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٧٢

(٢) سفر حزقيال ، اصحاح ٤٧—١٩ — اصحاح ٤٨—٢٨

(٣) اخبار الايام الثاني ، الاصحاح ٨—٤

(٤) سفر الملوك الاول ، اصحاح ٩—١٧

(٥) راجع : جواد علي ، ج ٢ ص ٧١—٧٢

(٦) جواد علي ، ج ٢ ص ٧٢

إلا سليمان ، إذ قـال الإله له : قم في البرية [1] فاحددها عن الفند
وخيس الجن ، اني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمـد [2]

ولكن ياقوت يستبعد نسبة تدمر إلى سليمان فيعلق على زعم الأخباريين بقوله : « وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود ، عليه السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان ، ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن »[3] .

وهناك من أخباريي العرب من ينسب بناء تدمر إلى شخصية خرافيـة هي تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح[4]. وذكر بعضهم أن الزباء ملكة تدمر هي الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر ، من أهل بيت عاملة من العماليق [5] .

والواقع أن تدمر لم تكن من بناء سليمان ، لأن ملكه لم يمتد إلى هذه البلاد ، وأغلب الظن أن تدمر نشأت حول نبع ماء في البادية ، فقصدها البدو ، واستقروا في واحتها ، فقد ورد اسم تدمر لأول مرة في نقوش تجلات بلاسر الأول المتعلقة

---

(١) وفي أخبار الأيام الثاني أن سليمان بنى تدمر في البرية .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٠٦

(٣) نفس المصدر .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ١٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ص ٣٠٦ — الاكليل — ج ٨ ص ١١٢

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٩٣ — والخبر أورده أيضا حمزة الاصفهاني ، ص ٦٥

بحملاته ضد العموريين سنة ١١٠٠ ق.م[١]، وساعد أهلها تبوخذ نصر في هجومه على القدس، وبدأت تدمر تظهر منذ ذلك الحين كمركز تجاري هـام وطريق للقوافل بين العراق والشام، خاصة بعد قيـام الدولة الأكمينية، فلما سقطت الدولة الأكمينية على يدي الاسكندر، وربط الاسكندر بين الشرق والغرب، وتابع سلوقس هـذه السياسة التي تهدف إلى خلق دولة متحدة من الفرس والمقدونيين، اشتهرت تدمر كدولة تجارية تمر بها قوافل التجـارة بين العراق وسورية. غير أن قيـام الدولة البارثية منذ نحو ٢٥٠ ق.م، وانتصارهـا على السلوقيين، وامتداد نفوذها في عهد ميثريداتس (ت. سنة ١٣٧ ق م) من نهر الفرات إلى هراة، سبب أضراراً جسيمة لاقتصاد تدمر، فقد انفصلت العراق عن الشام، وهدد ذلك الانفصال التجارة التدمرية التي يرجع الفضل في ازدهارها إلى ارتبـاط القطرين. فلما سيطر الرومـان على سورية وفلسطين ومصر، وهادنوا الدولة البارثية، عادت التجارة الشرقية تمر بتدمر.

وقد ذكر بلنيوس سيجندوس مدينة تدمر، ووصفها بأنها مدينة شهيرة لها موقع ممتاز، ووصف أرضها بالخصب وكثرة الينابيع والعيون[٢]. والواقع أن موقع تدمر يدين بشهرته إلى توافر مياهها الكبريتية، وخصوبة حدائقهـا، ثم إلى التباين بين الصحراء الكبرى العارية المترامية نحو الجنوب وبين سلسلة الجبال التي ترتكن عليها تدمر في الشمال[٣].

---

(١) G. A. Cooke, Palmyra, Enc. Britanica, 1964, Vol. 17, p.161

(٢) جواد علي، ج ٢ ص ٧٥

(٣) Paul Collart, Selim Abdul Hak et Armando Dillon, Rapport de la mission envoyée par l'Unesco à la Syrie en 1953, Paris 1954, p. 24. - Encyclopédie de l'Islam, Buhl. Art. Tadmur

ب - تاريخ تدمر :

تاريخ تدمر السابق على التاريخ الميلادي غير معروف على وجه الدقة ، فإن أقدم الكتابات التي عثر عليها في تدمر لا يتجاوز تاريخها سنة ٩ ق.م [١].

وقد حافظ التدمريون على استقلال بلدهم إبان النزاع بين البارثيين والسلوقيين، ولكن الرومان طمعوا في الاستيلاء عليها منذ عام ٤١ ق. م. عندما حاول ماركوس أنطونيوس غزوها ، فاضطر أهلها إلى الجلاء عنها حاملين معهم أموالهم وأمتعتهم . ولا ندري على وجه الدقة ما أسفرت عنه حملة أنطونيوس، وأغلب الظن أن تدمر اعترفت بسيادة رومة مع احتفاظها باستقلالها ، ولكن من المرجح أنها دخلت في فلك الدولة الرومانية في أواخر القرن الأول الميلادي ، إذ كانت من بين المدن التي أدخلها الامبراطور تراجان في الكورة العربية سنة ١٠٦ م . وفي سنة ١٣٠ م زارها الامبراطور هادريان ومنحها لقب Hadriana Palmyra ، وأصبحت تسمى بهادريانا بلميرا أو هادريانابولس Hadrianapolis ، كما منح أهلها حقوق أهل رومة : مثل حق الملكية المطلق والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب [٢] ، وكان للشروط التي وضعها هادريان عندما تنازل عن أشور والعراق للبارثيين فاتحة عهد سلام طويل كان له أكبر الأثر في رخاء تدمر .

ومنحت تدمر في عهد هادريان ، وقيل في عهد سبتميوس سفروس (١٩٣- ٢١١ م) ، وقيل في عهد كراكلا ، درجة مستعمرة رومانية ، وبدأ التدمريون يتخذون منذ ذلك الحين أسماء رومانية تضاف إلى أسمائهم العربية أو الآرامية

---

(١) Encyclop. Britanica, vol. 17, p. 162

(٢) Ibid.

باعتبار أنهم أصبحوا من رعـايا رومة مثل اسم سبتميوس الذي أضافته إحدى الأسرات التدمرية ، واسم جوليوس أوريليوس [١] . أما السلطـة التنفيذية والإدارية التي تنحصر في مجلس الشيوخ والشعب فقد كان يتولاها رجال يحملون ألقاباً يونانية مثل Proedros ، أي الرئيس ، و Grammateus أي الكاتب ، وأسماء وظائف مثل Archontes ، Syndicus و Dekaprötoi ،وهي المجالس المحلية التي يتألف كل منها من عشرة أعضاء[٢].

انتهز التدمريون فرصة اشتغال الدولة الرومانية بالغزوات الجرمانية التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية وأخذوا يوسعون رقعـة بلادهم ، فأصبحت دولة تدمر تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها مثل دورا أوروبس ،والرصافة التي كانت تسمى في الكتابات الآشورية باسم Rasappa والتي سميت بعد ذلك باسم سرجيوبولس نسبة للقديس سرجيوس الذي استشهد فيما يقرب من عام ٣٠٥ م في عهد الامبراطور دقلديانوس[٣]،ومع ذلك فقد ظل التدمريون أوفياء للرومان.

ولما قامت الدولة الساسانية في سنة ٢٢٦ م على يد أردشير بن بابك ، وتغلب أردشير على الملك البارثي ارتبانوس الخامس وعلى ملك أرمينيا ، اشتبك مع الرومان واستولى على قلعتي حران ونصيبين ، واستغلت إحدى أسرات تدمر العريقة النزاع بين الساسانيين والرومان ، أحسن استغلال ، وحظى رئيس هذه الأسرة سبتميوس أودوناتوس Odaenathus المعروف في المصادر العربية باسم أذينة بن السميدع ، والذي يرتفع نسبه وفقاً للطبري إلى هوبر العمليقي[٤] ، بمكانة كبيرة

---

(١) Cooke, Enc. Brit. vol. 17, p. 162 — جواد علي ، ج ٢ ص ٨٦ — فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٦

(٢) Cooke, Enc. Brit. p. 162

(٣) فيليب حتي ، ج ١ ص ٤٢٦

(٤) الطبري ، المجلد ١ قسم ٢ ص ٧٥٦

في المجتمع التدمري .

وأذينة هذا هو أذينة بن حيران بن وهب اللات ، وكان أذينة هذا يطمع في أن يستقل بتدمر ويتلقب بلقب « ملك » ، وقد نجح في خطته وأصبح ملكاً على تدمر في سنة ٢٥٠ م ، وفطن الرومان إلى ما يتنويه من نوايا توسعية بعد ذلك ، فتآمروا على قتله، وتولى ابنه سبتميوس حيران رئاسة السناتو بعد مصرع أبيه[١] ، ولما مات حيران خلفه أخوه أذينة الثاني في إدارة شؤون تدمر ، وكان أذينة هذا فارساً ممتازاً ومحارباً جريئاً ، وكان يحمل درجة قنصل في عهد الامبراطور فالريانوس .

طالب أذينة الامبراطور بالانتقام لمقتل أبيه من قتله روفينوس، فلم يستجب فالريانوس لذلك المطلب ، فغضب أذينة ، وانتظر فرصة مواتية للثأر . وحدث في ذلك الوقت أن انتصر الفرس الساسانيون بقيادة ملكهم شابور الأول ابن أردشير (٢٤١–٢٧٢ م) على الجيش الروماني بقيادة فالريانوس، في موقعة دارت بالقرب من الرها ، وقع فيها فالريانوس أسيراً في قبضة شابور[٢] ، كما أسر الفرس سبعين

---

(١) أقيم له تمثال في سنة ٢٥١ نقش عليه اسمه ولقب فيه بلقب « رأس تدمر » اي زعيم تدمر (فيليب حتي ، ج ١ ص ٣٦) ، وقد عثر على نقش كتابي لتمثال له نصه : « تمثال سبتميوس حيران صاحب السمو ابن صاحب السمو اذينة اقامته ولية الدباغين وصناع القرب لسيدها عام ٥٦٩ (الموافق ٢٥٧–٢٥٨ م) »

Henri Seyrig, les fils du Roi Odainat, dans les Annales archéologiques de syrie, t. XIII, 1963, p. 159 - 172

(٢) اشار الدينوري الى هذا الحادث بقوله : « فلما ملك سابور بن اردشير غزا ارض الروم ، فافتتح مدينة قالوقية ومدينة قذوقية ، واثخن في الروم ... فكان سابور قد اسر اليريانوس خليفة صاحب الروم ، فامره ببناء قنطرة على نهر تستر على ان يخليه ، فوجه اليه ملك الروم ناسا من ارض الروم والاموال لبنائها ، فلما فرغ منها اطلقه » (الاخبار الطوال ، ص ٤٦) . كذلك اشار اليه الطبري في قوله : « وقيل ان فيما افتتح قالوقية وقذوقية وأنه حاصر ملكا كان بالروم يقال له الريانوس بمدينة انطاكية ، فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه » (الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٦) .

ألفاً من الرومان في سنة ٢٦٠ م ، بسبب خيانة مكريانوس قائد الامبراطور الروماني . واجتاح ملك الفرس بلاد آسيا الصغرى وشمال سورية، مخرباً ومدمراً ومضرماً النيران في البلاد حتى أنطاكية [١].

ولما بلغ أذينة نبأ انتصار شابور على الامبراطور وأسره له ، أرسل رسله إلى شابور يحملون إليه كتاباً يتودد فيه إليه ويظهر له رغبته في موادعته. ويبدو أن شابور استهان بأمر أذينة فأساء استقبال رسله إليه ، وأمر بالقاء هدايا أذينة في النهر ، وتوعد أذينة بالعقاب الشديد على جسارته في مخاطبته. وأثار ذلك التصرف ثائرة أذينة ، فجمع فرسان تدمر بقيادة زبدا كبير قواده ، وزباي رئيس القواسين ورماة السهام ، وانضم إلى جيشه فلول جيش فاليريانوس ، وزحف على طيسفون ، واصطدم مع جيش شابور في معركة عنيفة على ضفاف الفرات انتهت بهزيمة شابور هزيمة نكراء ، وتتبع أذينة فلول المنهزمين حتى أسوار عاصمتهم ، ولكنه لم يستطع تخليص فاليريانوس . وكافأ الامبراطور الجديد جالينيوس بن فاليريانوس أذينة على هذا الانتصار الذي أحرزه على الفرس ، فأنعم عليه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Orientis في سنة ٢٦٢ م [٢] . وبدأ أذينة يسترجع أراضي الامبراطورية من الفرس ، فهاجم شابور في طيسفون ، ونجح في استرداد البلاد الشرقية . وكانت لهذه الانتصارات أثرها العميق في نفس الامبراطور ، فكافأه على إخلاصه مرة ثانية في سنة ٢٦٤ بأن منحه لقب Imperator Totius Orientis أي « امبراطور على جميع بلاد المشرق » ، ولم يكتف أذينة بما ناله من تكريم ، فلقب نفسه أيضاً بلقب « ملك الملوك » ، ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب أغسطس ، وهو لقب أباطرة الرومان [٣].

---

(١) Alois Musil. Palmyrena. New York, 1928. p. 247

(٢) Enc. Britanica. p. 163 ـ جواد علي ، ص ٩

(٣) جواد علي ، ص ٩٢ ـ Buhl. Tadmur. Enc de Islam

لم ينس أذينة إهانة شابور له ، فعزم على مواصلة الحرب ضد الفرس ، فترك على تدمر نائباً عنه هو سبتميوس وورود[1]ومضى مع ابنه سبتميوس هيرودس (من زوجه الأولى) لمحاربة الفرس ، وحاصر أذينة وولده طيسفون فترة من الزمن ، ولكنهما اضطرا إلى العودة إلى الشام لمواجهـــة القوط الذين نزلوا بميناء هرقلية وزحفوا نحو قبادوقية . فلما علم القوط بعودة أذينة بادروا بركوب سفنهم من هرقلية ، وقفلوا عائدين إلى بلادهم . وفي هذه اللحظات التي وصل فيها أذينة إلى ذروة مجده ، ذهب ضحية الخيانة والغدر ، إذ قتله معنيوس ابن أخيه حيران ، وقتل معه هيرودس بن أذينة في سنة ٢٦٦-٢٦٧ م.

وكانت لأذينة من زوجته الثانيـة زينوبيا [2] ثلاثة صبيان هم : وهب اللات الذي كان يعرف باسم اثينودورس Athenodorus ، وحـــيران المعروف باسم هيريفيانوس وتيم اللات المعروف باسم تيمولاوس ، فانتقل ملك تدمر بعد أذينة إلى ولده القاصر وهب اللات ، فتولت زينوبيا الوصاية عليه . وشخصية زينوبيا من الشخصيات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، فقد كانت تطمع في تكوين امبراطورية كبرى ، وكانت شجاعة جريئة ، ويذكر المسعودي أنها كانت رومية ، وكانت تتكلم العربية وفقاً لبعض الروايات ، وعربية من أهـــل بيت عاملة من العماليق الذين كانوا في سليح[3]. وتبالغ الروايات العربية في الحديث عن الزباء ،

---

(١) ورد اسمه في نقش كتابي على تمثال اقامه وورود لحيران بن اذينة نصه : (تمثال سبتميوس حيران صاحب السمو بن اذينة صاحب السمو القنصلي أقامه وورود عضو مجلس الشيوخ) H. Seyrig, Les fils du Roi Odainat. p. 264

(٢) اسمها بالارامية بت زباي اي ابنة المعطيه ، وتسمى في المصادر العربية بالزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن اذينة (المسعودي ، ج٢ ص ٩٢) . ويسميها الطبري نائلة ، ويزعم ان لها اختا يقال لها زبيبة (الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٧) . ومن الواضح ان اسم الزباء مشتق من اسم ابيها زباي ، فحذفت الياء وابدلت بهمزة ، فاصبحت زباء .

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٩٢

فتزعم أن جنود الزباء من بقايا العماليق والعاربة الأولى وتزيد وسليح ابني حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وإنها عندما استحكم لها الملك عزمت على غزو جذيمة الأبرش ، وهو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي ، أول من ملك عرب الضاحية النازلين بين الحيرة والأنبار في بادية العراق ، وكان قد قتل أباها عمرو ابن ظرب ، فأثنتها أختها عن قصده ، وأقنعتها باصطناع الدهاء لاجتذابه إليها ، فكتبت الزباء إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وملكها وأن يصل بلاده ببلادها ، فلما بلغه ذلك طمع في ضم ملكها إلى ملكه ، فأقبل إليها ، فلما اجتمعت به قتلته ، فانتقم عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش منها ، فسيّر إليها رجلاً يقال له قصير بن سعد اللخمي ، فتحايل على قتلها ، ونجح قصير في دخول تدمر بجنود الحيرة ، فاضطرت الزباء إلى امتصاص خاتمها المسموم ، فقتلت نفسها [1]، والقصة مليئة بعنصر الخرافة . وقد ورد اسم جذيمة في نص نبطي ويوناني عثر عليه في أم الجمال جاء فيه اسم جذيمة على أنه ملك تنوح أي تنوخ [2]. ولهذا النص أهمية خاصة إذ نستنتج منه وجود علاقة بين قبيلة تنوخ في الحيرة وبين عرب الشام ، ولعل لهذه الحقيقة أثر كبير في الروايات العربية السابقة . ومن المعروف والثابت أن زنوبيا حملت أسيرة إلى رومة ، وأن الغزو الذي تعرضت له بلادها كان غزواً رومانياً ، فالروايات العربية لا تعدو أن تكون قصة خيالية اتخذ الأخباريون من الزباء وجذيمة وقصير أبطالاً لها .

ولقد أجمعت المصادر اليونانية واللاتينية والعربية التي تعرضت لذكر الزباء أو زينوبيا على أنها كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة ، وأنها كانت قديرة على إدارة شؤون البلاد ، وكان أذينة قد ترك لها ملكاً ممهداً ، وجيشاً قوياً على رأسه قائدان من أعظم قواد العصر هما « زبدا » قائد الخيالة الأكبر (رب

---

(١) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٧ – ٧٦٨ ، المسعودي ، ج ٢ ص ٩٢–٩٥

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٢

حيلاه ربا) وزباي قائد خيالة تدمر (رب حيلا دي تدمور)[١].

وأشارت بعض الروايات إلى أن زينوبيا كانت تدعي انتسابها إلى مصر وقرابتها لقليطرة (كليوباترة) ملكة مصر ، وأنها لذلك السبب كانت تجيد التخاطب باللغة المصرية ، كما أنها صنفت كتاباً عن تاريخ مصر. وهناك من يزعم أنها أدومية من أصل يهودي ، ولكن من المرجح أنها عربية ، من سلالة العماليق وهم الطبقة الأولى من طبقات العرب (العرب البائدة) ، وسبب اختلاف هذه الأقوال في أصلها يرجع فيما يظهر إلى تعدد اللغات التي كانت تجيد الحديث بها ، فقد ذكروا أنها كانت تعرف الآرامية والاغريقية واللاتينية والمصرية [٢] . وذكر المسعودي أنها كانت رومية تتكلم العربية [٣]. ويفسر بعضهم ادعاءها بأنها من سلالة ملوك مصر ، بأنها كانت بدوية بعيدة عن الحضارة والعمران ، فأرادت أن تكتسب ود المصريين وأن تتقرب في نفس الوقت من الرومان، فيسهل عليها حينئذ تحقيق مشروعها الخطير الذي رسمته لنفسها وهو الاستيلاء على مصر [٤]. ونعتقد أن زينوبيا لم تكن تعلن تنصلها من أصلها العربي التدمري لمجرد أنها امرأة بدوية بعيدة عن مظاهر الحضارة والعمران أو لرغبتها في كسب ود المصريين، فقد كان عليها باعتبارها زوجة أذينة ملك الملوك ، وامبراطور الشرق أن تعتز بانتسابها إلى عرب تدمر ، والمسألة لا تعدو في نظرنا أن تكون مجرد مظهر من مظاهر التنافس على الشهرة بينها وبين كليوباترا ملكة مصر التي طبقت شهرتها الآفاق ، ولعلها كانت ترمي — بالاضافة إلى شعورها في أن تصبح في يوم من الأيام ملكة أكثر شهرة من كليوباترا — إلى الإيحاء بشرعية مسلكها الذي ستسلكه بضم

---

(١) نفس المرجع

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ٥٠) عن Trebellins Pollio

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٩٢

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٢) نقلا عن اوبرديك (Johannes Oberdick

مصر إلى دولتها ، فتمهد المصريين نفسياً لخطوتها التي ستخطوها وهي الاستيلاء على مصر ،وتهيء نفوس المصريين لتقبل هذا العمل باعتبارها مصرية مثلهم ومثل كليوباترة ملكتهم ، وأنها تعمل على تخليص المصريين من السيطرة الرومانية[1]، وهو أمر يعبر عن ذكائها الخارق وبعد نظرها . وقد اختارت زينوبيا وقتاً مناسباً لهذه الأعمال الحربية عندما دب الضعف في كيان الامبراطورية الرومانية بعد أن استنفذت قواها في حروب الساسانيين،ورأت زينوبيا أن الفرصة مواتية لها لتوسيع رقعة بلادها شمالاً وجنوباً . ولم تكن رومة غافلة عن أهدافها التوسعية ، ورأى الامبراطور جالنيوس أن يبدأ بمهاجمتها في عقر دارها قبل أن تبدأ هي بالهجوم ، فتظاهر بإرسال جيوشه لمحاربة الفرس ، ووجهها إلى سورية لمهاجمة تدمر ، فبلغ خبر ذلك إلى الزباء ، فتصدت لهذا الجيش ، وانتصرت عليه انتصاراً حاسماً ، وقتل هرقليانوس قائد الجيش الروماني في هذه الموقعة[2]. وأخذت زينوبيا تترقب بعد ذلك رد فعل رومة ، فلما بلغها مصرع جالنيوس سنة ٢٦٨ م وانتقال عرش الامبراطورية إلى أوريليوس كلوديوس ، وارتباك الحالة في رومة بسبب غزوات الألمان والقوط ومهاجمتهم للقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية،وخروج بروبوس حاكم مصر من قبل الرومان في أسطوله لمطاردة القراصنة ، وسيرت جيشاً كثيفاً عدته سبعون ألف مقاتل إلى مصر . وقاتل الرومان قتالاً عنيفاً بقيادة بروبوس الذي كان قد عاد إلى مصر ، ولكنهم انهزموا في النهاية ، وآلت مصر إلى زينوبيا [3] ويبدو أن زينوبيا اتفقت مع

---

(١) يبدو أن خطة زينوبيا أثمرت على نحو لم يكن في الحسبان . فقد ذكروا أن الوطنيين في مصر والمعارضين لحكم الرومان البغيض وعلى رأسهم بباجيفس كانوا زينوبيا بحثونها على تحرير مصر من الحكم الروماني .

(٢) جواد علي ، ص ٥٠.

(٣) Paul Bovier-Lapierre Précis de l'histoire d'Egypte, t. I. 1932, p. 399 - Cooke, Enc. Brit. p. 163.

روما على بقاء جيوش تدمر في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر ، فقد عثر على عملة تدمرية ضربت في الاسكندرية في سنة ٢٧٠ ، أي بعد اعتلاء الامبراطور الروماني أورليانوس عرش الامبراطورية ، تحمل نقشاً نصه :

« Vir Consularis Romanorun imperator dux Romanorun »

ونقشت صورة وجه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليانوس[١] ، والجمع بين الصورتين يدل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر من قبل الامبراطور الروماني .

وفي نفس الوقت تمكنت الزباء من بسط نفوذها على آسيا الصغرى ، وأخذت تحصن حدودها مع الفرس ،فأقامت مدينة على نهر الفرات عرفت باسم زينوبيا .

ويبدو أن سياسة الزباء التوسعية وما أشيع عن نيتها في أن تواصل فتوحاتها ، وتحكم روما نفسها[٢] ، قد أقلق الامبراطور أورليانوس ، فعزم على وضع حد لذلك ، وتأديبها . وأثار ذلك غضب الزباء ، فأرادت أن تتحدى الامبراطور ، فأمرت بضرب عملات بالاسكندرية بدون نقش يمثل صورة وجه أورليانوس[٣] . كذلك أقام قائداها زبدا وزباي تمثالاً لأذينة المتوفي ولقبوه بملك الملوك . وقطعت تدمر بهذه التصرفات العدائية الجسر الذي كان يربطها بروما . وفي سنة ٢٧١ م . وجهت إليها روما أولى ضرباتها ، وتمكن الجيش الروماني من إلحاق الهزيمة بجيش تدمر في مصر ، وفي نفس الوقت كانت جيوش الرومان تجتاح آسيا الصغرى ، وتدخل سورية[٤] .

---

(١) Ibid. p. 103

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ٤٥١ – سلمية عامر عبد الحق ، نظرات في الحي السوري قبل الاسلام ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ١١ ، ١٢ ، سنة ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ص ٨

(٣) Cooke, Enc Brit. p. 103

(٤) Ibid

وحاولت جيوش تدمر بقيـــادة زبدا أن توقف تقدم الجيش الروماني في سورية ، ولكنها أخفقت في أنطاكية وتراجعت إلى حمص . وفي حمص كانت الهزيمة الثانية التي مني بها جيش تدمر ، وأصبح الطريق أمام الرومان إلى تدمر مفتوحاً. وحاصر أورليانوس مدينة تدمر التي تركز فيها كل دفاع الزباء، وكانت الزباء تتوقع أن يقوم الفرس والأرمن بمساعدتها ، ولكن الفرس كانوا في شغل شاغل عنها بسبب الاضطرابات التي أعقبت وفاة سابور الأول في عام ٢٧١ م وعزل هرمز الذي تولى الملك من بعده بعد عام واحد من اعتلائه العرش. فلما رأت أنها عاجزة عن الدفاع ، قررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس عله يمدها بجيش يعينها على استرجاع بلادهـا ، ودبرت خطة خروجها من تدمر بحيث لا يشعر به الرومان ، ونجحت في الوصول إلى ضفاف الفرات عندما أحاط بها فرسان الرومان، فقبضوا عليها وهي تهم بركوب زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر[1] .

وقت وقوع الزباء في قبضة الرومان في عضد المدافعين من أهل تدمر، ففتحوا أبواب مدينتهم للرومان في طليعة عام ٢٧٣ م ، ودخلها أورليانوس دخول الظافرين ، فعفا عن أهلها باستثناء بعض خاصـة الملكة الأسيرة وبعض القواد ، فقتلهم[2] ، وأبقى على زينوبيا وابنها وهب اللات حتى يعود إلى رومة ، ومضى أورليانوس إلى حمص ومعه الملكة الأسيرة وابنها وهب اللات في طريقـــه إلى رومة. وعندما وصل إلى تراقية وصلته أنباء بقيام أهل تدمر بالثورة على الحامية الرومانية ، وتنصيبهم لأنطيوخوس ملكاً عليهم ، وقيام أهل مصر بزعامة

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٢٠

Caussin de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes. Paris. 1847, t. 2. p. 199

(٢) Cooke, Enc. Brit. p. 163

فيرموس بالثورة على الرومان[١] . أسرع أورليانوس بالعودة إلى تدمر ، وباغت الثوار فيها وتمكن من دخولها بدون مقاومة ، وأباح أورليانوس لجنوده تخريب المدينة وقتل سكانها، فدمرها جنوده، وهدموا أسوارها وقلاعها وسائر أبنيتها. ولكنه أشفق بعد ذلك على من بقي حياً بها ، فأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن المذابح وأعمال التدمير، وأمر بترميم معبد الشمس والأسوار. ولكن المدينة فقدت عظمتها القديمة إلى الأبد ، وأخذت تتوارى منذ ذلك الحين عن المسرح السياسي والحضاري، فلم تعد في عهد دقلديانوس سوى قرية صغيرة وحصناً أمامياً لسورية ، وأقام بها دقلديانوس معسكراً للرومان في الحي الغربي ، وذلك بعد أن عقد الصلح مع الفرس[٢]. وقد أجرت البعثة البولونية حفريات أثرية منذ عام ١٩٥٩ في موضع هذا المعسكر الروماني تحت إشراف كازيميرز ميخالوفسكي[٣].

وكانت المسيحية قد انتشرت في تدمر في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ، وتعرض المسيحيون في عهد دقلديانوس لاضطهاد عنيف ، وكان من بين أهل تدمر بعض الشهداء والشهيدات . ثم أصبح لتدمر أسقفية ، ووصلت إلينا بعض أسماء أساقفتها في السنين الأولى من القرن الرابع الميلادي ، منهم الأسقف مارينوس الذي حضر المجمع النيقاوي في سنة ٣٢٥، والأسقف يوحنا الذي ورد اسمه في سجلات أعمال مجمع خلقدونية سنة ٤٥١[٤].

وفي عصر الامبراطور جستنيان أصبحت تدمر على خط الحدود الداخلية

---

(١) Paul Bovier Lapierre, op. cit. p. 400

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٦

(٣) الحفريات البولونية في تدمر، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، المجلد العاشر ١٩٦٠.

(٤) جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٧

للامبراطورية (limes interior)[1] ، وقد زارها الامبراطور في سنة ٥٢٧ م ، وزودها بحسر للمياه ، وبنى بها سوراً ، ما تزال بقاياه واضحة .

ثم افتتحت في خلافة أبي بكر ، افتتحها خالد بن الوليد صلحاً وهو قادم من الحيرة إلى الشام[2]. ويذكر البلاذري أن خالد « أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا ، ثم طلبوا الأمان فآمنهم على أن يكونوا ذمة ، وعلى أن قروا المسلمين ورضخوا لهم »[3].

وفي عهد مروان بن محمد ثار أهل تدمر وتحصنوا بأسوارها ، وكان معظمهم من الكلبيين[4] ، فقصدها مروان بن محمد ، وقتل أهلها ، وهدم سورها[5] . وذكروا أنه وصل إلى بيت مجصص عليه قفل ، ففتحه ، « فاذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة ، وإذا لها سبع غدائر مشدودة خلاخلها ..... وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب فيها مكتوب : باسمك اللهم ، أنا تدمر بنت حسان ، أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا . فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان ، ولم يأخذ ما كان عليها من الحلي شيئاً »[6] ، فلم يملك مروان بعدها إلا أياماً حتى أقبل عبدالله بن علي ، فقتل مروان ، وفرق جيشه ، وأزال الملك عنه وعن أهل بيته[7] .

والقصة كما تبدو خيالية ، لفقها الأخباريون تلفيقاً لتفسير كارثة سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين. وهناك قصة مماثلة ترتبط بفتح العرب للأندلس

---

(١) Musil, Palmyrena. p. 248 - Enc. Brit. p. 163

(٢) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١١١

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٢١

(٤) الطبري ، المجلد الثاني ، قسم ٣ ، ص ١٧٩٦

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص١٧ — ابن الفقيه ، ص ١١٠

(٦) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ١٧

(٧) راجع ابن الفقيه الهمذاني ، ص ١١٠ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ١٧

وسقوط دولة القوط الغربيين[1].

وقد زار تدمر الرحالة والمتنقلون بين الشام والعراق في العصر الاسلامي ، ومن هؤلاء أوس بن ثعلبة التميمي ، الذي مر بها في عصر يزيد بن معاوية قادماً من البصرة ، فشاهد عدداً من التماثيل الرخامية ، فأعجب بتمثالين لفتاتين قائمتين ، فأنشد :

فتـاتي أهل تدمر خبراني ألما تـسأما طول القيـام ؟
قيامكما على غـير الحشايا على جبل أصم من الرخام[2]

كذلك زارها الرحالة بنيامين التطيلي اليهودي فيما بين عامي ١١٦٠ ، ١١٧٣م ، فيقول :

« وكذلك تدمر الواقعة في الصحراء ، والتي بناهـا سليمان ، فأبنيتها مقامة من أحجار غلاظ . ويحيط بمدينة تدمر سور في الصحراء بعيد جداً عن أي منزل مأهول ، وتبعد تدمر عن بعلبك بنحو أربعة أيام . ويعيش بتدمر نحو ألفين من اليهود ، كلهم شجعان ومحاربـين أشداء ، ويقومون بالحرب في جانب العرب والنصارى التابعين للملك نور الدين ، ويعملون على نصرة جيرانهم المسلمين ، ومن رؤسائهم اسحق اليوناني ، وناثان وأوزيل »[3] . وظلت تدمر مدينة مأهولة حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد مر بها الرحالة ابن بطوطة في طريقه

---

(١) طالع قصة بيت الحكمة في المراجع التالية : ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ، ج ٢ طبعة بيروت ١٩٥٠ ، ص ٤ — الحميري ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٧٠٦ — المقري ، كتاب نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ١ ص ٢٢٥

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٨

(٣) Viajes de Benjamin de Tudela, trad. espanola por Ignacio Gonzalez, Madrid, 1918, p. 81

من بغداد إلى دمشق[١].

ج – حضارة التدمريين وآثارهم :

يرجع بداية ازدهار تدمر وتألقها الحضاري إلى القرن الأول الميلادي ، فقد كسبت كثيراً من موقعها الجغرافي في مفترق الطرق الصحراوية التي تربطها بالبتراء، ومن البتراء إلى عدن من جهة ، وبموانىء الساحل السوري،وعلى الأخص بثغر غزة من جهة ثانية . وكانت تدمر على اتصال بثغر جرهة Gerrhaei الواقع على الخليج العربي، حيث كانت تحط الأساطيل التجارية القادمة من الهند،وتفرغ بضائعها ، فتقوم القوافل التدمرية بحمل هذه البضائع لتحملها إلى بلدة دورا أوروبس Doura Europos الواقعة على الحدود الخارجية لمملكة تدمر ، ومن دوراً كانت تصل إلى أنطاكية وطرابلس ودمشق . وعلى هذا النحو كانت تدمر تتحكم في هذه الشبكة من الطرق التي تربط السواحل السورية بآسيا والهند ، ولتجارتها مع الشرق أصبحت تدمر تنافس الاسكندرية[٢]. وعن طريق جرهة كانت تصل إلى تدمر المنسوجات الحريرية والجواهر واللآلىء والطيوب والبخور من الهند والصين والعربية الجنوبية[٣]. وإلى جانب الطريقين السابقين كان هناك طريق ثالث عبر البحر الأحمر ومصر ثم الاسكندرية ، وكان هذا الطريق الثالث سيطرة الأنباط الذين تخلوا عنه بعد سقوط مملكتهم إلى تجار تدمر[٤]، ولهذا السبب استقر عدد من تجار تدمر في خلال القرنين الثاني والثالث بعد الميلادفي مدينة قفط المصرية وكانوا يترددون على الطرق المصرية للبحر الأحمر[٥]، وكانوا على اتصال وثيق بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال إفريقيا[٦].

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٠ ص ٦٥٠.

(٢) Paul Bovier - Lapierre, op. cit. p. 398

(٣) Cooke, Enc. Brit. article Palmya. t. 17. p. 162

(٤) Ibid – جواد علي ، ج ٣ ، ص ٧٧

(٥) Paul Bovier - Lapierre, op. cit. p, 398

(٦) جواد علي ، ج٣ ، ص ٧٦.

جنت تدمر من هذه التجارة المارة بها مكاسب هائلة نتجت عن الضرائب التي كانت تجبيها عليها ، وتشهد بهذه الثروات الآثار الباقية في هذه المدينـــة والتي تتمثل في بقايا الهياكل والأعمدة الضخمة وأقواس النصر وآثار القصور. ولضمان الحفاظ على هذه المكاسب اضطرت حكومة تدمر إلى إرسال الحراس مع القوافل لحمايتها، ولإراحتها في مراحل الطريق في البادية[1]. وكان هؤلاء الحراس يتخذون من بين التدمريين الذين خدموا في الجيش الروماني . وتكون أيضاً من الجنـــد التدمريين الذين سرحوا من الخدمة في الجيش الروماني الذي كان يرابط على الحدود مع فارس حاميات تقيم في عانة Anath وفي الحيرة Hirtha [2] وفي دورا. وعلى الرغم من أن رومة فقدت دوراً إبان الصراع بين الرومان والفرس فإن الصلات التجارية بين تدمر ودورا لم تنقطع .

كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سورية ويونانية وفارسية ،على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية ، وكانت لغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية ، وتنتمي إلى نفس المجموعة التي تندرج فيها النبطية . على أن اللغة اليونانية كانت سائدة في تدمر إلى جانب اللغة الآرامية[3]، ولا تخلو النقوش التي عثر عليها في إقليم تدمر من كلمات عربية أصيلة . ومن حيث العبادة فقد كان الدين في تدمر لا يختلف عن الأديان الشائعة في سورية الشمالية وعند قبائل العرب في البادية ، فمن الأصنام التي وردت أسماؤها في الكتابات التدمرية أصنام بعضها كان معروفاً عند العرب ، وبعضها الآخر آرامي . وأعظم آلهة تدمر وأقواهـا جميعاً الإلهة شمس ، والإله بل أو بعل ، ويرح بول ، والت أي اللات ، ورحم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨

(٢) ان ورود اسم الحيرة في بعض الكتابات التي ترجع الى سنة ١٣٩ م والتي ظهر فيها اسم الاله « شيع القوم » حامي القوافل والتجارات ، يدل على ان نفوذ تدمر وصـــل الى الحيرة ، وقد يكون هذا مصدرا لقصة جذيمة والزباء (راجع جواد علي ج ٣ ، ص ٨١) .

(٣) Enc. Brit. p. 103 — فيليب حتي ، تاريخ سورية ج ١ ص ٤٤٢ — ٤٤)

أي رحيم ، وأشتر أي عشتار ، وملك بعل ، وعزيزو أي عزيز ، وأب أجل ، وسعد ، وبعل شمين أي بعل السماء . ويلي الإلهة شمس في مراتب الآلهة الإلهة الكبرى اللات ، وقد رأينا أنها كانت تعبد في البتراء .

وقد تخلفت في تدمر آثار كثيرة ، وهي آثار كانت تثير إعجاب الرحالة المسلمين في الماضي ، ومن بينها تماثيل النساء والرجال ، ومن مظاهر إعجاب المسلمين بهذه التماثيل ، قول أبي الحسن العجلي في اثنين منها :

أرى بتدمر تمثالين زانهما   تأنق الصانع المستغرق الفطن

هما اللتان يروق العين حسنهما   تستعطفان قلوب الخلق بالفتن [1]

وكان يشق تدمر طريق فسيح يشكل محور المدينة الرئيسي، يبلغ طوله نحو ١٠٧٠ م ، وهو محجتها العظمى Cardo Maximus [2] ، ويعرف هذا الطريق بطريق الأعمدة ، إذ كان يحف به على اليمين واليسار صفان من الأعمدة الضخمة كان يصل عددها إلى ٣٧٥ عموداً ، ولم يتبق منها اليوم سوى ١٥٠ عموداً تيجانها كورنثية ، وبعض الأعمدة من الحجر الجيري ، وبعضها من الجرانيت [3]. وكانت الأعمدة ترتبط من أعلاها فيما بينها بواسطة إفريز متصل وطنف على النظام اليوناني ، وينتهي هذا الطريق قرب معبد بعل بقوس النصر . ومن هذا القوس ثلاثي الفتحات ينحرف الشارع الكبير متجهاً إلى معبد بعل بطريقة أصيلة ، فقد توصل المهندسون إلى حل فريد لهذا الانحراف وذلك ببناء قوس النصر على سطح شبه منحرف ، وقوس النصر على هذا النحو يمثل واجهة ضخمة من وجهين كل

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ١٨

(٢) راجع مقدمة كتابي : تخطيط الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٦٩ ص ٢١

(٣) فيليب حتي ، ج ١ ص ٤٤٢

وجه يتعامد مع الشارع الذي يواجهه ، وتسمح فتحات القوس الثلاثة برؤية منظر رائع للغاية ، وهو أمر من الصعب تحقيقه لو أن هذا الطريق الرئيسي كان مستقيماً [1].

وآثار معبد بل أو بعل تعتبر أروع ما تخلف من بنيان تدمر بحالة تدعو إلى الإعجاب ، وقد كان الشروع في بناء هذا المعبد في طليعة القرن الأول الميلادي ، وأضيفت إليه إضافات متعددة خلال القرنين الأول والثاني . أقيم هذا المعبد على نسق المعابد الشرقية ، فهو يشتمل على هيكل رئيسي شامخ يتوسط فناء مربع الشكل طول كل ضلع منه مائتي متر. ويحيط بالفناء المربع سور تحف به أروقة رائعة تطل عليه بواسطة صف من الأعمدة ذات تيجان كورنثية. ويقوم في الفناء مذبح وحوض وقنوات وممر للضحايا. ويمثل هذا المعبد من حيث النظام المعماري نظام البناء التدمري ، أما العناصر المعمارية كالأعمدة والتيجان فقد اتبعت الأسلوب الروماني الشائع [2] .

ومن آثار تدمر أيضاً آثار معبد بعل شمين ، وآثار حمامات ، ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام ، وأعمدة تذكارية ، وآثار قصر آل الزباء القائم فوق النشز الغربي ، وهو بناء ضخم تتقدمه حنية ، ويشكل هذا القصر بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف ، وعضاداته وواجهاته المحرمة بالزخارف معجزة في فن النحت [3] .

كذلك تبقت في تدمر آثار مقابرها أو « بيوتها الأبدية » وبعضها على شكل

(1) John Witmer, Palmyre : apprendre de l'histoire, dans, les Annales Archéologiques de syrie. Vol. X, 1960. p. 170

(2) عدنان البني) حول المشروع التدمري الاستثنائي ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، العدد ١٣ عام ١٩٦٣ ص ١١٧ ـ ١١٨

(3) نفس المرجع ، ص ١١٨

أبراج مربعة الشكل ، تشتمل في الداخل على غرف يدفن فيها الموتى ، وبعضها الآخر على شكل بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة [1].
كذلك تبقت في تدمر آثار قنوات كانت محفورة في باطن الأرض ، وبقايا أحواض وخزانات في ظاهر المدينة .

(1) Enc. Brit. p. 162 — جواد علي ، ج ٣ ص ٢٩

الفصل الرابع

الغساسنة والمناذرة

١ – الغساسنة :

(أ) أصل الغساسنة والظروف التي أدت إلى قيام دولتهم

(ب) الحارث بن جبلة أعظم أمراء الغساسنة

(ج) خلفاء الحارث بن جبلة

(د) حضارة الغساسنة

٢ – المناذرة :

(أ) هجرة التنوخيين إلى بادية العراق

(ب) ملوك الحيرة من التنوخيين

(ج) تمصير الحيرة وبداية إمارة المناذرة أو اللخميين

(د) أشهر أمراء المناذرة بعد عمرو بن عدي

(هـ) الحيرة في العصر الإسلامي

(و) حضارة الحيرة في عصر اللخميين

— ١ —

الغساسنة

١ — أصل الغساسنة والظروف التي أدت الى قيام دولتهم

الغساسنة من أزد اليمن ، نزحوا تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء من جنوب الجزيرة العربية إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم ، وما سببه ذلك من تدهور نظم الزراعة وأعمال الري في اليمن . ويزعم نسابو العرب أن هؤلاء الأزد لم يرحلوا إلى الشام مباشرة ، وإنما أقاموا حيناً من الوقت في تهامة بين بلاد الأشعريين وعك ، على ماء يقال له غسان فنسبوا إليه ، ويفسر المسعودي هذه النسبة بقوله : « وإنما غسان ماء شربوا منه ، فسموا بذلك ، وهو ما بين زبيد ورمع ، وادي الأشعريين بأرض اليمن » ، ويدعم المسعودي هذا التفسير ببيت من الشعر لحسان بن ثابت :

أما سألت فإنا معشر نجب   الأزد نسبتنا والماء غسان [١]

فالغساسنة ينتسبون إذن إلى آل عمرو المعروف بمزيقياء ، وعمرو هذا هو ابن

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ . ويذكر ابن هشام ان غسان ماء بسد مأرب باليمن ، وقيل ماء بالمشلل قريبا من الجحفة (السيرة ج ١ ص ٨٩ ، ١٠) .

عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث[1]. ويفسر الأخباريون تسمية عمرو بمزيقياء تفسيرين مختلفين، يذكرهما حمزة الأصفهاني؛ أحدهما أن الأزد تزعم ، أن عمراً إنما سمي مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يلبسهما غيره ، فسمي هو مزيقيا ، وسمي ولده المزاقية ، فهذا قول . وقيل : إنما سمي مزيقيا ، لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم ، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ بسيل العرم مثلاً ، فقالوا : ذهبت بنو فلان أيادي سبأ[2]. ومن الواضح أن التفسير الأول تفسير خرافي ، لعل المقصود به إظهـــار ثراء عمرو بن عامر وجاهه ، ويرجح ثيودور نلدكة التفسير الثاني[3]، ويعتقد أن هذا التفسير مأخوذ أصلاً عن قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[4].

ويسمي الغساسنة أيضاً بآل جفنة وبأولاد جفنة[5]، لأن أول ملوكهم « جفنة ابن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد » [6] ، وإلى جفنة ينسب أحد أمراء الغساسنة ، وهو الحارث الأول ابن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، الذي يسميه النابغة بالحارث الجفني .

---

(1) حمزة الأصفهاني ، ص ٧٧

(2) نفس المصدر

(3) ثيودور نلدكه : [illegible] ، ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ ، ص [illegible] حاشية ١

(4) القرآن الكريم ، سورة سبأ ٣٤ ، آية ١٩

(5) يقول حسان بن ثابت :

أولاد جفنـــة حـــول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضـــل

راجع ديوان سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهـــرة ١٣٢١ ص ٨٠ ـ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨٥

(6) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت ص ١٨٦

كذلك يسمون بآل ثعلبة ، نسبة إلى جد لهـذه الأسرة يعرف بثعلبة بن مازن [1].

وكان يسكن مشارف الشام قبـل نزوح الأزد الغساسنة قوم يعرفون بالضجاعمة من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة [2] ، وقد غلبهم الغساسنة وحلوا محلهم .

ولم يكن دخول الغساسنة في الشام وتغلبهم على الضجاعمة أمراً يسيراً تم بدون حرب ، فحمزة يذكر أن غسان لما نزلت في جوار سليح بن حلوان ، ضربت سليح عليهم الإتاوة ، فلما طالب سبيط الضجعمي ثعلبة بن عمرو الغساني بالإتاوة ، تحايـل عليه حتى قتله أخوه جذع بن عمرو ، فقامت الحرب بين سليح وغسان وانتهت بهزيمة سليح ، وآل الملك إلى غسان [3] . غير أن تغلب الغساسنة على بني سليح الضجاعمة لم يقض على هؤلاء نهائياً . ويشير نلدكة إلى أن الضجاعمة ظلوا مقيمين في مواضع أخرى من الشـام إلى زمن متأخر ، ويستدل على ذلك من أن النابغة زار أحدهم في بصرى [4] ، وأن جماعة من الضجاعم ، حاربوا خالد بن الوليد في دومة الجندل [5] ، وفي قصم [6] .

---

(١) نلدكه : امراء غسان ، ص ٤

(٢) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٨٦

(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٦ ــ ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٨٢

(٤) يقول النابغة :

لعمري لنعم المرء من آل ضجعم   تزور بصرى او ببرقة هارب

فتى لم تلده بنت عم قريبة   فيضوى وقد يضوى سليل الاقارب

(ديوان النابغة الذبياني ، نشره الاستاذ محمد جمال ، بيروت ١٩٢٩ ص ١٨)

(٥) الطبري ، ج١ ، قسم ٤ ، ص ٢٠٦٥

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ١٢٢

وأول أمراء غسان وفقاً لحمزة الأصفهاني هو جفنة بن عمرو مزيقياء،ويذكر حمزة أن جفنة هذا ملك في أيام نسطورس الذي ملكه على عرب الشام، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح الذين يدعون الضجاعمة ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم ، وبنى جلق والقرية وعدة مصانع[1]. وأورد اليعقوبي هذا الخبر مع تغيير بسيط هو أنه بدل نسطورس بنوشر[2]، والمقصود بنسطورس أو نوشر الامبراطور الروماني أنسطاسيوس (٤٩١–١٥٨ م)[3].ولكن المسعودي وابن قتيبة يخالفان حمزة واليعقوبي في اسم أول من ملك من الغساسنة،فيذكران أن أول من تولى ملك الغساسنة هو الحارث بن عمرو بن عامر[4].

ويذكر حمزة الأصفهاني أنه تولى بعد جفنة ، ابنه عمرو بن جفنة الذي أقام عدداً من الأديرة ، منها دير حالي ، ودير أيوب ، ودير هناد ، ثم تولى بعد عمرو ابنه ثعلبة الذي ينسب إليه بناء عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء ، وخلفه ابنه الحارث المعروف بالحارث الجفنى[5].

وإذا كان أول من ملك من أمراء غسان موضع خلاف عند الأخباريين فإن أول من نثق في صحة إمارتـه منهم هو جبلة بن الحارث بن ثعلبة الذي ذكره ثيوفانيس تحت اسم جبلس ، وذكر أنه غزا فلسطين فيما يقرب من ٥٠٢ م[6] ، وقد نسب إليه حمزة بناء القناطر وأدرج والقسطل[7] .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٧

(٢) اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٦٧

(٣) بلدكة ، ص ٨ – جواد علي ، ج٤ ص ١٢٤

(٤) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٢١٦ – المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٠٧

(٥) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٧

(٦) نلدكة ، ص ٦ – جواد علي ، ج ٤ ص ١٢٦

(٧) حمزة ، ص ٧٧

ب – الحارث بن جبلة أعظم أمراء الغساسنة :

وأول أمراء الغساسنة العظام الحارث بن جبلة بن الحارث الجفني (٥٢٩ – ٥٦٩م) الذي ذكره المؤرخ السرياني ابوتيس ملالاس على أنه كان عاملاً للروم[1]. وتكاد المصادر العربيـة تجمع على أنه ابن امرأة تسمى مارية ذات القرطين بنت عمرو بن جفنة[2] أو بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو[3] ، أو بنت ظالم ابن وهب بن معاوية بن ثور وهو كندة[4] أو بنت الهاني من بني جفنة[5].

وذكر ملالاس أن الحارث بن جبلة حارب المنذر Almundarus أمير عرب الفرس ، والمقصود به المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وانتصر عليه في أبريـل سنة ٥٢٨ م ، وجاء في معرض حديثه هذا ذكر أميرين هما جنوفاس (جفنة) ونعمان ، من أسرة الحـــارث بن جبلة[6] . كان الحارث بن جبلة معاصراً للامبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) ، كما كان معاصراً لملكين من ملوك الفرس هما كسرى قباذ (٤٤٨–٥٣١م) وكسرى انوشروان (٥٣١–٥٧٩ م). وذكر بروكوبيوس أن جستنيان منح الحارث لقب ملك ، وبسط سلطته على قبائـل عربية متعددة ، وكان جستنيان يهدف من وراء ذلك أن يجعـــل من الحارث خصماً قوياً في وجه المنذر ملك عرب الفرس ،وذكر بروكوبيوس أن هذا اللقب لم يمنحه الروم لأحد من عمال العرب في سورية من قبل . وعلى الرغم من أن

(١) نلدكـة ، ص ٩

(٢) حمزة ، ص ٧٨ – ابن قتيبة ، ص ٢١٦

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٧

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٨٥

(٦) نلدكة ، ص ١١ – جواد علي ، ج ٤ ص ١٢٨

بروكوبيوس لم يحدد السنة التي رقي فيها الحارث إلى هذه الرتبة ، فإن نلدكة يستنتج من سياق النص أن ذلك تم في سنة ٥٢٩ م . ويشك نلدكة أيضاً في أن الحارث قد منح لقب ملك باعتبار أن هذا اللقب كان قاصراً على القيصر وحده، ويعتقد أن مـــا لقب به الحارث وغيره من آل جفنة لا يعدو لقب البطريق « Patricius» أو لقب شيخ القبيلة « فيلاركوس» Phylarch أو Phylarcos ، استناداً إلى اللقب الكامل الوارد في نقش يرجع إلى ابن الحارث وخليفته ونصه : (فلابيوس المنذر البطريق الفائق المديح ورئيس القبيلة) ، وعلى اللقب الرسمي الذي أطلقه المؤرخ ثيوفانيس على الحارث على النحو التـالي (الحارث البطريق ورئيس القبيلة) ، وعلى اللقب الرسمي للحارث الذي ورد في قرارات المجامـع الكنسية وحفظته لنا الترجمة السريانية، ونصه (البطريق الفائق المديح الحارث)، وما ذكره يوحنا الإفسي ونصه (المنذر البطريق الأمجد) [١] . ولقب البطريق كان من أسمى الألقاب عند الروم حتى إن ملوك البرابرة المستقلين كانوا يغتبطون بالحصول عليه، ذلك لأن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية على الاطلاق ، وكانت رتبتهم أرقى من رتبة القناصل [٢] . أما لقب فلافيوس الذي تلقب به المنذر بن الحارث فكان من الألقاب التي ينعم بها أحياناً قياصرة الروم على بعض رعيتهم، وقد دعي به أيضاً الامبراطور جستنيان ومن سبقه من الأباطرة .

ويبدو أن الحارث بن جبلة الغساني قام بغزو بلاد المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وأنه هزم جيش ابن النعمان وغنم غنائم كثيرة، وقد أدى ذلك إلى قيام الفرس بغزو شمال سورية واستولوا على مدن كثيرة مثل الرها ومنبج وقنسرين وأنطاكية .

---

(١) نلدكة ، ص ١٢-١٤

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤

ويبدو أن النزاع بين الغساسنة والمناذرة كان سببه الأراضي التي أطلق عليها الروم اسم Strata، وهي البادية الواقعة جنوبي تدمر على حد قول بروكوبيوس ، ولكن الأستاذ نلدكة يرى أنها الأراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس ، فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه ، وأنها تدفع له الجزية ، وعلى هذا النحو قامت الحرب بينهما[1].

وفي سنة ٥٤١ م اشترك الحارث في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس تحت قيادة بليزاريوس ، ولم يكد الحارث يعبر نهر دجلة حتى ارتد إلى مواقعه السابقة عن طريق أخرى غير الطريق التي سلكها معظم الجيش، وقد أثار تصرفه هذا الشك في إخلاصه للروم[2]. ويبدو أن الحارث أنف من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطي ، وأنه كان يعمل على الانفراد بالقيادة ، ولعله انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين قائد الحملة . والأرجح أن انسحابه يرجع إلى أنفته من أن يكون تابعاً لبليزاريوس ، بدليل أنه لم يكد يمضي على حملة بليزاريوس ثلاث سنوات حتى اشتبك الحارث في قتال عنيف مع المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء[3] في سنة ٥٤٤ م ، وانتهى القتال بهزيمة الحارث بن جبلة ، ووقع أحد أبنائه أسيراً في يد المنذر ، فقدمه ضحية للالهة العزى[4]. ولم يسكت الحارث على تلك الهزيمة ، فجمع جموعه واشتبك من جديد مع المنذر في موقعة انتهت هذه المرة بهزيمة المنذر ، وفراره من المعركة تاركاً ولدين من أولاده أسيرين في أيدي الغساسنة[5] .

---

(١) نلدكة ، ص ١٨ — جواد علي ج ٤ ص ١٢٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ماء السماء اسم أمه ماوية بنت عوف من جشم ، وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها (حمزة الصفهاني ، ص ٧٠ — ابن قتيبة ، كتاب المعارف، ص ٢١٨)

(٤) نلدكه ، ص ١٨ — جواد علي ج ٤ ص ٥٩

(٥) جواد علي ، ص ٦٠

واستمر التوتر بين المعسكرين الغساني واللخمي على أشده حتى بعد أن عقدت الهدنة بين الروم والفرس في سنة ٥٤٦م، ولم ينته هذا الصراع بينهما إلا بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة نفسه في موقعة دارت بينه وبين خصمه الحارث بالقرب من قنسرين في سنة ٥٥٤م ، وفيها سقط أحد أبناء الحارث ويدعى جبلة قتيلاً ، فدفنه أبوه في قلعة عين عوداجة بالقرب من قنسرين[١] ، وكانت تابعة لاقليم تدمر ، ولعلها الموضع المعروف بعذبة في الوقت الحاضر ، القريب من الطريق الروماني على رأي موسل[٢] . ويذكر نلدكة أن هذه الموقعة حدثت بالقرب من الخيار ، لأن هناك رواية عربية تعين موقع المعركة التي قتل فيها المنذر في هذا المكان نفسه الذي يقع على وجه التقريب في منطقة قنسرين[٣]، ولا يفرق نلدكة بين الموضع المسمى بالخيار وبين « ذات الخيار » التي يذكرها ابن الأثير[٤] ويوم الخيارين الذي ذكره الحارث بن حلزة في معلقته ، ويعتقد أن ذات الخيار ويوم حليمة موقعة واحدة هي نفس الموقعة التي قتل فيها المنذر بن النعمان ملك الحيرة[٥] ، ويستبعد أن تكون هذه الموقعة هي نفس موقعة عين أباغ ، التي وقعت قرب الحيرة، ونحن نوافقه على رأيه استناداً إلى قول النابغة :

يوما حليمة كانا من قديمهم — وعين باغ فكان الأمر ما ائتمرا

يا قوم إن ابن هند غير تارككم — فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا[٦]

ويؤكد نلدكة أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة كما يزعم الأخباريون ، إذ يعللون تسمية الموقعة بذلك بأن حليمة بنت الحارث كانت تطيب عسكر أبيها،

---

(١) Musil, Palmyrena, p. 144, Note 1 ـ نلدكة ، ص ١٩ ـ جواد علي ، ص ٦١

(٢) Ibid.

(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢٢٨

(٤) ابن الأثير ، ج١ ص ٣٢٦

(٥) نلدكة ، ص ٢٠

(٦) ديوان النابغة ، ص ٣٧

وتلبسهم الأكفان والدروع[1]، وقيل أنه سمي بذلك الاسم نسبة إلى مرج حليمة المنسوب إلى حليمة بنت الملك الحارث[2].

وأعتقد أن نلدكة يتفق في رأيه مع ما ذكره ابن قتيبة الذي يجعل موقعة الخيار هي الموقعة التي قتل فيها المنذر بن النعمان ، وموقعة عين أباغ هي الموقعة التي قتل فيها ابن المنذر ملك الحيرة من بعده[3]، كذلك أشار ابن قتيبة عند تعرضه لملوك الشام إلى أن المنذر ملك الحيرة لقى مصرعه في يوم حليمة[4] أي أنه يجعل موقعة الخيار ويوم حليمة موقعة واحدة .

ورأى الحارث أن يرحل إلى القسطنطينية ليفاوض الحكومة البيزنطية فيمن يخلفه من أولاده في ولايته وما يمكن اتخاذه من خطط عسكرية لمواجهة عمرو بن المنذر (٥٥٤ – ٥٦٨م)، فرحل إليها في سنة ٥٦٣م ، وبهرته مظاهر الحضارة في عاصمة البيزنطيين . ويبدو أنه لم يقابل هناك بما يجب أن يقابل به الأبطال المنتصرون من مظاهر الحفاوة والتكريم ، فقد كان الحارث مسيحياً على المذهب المونوفيزيتي أي مذهب الطبيعة الواحدة ، وكان يتولى الدفاع عن المونوفيزيين لتحريرهم من اضطهاد البيزنطيين لهم، ويقال إنه سعى لدى الامبراطورة تيودورة في سنة ٥٤٢–٥٤٣ لتعيين يعقوب البرادعي -مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية- ورفيقه ثيودوروس أسقفين في المقاطعات العربية في سورية[5] ، ونشر بذلك المذهب المونوفيزيتي في بلاده . وظل الحارث طوال سني حكمه حامياً الكنيسة المونوفيزية ، ونجح في تحويل عرب الشام إلى متنصرة على المونوفيزية . وقد نهج

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢١٦ – ابن الأثير : ج ١ ص ٣٢٩
(٢) ابن الأثير : ج١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩
(٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢١٨
(٤) نفس المصدر ، ص ٢١٦
(٥) نلدكه : ص ٢٠ ، ٢١ –
(٦) Richard Bell. The origin of Islam, in its christian environment.London. 1926. p. 21

ابنه المنذر من بعده هذه السياسة . وعلى الرغم من أن الغساسنة كانوا يحكمون في الجابية من أرض الجولان ، فقد تمكنوا من التأثير على جميع القبائل العربية في الكورة الرومانية وفي فلسطين بل وعلى عرب سورية الشمالية[1] . ويبدو أن انتصار الحارث للكنيسة اليعقوبية كان سبباً في نظرة الشك التي كان ينظر إليه بها الامبراطور البيزنطي ، واستغل بطارقة القسطنطينية هذه الفرصة لإثارة المشاعر هناك حول أمير مونوفيزيتي[2] .

وتوفي الحارث بن جبلة الذي يقال له أيضاً الحارث بن أبي شمر في آخر سنة ٥٦٩ م أو أول عام ٥٧٠ م بعد أن قضى في إمارته أطول مدة في عهود أمراء الغساسنة ، وهي أربعون عاماً . ويشغل الحارث مكانة عظيمة في نفوس العرب إلى حد أن كتّاب العرب القدماء كانوا يطلقون على كل أمير غساني حقيقي أو من خيالهم لا يعرفون اسمه ، اسم الحارث بن أبي شمر[3] .

ج – خلفاء الحارث بن جبلة :

بعد وفاة الحارث بن جبلة انتقلت الامارة إلى ابنه المنذر المعروف في المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية باسم Alamundaros ، ويذكر حمزة الاصفهاني أنه كان يلقب بالمنذر الأكبر تمييزاً له عن أخيه المنذر الأصغر[4] . والمنذر الأكبر هذا هو بطل موقعة عين أباغ التي أشار بعض الأخباريين خطئاً إلى أنها حدثت في سورية[5] . والواقع أن عين أباغ حدثت في موضع بعيد عن سورية ، فقد ذكر ياقوت أن عين أباغ « ليست بعين ماء وإنما هو واد وراء الأنبار على طريق

---

(1) Richard bell, op. cit. p. 23

(2) Ibid. – تلدكة ، ص ٢٢

(3) نلدكة ، ص ٢٢

(4) حمزة ، ص ٧٨

(5) ابن الاثير ، ج١ ص ٣٢٦

الفرات إلى الشام »[1] ، وذكر ابن الأثير أن أمير الغساسنة (يذكر أنه الحارث ابن أبي شمر) أرسل جيشاً إلى الحيرة فانتهبها وأحرقها ، وأن اللقاء تم في عين أباغ[2] مما يدل على أن عين أباغ حدثت بعيداً عن سورية ، وفي موضع قريب من الحيرة . وفي هذه الموقعـــة – التي حدثت في سنة ٥٧٠م في أوائل إمارة المنذر – انهزم جيش اللخميين هزيمة نكراء ، وذكر بعض المؤرخين العرب أن ملك الحيرة قتل في هذه الواقعة[3] ، ولكن ابن الأثـــير يعتقد أن الذي قتل من اللخميين هو المنذر بن ماء السماء في موقعة مرج حليمة ،وأما عمرو بن المنذر فانه لم يقتل[4] وعلى هذا نستبعد الرأي القائل بأن عمرو بن المنذر قتل في عين أباغ ، والمعروف أن عمرو بن المنذر الذي يسمى أيضاً بعمرو بن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر الكندي[5] قتل على يدي عمرو بن كلثوم التغلبي[6] ، وقد يكون مصيره التعس عاملا على الخلط بين هزيمته في عين أباغ ومقتل أبيه في يوم ذات الخيار .

ويبدو أن الامبراطور البيزنطي جستين الثاني (٥٦٥ – ٥٧٨ م) لم يكن راضياً عن المنذر بن الحارث ، وأن العلاقة سادت بينهما حتى انتهت إلى جفوة ، والسبب في ذلك يرجع إلى تعصب المنذر الشديد للمذهب المونوفيزيتي . ويبدو أن العلاقة بينه وبين الامبراطور تدهورت إلى حد أن جستين أوعز إلى البطريق مرقيانوس بأن يتحايل على قتل المنذر ، ولم يكن المنذر غافلاً عما يدبر له في بلاط الامبراطور ، ففر إلى البادية ، وشق عصا الطاعة على الامبراطور مدة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١٧٥
(٢) ابن الأثير ، ج١ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٨
(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨ – ابن الأثير ، المصدر السابق – ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٨٦ .
(٤) ابن الأثير ، ج١ ص ٢٢٠
(٥) يعرف أيضا باسم مضرط الحجارة لشدته وقوته وشدة بأسه وقوة سياسته (راجع ابن الأثير ج١ ص ٢٢٠)
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢١

ثلاثة سنوات. فانتهز اللخميون هذه الفرصة وأغاروا على سورية وأفسدوا فيها ، فاضطر الروم إلى استرضاء المنذر بن الحارث[1] . وتم الاتفاق أخيراً وبعد مفاوضات طويلة بين المنذر والبطريق جستنيان مبعوث القسطنطينية ، في بلدة الرصافة ، عند ضريح القديس سرجيوس ، وعقد الصلح بينهما في أواخر أيام الامبراطور جستين[2] .

وقد قام المنذر بزيارة الامبراطور الجديد طيباريوس الثاني (٥٧٨ — ٥٨٢م) في القسطنطينية في ٨ مارس سنة ٥٨٠م، ورافقه ابنان له في هذه الرحلة ، وقد استقبل في عاصمة البيزنطيين استقبالاً حافلاً ، وأنعم عليه الامبراطور بالتاج بدلاً من الإكليل[3] .

غير أن العلاقات بين المنذر وموريق، قومس الشرق، الذي سيصبح امبراطوراً بعد ذلك ، والمنذر لم تلبث أن ساءت من جديد ، فعندما عزم موريق على غزو إحدى ولايات فارس في سنة ٥٨٠ م بالاشتراك مع المنذر ، وجد الجسر الكبير على نهر الفرات مهدماً ، فاضطر إلى العودة خائباً ، فاعتبر موريق أن في الأمر تواطئاً بين المنذر وبين الفرس ، وعزا هدم الجسر إلى خيانة من جانب المنذر ، وأبلغ موريق الأمبراطور طيباريوس بهذه الخيانة . ولكن المنذر — إثباتاً لبراءته من هذه التهمة الملفقة — خرج وحده على رأس جيش كبير من العرب ، وأغار على بلاد اللخميين ، وأحرق الحيرة ، وعاد من غزوته بغنائم كثيرة . ولعل هذه الغزوة كانت سبباً في أن يطلق عليه مؤرخو العرب لقب المحرق ، وان كانوا قد أطلقوه خطئاً على جفنة الأصغر ابنه[4] ، وبه سمي خلفاؤه بآل المحرق .

---

(١) نلكنة ، ص ٢٥

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦ — جواد علي ، ج٤ ص ١٢٦ — فيليب حتي ، تاريخ سورية ج١ ص ٤٤٩

(٤) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٨ — ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٨٦

ولكن الروم اعتبروا هذا النجاح الذي أصابه المنذر تحدياً سافراً لجيشهم ، فعزموا على الانتقام منه ، فصدرت الأوامر إلى ماجنوس حاكم سورية الروماني بالقبض عليه ، على الرغم من أن هذا الحاكم كان صديقاً للمنذر ووليه . ولم يجد ماجنوس بدأً من تنفيذ الأمر ، فأرسل إلى المنذر يدعوه إلى حضور حفل افتتاح كنيسة شيدها في بلدة حوارين (بين تدمر ودمشق) ، فانخدع المنذر بهذه الدعوة ، ووقع في الكمين ، وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية مع ابنين له وإحدى نسائه[1] .ولم يلبث طيباريوس أن توفي وخلفه موريق (٥٨٢-٦٠٢م) ، عدو المنذر اللدود ، فأمر بنفي المنذر إلى جزيرة صقلية ، كما أمر بقطع المعونة السنوية التي كانت تقدمها الدولة البيزنطيـــة لأسرة الغساسنة . وقد أثار هذا التصرف غضب الغساسنة ، فقام أولاد المنذر بالخروج على دولة الروم ، فتركوا ديارهم وتحصنوا في البادية ، واتخذوها مركزاً لشن الغارات على حدود سورية ، فينهبون ويخربون ، وتعرضت بصرى لغاراتهم . ولم يسع موريق إلا أن يعد حملة لتأديب أبناء المنذر ، جعل على قيادتها الحاكم ماجنوس ،وسير معه إبناً آخر للمنذر ليخلفه على إمارة الغساسنة[2] . ولكن هذا الأمير الغساني توفي بعد أيام ، وفشلت الحملة على الرغم من أن ماجنوس تمكن بطريق الخدعة والدهاء من القبض على النعمان أكبر أبناء المنذر ، وأرسله أسيراً إلى القسطنطينية في سنة ٥٨٣[3].

ويذكر نلدكة نقلاً عن يوحنا الإفسي أن عرب غسان بعد القبض على النعمان تفرقوا وانقسموا إلى ١٥ فرقة لكل منها رئيس ، فدخلت بعض هذه الفرق في سلطان الفرس ، ورحل بعضها إلى بـــلاد الروم ، والبعض الآخر إلى قباذق

---

(١) نلدكه ، ص ٣١ ــ جواد علي ، ص ١٢٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢ ــ جواد علي ، ص ١٢٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢

Cappadocia [1] ، ودخل من هاجر إلى بلاد الروم في مذهب الطبيعتين [2] . وعلى هذا النحو أعقب أسر النعمان بن المنذر تصدع في إمارة غسان، وتفككت وحدة عرب سوريا إلى حد أن كل قبيلة اختارت لها أميراً ، وبدأت القبائل تتطاحن فيها بينها بعد أن فقدت زعيمها وملكها ، وبدأت تغير على المناطق المتحضرة من سورية وتعيث فساداً في المناطق المعمورة ، الأمر الذي دفع الروم إلى ضرورة إقامة أمير جديد للغساسنة بدلاً من المنذر .

ويختلف الأخباريون العرب في ذكر أسماء أمراء غسان بعد المنذر ، اختلافاً كبيراً ، في الوقت الذي ينقطع الأخباريون اليونان عن الحديث عنهم . ولكن مما لا شك فيه أن من تولى أمراء الغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً، وأن مدد حكمهم كانت قصيرة .

ومما لا شك فيه أيضاً أن دخول الفرس لبلاد الشام في سنة ٦١٣ وما يليها قضى على ملك بني جفنة ، فتفرقوا في الصحراء أو في بلاد الروم ، وأنه لم يتول في الفترة من دخولهم الشام في تلك السنة وخروجهم منها على أيام هرقل في سنة ٦٢٩ أمير غساني بلاد الشام الجنوبية . ويذكر حسان بن ثابت أن كسرى الثاني أبرويز قتل أحد أمرائهم [3] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ص ٣٤ نقلا عن ابن العبري .

(٣) نلدكه ، ص ٤٦ . وقد رثاه حسان بن ثابت بقوله :

تناولني كسرى ببؤس ودونه ... قناف من الصمان فالمتثلم

فتحمى لا وقى الله أسره ... بأبيض وهاب طويل النجم

لتعتمد مياه الحارثين وقد عفت ... مباديها من كل حسي عرمرم

(راجع ديوان حسان بن ثابت ، ص ١٠٢) .

وأغلب الظن أن هرقل أسند عمالة سورية إلى أحد أمراء غسان بعد نجاحه في طرد الفرس من البلاد في سنة ٦٢٩ م ، بدليل أن الغساسنة حاربوا المسلمين مراراً في جانب الروم، وأن خالد بن الوليد أوقع بهم في سنة ٦٣٤ في مرج الصفر جنوبي دمشق، كما أن جبلة بن الأيهم، وكان ملكاً عليهم حسب الروايات العربية، قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل[1]، وأنه اشترك مع الروم في وقعة اليرموك في سنة ٦٣٦م[2]. كذلك تشير المصادر العربية إلى اسم أمير غساني آخر هو الحارث بن أبي شمر الغساني أمير مؤته الذي أرسل إليه الرسول في سنة ٦ هـ شجاع ابن وهب ليطلب منه الدخول في الإسلام، وكان يحمل إليه كتاباً من الرسول[3]، وهو الذي سير إليه الرسول حملة لتأديب الغساسنة بقيادة زيد بن حارثة الكلبي[4].

أما جبلة بن الأيهم الذي يزعم الأخباريون العرب أنه آخر أمراء الغساسنة فهو الذي « أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة »[5]. ويذكر البلاذري أنه أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته ، « فعرض عليه الإسلام وأداء الصدقة ، فأبى ذلك ، وقال : أقيم على ديني وأؤدي الصدقة . فقال عمر : إن أقمت على دينك فأد الجزية. فأنف منها. فقال عمر : ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام ، وإما أداء الجزية، وإما الذهاب إلى حيث شئت. فدخل

---

(١) الطبرى ، ج١ قسم ٤ ، ص ٢٠٦٨

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ١٦٠

(٣) الطبرى ، مجلد ١ قسم ٣ ص ١٥٦٨ — جواد علي ، ج٤ ، ص ١٥١ — جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٢٦

(٤) البلاذرى ، أنساب الاشراف ، ص ٣٧٢ — الطبري ، مجلد١ قسم٣ ص ١٦١٠

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٢ ص ١٠٩

بلاد الروم في ثلاثين ألفاً . فلما بلغ ذلك عمر ندم . وعاتبه عبادة بن الصامت فقال : لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم »[1]. وذكر ابن قتيبة أنه أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك ، وأن سبب تنصره « أنه مر في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرسه ، فوثب الرجل فلطمه ، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح ، فقالوا : هذا لطم سيدنا ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : البينة أن هذا لطمك . قال : وما تصنع بالبينة ، قال : ان كان لطمك لطمته بلطمتك . قال : ولا يقتل : قال لا . قال : تقطع يده ، قال : لا إنما أمر الله بالقصاص ، فهي لطمة بلطمة . فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك »[2].

د – حضارة الغساسنة :

كانت ديار غسان، كما نستنتج من أشعار العرب تمتد ما بين الجولان واليرموك[3]، وكانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجلق، وقد أشار حسان بن ثابت إلى هذا الموضع في قوله :

أنظر خليلي ببطن جلق هل ... تونس دون البلقاء من أحد[4]

وقوله أيضاً :

لله در عصابــة نادمتهـم ... يوماً بجلق في الزمان الأول

(١) البلاذري ، ج١ ص ١٦١

(٢) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٧

(٣) المسعودي ، ج٢ ص ١٠٦

(٤) ديوان سيدنا حسان بن ثابت ، ص ٣٢ ، ٨٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة جلق ص ١٥٤

وفي ديار غسان يقول حسان مادحاً جبلة بن الأيهم :

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالخمان

فالقريات من بلاس فداريا ... فسكاء فالقصـور الدواني

فقفـا جاسم فأودية الصفـر فمغنى قنابل وهجان [1]

وكانت الجولان [2] قاعدة لملك الغساسنة ومعسكراً لهم في بلاد الشام، وفيه يقول النابغة يرثي النعمان بن الحارث :

بكى حارث الجولان من فقد ربـه ... وحوران منه موحش متضائل [3]

واتخذ الغساسنة مدينة الجابية مركزاً لإمارتهم، وتقع الجابية بالقرب من مرج الصفر في شمال حوران ، ويذكر نلدكة أنـه لم تصل إلينا قط إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يتملكون أياً من الأماكن المحصنة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش كدمشق وبصرى أو كتدمر التي حصنها جستنيان[4] .

وكانت للغساسنة حضارة مزدهرة متأثرة إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبيزنطية، وحضارتهم على هذا النحو تتفق مع الحضارة الأموية التي أخذت أصولها من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضاً ، ولعل ذلك من الأسباب التي حملت علماء الآثار إلى الارتباك في نسبة بعض الآثار العربية بالبادية مثل قصر المشق

---

(1) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١١٠ — مروج الذهب ، مجلد ٢ ص ١٠٨

(2) الجولان قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة جولان)

(3) ياقوت ، مادة جولان ، ص ١٨٦

(4) نلدكة ، ص ٥١

وقصر الطوبة ، فبعضهم ينسبهـا إلى العصر الأموي والبعض الآخر ينسبها إلى الغساسنة [1] .

وقد اشتغل الغساسنة بالزراعة ، فاستغلوا ميـاه حوران [2] التي تتدفق من أعلى الجبال في الزراعة ، فعمرت القرى والضياع ، وعدد حسـان من بينها ثلاثين قرية . غير أن اهتمام أمراء غسـان بالبنيان كان أعظم ، فعلى الرغم من إقامتهم في البوادي فإنهم أقاموا كثيراً من الأبنية من قصور وقناطر وأبراج وغيرها . وينسب حمزة الأصفهاني إلى ثلاثة عشر أميراً منهم تشييد القصور والأبنية العامة .

وهناك أبنية لم يذكرها حمزة الأصفهاني ، ولكنها تدخل في عداد المنشآت التي أقامها الغساسنة ، منها قصر المشتى الذي يرجح إنشاؤه في القرن الخامس الميلادي أو ما قبل القرن السادس وهو بناء متأثر إلى حد كبير بفن العمارة الساسانية الذي كان يمارسه العرب في الحيرة [3] ، وقلعة القسطل المجاورة لهذا القصر شبيهة في بنائها بقصر المشتى ، وقد ذكر حمزة أنها من بناء جبلة بن الحارث .

ونستدل من بقايا آثار الغساسنة في الشام على أن فنهم كان أكثر تأثراً بالفنون الساسانية منها بالفنون البيزنطية .

ولقد أفادتنا أشعار حسـان بن النعمان والنابغة الذبياني في وصف حياة الغساسنة في السلم وفي الحرب ، وهو وصف يلقي ضوءاً على حضارتهم ، من ذلك قول حسان يرثي آل جفنة :

---

(١) راجع ما اثير حول هذين القصرين في :

Creswell, Early Muslim architecture, vol. I. p. 390-405

ارنست كونل ، الفن الاسلامي ، ترجمة الاستاذ أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١١ـ١٢

(٢) كورة واسـعة من اعمال دمشق من جهـة الجنوب ، ذات قـرى ومزارع وحرار وقصبتها بصرى (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حوران ، مجلد ٢ ص ٣١٧) .

(٣) رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ٥٢ ـ ارنست كونل ، ص ١١

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابي فالبضيع فحومل
فالمرج مرج الصفرين فجاسم ... فديار سلمى درساً لم تحلل
دمن تعاقبها الرياح دوارس ... والمدجنات من السماك الأعزل
دار لقوم قد أراهم مرة ... فوق الأعزة عزهم لم ينقل
لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشي الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ... ضرباً يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمل[1]

وقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم أيام كان أميراً على الغساسنة فقال: « لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة، وأهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأوقد له العود المندى أن كان شاتياً، وان كان صائفاً بطن بالثلج، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسألة، مع حسن وجه وحسن حديث »[2].

(1) ديوان سيدنا حسان بن ثابت، ص ٧٩ ، ٨٠

(2) أبو الفرج الاصفهاني : الاغاني ، جـ١٦ ، القسم الأول ، بيروت ١٩٥٦ ص ٢١
ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢١

- ٢ -

المنـــاذرة

١ – هجرة التنوخيين الى بادية العراق :

كانت بادية العراق مفتوحة دائماً لهجرات العرب المقيمين بأطراف شبه الجزيرة العربية أو الوافدين من بلاد العرب الجنوبية ، وكانت هذه الهجرات تزداد بصفة خاصة في الأوقات التي تضعف فيها الحكومات في العراق . وعلى هـــذا النحو أصبحت المنطقة المجاورة للفرات الجنوبي هدفاً لهجرة عربية في عصر الطوائف ، وهي فترة الانتقال بين سقوط الدولة البارثية وقيام الدولة الساسانية ، وينسب الأخباريون هذه الهجرة إلى قبائل تنوخ ، وهي من القبائل العربية الجنوبية التي رحلت من اليمن على أثر تصدع سد مأرب وقبل أو بعد سيل العرم ، وقد نزلت بادىء ذي بدء في البحرين ، واستقرت هناك وتنوخت ، وتحالفت فيما بينها ، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقرار في مشارف العراق ، وتنتظر فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، فانتهزت فرصة الحرب الأهلية في بلاد الفرس في أواخر عصر الدولة البارثية ، وتطاحن الملوك فيما بينهم ، وهاجرت إلى منطقة الحيرة والأنبار ، وقد أورد الأخباريون تفاصيل الهجرة التنوخية في روايات أشبه بالقصص التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال والوهم ، ولا تخلو هذه الروايات — على

ما هي عليه من طابع خرافي — من تفصيلات مضطربة ومتناقضة ، ومعظم هذه الروايات منقولة من روايات ابن الكلبي [1] الذي يناقض نفسه في معظم ما رواه .

ومن المعروف أن تنوخ اسم قبيلة عربية يمنية ورد ذكرها في جغرافية بطلميوس تحت اسم Tanueitae [2] ، وكانت منازلهم في جنوب جبال Zametes وهي السلسلة الجبلية الممتدة حسب رأي جلاسر من اليمامة إلى السراة ، وحسب رأي سبرنجر هي نفس جبال شمر [3] ، ولكن الأخباريين يرجعون منازلها إلى تهامة .

ومدينة الأنبار التي هاجر إليها عرب تنوخ قديمة البنيان، وقد تبين من دراسة آثارها أنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية . وقد ازدهرت هذه المدينة وعمرت في عصر شابور الثاني (٣١٠ - ٣٧٩ م) ، الذي حصنها بالقلاع والأسوار لكي تسهم في مقاومة غارات الروم على بلاده . وحفر إلى الجنوب منها نهراً يصل الفرات بدجلة كان يعرف باسم Naarsares أي نهر عيسى . واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية عظمى ، إذ أصبحت مركزاً تجارياً هاماً ومخزناً للأموال ، واسم الأنبار القديم Ham-bar بمعنى المخزن ، يعبر عن هذه الشهرة التجارية التي أصابتها [4] . وقد تعرف الأخباريون العرب على هذا المعنى ففسروها به ، فالطبري يذكر أنه « إنما سميت الأنبار أنبار لأنها كانت

---

(١) من المعروف ان ابا المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي الف كتابين عن الحيرة، احدهما بعنوان «كتاب الحيرة» ، والثاني بعنوان «كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » (راجع فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٦٩٠)

(٢) جواد علي ، ج٢ ص ٤١١

(٣) نفس المرجع ، ج٢ ص ٢٦٩

(٤) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٢١ — ٢٢

تكون فيها أنابير الطعام وكانت تسمى الأهراء ، لأن كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها»[1]. ويذكر الأستاذ جواد علي أن اسم الأنبار لم يرد بين المدن والمواضع التي أوردها ايزيدور الكركسي الذي طاف في امبراطورية البارثيين في العام الأول للميلاد، ولذلك يرى بعض الباحثين أن الأنبار لم تنشأ إلا بعد أيام ايزيدور، ومن المحتمل أن تكون أسست في القرن الأول الميلادي لخزن المواد والأقوات لتزويد الحاميات بما تحتاج إليه ، ثم اتسعت مرافقها وعمرت في العصر الساساني حتى أصبحت المدينة الثانية في إقليم بابل بعد طيسفون [2] . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر بناءها متفقاً في الزمن مع عصر البارثيين .

أما الحيرة فهي مدينة قديمة البنيان أيضاً، وتاريخ إنشائها مجهول، فلم نتوصل بعد إلى العثور على أي نص تاريخي مدون يتضمن ما يشير إلى هذا التاريخ، وأقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة « حيرتا » نص يرجع إلى شهر أيلول من سنة ٤٤٣ من التاريخ السلوقي، الموافق لشهر سبتمبر من سنة ١٣٢ من التاريخ الميلادي [3] . ونستدل من هذا النص على أن الحيرة أقيمت في عصر سابق للعصر الساساني . ويرجع الأخباريون إنشاءها إلى بختنصر مؤسس الأنبار في رأيهم [4]، وقيل أنها من بناء تبع الأكبر[5].

ب - ملوك الحيرة من التنوخيين :

يكاد يجمع الأخباريون على أن أول من ملك من تنوخ الذين استقروا في الأخبية

---

(١) الطبري ، ج١ قسم ٢ ص ٧٤٨

(٢) جواد علي ، ج٤ ص ٢٢

(٣) نفس المرجع ، ج ٣ ص ٨١ ، ج ٤ ص ٦

(٤) حمزة ، ص ٦٦ — الطبري ، ج١ قسم ٢ ص ٧٤٨

(٥) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ، ٢ مادة الحيرة ص ٣٢٩

والمظال ما بين الأنبار والحيرة مالك بن فهم ، وكان منزله مما يلي الأنبار [1] ، ويذكر حمزة أنه اتخذ الأنبار منزلاً ، وأنه ظل يقيم بها إلى أن رماه سليمة بن مالك بسهم أرداه قتيلا [2] . وخلفه أخوه عمرو بن فهم في رواية [3] ، وجذيمة ابن مالك في رواية أخرى [4] . ولا نعرف شيئاً يذكر عن عمرو بن فهم ، فالأخبار عنه لا تزيد على ذكر اسمه ، أما جذيمة الأبرش ، فقد اهتم به الاخباريون اهتماماً خاصاً ، ورووا أخباره بشيء من التفصيل .

وجذيمة الأبرش هو جذيمة الصباح في رواية المسعودي [5] ، وأبوه هو مالك ابن فهم بن غانم بن دوس الأزدي ، ويرفع ابن الكلبي نسبه إلى كهلان بن سبأ [6] ، ويرفعه آخرون إلى العرب العاربة الأولى من بني وبار بن أميم بن لوذ بن سام [7] ، وقد بالغ الاخباريون في مدحه ، فذكروا أنه « كان ثاقب الرأي ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم ، وهو أول من غزا بالجيوش ، فشن الغارات على قبائل العرب » [8] . ويعللون تلقبه بالأبرش والوضاح أي الأبرص ببرص كان به « فكنت العرب عنه وهابت العرب أن تسميه به وتنسبه إليه ، إعظاماً له ،

---

(1) اليعقوبي ، ج1 ص 169 – حمزة ، ص 64 – الطبري ، مجلد 1 قسم 2 ص 750 – ابن قتيبة ، المعارف ، ص 247 – ابن الاثير ، ج1 ص 196 – ابن خلدون ، ج2 ص 540

(2) حمزة ، ص 64

(3) الطبري ، مجلد1 قسم 2 ص 540 – ابن الاثير ، ج1 ص 196

(4) اليعقوبي ، ج1 ص 169 – حمزة ، ص 64 – المسعودي ، ج2 ص 90

(5) المسعودي ، ج 2 ص 90

(6) الطبري ، ج1 قسم 2 ص 750

(7) نفس المصدر ، ج1 ص 750 – ابن الاثير ، ص 196 – ابن خلدون ، ج2 ص 540

(8) حمزة ، ص 64 – الطبري ، ج1 قسم 2 ص 750 – ابن الاثير ، ج 1 ص 197

فقيل جذيمة الوضاح، وجذيمة الأبرش »[1]. وكان ملكه على حد قول الاخباريين فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر إلى الغمير والقطقطانة وخفية وما والاها[2]. أما بقة فتقع بين الأنبار وهيت ، على نهر الفرات[3]. وهيت[4] مدينة قديمة أسست في عصر يسبق الميلاد بقرون، وعرفت باسم إيد وإيت [5] ، والقطقطانة ، على حد قول ياقوت موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، به كان سجن النعمان بن المنذر [6] ، وأما خفية ، فأجمة في سواد الكوفة ، بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلاً . ينسب إليها الأسود، فيقال أسود خفية ، وهي غربي الرحبة ، ومنها إلى عين الرهيمة مغرباً ، وقيل عين خفية »[7]. وعين التمر بلدة من الأنبار تقع غربي الكوفة، وبالقرب من موضع يعرف باسم شفاثا ، ومن عين التمر يصدر التمر إلى سائر البلاد[8]. وسنعود إلى ذكر إقليم الحيرة عند حديثنا عن عصير الحيرة .

وذكروا أن جذيمة كان له نديمان يقال لأحدهما مالك وللآخر عقيل ابنا فالج، وقيل ابنا فارج بن مالك بن كعب، وإياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعي في مرثيته

---

(1) حمزه ، ص ٦٤ ـ الطبري، نفس الصفحة ـ ابن الاثير ، نفس الصفحة

(2) نفس المرجع ـ الطبري ، نفس الصفحة ـ ابن الاثير ، نفس الصفحة

(3) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٣ ـ وذكريات ياقوت ان بقة موضع قريب من الحيرة ، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله جذيمة الابرش (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد٢ ، مادة بقة ص ٤٧٣) .

(4) هيت بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الانبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة وهي مجاورة للبرية (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥، مادة هيت ص ٤٢١)

(5) جواد علي ، ج٤ ص ٢٦ ، ٢٧

(6) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد) مادة القطقطانة ، ص ٢٧٤

(7) نفس المصدر ، مجلد ٢ ، مادة خفية ، ص ٣٨٠

(8) نفس المرجع ، مجلد ٣ ، مادة عين التمر ، ص ١٧٦

لأخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد يوم البطاح :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنـا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلي يعنيهما :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل [1]

وذكروا أن جذيمة لم يكن ينادم أحداً ذهاباً بنفسه ، وكان يقول : « أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين »، فكان يشرب كأساً ويصب لكل منهما في الأرض كأساً [2]، حتى أتاه مالك وعقيـل بعمرو بن عدي ابن أخته ، وكان قـد ضل واستهوى على جذيمة العثور عليه ، فاتخذهما نديمين له لا يفرق عنهما قط [3]. أما الفرقدان اللذان كان ينادمهما فصنمان صنعهما لما تكهن ، وسماهما الضيزنين [4]، وكان مكان الضيزنين بالحيرة معروفاً ، وكان يستسقي بهما ويستنصر بهما على العدو [5].

ويروي الطبري عن ابن الكلبي أن إياداً كانت تنزل بعين أباغ ، وكان فيهم غلام من لخم يقال له عدي بن نصر بن ربيعة يمتاز بالوسامة والظرف ، فبلغ جذيمة أمره فأراد أن يستقدمه ، فتزاحم جذيمة ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالغلام ،

---

(1) الطبرى ، ج1 قسم 2 ، ص 756 ـ المسعودى ، مروج الذهب ، ج2 ص 93 ـ التنبيه والاشراف ، ص 187

(2) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مجلد 1 ، القاهرة 1963 ، ص 274

(3) نفس المصدر ، ص 275

(4) اليعقوبي ، ج1 ص 166 ـ ابن خلدون ، ج2 ص 541

(5) الطبرى ، ج1 قسم 2 ص 752 ـ ابن الاثير ، ج1 ص 197

فبعثت إياد قوماً سرقوا الصنمين المعروفين بالضيزنين ، وأرسلوا إليه يساومونه في أن يردوا الصنمين في مقابل أن يتعهد جذيمة بمسالمتهم ، فوافق جذيمة على أن يرسلوا إليه عدي بن نصر ، فأرسلوه إليه مـــع الصنمين ، فضمه إليه ، وولاه شرابه[1] . فأبصرته رقاش أخت جذيمة ، فوقع من قلبها موقعاً حسناً ، وعشقته ، وراسلته ، وطلبت منه أن يخطبها إلى جذيمة ، فأبدى خوفه ، ولكنها هونت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يقدم لجذيمة – عندما يحضر ندماؤه – شراباً مركزاً ، ويقدم للقوم شراباً ممزوجاً بالماء ، فإذا فعلت الخمر مفعولها فيه ، سهل عليه أن يخطبها إليه فإنه لن يرده أو يمتنع ، فإذا وافق فعلى عدي أن يشهد القوم ، ففعل ما أشارت عليه به ، ونجح في تنفيذ خطتها ، وانصرف عدي إليهـــا ، وأعرس بها من ليلته ، وتضمخ بالخلوق (أو الطيب) ، فأنكر عليه جذيمة ذلك وسأله عن سبب تعطره فأجابه بأن ذلك من آثار العرس ، فتساءل جذيمة عن الأمر ، فأوضحه له عدي ، فغضب جذيمة وضرب بيده على جبهته ، وأكب على الأرض ندماً ، ففر عدي ، ولم ير له أثر ، وقيل : بل قتله [2] وذكر الدينوري أن جذيمة هو جذيمة بن عمرو بن ربيعة بن نصر اللخمي وأنه هو الذي زوج أخته من ابن عمه عدي بن ربيعة بن نصر . والدينوري وحده هو الذي ينفرد بهـــذه الرواية الغريبة [3].

ونقل جذيمة أخته رقاش إليه ، وحصنها في قصره ، وحملت رقاش من عدي ، وولدت غلاماً سمته عمراً ، ورشحته حتى إذا ترعرع عطرته وألبسته وحلته ، وطلبت من أخيها أن يراه ، فلما رآه جذيمة أعجب به وأحبه ، ثم أمر فجعل له

---

(١) الطبري ، نفس الصفحة – ابن الأثير ، نفس الصفحة – ابن خلدون ج٢ ص ٥٤٢

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٢ ، ٧٥٣ – المسعودي ، ج ٢ ص ٩١ – ابن الأثير ، ج١ ص ١٦٧ – ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٤٣

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٤٤

حلى من فضة وطوق، فكان أول عربي ألبس طوقاً، فكان يسمى عمرو ذا الطوق. فلما شب عمرو، ورآه جذيمة والطوق عليه قال «شب عمرو عن الطوق» فذهبت مثلاً[1]. وكان جذيمة محارباً كثير الغزو، فغزا بلاد عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العملقي ملك العرب بأرض الجزيرة، ومشارف الشام، واشتبك معه في قتال عنيف انتهى بهزيمة عمرو بن ظرب ومقتله، فخلفته ابنته الزباء، وتحاملت على الانتقام من جذيمة، فاستدرجته إليها، ثم قتلته على النحو الذي أوضحناه عند دراستنا السابقة لتدمر. ولكن الدينوري يخالف الاخباريين فيذكر أنه تزوج مارية ابنة الزباء الغسانية التي ملكت الجزيرة بعد عمها الضيزن[2]، فهو يجعل الزباء من البيت الغساني، ويجعل جذيمة من البيت اللخمي.

ج – تمصير الحيرة وبداية إمارة المناذرة أو اللخميين :

تولى عمرو بن عدي الامارة على عرب الحيرة والأنبار بعد جذيمة[3]، وعمرو ابن عدي هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم، ولهذا فعمرو يعتبر مؤسساً لامارة اللخميين في الحيرة. وهناك رواية أخرى عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق تجعل عمراً هو عمرو ابن عدي بن ربيعة بن نصر وأن جده ربيعة بن نصر لما فسر له سطيح وشق رؤياه بغلبة الأحباش على اليمن والفرس من بعدهم، جهز بنيه وأهل بيته إلى العراق

---

(1) الطبري ، ج1 قسم 2 ص 655 — المسعودي ، مروج الذهب ج2 ص 92 — ابن الأثير ، ج 1 ، ص 198

(2) الدينوري : الاخبار الطوال ، ص 55

(3) يجعل برسيفال مدة حكمه من 268 الى 288 م

C. de Perceval, t. II, p. 35

بما يصلحهم، وكتب لهم إلى سابور ذي الاكتاف فأسكنهم الحيرة [1]. ولكن رواية ابن اسحق هذه مليئة بعنصر الخيال وواضح فيها عنصر الاختلاق والتشويق، فهي أقرب إلى القصص التي تخلو من أي حس أو منظور تاريخي. ومن المعروف أن عمرو بن عدي وفقاً لرواية هشام بن الكلبي ينتسب إلى عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي [2]. وعمرو هـذا «هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر» [3]. ويذكر الاخباريون أنه كان «منفرداً بملكه مستبداً بأمره، يغزو المغازي ويصيب الغنائم، وتفد عليه الوفود دهره الأطول، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق، ولا يدينون له» [4]، وذكر ابن قتيبة أن الملوك هابته وعظمته لما كان من حيلته في الطلب بثأر خاله حتى أدركه [5].

ويبدو أن أردشير بن بابك مؤسس دولة الساسانيين – وكان معاصراً لعمرو بن عدي وفقاً لما تشير إليه المصادر العربية – أبدى امتعاضاً من نزوح قبائل العرب إلى العراق واستيطانهم في الحيرة، فلما قضى أردشير على الفتن الداخلية، وضبط

---

(1) الدينوري، ص 50 – الطبري، ج 1 قسم 2 ص 770، 771. وسطيح وشق ياهنان يعرفان تأويل الرؤيا؛ واسم سطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن، أما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن افرك بن نذير بن قيس بن انمار، والرؤيا التي رآها ربيعة بن نصر وفاته أنه رأى حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة. (راجع الطبري، ج 1 قسم 2 ص 911، 912 – المسعودي ج 2 ص 162).

(2) وهناك رواية ثالثة في نسب عمرو بن عدي أوردها ابن قتيبة؛ فقد ذكر أن نصراً أبا عدي هو نصر بن الساطرون ملك السريانيين، صاحب الحصن، وهو جرمقاني من أهل الموصل من رستاق يدعى باجرمي. (ابن قتيبة، كتاب المعارف ص 217).

(3) حمزة، ص 65 – الطبري، ج 1 قسم 2 ص 768 – ابن الاثير، ج 1 ص 202

(4) حمزة الاصفهاني، ص 65 – الطبري، ج 1 قسم 2 ص 769

(5) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص 218

بلاد العراق وقهر من كان له بهـــا مناوئاً [1] ، أخذ يضيق على عرب الحيرة ، ويحملهم كرهاً على قبول مـا لا يوافقهم ، و فكره كثير من تنوخ أن يقيموا في مملكته وأن يدينوا له ، فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا مع مالك وعمرو ابني فهم ومالـك بن زهير ، وغيرهم ، فلحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة » [2]. وكانت المنطقة الممتدة من الحيرة إلى الأنبار قد عمرت بمن وفد إليهـــا من عرب الجنوب في طالعة مالك بن زهير ومالك بن فهم ، وطالعة تبع أبو كرب . فنزل الحيرة والأنبار على هذا النحو من جميع قبائل العرب الجنوبية من مذحج وحمير وطيىء وكلب وتميم و[ت]نوخ ولخم وقضاعة..

ويرجع إلى عمرو بن عدي الفضل في تمصير الحيرة بعد أن كانت قد خربت زماناً وأقفرت من سكانها . والحيرة مدينة قديمة زعم الاخباريون أنهـا من بناء نبوخذ نصر الثاني ، ثم خربت بعد وفاته إلى أن نزلها تنوخ وغيرها [3] ، ولكن استيفان البيزنطي يشير إلى أنها « Birtha » مدينة بارثية [4] ويؤكد هذا ما ذكره بعض الاخباريين من أنها عمرت زمن الأردوان من ملوك الطوائف [5] ، وقيل عند مرور تبع أبي كرب بالحيرة [6]. وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم الحيرة

(1) ذكر الطبري أن اردشير تغلب على آخر ملوك الطوائف الاشغانيين وهـــو اردوان ابن بلاش (الطبري ج 1 قسم 2 ص 771) ؛ والمعروف أن اردشير هزم الملك البارثي ارتبانوس في ثلاثة مواقع متتالية وقتله أخيرا في الواقعة الفاصلة التي حدثت في سوسيانا سنة 224 م. ومن الواضح أن ارتبانوس هذا هو نفس اردوان بن بلاش الذي أشار اليـه الاخباريون .

(2) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 821 ، 822 ـ حمزة الاصفهاني ص 65 ، 66 ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد 2 ص 330 ، 331

(3) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 821 ، 822 ـ حمزة الاصفهاني ص 65 ، 66 ـ ياقوت ،

(4) جواد علي ، ج 4 ص 6 ، 7

(5) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 822 ـ معجم البلدان ج 2 ص 329

(6) نفس المصدر ، ص 746

ومصدر اشتقاقه ، فالأخباريون العرب يزعمون أنه مشتق من الحيرة لأن تبعاً لما أقبل بجيوشه ضل دليله فتحير في هذا الأمر[١] . وقيل سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما خلف ضعاف جنده في ذلك الموضع قال لهم : حيروا به أي أقيموا به[٢] . وفي رواية للزجاجي أنه لما نزلها مالك بن زهير جعلها حيراً وأقطعه قومه فسميت الحيرة بذلك ، وقيل أن الأردوان بنى حيراً أنزله من أعانه من العرب فسمي ذلك الحير الحيرة[٣] ، وقيل من الحائر أي بركة من الماء أو حوض يسيب إليه مسيل ماء وسمي بذلك لأن الماء يتحير فيه ، وأكثر الناس يسمون الحائر حيراً[٤] . ولدينا من أمثلة القصور المسماة بالحير ، قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي اللذين أسسهما هشام بن عبد الملك في بادية الشام بالقرب من الرصافة[٥] ، وحير الزجالي في شمال قرطبة الذي ينسب إلى بني الزجالي[٦] ، وقصر الحائر من قصور قرطبة[٧] . والحير في اللغة العربية هو موضع محاط بالأسوار ، وهو الحمى أو الحظيرة[٨] .

وهناك من العلماء من يذهب إلى أن الحيرة كلمة من كلمات بني إرم ، وأنها حرتا Harta ، وحيرتو السريانية الأصل ومعناها الخيم والمعسكر ، وأن حيرتا Herta وحيرة Hira في التواريخ السريانية التي تعرضت لذكر الغساسنة تقابل كلمة عسكر عند العرب[٩] . ويرى الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة أن الحيرة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد ٢ ص ٣٢٩

(٢) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٢٧٨ — ياقوت ، المرجع السابق ص ٣٢٩

(٣) ياقوت ، مادة الحيرة

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حاير ، ص ٢٠٨ — تاج العروس ج ٣ ص ٢٦٨

(٥) Creswell, a short account of early Muslim architecture, Penguin Books, 1958, pp. 111 - 123

(٦) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، القسم الثالث ، نشرة الاب ملشور انطونية ، باريس ١٩٣٧ ص ٦ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٢

(٧) المقرى ، ج ٢ ص ١٢

(٨) تاج العروس ، ج٣ ص ١٧٠ ، ونلاحظ ان الحيرة ايضا بمعنى الارض المخضرة والمنتة .

(٩) جواد علي ، ج ٤ ص ٥ ، ٦ — Musil, Palmyrena, p. 289

الأرامية والحير العربي من أصل سامي واحد ، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد[1]. ونحن نؤيد الأستاذ رزق الله فيما ذهب إليه، ونستدل على صحة هذا الرأي بما نستخلصه من وصف اليعقوبي لخطط سر من رأى والحير الذي أقيم بها وجعل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحش والأيايل والأرانب والنعام[2].

وتقع الحيرة على مسافة تبعد نحو ثلاثة أميال جنوبي الكوفة [3]، على موضع يقال له النجف ، ويرويها نهر كافر ويسمى نهر الحيرة، وقيل اسم قنطرته، وفيه يقول المتلمس :

وألقيتهـــا بالثني من بطن كافر	كذلك أقنو كل قـط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتهـــا	يجول بها التيار في كل جدول[4]

وقد اشتهرت الحيرة برقة هوائها وصفاء جوها وعذوبة مائها ، حتى قيـل « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة »[5] ، وذكر حمزة أن العرب كانت تقول : « لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة تادر يطوس »[6] ، وذكر الاصطخري أن هواءها وترابها أصح من الكوفة[7] .

وكان يسكن الحيرة بعد أن مصرهـا عمرو بن عدي ثلاثة طوائف : عرب

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة ، الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ١٩٣٦ ص ١١

(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٦٣

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد ٢ ص ٣٢٨ — يوسف رزق الله غنيمة، ص ١٠ — صالح احمد العلي ، منطقة الحيرة ، دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية ، مجلة كلية الاداب جامعة بغداد ، العدد الخامس ، نيسان ١٩٦٢ ص ٣٨

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة كافر ، مجلد ٤ ص ٢٣١

(٥) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٨٥ ص ١٨١

(٦) حمزة ، ص ٧٥ — غنيمة ، ص ١٥

(٧) الاصطخري ، كتاب مسالك الممالك ، طبعة ليدن ١٩٢٧ ، ص ٨٢

الضاحية والعباد والأحلاف . أما عرب الضاحية فهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر في الحيرة[1]،وهم التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن[2] ، وكانوا ينزلون فيما بين الحيرة والأنبار . والعباد وهم الذين كانوا قد سكنوا الحيرة وابتنوا بها ، وذكر ابن العبري أن العباد ، قوم من نصارى العرب من قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة ، وتسموا بالعباد لأنه لا يضاف إلا إلى الخالق . وأما العبيد فيضاف إلى المخلوق والخالق ،[3] . والعباد قبائل شتى تعبدوا للوكم[4] . أما الأحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ، ولم يكونوا من تنوخ الوبر ولا من العباد[5]،ولعلهم قوم من العرب حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم، ويرجح الأستاذ جواد علي أن المقصود بتنوخ من كان يشتغل بالزراعة ومن كان يعيش عيشة أهل البادية من سكان المنطقة ما بين الحيرة والأنبار ، ويعتقد أن العباد يتألفون من ثلاثة قبائل مختلفة: تميم ولخم والأزد، وأنهم رغم اختلافهم في النسب جمعتهم وحدة الدين ، ولذلك لم يطلق اسم العباد إلا على نصارى الحيرة تمييزاً لهم عن السكان الوثنيين . فلما أصبحت المسيحية دين الحيرة، وتحول معظم أهلها إلى النصرانية ، أصبح هذا الاسم يطلق على جميع مسيحييها تمييزاً لهم عن بقية مسيحيي العرب من غير أهل الحيرة[6].

وإلى جانب هذه الطوائف الثلاث ، كان يقيم في الحيرة جماعة من النبط العراقيين، وهم بقايا أهل العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين[7]،

---

(1) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 719
(2) نفس المصدر ، ج 1 قسم 2 ص 822
(3) غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت 1958 ص 111
(4) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ص 331
(5) حمزة ، ص 66 — الطبري ، ص 822
(6) جواد علي ، ج 4 ص 15 ، 16
(7) نفسه ، ص 18

وكانوا يشتغلون بالزراعة ، كذلك كان يقيم بهـا جماعة من اليهود ، وطائفة من الفرس سادة البلاد الحقيقيين ، إذ كان الأكاسرة يبعثون المزازبة والدهاقنة من قبلهم ليحكموا الحيرة في عصر ملوكها من آل نصر[١] . وقد اشتهر العباديون بمعرفتهم القراءة والكتابة ، مثل ذلك ، أن عمرو بن هند كتب للمتلمس الشاعر وطرفة بن العبد كتابين إلى عامله بالبحرين ، وقال لهما : احملاهما إليه ، فقبهما حباني لكما ، وخرجا ، فمرا بصبي في الحيرة ، فقال له المتلمس : أتقرأ ؟ قال : نعم . ففك كتابه وقال له : اقرأ . فلما نظر فيه الصبي قال له : أنت المتلمس ؟ قال : نعم ، قال : النجاء ، ففي هذا الكتاب هلاكك ، فألقاه في نهر الحيرة ، فقال لطرفة : أعطه كتابك ليقرأه ، فـإني أظنه مثل كتابي ، فقال : ما كان ليتجرأ علي ، فمضى المتلمس .. ومضى طرفة بكتابه إلى البحرين فقتل »[٢] . واشتهر من أهل الحيرة بعض الشعراء أمثال عدي بن زيد العبـــادي الحيري[٣] الذي قتل على يدي النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة،وكان عدي من تراجمة كسرى أبرويز[٤] .ومنهم أيضاً الشاعر عدي بن مرينا من بني مرينا اللخميين[٥]، أشرف بيوتات العرب الحيريين ، وكانت ديارهم بين دير هند والكوفة ، وفي هذه الديار قتل رهط من بني آكل المرار في عهد المنذر ، وفيهم يقول امرىء القيس :

ملوك من بني حجر بن عمرو — يساقون العشية يقتـــلونا

ولو في يوم معركة أصيبـــوا — ولكن في ديار بـني مرينا[٦]

ومن بيوت الحيرة الكبار بيت بقيلة العباديين من الأزد ، وينسب إليهم قصر

---

(١) جرجي زيدان ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ — قتيبة ، ص ١٨ — جواد علي ج ٤ ص ١٦ — صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة كافر ، ص ٣١٤

(٣) الالوسي ، ج ٣ ص ١١٩ — احمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٢ ، وكان أبوه زيد ابن حماد شاعرا وخطيبا وقارئا لكتب العرب والفرس

(٤) الطبري ، مجلد ١ قسم ٢ ، ص ١٠١٦ — ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٥٥

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠١٩

(٦) قتيبة ، ص ١٧

بني بقيلة في الحـــيرة[١] ، ويروون أنه لما بنى عبد المسيح بن بقيلة هذا القصر بالحيرة قال :

لقــد بنيت للحدثان قصرا　　　لو أن المرء تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخرا　　　لأنــواع الرياح به أنين[٢]

وسنعود إلى التحدث عن الحيرة عندما نتحدث عن حضارتها

د - اشهر أمراء المناذرة بعد عمرو بن عدي :

١ - امرىء القيس (٢٨٨ - ٣٢٨م) :

هو ابن عمرو بن عدي من مارية بنت عمرو أخت كعب بن عمرو الأزدي[٣]، ويعرف امرىء القيس عند الاخباريين بامرىء القيس البدء أي الأول، وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس . وذكروا أنه عاش ملكاً ١١٤ سنة، وأنه عاصر سابور بن أردشير ، وهرمز بن سابور، وبهرام بن هرمز ، وبهرام بن بهرام[٤] ، وواضح أن مدة حكم امرىء القيس البدء على ما رواه ابن الكلبي مبالغ فيها للغاية ، و ذكر اليعقوبي أنـه حكم ٣٥ سنة[٥]. وقد لقب امرىء القيس بمحرق العرب أو محرق ، وأصبحت هـذه الصفة تطلق على بني نصر فيقولون آل محرق ، وفيهم يقول الشاعر الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعـــد آل محرق　　　تركوا منازلهم وبعـــد إياد
أرض الخورنق والسدير وبارق　　　والقصر ذي الشرفات من سنداد[٦]

---

(١) الشابشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥١ ص ١٥٤
(٢) شيهة ، الحيرة ، ص ٢٦
(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٦٦ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٣٤
(٤) نفس المصدر ص ٦٦ ، ٦٧ ، الطبري ، نفس الصفحة
(٥) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠
(٦) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨

ويعتقد الدكتور جواد علي أن هذه الصفة لم تطلق على امرىء القيس لأنه أحرق أعداءه ، ولكن لهذه الصفة علاقة بصنم يدعى محرق تعبدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة ، وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم هو عبد محرق(1).

ويبدو أن ملك امرىء القيس كان عظيماً وأنه كان من عمال سابور « على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة»(2) ، ونص النمارة بجبل حوران يتضمن هذه الألقاب إذ نقرأ فيه ، (هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد على الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم ،توفي سنة ٢٢٣ في يوم ٧ مكسلول وفق بنوه السعادة)(3).

وصاحب هذا النقش القبري هو امرىء القيس الأول موضوع الدراسة وقد توفي في حوران في ٢٢٣ من تقويم بصري الموافق لسنة ٣٢٨ م . ونستدل من النقش على أن امرىء القيس كان محارباً عظيماً تمكن من إخضاع قبائل العرب في شبه الجزيرة ، وأهمها وأقواها قبائل أسد ونزار ومذحج ومعد . ويكفي برهاناً لتأييد اعتراف الرومان بسلطان امرىء القيس ، قبره الذي أقيم في النمارة في إقليم روماني ، والنقش مكتوب بحروف نبطية في لغة عربية(4) .

وقد لاحظ الأستاذ كليرمون جانو Clermont Ganneau أن ظهور كلمة التاج في النص – وهي كلمة معروفة عند الفرس – يدل على مظهر من مظاهر

---

(1) جواد علي ، ج ٤ ص ٣٢
(2) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٤
(3) جرجي زيدان ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ – جواد علي ، ج ١ ص ٦٨٩ – غلوبة ، ص ١٢٩
(4) رينيه دوسو ، العرب في سوريا قبل الإسلام ، ص ٣٦

السلطان العربي الذي تأسس تحت الرعاية الفارسية . وذكر الأستاذ رتشتين أنه إذا كان عرب غسان قد أبدلوا الإكليل بالتاج في عام ٥٨٠، فإنما كانت معرفتهم بالتاج عن طريق اللخميين [١].

٢ - النعمان الأول بن امرىء القيس الثاني (٣٩٠-٤١٨)

هو ابن امرىء القيس البدء الثاني من شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبة [٢]، ولكن المسعودي يذكر أن أمه هي الهيجمانة بنت سلول بن مراد، وأنها فيما يقال من إياد [٣]. وقد حظي النعمان الأول بشهرة كبيرة بين ملوك الحيرة، فهو النعمان الأعور [٤]، وهو النعمان السائح [٥] لأنه زهد في الدنيا في آخر عمره، فتخلى عن الملك ولبس المسوح وساح في الأرض [٦]، وذلك بعد ٢٩ سنة وأربعة أشهر من الحكم وفقاً لرواية الطبري عن هشام ابن الكلبي، وثلاثين سنة وفقاً لرواية حمزة ، وهو أيضاً النعمان الذي بنى الخورنق والسدير [٧]. وذكر الطبري وغيره أنه « صاحب الخورنق » [٨] فقط ، وقالوا أيضاً أنه « فارس حليمة » [٩]، وهو

---

(١) نفس المرجع ص ٢٤ ، ٢٥

(٢) حمزة ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠

(٣) المسعودي ، ج ، ص ٩٨

(٤) حمزة ، ص ٦٨ — ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨

(٥) حمزة ، ص ٦٨

(٦) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٤ — ابن قتيبة ، كتاب المعارف ص ٢١٨

(٧) نفس المصدر

(٨) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠ — ابن قتيبة ص ٢١٨

(٩) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠

قول مردود لأن يوم حليمة حدث في عهد المنذر بن ماء السماء .

وهكذا نال النعمان الأكبر من الشهرة ما لم ينله أحد من ملوك الحيرة قبله أو بعده . ويبدو أن النعمان كان جديراً بهذه الشهرة ، فقد وصفه الاخباريون بأنه كان صارماً حازماً ضابطاً لملكه وأنه اجتمع له من الأموال والأتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة » « وكان من أشد ملوك العرب نكاية في الأعداء ، وأبعدهم مغاراً ، وغزا الشام مراراً كثيرة وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم »[1] . ويذكرون أيضاً فيما يختص بقوته العسكرية أن ملك الفرس جعل معه كتيبتين يقال لاحداهما دوسر وهي لتنوخ وللأخرى الشهباء وهي لفارس ، وهما اللتان يقال لهما القبيلتان ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب[2]»ويظهر أن كتيبته دوسر التنوخية كانت من القوة بحيث ضرب العرب بها المثل في البطش فقالوا « أبطش من دوسر »[3] ، ودوسر مشتقة من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطئتها . وفي قوة هذه الكتيبة يقول أحد الشعراء :

ضربت دوسر فيهم ضربة   أثبتت أوتاد ملك فاستقر[4]

وذكروا أن جيشه كان يتكون من خمس كتائب منها الأشاهب (أي بيض الوجوه) ودوسر ، اللتان ذكرتها ، ثم ثلاث أخريات هي :

(١) **الرهائن** ، وكانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يحل محلهم خمسمائة آخرون في فصل الربيع .

---

(١) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٢

(٢) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، نفس الصفحة

(٣) الميداني (ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري) ، مجمع الامثال ، ج ١ طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ ص ١٢٠

(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٥ — الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٢ ص ١٧٦

(ب) **الصنائع**، وهم بنو قيس وبنو تيم اللات ابني ثعلبة، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه .

(ج) **الوضائع**، كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملوك العرب ، وكانوا يرابطون سنة ثم ينصرفون ويأتي مكانهم ألف جدد [1].

وكما اهتم النعمان بالجيش اهتم بالتعمير السلمي ، وإليه ينسب الأخباريون بناء قصر الخورنق بل وينسبون إليه أيضاً بناء السدير [2] . وذكر الطبري في سبب بنائه للخورنق أن يزدجرد بن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الأكتاف كان لا يعيش له ولد، « فسأل عن منزل بريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا ، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له ، وأنزله إياه ، وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب » [3] . وفي موضع آخر يذكر الطبري أن يزدجرد دفع بولده بهرام إلى المنذر بن النعمان ، وفي مقابل ذلك ملكه على العرب،« وحباه بمرتبتين سنيتين تدعى احداهما رام أبزود يزدجرد ، وتأويله زاد سرور يزدجرد ، والأخرى تدعى بهشت وتأويلها أعظم الخول ، وأمر بصلة وكسوة يقدر استحقاقه لذلك في منزلته ، وأمره أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب ، فسار به المنذر إلى محلته منها واختار لرضاعه ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب رضية من بنات الأشراف ، منهن امرأتان من بنات العرب وامرأة من بنات العجم ، وأمر لهن بما أصلحهن من الكسوة والفرش والمطعم والمشرب وسائر ما احتجن إليه ، فتداولن رضاعه

---

(1) الميداني ، ج ١ ص ١٢٥ — الالوسي ، ج ٢ ص ١٧٦

(2) حمزة ، ص ٦٨ — Perceval, op. cit. t. II, p. 55

(3) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١

ثلاث سنين وقطم في السنة الرابعة .. فهلك أبوه يزدجرد وبهرام غائب، فتعاقد ناس من العظماء وأهل البيوتات أن لا يملكوا أحـــداً من ذرية يزدجرد لسوء سيرته ..»[1] . فتولى المنذر مهمة مساعدة بهرام في الظفر بالتاج،وسير جيوشه إلى فارس وانتهى الأمر بتمليك بهرام[1] .

ويمكن التوفيق بين الروايتين بأن يزدجرد أمر النعمان بإقامة الخورنق حتى يقيم فيه ابنه بهرام وينشأ فيه ، فلما مات النعمان في سنة ٤١٨ ، وخلفه المنذر ، تولى رعاية بهرام وتربيته ، ثم قام أخيراً بمساعدته لاسترجاع عرش أبيه ، وقد توصل اليعقوبي إلى هذا الحل الموفق في الجمع بين روايتي الطبري[2] .

ويذكر الطبري أن الذي قام ببناء قصر الخورنق رجل يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان صنعته ، فأظهر سنمار أنه قادر على بناء أعظم منه يدور مع الشمس حيثما دارت ، إذا ما أوفوه أجره ، فقال النعمان : « وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ؟»ثم إنه أمر به فطرح من رأس الخورنق ، وفي ذلك يقول الشاعر أبو الطمحان القيني :

جزاء سنمار جزاهــا وربهــا وباللات والعــزى جزاء المكفر

وقال عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي :

جزاني جزاه الله شر جزائـــه جزاء سنمار ومــا كان ذا ذنب

سوى رصه البنيان عشرين حجة يعل عليـــه بالقراميد والسكب

فلما رأى البنيان تم سحوقـــه وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب

---

(١) راجع الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٥ — ٨٦٠

(٢) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠

بناه من بعد حرس وحقبة ... وقد هزه أهل المشارق والغرب

وظن سنمار به كل حبرة ... وفاز لديه بالمودة والقرب

فقال اقذفوا بالعلج من فوق برجه ... فهذا لعمر الله من أعجب الخطب[1]

وسنمار في هذه الأشعار علج ، أي من جنس غير عربي ، وذكر ياقوت عن الهيثم بن عدي أن سنمار رجل من الروم[2].

وهناك رواية أخرى في بناء الخورنق أوردها ياقوت جاء فيها : « وبنى الخورنق في ستين سنة ، بناه له رجل من الروم يقال له سنمار ، فكان يبني السنتين والثلاث ، ويغيب الخمس سنين وأكثر من ذلك وأقل ، فيطلب فلا يوجد ، ثم يأتي فيحتج ، فلم يزل يفعل هذا الفعل ستين سنة حتى فرغ من بنائه ، فصعد النعمان على رأسه ، ونظر إلى البحر تجاهه ، والبر خلفه ، فرأى الحوت والضب والظبي والنخل ، فقال : ما رأيت مثل هذا البناء قط ، فقال له سنمار : إني أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ قال : لا ، قال : لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ! . ثم أمر به فقذف من أعلى القصر إلى أسفله ، فتقطع ، فضربت العرب المثل »[3].

وفي عهد النعمان بدأت جذور المسيحية التي كانت قد نبتت في عهد امرىء القيس الأول تنمو وتستقيم عودها ، فقد اجتذب اعتزال القديس سمعان العمودي St. Simeon Stylite على قمة جبل بسورية جمهوراً كبيراً من عرب الحيرة العباد ، وكانوا يقصدونه ليباركهم أو يشفيهم من أمراضهم ، ولما بلغ النعمان ذلك خاف

---

(١) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ ، ٨٥٢

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة خورنق ، ص ٤٠١

(٣) ياقوت ، نفس المصدر ، مادة خورنق ، ص ٤٠١

أن تتعرض مصالح دولته للأخطار نتيجة إقامة رعيته الحيريين ، قصاد القديس سمعان ، في بلاد تابعة للرومان ، الأعداء الألداء لسادته الفرس ، فأمر بمنع هذه الرحلات ، وهدد قصاد القديس بالتعرض للعقاب . ولكن القديس سمعان أتاه في إحـــدى رؤياه ، محوطاً بشياسين ، ونهره بشدة ، وأمر شماسية بأن يضرباه بالعصا . فانتبه النعمان من نومه منهكاً عليلاً ، وأيقن أن هـــذه الرؤيا إنذار سماوي ، فأباح حرية ممارسة الشعائر المسيحية في الحيرة ، كما أباح بناء الكنائس، وتلقى الرهبان الأساقفـة ، وتم شفاؤه بعد ذلك ، واعتبرت الرؤيا معجزة من معجزات القديس سمعان . وقد روى هذه القصة القس كوزماس عن لسان قائد روماني يدعى أنطيوخوس ، سمعها بأذنه من فم النعمان نفسه ، وذلك عندمـــا زاره هذا القـائد في الحيرة . ويضيف كوزماس قائلاً أن النعمان صرح للقائد الروماني بأنه كان يرغب من قلبه في اعتنـاق المسيحية لولا خوفه من سخط ملك الفرس [1] . ويروي الأخباريون [2] تأكيداً لهذه الرواية أن النعمان جلس يوماً في مجلسه من الخورنق ، فأشرف منه على النجف ومـا يليه من البساتين ، والنخل والجنان والأنهـار مما يلي المغرب ، وعلى الفرات مما يلي المشرق ، وكان الخورنق يطل على الفرات الذي يدور حوله ، فأعجب النعمان بما فيه من خضرة ومـيـاه ، فعبر عن إعجابـه بجمال المكان لوزيره وصاحبه ، « وقال له : أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه ؟ فقال : لا والله أيها الملك ما رأيت مثله لو كان يدوم !! قال : فما الذي يدوم ؟ قال : ما عند الله في الآخرة . قال: فبم ينال ذلك ؟ قال : بترك هذه الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده » . فترك ملكه في ليلته وارتدى مسوح الرهبان واختفى عن الأنظار ، وتنسك في الجبـال والفلوات . وفي ذلك يقول

(1) C. de Perceval, t. II, p. 56-57 . وذكر ابن خلدون نقلا عن البيهقي أن أول من تنصر من بني نصر النعمان بن الشقيقة (ابن خلدون ج ٢ ص ٥٦٧) .

(2) نعني بهم هشام بن محمد بن السائب الكلبي ومن أخذ عنه كالطبري وحمزة

شاعر الحيرة عدي بن زيد العبادي :

وتفكر رب الخورنـــق إذ أشرف يومـاً وللهدى تبصير
سره حاله وكثرة مـــا يملك والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه فقال فما غبـ ـطة حي إلى الممات يصـير
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـة وارتهم هنـــاك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت بـه الصبا والدبور[1]

ويعتقد بعض المؤرخين أن تنصر النعمان أمر لم يثبت منه بعـد ، وليس من الضروري أن تكون روايات الرواة وأخبارهم حقائق صحيحة أو وثائق لا تقبل الشك ، ولكن هـذه الروايات تحملنا على الاعتقاد بأن النعمان كان يتأهب لتقبل المسيحية أو أنه كان يميل إليها ، وأن رعاياه النصارى تمتعوا في عهده بحرية كاملة[2].

٣ – المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء : (٥١٢–٥٥٤ م) :

يعرف المنذر بن امرىء القيس عند الأخباريين بالمنذر بن مـــاء السماء ، كما يعرف أيضاً بذي القرنين . وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم

---

(١) حمزة ص ٦٨ – الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ – ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨ – ياقوت معجم البلدان ، مادة خورنق ، ص ٤٠٢ .

(٢) Nicholson, a literary history of the Arabs, Cambridge, 1952 p. 41 – جواد علي ، ج ٤ ص ٤١

ابن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر ابن قاسط ، وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها[1] وسبب تسميته بذي القرنين فيرجع إلى ضفيرتين برأسه [2] . وفي عهده اغتصب الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ملك الحيرة ، فيما بين ٥٢٤ و ٥٢٨ ، على رأي الأستاذ جواد علي [3] . ويعلل الأخباريون ذلك بأن قباذ نحاه عن الملك لأنه لم يقبل اعتناق المزدكية ، ووضع مكانه الحارث بن عمرو الكندي لأنه قبل الزندقة [4] . فلما تولى كسرى أنو شروان ملك فارس ، وحارب الزنادقـــة ، رد المنذر إلى عرش الحيرة[5] وذكروا أن المنذر فر على أثر اغتصاب الحارث الكندي للحيرة إلى الجرساء الكلبي وأقام عنده [6] . ولكن الأستاذ جواد علي يرى أن القضية ليست قضية مزدكية أو اختلاف في الدين كما ذهب إلى ذلك الأخباريون، بل هي قضية ملك وسلطان ، فالمنذر رجل كفء ذو شخصية قوية ، أوقع الرعب في أرض الروم ، وأكره القيصر على إرسال وفد لفك قائدين من قواده سقطا أسيرين في يديه ، ولإقناعه بالانضمام إليه إن أمكن ، أو تأمين جانبه على الأقل . وقباذ رجل لاقى في ملكه مصائب جمة : طرد من الملك ، وسجن ، وأريد إهلاكه ، ولكنه هرب من سجنه ونجا ، وبعد جهد وتعب وعمل سري استعاد ملكه ، وحكم دولة لم تكن قواعد الأمن فيها رصينة ساعة توليه الملك ، ثم حارب الروم ، وحاربه الروم ، فرجل مثل هذا الرجل لا بد أن يكون قلقاً يخشى منافسة الرجـال الأقوياء ، فليس بمستبعد إذن أن يكون قباذ قد حسب حساباً لتوسع نفوذ المنذر ، ولاحتمال

---

(1) حمزة ٤ ص ٧٠ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٩٠٠

(2) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٩٠٠

(3) جواد علي ، ج ٤ ص ٧١

(4) حمزة ٤ ص ٧٢

(5) نفس المصدر — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٦٩

(6) حمزة ٤ ص ٧١

اتصال الروم به لإقناعه بالانضمام إليهم ، فلما ظهر الحارث الكندي في العراق ، طامعاً في ملك المنذر ، وفي ملك عرب العراق ، لم يجد من مصلحته الدفاع عن المنذر فتركه وشأنه ، فتغلب الحارث عليه » [1] . ويضيف الدكتور جواد علي فيذكر أنـه لا قيمة لمزاعم الأخبـاريين فيا قالوه بأن عودة المنذر كانت في بدء تولية كسرى حكم فـارس سنة ٥٣١ ، إذ ثبت فعلا أن المنذر غزا بلاد الشام منذ سنة ٥٢٨ م . ويعلل ما أشاعه الأخباريون من علاقة المزدكية بعزل المنذر بأن رواة أهله قصدوا من وراء ذلك الحط من شأن الحـــارث الكندي لكي يظهروه بمظهر الرجل الذي باع دينه وعقيدته وقبل الزندقة والإباحية في سبيل الملك [2] . ومن المعروف أن حمزة الأصفهاني والطبري استقيا مادتيهما من هشام الكلبي الذي اعتمد على وثائق كانت محفوظـة في بيع الحيرة ، إذ يقول : « إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها » [3] .

كان المنذر بن امرىء القيس محارباً شجاعاً ، قضى حياته في غزو لبلاد الروم والعرب ، ففي سنة ٥١٩ أغار على بلاد الروم ، وتمكن في بعض حروبه من أسر قائدين هما ديموستراتوس ويوحنا ، فأرسل إليه جستين وفداً من إبراهام وشمعون الأرشامي وسرجيوس أسقف الرصافة سنة ٥٢٤ للمفاوضة في إطلاق سراح القائدين المذكورين [4] . وفي سنة ٥٢٨ م هـاجم المنذر بلاد الروم مؤيداً الفرس ، وتوغل في بلاد الشام ، وغنم غنائم كثيرة ، ثم عاود غزوه لبلاد الشام في العـام التالي ،

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ص ٧٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٢

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ ، ٨٥٢

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٥٢ — يوسف قنيفة ، ص ١٦٨ (نقلا عن السمعاني)

ويوغل في البلاد حتى يبلغ حدود أنطاكية، ولم تنقطع المناوشات بين المنذر وبين الحارث الجفني بسبب تنازعهما على الإمارة التي كانت تجبى من عرب منطقة تدمر، ولم تنته هذه الحروب إلا بمصرع المنذر بن امرىء القيس في موقعة حليمة أو موقعة خيار في سنة ٥٥٤، على النحو الذي أوضحناه عند دراستنا للغساسنة[1].

وينسب ابن الأثير يوم أوارة الأول إلى المنذر بن امرىء القيس، فيذكر أنه سار إلى بكر بن وائل في جموع جيشه، فالتقوا بأوارة وأسفرت المعركة عن هزيمة بكر وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي، فأمر المنذر بقتله فقتل، وقتل في المعركة بشر كثير وأسر المنذر من بكر عدداً كبيراً من الأسرى أمر بهم فذبحوا على جبل أوارة، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار[2].

ويروي الأخباريون أن المنذر بن ماء السماء هو صاحب الغريين اللذين بناهما بظاهرة الحيرة، وكان السبب في ذلك أنه كان له نديمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة والآخر عمرو بن مسعود، فثملا، فراجعا الملك في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين، فلما أصبح استدعاهما، فأخبر بالذي أمضاه فيهما، فغمه ذلك، وقصد حفرتهما، وأمر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما، وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين، فان

---

(١) يخلط الاخباريون بين يوم حليمة ويوم عين اباغ، ويذكرون ان المنذر لقي مصرعه في عين اباغ (حمزة، ص ٧٠)، وقد سبق ان تحدثنا من هذا الخلط، واشرنا الى أن عين اباغ حدثت بعد يوم حليمة، وان المنذر قتل في يوم حليمة الذي يعرف ايضا بيوم الخيار اعتمادا على ابن قتيبة (المعارف، ص ٦١٦).

اما عمرو بن هند الذي ذكر ابن قتيبة انه قتل في عين اباغ، فهو عمرو مضرط الحجارة الذي قتله عمرو بن كلثوم التغلبي (حمزة، ص ٧٢ — ابن قتيبة ص ٢١٨).

(٢) ابن الاثير، ج ١ ص ٣٢٤

رفعت له الوحش طلبتها الخيل ، وإن رفع طائر ، أرسل عليـــه الجوارح حتى يذبح ما يعن ويطليان بدمه . ولبث بذلك برهة من دهره ، وسمى أحد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيه ما ظهر له من إنسان وغيره . وسمى الآخر يوم النعيم يحسن فيه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم . فخرج يوماً من أيام بؤسه إذ طلع عليه عبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر ، وقد جاء ممتدحاً ، فلما نظر إليه قال : هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد ؟ فقال عبيد : أتتك بحائن رجلاه ، فارسلها مثلا ، فقال له المنذر : أو أجـــل قد بلغ أناه . فقال رجل ممن كان معه : أبيت اللعن اتركه فإني أظن أن عنده من حسن القريض أفضل مـــا تريد من قتله . فاسمع فإن سمعت حسناً فاستزده ، وإن كان غيره قتلته وأنت قـــادر عليه ، فأنزل فطعم وشرب . . . ثم أمر به المنذر ففصد حتى نزف دمه ، فلما مات غرى بدمه الغريين ، فلم يزل على ذلك حتى مر به في بعض أيام البؤس رجل من طيء يقال له حنظلة بن عفراء ، فقرب ليقتل فقال : أبيت اللعن ، إني أتيتك زائراً ولأهلي من بحرك مائر ، فلا تجعل ميرتهم ما تورده عليهم من قتلي . قال له المنذر . لا بد من قتلك فسل حاجتك تقض لك قبل موتك ، فقال تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفذ في أمرك . فقـــال له المنذر : ومن يكفلك أنك تعود ؟ فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف شريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني ، فقال :

يا شريك يا ابن عمرو	هل من الموت محالة ؟
يا شريك يا ابن عمرو	يا أخا من لا أخـــا له
يا أخـــا المنذر فك الـ	ـيوم رهناً قد أنى له »

فكفله شريك : ومضى حنظلة . وانتهى الأجل المحدد ، وأعد كل شيء لقتل شريك الكافل ، وبينما يتأهبون لقتل شريك إذ بهم يرون حنظلة قادماً ، وقد تحنط وتكفن ومعه نادبته تندبه ، فلما رأى المنذر ذلك عجب من وفائه وقال :

ما حملك على قتل نفسك ؟ فقال : أيها الملك إن لي ديناً يمنعني من الغدر . قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية . فاستحسن ذلك منه وأطلقهما معاً ، وأبطل تلك السنة ، وكان سبب تنصره وتنصر أهل الحيرة فيما زعموا .»[1]

٤ – عمرو بن المنذر (أو عمرو بن هند) : (٥٥٤–٥٧٤)

هو عمرو بن المنذر بن امرىء القيس ، وأمه هند بنت عمة امرىء القيس الشاعر بنت عمرو بن حجر الكندي آكل المرار ، ويعرف عمرو أيضاً بعمرو مضرط الحجارة ومحرق [2]. ويذكر الأخباريون أن عمرو قضى حياته يحارب العرب والروم، ويذكرون أنه غزا تميماً في دارها فقتل من بني دارم ١٥٠ شخصاً في يوم أوارة الثاني[3] ، وذكروا أنه ألقى بالقتلى في النار ولهذا عرف بمحرق . وفي سنة ٥٦٣ أغار عمرو بن هند على بلاد الشام، وكان على عربها الحارث بن جبلة الغساني [4] ، ثم عهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزو ديار الغساسنة في عامي ٥٦٦، ٥٦٧ لتأديب الروم الذين أساءوا إلى رسوله في القسطنطينية لمفاوضة القيصر على دفع الإتاوة [5] . وتسبت إلى عمرو جملة غزوات منها غزوة لتغلب ، وغزوة لطيىء . ويذكر المؤرخون أن عمرو بن المنذر قتل على يدي عمرو بن كلثوم ، وكان سبب قتله غروره البالغ ، فقد قال لجلسائه يوماً : « هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة غريان ، مجلد ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ . وينسب ابن قتيبة الغريين الى النعمان بن المنذر ، كتاب المعارف ، ص ٢١٩)

(٢) حمزة ، ص ٧٢ — ابن قتيبة ص ٢١٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٣ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) C. de Perceval, t. II. p. 117 — جواد علي ، ج ١ ص ٧٦

(٥) Ibid. p. 118 — جواد علي ، ج ١ ص ٧٩

يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو. فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه ، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه ليلى أم نفسه هند بنت الحارث ، فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلى ، فنزل على شاطىء الفرات . وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاماً . ثم دعا الناس إليه ، فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة . وقد قال مضرط الحجارة لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحي خدمك عنك ، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء ، ففعلت هند ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطرف ، فقالت هند لليلى : ناوليني ذلك الطبق ، قالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فألحت عليها ، فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب ، فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه ، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق ، وليس هناك سيف غيره ، فأخذه ، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله ، وخرج ، فنادى : يا آل تغلب ، فانتهبوا ماله وخيله ، وسبوا النساء ، وساروا فلحقوا بالحيرة »[1] .

وقد أشار عمرو بن كلثوم إلى هذه الوقعة في معلقته ، وفيها يقول :

بأي مشيئة عمرو بن هند ... تكون لقيلكم فيها قطينا ؟

بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

تهددنا وأوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مقتوينا ؟

---

(١) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٢١

وإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا [1]

ويفسبون إلى هند دير هند الكبرى من أديرة الحيرة [2] .

٥ – المنذر بن المنذر (٥٧٩–٥٨٣) :

تولى ملك الحيرة أربع سنوات ، وكان له عشرة أولاد بخلاف النعمان، وكانوا يسمون الأشاهب لجمالهم [3] ، نخص بالذكر منهم الأسود . وكان المنذر قد دفع ابنه النعمان من زوجته سلمى بنت وائل بن عطية من كلب [4] إلى عدي بن زيد ابن حماد التميمي ليربيه وينشئه نشأة أميرية،ودفع ابنه الأسود من زوجته مارية بنت الحارث بن جلهم إلى عدي بن أوس بن مرينا من أشراف الحيرة اللخميين المقدمين عند كسرى. ويذكرون أنه لما دنت ساعة وفاته أوصى إياس بن قبيصة الطائي بأولاده ، وملكه على الحيرة إلى أن يرى كسرى هرمز رأيه،فمكث إياس ملكاً على الحيرة أشهراً [5] . ونستنتج من هـــذا أن سلطة أمراء اللخميين قد ضعفت ضعفاً واضحاً بحيث أصبح تنصيب أمراء الحيرة أمراً من صميم اختصاص الأكاسرة .

٦ – النعمان بن المنذر (٥٨٣-٦٠٥) :

هو النعمان أكبر أبناء المنذر من سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل

---

(١) تراجم أصحاب المعلقات العشر وأخبارهم ، جمعها احمد بن الامين الشنقيطي ، القاهرة ١٣٢٩ ، ص ٤٩ — ٥٠

(٢) راجع : البكري ، معجم ما استعجم — ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ١٢ مادة دير ص ٥٤٢ — الشابشتي ،كتاب الديارات ، الذيل ، ص ٢٤٦

(٣) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٥

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٦٩

(٥) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٧

فدك [١] ، ونسبها بعضهم إلى كلب [٢]. وذكر الطبري أنها كانت أمة الحارث ابن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب من كلب [٣]. ويستدل من هذا على أن أم النعمان كانت من طبقة وضيعة لا تليق بأسرة من الملوك [٤] ، ولعلها من أصل يهودي ، لأن معظم أهل فدك من اليهود بالاضافة إلى أن جدها كان صائغاً ، وهو أمر يزيد احتمال كونها يهودية ، فإن حرفة الصياغة كانت من الحرف الرئيسية التي يحترفها اليهود ، وكان النعمان أحمر الوجه ، أبرشاً ، قصير القامة ، دميم الخلقة [٥] ، بخلاف إخوته الآخرين الذين كان يقال لهم الأشاهب لجمالهم [٦] ، وفي ذلك يقول الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحـ ـيرة يمشون غدوة بالسيوف

وكان أبناء المنذر طامعين في الملك ، بحيث استعصى على أبيهم أن يختار واحداً منهم من بعده ، فوكل لاياس بن قبيصة الطائي بادارة الحيرة إلى أن يختار كسرى واحداً منهم . ويروي هشام بن محمد الكلبي أن عدي بن زيد هو ولد زيد بن حماد بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عصية بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم ، وكان عدي هذا يجيد معرفة الفارسية ، فسيره قابوس بن المنذر إلى كسرى بن هرمز ليشتغل مترجماً في بلاطه [٧] ، ثم عهد إليه المنذر بن المنذر

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٤

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٩٦

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٧

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٨٥

(٥) الطبري ، ج ٢ ص ١٠١٧ ، ١٠١٨ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٦

(٦) نفس المصدر ، ص ١٠١٧ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٥

(٧) نفس المصدر

بتربية ابنه النعمان بينما عهد إلى عدي بن أوس بن مرينا بتربيه ابنه الأسود .

ويروي لنا هشام بن محمد الكلبي أنه لما توفي المنذر دعا كسرى أبرويز عدي ابن زيد فقال له : « من بقي من بني المنذر ؟ وما هم ؟ وهل فيهم خير ؟ فقال : بقيتهم في ولد هذا الميت المنذر بن المنذر ، وهم رجال ، فقال ابعث إليهم ، فكتب فيهم ، فقدموا عليه » . ولما قدموا مثلوا واحداً بعد واحد أمام كسرى ليختبرهم ويختار واحداً منهم فيوليه ملك الحيرة ، فاختلى عدي بن زيد بأولاد المنذر ، وتظاهر بأنه يؤثرهم على النعمان ، وأوصاهم أن يجيبوا جواباً واحداً على سؤال النعمان ، فإذا سألهم : أتكفونني العرب ، يجيبونه : يكفيكهم إلا النعمان . ثم اختلى بالنعمان وأوصاه بأن يجيب على كسرى بهذه العبارة « إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز » ، أما عدي بن أوس بن مرينا فقد نصح ربيبه الأسود بن المنذر بأن يجيب على سؤال كسرى إجابة تختلف عن إجابة إخوته ، فلم يبد الأسود اهتماماً بنصحه . ولما أدخلوا على كسرى اختار من بينهم النعمان بن المنذر ، إذ سر بإجابته « فملكه وكساه وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب » . فلما آل أمر الحيرة إلى النعمان غضب عدي بن أوس ، وأضمر الكيد لعدي بن زيد فما زال يشي به في الخفاء ، ويتظاهر بمحبته أمام النعمان ، ثم تآمر عليه فوضع كتاباً على لسان عدي إلى قهرمان لعدي فيه مؤامرة بالنعمان ، فلما اطلع النعمان على تفاصيل الكتاب عزم على قتل عدي بن زيد ، فطلب منه أن يزوره لاشتياقه إليه ، وكان عدي بن زيد في طيسفون فاستأذن كسرى ، فأذن له . فلما وصل إلى الحيرة أسرع بالتوجه إلى قصر النعمان إذ كان متلهفاً لرؤيته ، فلم يكد يدخل عليه حتى أمر به فأدخل سجناً بصنين [1] ، لا يدخل عليه فيه أحد ، فكتب في سجنه أشعاراً تضرع فيها إلى النعمان ، ومما قاله :

---

(١) الصنين بلد كان بظاهر الكوفة بقرب السيلحون من منازل كسرى (صالح العلي (منطقة الحيرة ص ٢٧) .

ليت شعري عن الهمام ويأتـ ـيك بخبر الأنباء عطف السؤال

ولم تؤثر أشعار عدي بن زيد في النعمان، ولم تجده شيئاً ، فلما يئس عدي كتب إلى أخيه أبي الذي كان يعمل مترجماً لكسرى :

أبلــغ أبيــاً على نــأيه فهل ينفع المرء ما قــد علم

بأن أخاك شقيق الفؤا د كنت بــه واثقاً ماسلم

لدا ملك موثــق بالحـــد يد إمـا بحق وإمــا ظلم

فلا أعرفنك كدأب الغلا م ما لم يجــد عارماً يعتزم

فأرضــك أرضك إن تأتنا تنم نومـة ليس فيهـا حلم

فكتب إليه أخوه يقول :

إن يكن خانك الزمان فلا عا جز باع ولا ألف ضعيف

ويمين الإله لو أن جأوا ء طحونا تضيء فيها السيوف

ذات رز مجتابـة غمرة المو ت صحيح سربالها مكفوف

كنت في حميها لجئتك أسعى فاعلمن لو سمعت إذ تستضيف

ثم مضى أبي إلى كسرى فأخبره بما كان من أمر أخيه ،فبعث كسرى كتاباً إلى النعمان حمله إليه رسول من قبله ، وكان للنعمان عنـــد كسرى نائباً عنه ، فبادر بالكتابة إلى النعمان بخبره بخبر رسول كسرى ، كما أرسل إلى أعداء عدي ابن زيد من بني بقيلة يعلمهم بتدخل كسرى ، ولما علم بنو بقيلة أسرعوا بالذهاب إلى النعمان وطلبوا منه أن يقتله في التو واللحظة قبـــل أن يصل إليـه رسول كسرى ، وحذروه من خطر الإبقاء على حياته ، فأذن لهم النعمان بقتله فقتلوه ، ثم دفنوه . ولما أبلغ رسول كسرى بموته ذهب إلى النعمان ليسأله تفاصيل موته

فأكرمه وزاده جائزة ، واستوثق منه أن لا يخبر كسرى ، إلا أنه قد مات قبل أن يقدم عليه »[1]. فعاد الرسول إلى كسرى وأخبره أن عدياً مات قبل أن يصل إلى الحيرة بأيام .

ندم النعمان على موت عدي ، واجترأ أعداء عدي عليه ، فهابهم ، وخاف أن يشوا به عند كسرى ، وخرج يوماً في بعض صيده فلقي ابناً لعدي يقال له زيد ، فقربه إليه واعتذر إليه من أمر أبيه ، ثم أرسله إلى كسرى ، وأعطاه كتاباً يحمله إليه ، أشار فيه إلى مكانة عدي منه وإلى خسارته بوفاته ، ثم وصى كسرى بزيد بن عدي ، فلما مثل زيد أمام كسرى ، وطالع هذا كتاب النعمان ، قلده وظيفة أبيه وارتفعت منزلته عنده ، وهناك أخذ زيد ينسج خيوط مكيدة للانتقام من قاتل أبيه . فذكر لكسرى جمال نساء آل المنذر ووصفهن له ، فكتب إلى النعمان مع زيد يأمره أن يبعث إليه باحدى نساء بيته ، فلما قرأ النعمان كتابه قال لزيد بن عدي : « يا زيد ، أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ فقال زيد : إنما أراد الملك إكرامك – أبيت اللعن – بصهرك ، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله ، ولم أعرض ذلك عليه ، وأعذرك بما يقبله ، فقال له النعمان : فافعل ، فقد تعرف ما على العرب في ترويج العجم من الغضاضة والشناعة »[2] .

فلما انصرف زيد من عند كسرى قص عليه امتناع النعمان من تلبية طلبه ، وبالغ في ذلك ، وأدى إليه قول النعمان في مها السواد على أقبح الوجوه ، وأوجده عليه ، فسأل كسرى : « ما المها ؟ فقال : البقر ، فأخذ عليه ، وقال : رب عبد قد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا »[3] . وذكر الطبري هذا القول بصورة أخرى ،

---

(١) الطبري ، ج ١ القسم ٢ ص ١٠٢٤

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٠٠

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠١

قال : « رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا فيصير أمره إلى التباب»[1] . فلما بلغت هذه العبارة إلى النعمان تخوفه وأخذ يتأهب ويتوقع الشر، حتى أتاه كتاب كسرى بأمره فيه بالقدوم إليه ، فأدرك النعمان سوء المصير ، فحمل سلاحه وما قوى عليه ، ثم مضى إلى بني طيىء لصهر كان له فيهم ، وأراد النعمان أن يمنعوه ، فأبوا ذلك خوفاً من كسرى . وأخذ يطوف بقبائل العرب يطلب المنعة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً ، فلقي هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان سيداً منيعاً ، فاستودعه سلاحه وأولاده، وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن هانىء هـذا هو هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود [2] .

ثم أقبل النعمان إلى المدائن ، فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين ، فلما سار بينهن قلن له : أما فينا للملك غنى عن بقر السواد . فأدرك النعمان أنه غير ناج منه . ولقيه زيد بن عدي على قنطرة ساباط ، فقال له النعمان : أنت فعلت هذا بي ، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك ، فقال له زيد : امض نعيم فقد أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الأرن» [3] .وأمر كسرى بالنعمان ، فسجن بساباط المدائن ، وقيل بخانقين [4] ، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة ، وقيل بل مات في محبسه بساباط . وفي موته يقول هانىء بن مسعود الشيباني :

إن ذا التاج ، لا أبالك ، أضحى ... في الورى رأسه تخوت الفيول

إن كسرى عدا على الملك النعمان ... حتى سقاه مر البليل

---

(1) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 1027

(2) الطبري ، ص 1029

(3) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 1028 — المسعودي ج 2 ص 101

(4) الطبري ، ص 1029

وقال أحد الشعراء يرثيه :

لم تبكه هند ولا أختها حرقاء ، واستعجم ناعيه

بين فيول الهند تخبطه تخبطا قدمي نواحيه[1]

غزا النعمان بن المنذر قرقيسيا [2] ، وتعرضت الحيرة في زمنه ، وفي أثناء غيابه بالبحرين لغارة قام بها جفنة بن النعمان الجفني [3] ، وذكر ثيوفلكتس أن أن عرب غسان أغاروا على دولة اللخميين في سنة ٥٠٠ م أي أثناء الصلح الذي عقد بين الروم والفرس[4]. ويبدو أن النعمان بن المنذر لم يكن موفقاً في حروبه التي خاضها مع العرب ، ففي يوم طخفة هزمه بنو يربوع ، وكادوا يقتلونه [5] ، وفي يوم السلان انهزم جيش النعمان ، هزمه بنو عامر بن صعصعة ، وأسر وبرة ابن رومانس الكلبي أخو النعمان ، فافتداه بألف بعير وفرس من يزيد بن الصعق [6] .

وقد فتح النعمان بن المنذر أبواب قصره لقصاده من الشعراء أمثال النابغة الذبياني والمنخل اليشكري والمثقب العبدي والأسود بن يعفر وحاتم الطائي ، وعرف النعمان بأنه « صاحب النابغة »[7] إذ كانت صلته به وثيقة للغاية، ويبدو

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٢

(٢) حمزة ، ص ٧٢

(٣) الطبري ، ص ١٠٢١

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٩١

(٥) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٩٤

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢

(٧) حمزة ، ص ٧٢

أن صداقته له أثارت أحقاد خصوم النابغة الذين ساءهم قربه من النعمان وتمتعه بجوائزه ، فسعوا بـه حتى تغير عليه وكاد يقتله ، ففر النابغة إلى ملوك جفنة بالشام ، وأقام في ظلها فترة ثم عاوده الشوق إلى صاحبه ، فاعتذر إليـه وتبرأ مما قالوه عنه ظلماً ، فعفا عنه النعمان ، وعاد النابغة إلى الحيرة. وكان المنخل اليشكري من ندمـاء النعمان وأصحابه ، وكان يمدح النعمان بقصائده ، وينعم بجوائزه ، ولكنه لم يبلغ من قلبه مثل ما بلغه النابغة ، فسعى للإيقاع به وأوغر صدر النعمان عليه حتى هم بقتله،فهرب النابغة بنفسـه،وحل المنخل محله واختص بمجالسة النعمان ، ولكن النعمان لم يلبث أن انقلب عليه ، فدفع به إلى عكب صاحب سجن النعمان فسجنه وعذبه ثم قتله [1] .

ويزعم بعض الأخباريين أن النعمان دخل في النصرانية ، وكان عابد وثن ، ويرجعون فضل ذلك إلى عدي بن زيد الذي تولى تنشئته، وقالوا إن سبب ذلك ، أنه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدي بن زيد ، فوقف بظهر الحيرة على مقابر مما يلي النهر ، فقال له عدي بن زيد : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر ؟ قال : لا . قال : إنها تقول شعر :

أيهـا الركب المخبون   على الأرض مجدون

مثل مـا أنتم حيينا   وكما نحـن تكونون

فقال له : أعد ، فقال : أنها تقول :

رب ركب قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحوا لعب الدهر بهم   وكذاك الدهر حالاً بعد حال

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ص ٦٥

فارعوى وتنصر »[1] .

وأعتقد أن لأمهات أمراء لخم أثر كبير في تحول بعضهم إلى المسيحية، فامرىء القيس بن عمرو بن عدي كان أول من تنصر من ملوك آل لخم لأن أمه مارية بنت عمرو كانت فيما يظهر مسيحية ، وكانت أم عمرو بن امرىء القيس مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو غسانية ، والغساسنة سبقوا المناذرة في اعتناق المسيحية لاتصالهم بنصارى الشام ووجودهم بالقرب من فلسطين مركز المسيحية الأولى . ومن المعروف أيضاً أن النعمان بن امرىء القيس المعروف بابن الشقيقة كان قد تنصر في أواخر أيامه وأنه ساح في الأرض وتنسك في الجبال . وكانت أم المنذر ابن النعمان بن امرىء القيس أميرة غسانية . وكانت أم المنذر بن امرىء القيس الثالث وهي مارية بنت عوف — كما يظهر من اسمها — مسيحية، ومن المرجح أن ابنها المنذر كان مسيحياً لأنه أنف من اعتناق المزدكية ، فعزله كسرى قباذ ، ويروون أن إبطاله لسنة الغريين كان مرتبطاً بتنصره ، وذكروا أنه أقام في الحيرة الكنائس العظيمة [2] . وكذلك كان عمرو بن هند مسيحياً ، بتأثير أمه هند الكبرى صاحبة الدير المشهور . فالنعمان بن المنذر ليس أول من تنصر من ملوك لخم .

وقد ترك النعمان من البنات أربعاً هن هند وحرقة وحريقة وعنقفير [3] »

---

(1) حمزة ، ص ٧٤ . وذكر ابن فضل الله ان النعمان كان يصلي في دير هند ويتقرب فيه ، وانه علق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة ، وكانت أدهانها في أعياده من زنبق وبان وما شاكلها من ادهان (ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في الممالك والامصار ، تحقيق احمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٣٢٢) وينسب الى النعمان بناء دير اللج بالحيرة (يوسف رزق غنيمة ، ص ٤٥)

(2) ياقوت : معجم البلدان ، مادة غريان

(3) حمزة ، ص ٧٤

وهند هي أشهرهن جميعاً ، فقد ذكروا أنها كانت زوجة لعدي بن زيد ، وقد عاشت طويلاً حتى أدركت قيـــام الدولة الأموية ، وكانت ما تزال حية في أيام عبد الملك بن مروان . وذكر أن المغيرة بن شعبة ركب إلى هنـد بنت النعمان ابن المنذر وهي في دير لها في الحيرة مترهبة ، وكان المغيرة وقتئذ أميراً على الكوفة ، وكانت هند قد فقدت بصرها ، فلما جاء المغيرة إلى الدير استأذن عليها فرحبت به ، وسألته عن سبب مجيئه ، فذكر لها أنه أتاها ليخطبها فقالت له : « أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت إلا بحاجتك ، ولكني أخبرك الذي أردت ذلك له . قال : وما هو ؟ قالت : أردت أن تتزوجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان . قال : ذلك أردت »[1].

وذكر الشابشتي أن سعد بن أبي وقاص عندما فتح العراق أتى هند في ديرها، فخرجت إليه فأكرمها وعرض عليها نفسه في حوائجهـا ، « فقالت : سأحييك بتحية كانت أملاكنا تحيا بها (مستك يد نالها فقر بعد غنى ولا مستك يد نالهـا غنى بعد فقر ، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة ، ولا نزع الله عن كريم نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليك) »[2].

ويبدو أنها عاشت حتى بعد سنة ٧٤ هـ ، فقد قـــدم عليها الحجاج في هذه السنة ، فزارها في ديرها ، فلما رآها قال : « يا هند ، ما أعجب مـا رأيت ،

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٤

(٢) الشابشتي ، الديارات ، ص ١٥٧ - ١٥٨

وذكر ياقوت ان خالد بن الوليد دخل عليها لما فتح الحيرة فسلمت عليه ، فعرض عليها الا سلام حتى يزوجها رجلا شريفا مسلما ، فقالت له : « اما الدين فلا رغبة لي فيه غير دين آبائي ، واما التزويج فلو كانت في بقية لما رغبة فيه ، فكيف وانا عجوز هرمة ارتقب المنية بين اليوم وغده » . فاكرمها واكرم ذويها وامر لها بمعونة (راجع ياقوت ، مادة دير هند الصغرى ، المجلد الثاني ص ٥٤١)

قالت خروج مثلي إلى مثلك ، فلا تغتر يا حجاج بالدنيـا ، فإنا أصبحنا ونحن كما قال النابغة :

رأيتك من تعقد له حبل ذمة   من الناس يأمن سرحه حيث أربعا

ولم نمس إلا ونحن أذل النـــا   س وقل إناء امتلأ إلا انكفا

فانصرف الحجاج مغضباً وبعث إليها من يخرجها من الدير ويستأديها الخراج، فأخرجت مع ثلاث جوار من أهلها ، فقالت إحداهن في خروجها :

خارجات يسقن من دير هند   مذعنـــات بذلة وهوان

ليت شعري ، أأول الحشر هذا   أم عدا الدهر غيرة الفتيان ؟

فشد فتى من أهل الكوفة على فرسه ، فاستنقذهن من أشراط الحجاج »[1].

ولما توفيت هند دفنت في نفس هذا الدير إلى جوار قبر أبيها .

أما حرقة بنت النعمان فبعضهم يخلط بينها وبين هند[2] . وذكر المسعودي أنه لما وفد سعد بن أبي وقاص إلى القادسية أميراً عليها بعد أن هزم جيش الفرس، أتته حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها عليهن المسوح والمقطعات السود ، مترهبات تطلب صلته ، فلما وقفن بين يديه أنكرهن وسأل عن حرقة ، فعرفته بنفسها ، فدهش لرؤيتها في حالتها تلك ، فقالت له : « ان الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا وتعقبهم بعد حـــال حالاً ، كنا ملوك هذا المصر يجبي لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنـا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد انه ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ،

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ص ٥٤١

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها [1].

٧ – اياس بن قبيصة الطائي (٦٠٥ – ٦١٤ م) :

هو إياس بن قبيصة بن أبي عفراء بن النعمان بن حية الطائي ،وكان من أمرة من أشرف أسر الحيرة ، عهد إليه كسرى بامارة الحيرة بعد أن قتل النعمان ابن المنذر ،وكان المنذر يثق به ويعهد إليه بادارة شؤون الحيرة حتى يختار كسرى من شاء من أولاده على إمارتها .

ولقد كان سبب اختيار كسرى ابرويز لاياس ملكاً على الحيرة أن كسرى لما هرب من بهرام جوبين مر بإياس بن قبيصة ، فأهــدى له فرساً وجزورا ، فشكر له كسري ذلك[2]. وظل يحفظ له هذا الصنيع حتى جاءت اللحظة التي كافأه فيها بتوليته على الحيرة . وذكر حمزة الأصفهاني أنــه أقام معه عليها البحرجان الفارسي [3] وقيل النخيرخان [4] وقيل النخيرجان[5] ، ويظن بعض المؤرخين أن هذا الاسم هو اسم وظيفة تولاها إياس في الحيرة [6] . وكانت مدة حكم إياس سبع سنوات وفقاً لرواية حمزة [7] ، وتسع سنوات في رواية الطبري[8]،وأربع

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٩ – ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٩

(٣) حمزة ، ص ٧٤

(٤) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩٢

(٥) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٨

(٦) جواد علي ، ج ٤ ص ١٠٢

(٧) حمزة ، ص ٧٤

(٨) الطبري ، نفس الصفحة

عشرة سنة في رواية ابن الأثير [١]، وثمانية أشهر في رواية ابن قتيبة [٢] ، ونميل إلى الأخذ برواية الطبري .

وقد ساعد إياس كسرى في حربه ضد الروم ، فوجهه كسرى أبرويز لقتال الروم بساتيدما وهو نهر يقع بالقرب من أرزن ، فهزمهم إياس [٣] . وأعظم الأحداث التي وقعت في عهد إياس وأشهرها على الاطلاق حادث يوم ذي قار . وذو قار ماء لبكر بن وائل يقع قريباً من الكوفة ، بينها وبين واسط [٤] . وبالقرب من هذا الموضع يقع حنو ذي قار على بعد ليلة من ذي قار [٥].

٨ – انتصار العرب على الفرس في ذي قار :

يطلق الأخباريون على هذا اليوم أسماء عدة منها يوم قراقر ويوم الحنو أي حنو ذي قار ، ويوم حنو قراقر ، ويوم الجبابات ، ويوم ذي العجرم ، ويوم الغذوان ويوم البطحاء أي بطحاء ذي قار [٦].

وتفصيل خبر الواقعة أن كسرى طالب بتركة النعمان ، فأخبره اياس بن قبيصة بأنها وديعة عند بكر بن وائل ، فأمره كسرى بضمها إليه ، فأرسل اياس إلى هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني يأمره برد ودائع النعمان

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩٢

(٢) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢١٦

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ مادة ساتيدما ص ١٦٩

(٤) نفس المرجع ، مادة قار ، مجلد ٤ ص ٢٩٣

(٥) الطبري ، ص ١٠٣٠ – ياقوت ، المرجع السابق .

(٦) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٦

من أموال ودروع وغيرها ، وعدتها ثمانمائة ، وقيل أربعمائة درع ، وقيل سبعة آلاف، فامتنع هانيء، وأبى أن يسلم ما استودعه عليه النعمان، فغضب كسرى أبرويز وهدد باستئصال بكر بن وائل ، فنصحه النعمان بن زرعة التغلبي، وكان يكره بكر بن وائل ويسعى لهلاكهم[1] ، بأن يمهل بكراً حتى الصيف فيهرعوا إلى ماء لهم يقال له ذو قار ، فيتساقطون تساقط الفراش في النار ، فيأخذهم كسرى، فلما قاظت بكر نزلت الحنو وهو حنو ذي قار ، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة يخيرهم احدى خصال ثلاث : الاستسلام لكسرى يفعل بهم ما شاء ، أو الرحيل من الديار أو الحرب . فنصح حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي قومه بكر بالقتال لأنهم اذا استسلموا قتلوا وسبيت ذراريهم، وإذا رحلوا قتلوا عطشاً وتلقاهم تميم فتهلكهم . فأرسل إليهم كسرى جيشاً من الفرس على رأسه الهامرز التستري المرزبان الأعظم لكسرى وصاحب مسلحة القطقطانة ، وكان يقود ألف فارس من العجم ، وجلابزين صاحب مسلحة بارق في ألف فارس ، وخرج إياس في كتيبتين شهباوين وفي كتيبة دوسر، ومعه خالد بن يزيد البهراني في بهراء واياد ، والنعمان بن زرعة التغلبي في تغلب ، والنمر بن قاسط[2] ، وقيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين ، عامل كسرى على طف سفوان[3] ، وأمر كسرى أن يجتمع الجيش تحت لواء اياس ، ووصل الفرس ومعهم الفيول عليها الاساورة. فلما أقبلت جيوش الفرس، تسلل قيس بن مسعود ابن ذي الجدين إلى معسكر هانيء الطائي ونصحه بأن يوزع على قبيلته أسلحة النعمان يتسلحون بها ثم يردونها إليه، فاستجاب لنصيحته وقسم الدروع والسلاح

---

(1) كان العداء متاصلا بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب بن افصى العدنانيين منذ مقتل كليب بسبب ناقة الجرمي وما سببه ذلك من قيام الحرب بين بكر وتغلب في ايام عنيزة وواردات والحنو والقصيبات وقضة أو التحالق والتقية والفصيل وهي حرب دامت اربعين سنة (ارجع الى ابن الاثير ج ١ ص ٢٢٢) .

(٢) ياقوت (معجم البلدان) مادة قار ، مجلد ٩ ص ٢٩٤

(٣) الطبري (ج ١ قسم ٢ ص ١٠٣٠)

في ذوي القوى والجلد من قومه[1]. فلما دنت حشود اياس ، خاف هانىء بن قبيصة الطائي من الهزيمة واقترح على قومه النجاة بأنفسهم إلى الفلاة، إذ لا طاقة لهم بجيوش كسرى ومن لاذ به من العرب ، وعز على حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي أن يفر العرب أمام الفرس ، وهب قائماً أمام هانىء وقال : و انما أردت نجاتنا فلم تزد على أن ألقيتنا في الهلكة ،[2]فرد الناس ، وقطع وضن الهوادج حتى لا تستطيع بكر أن تسوق نساءهم إذا هربوا،وضرب على نفسه قبة ببطحاء ذي قار ، وآلى على نفسه ألا يتراجع .

ثم حدث الاشتباك الأول ووقعت الحرب ، وبرز هامرز ، فتلقاه يزيد بن حرثة اليشكري ، فقتله ، وغنم ديباجه وقرطيه وأسورته . وكان الاستظهار في ذلك اليوم للفرس[3] . ولكن الطبري يؤكد أن مقتل الهامرز التستري تم في المعركة الأخيرة[4] ، وهو الأرجح .

وفي اليوم الثاني جزعت جيوش الفرس من العطش ، فتراجعت إلى الجبابات، فتبعتهم بكر وعجل ، وأبلت عجل يومئذ بلاء حسناً ، وتدافعت عليهم حشود الفرس وتكاثرت حتى أيقن القوم هلاكهم ، ثم حملت بكر لمؤازرة عجل فرأوا بني عجل يقاتلون في استبسال وإحدى نسائهم تقول :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل	إيها فداء لكم بني عجـــل

وتقول أيضاً تحث الناس على التفاني :

إن تهزموا نعانق	ونفـــرش النـــمارق
أو تهربوا نفـــارق	فراق غـــير وامق

---

(1) نفس المصدر ، ص ١٠٣٦
(2) نفس المصدر
(3) ياقوت ، معجم البلدان ـ مادة قار ، ص ٢٩٤
(4) الطبري ، ص ١٠٣٤

وازداد عطش الفرس ، فمالوا إلى بطحاء ذي قار ، ويبــدو أن إياد التي ظاهرت الفرس في أول الأمر عدلت عن موقفها من عرب بكر ، فعزموا على الانضمام سراً إلى بكر لأن المعركة أصبحت معركة مصير للعرب جميعاً ، لن يقوم للعرب إذا انهزموا بعدها قائمة ، فأرسلت اياد إلى بكر تخيرهم بين الانضمام إليهم فوراً أو التظاهر بالحرب مع الفرس حتى إذا تلاقوا في اليوم التالي انخذلوا عنهم ، واختار قوم بكر الحل الثاني[1] . وفي اليوم الثالث نصب يزيد بن حمار السكوني ، وكان حليفاً لبني شيبان ، كميناً للفرس في موضع من ذي قار يعرف في زمن الطبري باسم الجب ، واصطفت جيوش الفرس : إياس بن قبيصة في القلب والهامرز التستري على ميمنته والجلابزين على ميسرته ، واصطف العرب ، على نفس النظام : هانيء بن قبيصة في القلب وعلى ميمنته يزيد بن مسهر الشيباني رئيس بكر ، وعلى ميسرته حنظلة بن ثعلبة العجلي ، وأخذ حنظلة يحث القوم على القتال والصمود فارتجز قائلا :

قد شاع أشياعكم فجــدوا ... مــا علتي وأنا مؤد جلد

والقوس فيهـــا وتر عــرد ... مثل ذراع البكر أو أشد

قد جعلت أخبار قومي تبدو ... إن المنايا ليس منها بد

هـــذا عمير حيـــه ألد ... يقدمه ليس له مــرد

حتى يعود كالكميت الورد ... خلوا بني شيبان واستبدوا

نفسي فداكم وأبي والجد

وقال أيضاً :

يا قوم طيبوا بالقتـال نفسا ... أجدر يوم أن تفلوا الفرسا

[1] الطبري ١ ص ١٠٣٢

وقال يزيد بن المكسر بن حنظلة بن ثعلبة العجلي يدعو القوم إلى الصمود ويحذرهم من الفرار :

من فر منكم فر عن حريمه وجاره وفــــر عن نديمه
أنا ابن ســيــــار على شكيمة إن الشراك قد من أديمــــة

ويبدو أن بكر أولت قيادتها إلى حنظلة العجلي بدلاً من هانىء ، فبادر إلى هودج مارية ابنته فقطع وضينـــه ، فوقعت على الأرض ، وأخذ يقطع وضن النســاء ، وصرخت ابنة القرين الشيبانية تحث رجال قومها على الموت :

ويها بني شيبان صفاً بعد صف إن تهزموا يصبغوا فينا القلف

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم حتى يسهل عليهم الطعن والضرب وتخف أيديهم بضرب السيوف ، وحانت ساعة القتال ، فبرز الهامرز وصاح « مرد مرد » أي إلى البراز رجلا رجلا ، فبرز إليه برد بن حارثة اليشكرى وقتله من ساعته[1] . وآثر حنظلة أن يبدأ العرب الهجوم ، فحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنـــة الفرس بعد أن فقدت قائدها الهامرز ، وحملت ميمنة بكر بقيادة يزيد بن مسهر على ميسرة الفرس وعليهم جلابزين ، وفي الوقت نفسه خرجت كائن يزيد بن حمار فشددت الهجوم على قلب الجيش الفارسي ، ونفذت اياد ما اضمرتــه من خذلان الفرس فولت منهزمة من المعركة ، وأحدث ذلك اضطراباً شديداً في جيش الفرس ، فانهزموا هزيمة نكراء ، وكتيبة عجل تطاردهم بين بطحاء ذي قار ، حتى بلغ فل الفرس الراحضة دون أن يسعى واحد منهم وراء سلب أو مغنم[2] . وتمكن حنظلة من قتل جلابزين وكسر

---

(١) الطبري ٤ ص ١٠٣٤

(٢) نفس المصدر ــ ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٦١

الفرس على هذا النحو كسرة لم يعرفوها من قبل ، وقتل أكثرهم[1].

وفي انتصار العرب على الفرس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا »[2] . وتبارى الشعراء في التغني بهذا الانتصار ، فقال ميمون بن قيس يمدح بني شيبان :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت

هم ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت

وأفلتنا قيس وقلت لعله ... هنالك لو كانت به النعل زلت

وقال بكير أصم بني الحارث بن عباد :

إن كنت ساقية المدامة أهلها ... فاسقي على كرم بني همام

وأبا ربيعة كلها ومحلما ... سبقا بغاية أمجد الأيام

ضربوا بني الأحرار يوم لقوهم ... بالمشرفي على مقيل الهام

عربا ثلثة آلاف وكتيبة ... ألفين أعجم من بني الفدام

شد ابن قيس شدة ذهبت له ... ذكرا له في معرق وشآم[3]

وقا أبو تمام يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :

ألاك بنو الأفضال لولا فعالهم ... درجن فلم يوجد لمكرمة عقب

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قار ، ص ٢٩٤

(٢) المسعودي ، ج ١ ص ٢٧٨ — ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٨٥

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٥ — ١٠٣٦

به علت صهب الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفرد الذي ما نجابه ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب[1]

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ الموقعة، فالبعض يجعلها بعد أن هاجر النبي إلى يثرب [2]، وبعضهم يحددها بعد وقعة بدر بأشهر [2]، وبعضهم يجعلها عند منصرف الرسول من وقعة بدر [3]، وآخرون يرون أنها حدثت لتمام أربعين سنة من مولد الرسول، وهو بمكة بعد أن بعث [4] وقيل أنها حدثت يوم ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]. ويذهب ر شتاين إلى أنها وقعت فيما يقرب من سنة ٦٠٤، بينما ذهب نلدكة إلى أنها وقعت بين عامي ٦٠٤، ٦١٠[6]. أما كوسان دي برسيفال فيعتقد أنها حدثت بعد أن اكتمل عمر النبي صلى الله عليه وسلم أربعين عاماً أي في يناير سنة ٦١١ م، استناداً إلى ما ذكره المسعودي وأبو الفداء اللذان حددا تاريخها بعد أن بعث بمكة لتمام أربعين سنة من مولده[7].

ويرى نيكلسون أنها حدثت في سنة ٦١٠ م [8]. ويميل معظم المؤرخين إلى القول بأنها حدثت في ٦١١ م وأعتقد أن الموقعة حدثت فيما يقرب من عام ٦٠٩

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة قار ، ص ٢٩٤

(٢) المسعودي : مروج الذهب : ج ١ ص ٢٧٨

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة قار ، ص ٢٩٤

(٤) حمزة ، ص ٧٤ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٨ — المسعودي ج ١ ص ٢٧٨ — ابن الأثير ، ج١ ص ٦٢ — أبو الفداء ، ج١ ص ١٠١

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة كوفة ، مجلد ٤ ص ٤٩٢

(٦) جواد علي ، ج ٤ ص ١٠٤

(٧) Caussin de Perceval t. II, p. 184

(٨) Nicholson, a literary history of the Arabs, p. 70

أو بعد ذلك بأشهر ، فإن المصادر تكاد تجمع على أن النبي ﷺ بعث على رأس أربع سنين من ملك إياس بن قبيصة ، وروى قوم أنــه بعث وهو ابن أربعين سنة [١]، ولما كان من المعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام توفي في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو ٦٣٢ م) وهو في سن الثالثة والستين على أرجح الآراء [٢] فإن بعثه تكون قد حدثت في سنة ٦٠٩ م وهو ابن أربعين سنة [٣]، وتكون وقعة ذي قار حدثت بعد سنة ٦٠٩ بقليل ، أو على أبعد تقدير في سنة ٦١٠ م .

٨ - آزاذبه بن ماهبيان بن مهرا بنداد (٦١٤-٦٣١ م) :

اختلف المؤرخون العرب في اسمه [٤]، ولكنهم أجمعوا على أن مدة حكمه ١٧ عاماً . ولا نعرف من أمره شيئاً ، فالمصادر العربية تصمت صمتاً مطبقاً عن أعماله ولا تذكر شيئاً من أحداث الحيرة في عهده .

ويبدو أن سلطان آزاذبه اقتصر على الحيرة ، فإن بكر بن وائل منــذ انتصرت في ذي قار أصبحت لا ترتبط بالدولة الساسانية بشيء، ويذكر برسيفال أنها استقلت في منطقة البحرين، التي كانت تابعة لحكومة الحيرة في عصر المناذرة، وحذت بعض قبائل العرب في أواسط جزيرة العرب التي كانت قــد اعترفت بسلطان المنذر بن المنذر حذو بكر بن وائل ، وشقت عصا الطاعة على الفرس،

---

(١) حمزة ، ص ٩٨

(٢) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٥٧٦ — ابن الاثير ، أسد الغابة ج ١ ص ٥٣

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ليدن ١٣٢٢ ، ج ١ ص ١٢٩ — ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٢٤٩ — البلاذري ، المصدر السابق ص ١٠٤ — ابن الاثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق الاستاذ محمد صبيح ، ج ١ القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٤

(٤) حمزة ، ص ٧٤

بسبب انقطاع الحكم العربي عن الحيرة ، وبسبب الفتن والقلاقل التي أخذت تمزق الدولة الساسانية [1].

٩ - المنذر بن النعمان (المغرور) (٦٣١ - ٦٣٢) :

يسجل مصرع النعمان بن المنذر على يدي كسرى فارس نهاية حكم اللخميين في الحيرة، ولكن ابن الكلبي يذكر في آخر قائمتهم أميراً منهم هو المنذر بن النعمان الأخير ويدعوه الغرور ، الذي قتل بالبحرين يوم جواثا [2]، وذكر أن ملكه إلى ورود خالد بن الوليد إلى الحيرة ثمانية أشهر [3].

ويبدو أن انقلاباً سياسياً حدث في الحيرة في السنة الأخيرة من حكم آزاذبه الفارسي ، فولى عرب الحيرة على أنفسهم ابناً للنعمان الأخير هو المنذر المغرور ، فقد كانت العناصر العربية في الحيرة ما زالت تحتفظ بقوتها، وظهر منهم في العصر السابق مباشرة على الفتح العربي الإسلامي شخصيات عظمى مثل عبد المسيح بن عمر بن قيس بن بقيلة ، وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني ، وإياس ابن قبيصة الطائي، وعدي بن عدي، والعبادي بن عبد القيس، وزيد بن عدي [4]. واستغل عرب الحيرة فرصة الفتن التي كانت تمزق الدولة الساسانية وعزلوا آزاذبة وأقاموا المنذر الغرور . وقد ورد اسم آزاذبة في فتوح البلدان للبلاذري، عندما تعرض لحملة خالد بن الوليد على العراق ، فذكر أن خالداً عندما أقبل إلى مجمع الأنهار في ناحية البصرة، لقيه أزاذبه صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب،

---

(1) C. de Perceval, t. II, p. 180

(2) الحيرة ، ص ٧٥ - الطبري ، ج١ ، قسم ٢ ص ١٠٢٩

(3) نفس المصدر

(4) ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٦١

به المسلمون وهزموه [1].

غير أن المنذر ، لم يلبث أن فزع عندمـــا بلغه خروج جيوش المسلمين إلى العراق ، ويبدو أنه عزل من الحيرة إما بإيعاز من كسرى أو نتيجة ثورة قام بها أهل الحيرة ، فمضى إلى البحرين ، فوصلها في الوقت الذي ارتد فيه أهلهـا من ربيعـة وقيس بن ثعلبة ، فأمروه عليهم ، وزحف المنذر الغرور أو المغرور بمن انضم معه من عرب ربيعة حتى نزل جواثا حصن البحرين ، وفيهـا هزم جيوش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي ، فلجأ المسلمون إلى الحصن ، وحاصرهم المنذر والحطم وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبـة . ولكن العلاء خرج من الحصن بفتة بمن معـه من المسلمين واشتبك مع الحطم والمنذر في قتال عنيف انتهى بهزيمة الحطم ومقتله [2] . ثم فر المنذر بمن معه من فلول ربيعة ، إلى موضع الخط ، ولكن العلاء أدركه وقتله هناك . وقيل إن المنذر نجا فدخل إلى المشقر ، ثم لحق بمسيلمة وقتل معه . وقيل قتل يوم جواثا [3].

أقبل خالد بن الوليد نحو الحيرة ، وحاصرها ، فخرج إليه عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن بقيلة وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة الطائي ، ويقال فروة بن إياس بن قبيصة ، فصالحوه على مائـة ألف درهم وعلى أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس ، وأن لا يهدم المسلمون لهم قصراً ولا بيعة [4] . وهكذا افتتحت الحيرة صلحاً . ويبدو أن فروة بن إياس بن قبيصة هو الذي كان يقوم بادارتها عند الفتح الاسلامي .

---

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج 2 ص ٢٩٧

(2) البلاذري ، نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٢

(3) البلاذري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(4) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٩٧ — أبو يوسف ، كتاب الخراج ، طبعة بولاق ١٣٠٢ ، ص ٨٦

وأثار تسليم الحيرة للعرب الفاتحين غضب كسرى يزدجرد فعمل على استرجاعها، وتمليك واحد من أعقاب قابوس بن المنذر عليها، وهو قابوس بن قابوس بن المنذر، فاستقدمه إليه ، وأغراه بالعرب ، ووعده بملك آبائه فسار قابوس إلى القادسية ونزلها ، وهناك صدمته قوات المسلمين ، ففض جمعه وقتل[1].

هـ - الحيرة في العصر الاسلامي :

كان الشروع في إنشاء الكوفة في سنة ١٧ هـ (٦٣٨م) على يدي سعد بن أبي وقاص إيذاناً بتدهور الحيرة وتناقص عمرانها . وقد استخدمت في بناء المسجد الجامع بالكوفة أنقاض قصورها ، فقد ذكر البلاذري نقلاً عن شيخ من أهل الحيرة : « وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم »[2]. وبدأ الخراب يستولي على ديارها، وبنيت بعض قصور الكوفة بآجر وأساطين رخام قصور الحيرة وكنائسها المتخربة[3]. ومع ذلك فإن انحسار العمران في الحيرة وتقلصه لم يتم دفعة واحدة، وإنما تم على مراحل طويلة. ويرجع الفضل الأعظم في الإبقاء على الحيرة ، واستمرار العمران فيها إلى أنها فتحت صلحاً بالإضافة إلى أن خبرات أهلها التجارية أتاح لها مجالاً واسعاً للافادة المادية من الفتوح الاسلامية ، فضلاً عن كونها مركزاً مسيحياً بالقرب من الكوفة مما

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٦١

(٢) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٥٠ — الطبري ، ج ١ قسم ٥ ص ٢٤٨٦

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٥ ص ٢٤٩١ . يقول الطبري أن دهقاناً من أهل همذان يقال له روزبه بن بزرجمهر على سعد بن أبي وقاص أن يبني له الجامع وقصر الكوفة ويصلهما ببعض فيكون بنيانهما واحداً ، « فخط قصر الكوفة على ما خط عليه ، ثم أنشأه من نقض آجر قصر كان للاكاسرة في ضواحي الحيرة »

أتاح لها أن تكون موضعاً من مواضع النزهة والزيارة لأهل الكوفة[١] فقد ذكر ياقوت أن بظاهر الكوفـــة كانت « منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريان وما هناك من المتنزهات والديرة الكبيرة »[٢] .

وكانت الحيرة مدينة مأهولة بالسكان في العصر الأموي ، إلا أنها في العصر العباسي أخذت في الاضمحلال . ولم يزل عمرانها يتناقص في هذا العصر إلى صدر من أيام المعتضد ، فإنه استولى عليها الخراب [٣] ، وكانت بالرغم من ذلك مقصد خلفاء بني العباس في العصر الأول كالسفاح والمنصور والرشيد والواثق، فقد كانوا ينزلونها ويطلبون المقام بها لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق والنجف منهـــا » [٤] . ولم يلبث سكان الحيرة أن في البلاد لتداعي الخراب إليها ، وأقفرت في زمن المسعودي من كل أنيس « ليس بها إلا الصدى والبوم » [٥] . وعندما زارها الشريف الرضي سنة ٣٩٢ هـ شاهد قصورها وديارها وقد أصبحت أطلالاً دراسة ، فقال من قصيدة :

مـــا زلت أطرق المنازل بالنوى　　　حتى نزلت منـــازل النعمان

بالحيرة البيضـــاء حيث تقابلت　　　شم العماد عريضة الأردان

ورأيت عجماء الطلول من البلى　　　عن منطق عربية التبيان

أمقاصر الغزلان غيرك البلى　　　حتى غدوت مرابض الغزلان

---

(١) صالح صالح أحمد العلي ، منطقة الحيرة ، ص ١٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قار ص ٢٩٤

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٢

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر

وملاعب الأنس الجميع طوى الردى … منهم فصرت ملاعب الجنان

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها … وتجيبنى عبر بغير لسان

قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي … لو لم يؤل جزعي إلى السلوان

ترقى الدموع ويرعوي جزع الفتى … وينام بعد تفرق الأعوان

مسكية النفحات تحسب تربها … برد الخليع معطر الأردان [1]

وقد اشتهرت الحيرة في العصر الاسلامي بخماراتها وحاناتها التي كان يقصدها أهل الكوفة لقربها منهم [2]، وفي خمر الحيرة يقول عبد الله بن أيوب التيمي أحد الخلعاء في الدولة العباسية :

هل إلى سكرة بناحية الحـ … ـيرة شنعاء يا قبيص سبيل [3]

كذلك اشتهر المغنون والمغنيات في الحيرة بالغناء الحيري ، كما ذاعت شهرة بعض الآلات الموسيقية في الحيرة مثل العود الحيري والمزمار والدف [4].

و – حضارة الحيرة في عصر اللخميين

١ – الحياة العلمية :

ازدهرت الحياة العلمية في الحيرة ازدهاراً لم تشهده عاصمة عربية في العصر

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، محمد بن ابى احمد الحسين) طبعة بيروت ١٣٠٧ ص ٨٨٥ – ٨٨٧

(٢) أبو الفرج الاصفهاني ، كتاب الاغاني ج ٢١ ص ٤٥ ، ج ١٨ ص ٢٧٧

(٣) نفس المصدر ، ج ١٨ ص ٢٧٧

(٤) يوسف رزق غنيمة ، ص ٩٠

الجاهلي . إذ كانت تزخر بمعاهد العلم ومدارسه ، فقد تلقى ايليا الحيري مؤسس دير مارا ايليا في الموصل دراسته الدينية في مدرسة بالحيرة ، كما تلقى مار عبدا الكبير دراسته في احدى مدارس الحيرة[1] . وفي الحيرة تعلم المرقش الأكبر وأخوه حرملة الكتابة على أحد النصارى من أهلها[2]. وكان بشر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل ، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، فتعلم الخط العربي من أهل الحيرة . وعن طريقة تعلم سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتابة [3] . وذكر ياقوت أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قرية من قراها اسمها النقيرة[4] . والخط الحيري هو أساس الخط العربي، وهو أقدم أشكال الخط العربي، وقد اشتق الخط الحيري من الخط الآرامي [5] . وذكر البلاذري نقلا عن عباس بن هشام بن محمد الكلبي أن ثلاثة نفر من طيىء اجتمعوا ببقة (بلدة بالحيرة) ، وهم مرامر ابن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية . فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ، [6] ، ولكن الدكتور خليل يحيى نامي يعتقد أن بلاد الحجاز عرفت الكتابة عن طريق آخر غير الحيرة هو طريق البتراء حاضرة الأنباط ، وكان عرب الحجاز في رأيه يستخدمون الكتابة النبطية في شؤونهم التجارية بسبب خضوعها للأنباط ، ومن الحجاز انتشرت في جميع البلاد العربية

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٤

(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٢٧٥

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٥٧٩

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نقيرة ، مجلد ٥ ص ٣٠١

(٥) عبد الفتاح عبادة ، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي ، القاهرة ١٩١٥ ، ص ٩

(٦) البلاذري ، ج ٢ ص ٥٧٩

في نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي . كما يظهر في نقش أم الجمال المؤرخ سنة ٢٧٠ م وفي نقش العلا المؤرخ في سنة ٣٠٦ ، ٣٠٧ م ، كما يعتقد أن الكتابة النبطية التي عرفها عرب الحجاز تطورت تطوراً سريعاً تبعـاً لحركة التجارة ونتيجة للحركة الأدبية التي قامت في الحجاز بسبب الأسواق الأدبية والتجارية ، حتى أصبحت لها طابعها العربي الأصيل في أوائل القـرن الخامس الميلادي[1] ، ومع ذلك فهو لا يجد أدلة تاريخية ثابتة تشير إلى أن الخط النبطي كان مستعملا في بلاد الحجاز ، ولا يعتمد الدكتور خليل يحيى نامي لإثبات رأيه إلا على الدراسة القائمة على المقارنة بين الخط النبطي الأول والتطور الذي أصابه في بلاد الانباط والنقوش الكتابية التي تم العثور عليها في نواحي مختلفة من بلاد العرب في القرن الثالث والرابع والخامس الميلادي . ورأيه يخالف ما تشير إليه المصادر العربية من أن العرب في الجزيرة العربية تعلموا الخط من الحيريين ، ومن المعروف أن الخط العربي الكوفي هو تطور من الخط الحيري عرفه عرب الحجاز عن طريق عرب الحيرة قبل ظهور الاسلام بزمن قليل ، والخط الحيري متخلف عن الخط السطرنجيلي السرياني[2] ، وللتوفيق بين الرأيـين أعتقد أن عرب الحجاز اقتبسوا الخط العربي المعروف بالكوفي من الخط النبطي والخط الحيري في آن واحد ، كما اقتبس العرب في العصر الأموي فنهم المعماري والزخرفي من الفنين الساساني والبيزنطي .

وكان لموقع الحيرة بين العراق والشام وبلاد العرب أثر كبير في احتكاك أهلها بغيرهم من الشعوب ، إذ تأثروا بالثقافات الفارسية والسريانية واليونانية ، وكانت لمعرفة بعض أهالي الحيرة للغة الفارسية أثر كبير في نقل كثير من آداب الفرس إليهم ، كما تسرب شيء من علوم اليونان وآدابهم إلى عرب الحيرة عن طريق

---

(١) خليل يحيى نامي ، اصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ ص ٤-١-٦-١

(٢) عبد الفتاح عبادة ، انتشار الخط العربي ، ص ٨

أسرى الروم[1].

وكان ملوك الحيرة من البيت اللخمي يشجعون الشعراء بالعطايا والصلات ، فوفد إليها من شعراء الجاهلية المرقش الأصغر ، وعمرو بن قميئة ، والمتلمس ، وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقش الأكبر ، والمثقف العبـــدي ، والمنخل اليشكري ، والنابغة الذبياني ، وحنظلة الطائي ، ولبيد بن ربيعة ، وحسان بن ثابت ، ويزيد بن عبد المدان ، والأسود بن يعفر النهشلي ، والنابغة الجعدي ، وحاتم الطائي ، وسلامة بن جندل ، وعنترة العبسي ، وأعشى قيس ، وعمرو بن كلثوم التغلبي . وظهر فيها من الشعراء عدي بن زيد العبادي ، وعدي ابن مرينا ، واياس بن قبيصة الطائي . كما ظهر من شعرائها الاسلاميين أبو قابوس النصراني[2] .

وكانت الحيرة مركزاً علمياً هاماً ، وملتقى الأدباء العرب في الجاهلية ، وكان النعمان بن المنذر يجتمع بأدباء العرب في قصر الخورنق ، ويقيم مهرجاناً أدبياً يتفاخر الجميع فيه بالجلس العـــربي ، ويذكر ابن الكلبي أن النعمان بن المنذر عندما قدم على كسرى وعنده وفود العرب والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارس ولا غيرها ، فقال كسرى وأخذته عزة الملك معدداً فضائل الأمم ومغمطاً من حق العرب، فانطلق النعمان يعدد من مآثر العرب وسمو فضائلهم حتى بهت كسرى . فلما عاد النعمان إلى الحيرة أرسل في طلب خطباء العرب وأدبائها أمثال أكثم ابن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وعمرو بن الشريد الكلبي ، وعمرو بن معدي كرب الزبيـــدي ،

---

(1) احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ١٨

(2) راجع الفصل الخاص بالشعر العربي في الحيرة ، في كتاب الحيرة للاستاذ يوسف رزق قتيبة ص ٥٨ — ٧٦

وخالد بن جعفر ، وغيرهم ، فلما اجتمع بهم قال . قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غوراً ولا يكون ، انما أظهرهـــا لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم ، فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه ، ودعا لهم بما في خزائنه من طرف حلل الملوك ، وأعطى كل منهم حلة ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوته ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبه مهرية وفرس نجيبة ، وأرسلهم إلى كسرى وكتب معهم كتاباً، فلما صاروا إلى مجلس كسرى خطب كل منهم خطبة آية في البلاغة ، وألقوا من درر الكلام ما يزري بالجمان ويصح أن تتخذ فصاحته منوالاً ينسج عليها[1] . وأغلب الظن أن موقف النعمان بن المنذر من كسرى على النحو الذي وضحناه كان من العـوامل التي أثارت عليه غضب كسرى ، فقتله .

وكان الطب متقدماً في الحيرة في زمن اللخميين ، وقد ظلت الحيرة محافظة على شهرتها في الطب في العصر الاسلامي ،فكان حنين بن اسحق الطبيب النصراني العبادي من أقدر أطباء المتوكل العباسي ، وكان أبوه اسحق صيدلانيا بالحيرة[2] ، وذكر أبو الفرج أنه بينما كان المتوكل الليثي بن عبدالله بن نهشل الشاعر بالحيرة ، رمد رمداً شديداً ،فمر به قس نصراني فذرده وعالجه[3] .

٢ – الحياة الاقتصادية :

كان أهل الحيرة يشتغلون بالزراعة والرعي وهما حرفتان أملتهما طبيعة المكان الذي تقع عليه الحيرة ، فوقوع الحـيرة في أرض السواد ووقوعها على نهر كافر جعلها تجمع بين حياة البداوة وحياة الاستقرار ،وكانت مزارع النخيل والبساتين

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد : القاهرة ١٩٢٨ ج ١ ص ١٦٦ – ١٧٤

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ص ١٤٤

(٣) الاغاني : ج ١١ ص ٧٤

والجنان تمتد في نواحيهـــا من النجف حتى الفرات . كذلك اشتغل الحيريون بالتجارة ، فقد كان قرب الحيرة من الفرات يتيح لأهلهـا أن يركبوا السفن في الفرات حتى الأبلة ثم يركبوا السفن الضخام من هناك فيطوفون بالبحار إلى الهند والصين من جهة المشرق وإلى البحرين وعدن من جهة الغرب، وكانت تتوارد على الحيرة المتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الصين والهند وغيرها[1] . ومن الحيرة كانت القوافل تحمل تجارة الهند والصين وعمان والبحرين إلى تدمر وحوران ، وترتب على هذه الحرفة تدفق الثروات على أهل الحيرة، فأقاموا القصور واستمتعوا بالحياة واستقدموا المغنين والمغنيات، واتخذوا في دورهم نفيس الأثاث والرياش[2] واستعملوا الأواني الفضية والذهبية للأكل[3]، وناموا على فرش الحرير فوق الأسرة المجللة بالكلل كما قال عدي بن زيد :

ثانيات قطائف الخز والديـ	ـباج فوق الخدور والانماط
موقرات من اللحوم وفيهـا	لطف في البنان والأوساط[4]

واتخذوا الطيوب والبخور في المجامر قبل النوم[5]، وكانوا يضمخون ذفاريهم بالمسك والعنبر ويلبسـون فاخر الثياب، ويشربون الخمر، وفي ذلك يقول الشاعر :

تنفـــح بالمسك ذفاريهم	وعنـــبر يقطبه القاطب
والقـز والكتان أثوابهم	لم يجب الصوف لهم جائب
والعـــز والملك لهم راهن	وقهوة ناجودها ساكب[6]

(١) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٤٧٨

(٢) الاغاني ، ج ٢ ص ٥٤

(٣) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٤٧

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ملطاط ، مجلد ٥ ص ١٩٢

(٥) الاغاني ، ج ١٦ ص ٢٠٣

(٦) معجم البلدان ، مادة دير هند الكبرى ، مجلد ٢ ص ٥٤٢

وقد بلغت الصناعات درجة كبيرة من الحذق والاتقان في الحيرة حتى أصبحت كثير من الصناعات تنسب إلى الحيرة ، ومن أهم صناعات الحيرة صناعة النسيج، وخاصة نسج الحرير والكتان والصوف، وكان قصر الخورنق يضم عدداً من القين والنساج وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

إذ لا ترجى سليمى أن يكون لها من بالخورنق من قين ونساج[1]

ومن أزياء الحيريين الساج والطيلسان والدخدار واليلمق والشرعبية والسيراء[2] ، وكان ملوك الحيرة يخلعون على الشعراء ، ومن يرضون عنه أثواباً تعرف بأثواب الرضا ، وهي جباب أطواقها الذهب في قضيب الزمرد ، ومنها ما يسمى المرقل[3] .

واشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سيوف وسهام ونصال للرماح . أما صناعة التحف المعدنية والحلى فكانت من أرقى الصناعات في الحيرة ؛ فقد كان الصاغة الحيريون يتفننون ويبدعون في صناعة أدوات الزينة من ذهب وفضة ويرصعونها بالجواهر واليواقيت[4] .وذاعت شهرة الخزف الحيري وصناعة الجلود والدباغة والتحف المصنوعة من العاج .

٣ – فن العمارة :

أخذ فنانو الحيرة أصول هذا الفن عن طريق الفرس، بحكم مجاورتهم وتبعيتهم لهم ، ولكنهم طوروا في نظام العمارة عندهم تطويراً أبعده عن أصوله الأولى ،

---

(١) يوسف رزق غنيمة ، ص ٨٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٢ ، ٨٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٣

(٤) نفس المرجع ص ٨٤ ، ٨٥

وأصبح الطراز الحيري في فن البناء طرازاً قائماً بذاته ، وقد ظل الطراز الحيري لبناء القصور معروفاً في العصر الاسلامي ، ويذكر المسعودي أن المتوكل العباسي اتبع في بناء قصوره نظام البناء المعروف بالحيري والكمين والأروقة وذلك «أن بعض سماره حدثـــه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة ، على صورة الحرب وهيئتها[1] ، للهجه بها وميله نحوها ، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ،فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين. إضافه الحيرة ، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله ، واشتهر إلى الغاية »[2].

واشتهرت الحيرة بقصورها التي ضربت الأمثال في عظمتهـــا مثل قصري الخورنق والسدير ،وبأديرتها التي أقيمت بها منذ أن انتشرت المسيحية بين سكانها ونستعرض فيما يلي أمثلة من هذه المنشآت بشيء من الاختصار .

أ - القصور :

كانت قصور الحيرة موضوعاً تبارى فيه الشعراء بقصائدهم ، فأبدعوا في وصفها ، وأشهر هذه القصور قصران : قصر الخورنق وقصر السدير . وقصر الخورنق من بناء الملك النعمان الأول الملقب بالأعـور ، وهو النعمان بن امرىء القيس المعروف بابن الشقيقة (٣٩٠ - ٤١٨)[3] ، وقد تحدثنا عن هذا القصر

---

(١) أي على شكل تنظيم الجيوش في المعارك ، بوضع كتيبة القلب في الوسط وتحيط بها على اليمين كتيبة الميمنة وعلى اليسار الميسرة

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٨٧

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٣٥٢

وعن بانيه سنمار عند تعرضنا لدراسة عصر هذا الملك. واسم الخورنق على الأرجح معرب من لفظة « خورن كاه »[١] الفارسية أي موضع الأكل والشرب . وكان هذا القصر قائماً بظاهر الحيرة على مسافة تبعد نحو ميل مما يلي الشرق[٢] . وقد تعرض هذا القصر في العصر الأموي لاضافات مختلفة، ويذكر ابن الفقيه الهمذاني نقلاً عن الهيثم بن عدي ، أنه « لم يقدم الكوفة أحد إلا أحدث في هذا القصر شيئاً » يعني الخورنق ، فلما قدمه الضحاك ، بناه وعمره ، فدخل عليه شريح القاضي ، فقال : أبا أمية أرأيت بناء قط أحسن منه ، قال: نعم ، قال: كذبت وأي بناء رأيته أحسن منه ، قال السماء »[٣] . ثم أقطع القصر في بداية الدولة العباسية لإبراهيم بن سلمة الداعي بخراسان، فأحدث بالخورنق قبة جديدة وذلك في خلافة أبي العباس[٤]. وقد تخرب الخورنق في القرن الثامن الهجري، وشاهده الرحالة ابن بطوطة أثناء رحلته من مشهد علي إلى البصرة ، فقال عنه : « فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء ، وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة ، في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات »[٥] .

ويلي الخورنق في الشهرة قصر السدير ، بل يقترن اسم السدير بالخورنق وقد ذكرنا أن السدير أيضاً من بناء النعمان ابن الشقيقة ، والسدير هذا قصر يقع قريباً من الخورنق في وسط البرية التي تتجه إلى الشام[٦] . والسدير لفظة معربة من (سه دل) الفارسية بمعنى القبة التي تتداخل فيها ثلاث قباب ، وقد حرفت هذه

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة خورنق ص ٤٠١

(٢) نفس المرجع ، مادة حيرة ، ص ٣٢٨

(٣) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٧٨ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، ص ٣٠٢

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٣٥٢

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٨٢

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، ص ٣٢٨

اللفظة إلى سدلي ثم عربت إلى سدير . ونظام القصر بقبابه الثلاثة في الصدر من صميم نظام العمارة الحيرية الذي تحدثنا عنه ويعرف بطراز الحاري بكمين[1] ، وقيل سمي بهذا الاسم لكثرة سواده وشجره، ويقال : اني لأرى سدير نخل أي غابة من النخل . وقال ابن الكلبي : إنما سمي السدير لأن العرب حيث أقبلوا ونظروا إلى سواد النخل سدرت فيه أعينهم بسواد النخل ، فقالوا : ما هذا إلا سدير[2] .

ومن قصور الحيرة قصر سنداد ، وكان يقع فيما بين الحيرة والأبلة، وذكر ابن الكلبي أنه كان منزلاً لإياد ، وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر النهشلي :

ماذا أؤمل بعد آل محـــرق تركوا منازلهم وبعد إيـــاد

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد[3]

ومنها قصرا العذيب والعشير اللذان بناهما امرىء القيس بن النعمان بالقرب من الفرات[4]، وقصر القرس ، وقصر الزوراء ، والقصر الأبيض، وقصر مقاتل ، ودار المقطع[5] .

ومن أهم قصور الحيرة قصر العدسيين ، وينسب إلى بني عمار بن عبد المسيح ابن قيس بن حرملة بن علقمة بن عشير الكلبي ، وسمي بقصر العدسيين نسبة إلى جدتهم عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي . وكان يقع في طرف الحيرة ، وقد

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، مادة سدير ، مجلد ٣ ص ٢٠١

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ، مادة سنداد ، مجلد ٣ ص ٢٦٦

(٤) يوسف رزق الله غنيمة ، ص ٢٥

(٥) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٥٠

كان أول قصور الحيرة التي استولى عليها المسلمون[1]، ومنها قصر بني بقيلة الذي بناه عبد المسيح بن بقيلة ، وقصر بني مازن ، وقصر الطين ، وقصر الفرس . وهناك قصر بظاهر الحيرة أقيم في العصر العباسي على أنقاض قصر قديم، ويعرف هذا القصر بقصر أبي الخصيب[2] .

ب - الأديرة والكنائس :

كان لتنصر المناذرة أثر كبير في تنشيط حركة بناء الأديرة والكنائس، ولقد حفظ لنا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحية ، التي أقيمت في عصر المناذرة بعد أن أصبحت الحيرة أسقفية تابعة لكرسي جاثاليق المدائن . ومن بين كنائس الحيرة كنيسة تنسب إلى قوم من الأزد من بني عمرو بن مازن الغسانيين وتسمى بيعة بني مازن[3] ، ومنها بيعة بني عدي التي تنسب إلى بني عدي بن الذميل من لخم[4] ، ومنها كنيسة الباعوثة التي اعتبرها الهمداني إحدى مراكز سبعة للعبادة عند العرب[5] ، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة، وغيرها من كنائس الأديرة .

أما الأديرة ، فبعضها ينسب إلى ملوك الحيرة وأمرائها والبعض الآخر ينسب لأفراد من العباد الأشراف ، فأما أديرة الملوك والأمراء فأهمها :

١ – **دير اللج** : بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام ملكه ، وكان من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥٠ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر العدسيين ، مجلد ٤ ص ٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر أبي الخصيب ، ص ٣٥٢

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٤٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ – ياقوت ، مجلد ١ ص ٥٣٢

(٥) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٧

أجل أديرة الحيرة ، ومن منازهها المقصودة ، وقد قيل فيه :

سقى الله دير اللج غيثاً فانه	على بعده منى إلى حبيب

وذكره جرير الشاعر في قوله :

يا رب عائذة بالغور لو شهدت	عزت عليها بدير اللج شكوانا
إن العيون التي في طرفها حور	قتلننا ثم لا يحيين قتلانا[1]

ويذكر البكري أن :

« النعمان كان يركب في كل أحد إليه وفي كل عيد ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفضضة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرقة على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع ووهب وحمل ووصل »[2] .

٣ - **دير مارت مريم** : ذكر ياقوت أنه دير قديم من بناء المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير ، وبين قصر أبي الخصيب ، وكان مشرفاً على النجف ، وفي هذا الدير يقول الثرواني :

بمارت مريم الكبرى	وظل فنائها فقف
فقصر أبي الخصيب المشـ	ـرف الموفي على النجف
فأكناف الخورنق والسـ	ـدير ملاعب السلف[3]

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير ، ص ٥٣٠

(٢) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٥١٦

(٣) البكري ، ج ٢ ص ٥٩٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير مارت مريم ، مجلد ٢ ص ٥٢١

وقد ظل هذا الدير قائماً إلى زمن الواثق العباسي ، فزاره ومعه اسحق بن ابراهيم الموصلي ، وأعجب بموقعه وعمارته .

٣ - دير هند الكبرى ، بنته هند أم عمرو بن هند، وكتبت في صدره « بنت هذه البيعة هنـد بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده في ملك الأملاك خسرو أنو شروان في زمن مار افريم الأسقف ، فالإله الذي بنت له هـذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحق ، ويكون معها ولدها الدهر الداهر ». وروى ياقوت عن عبدالله بن مالك الخزاعي أن يحيى بن خالد البرمكي خرج مع الرشيد إلى الحيرة لمشاهدة آثار قبر النعمان، فطالما كتابة على أحد جدران الدير نصها :

إن بني المنذر عـام انقضوا ... بحيث شاد البيعـة الراهب
تنفح بالمسك ذفـاريهم ... وعنبر يقطبه القاطب[1]

ويقع هذا الدير بالقرب من دير اللج على طف النجف[2].

٤ - دير هند الصغرى ، كان يقع في موضع نزه ممـا يلي خندق القادسية ، ويقارب خطة ابن دارم بالكوفة [3] ، بنته هند ابنة النعمان بن المنذر ، وأقامت فيه حتى ماتت ، ودفنت فيه [4].

وفيه يقول معن بن زائدة الشيباني ، وكان بيته قريباً من هذا الدير :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... لدى دير هنـد والحبيب قريب

---

(١) نفس المرجع ، مادة دير هند الكبرى ، ص ٥٤٣
(٢) معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٦٠٧
(٣) صالح العلي ، منطقة الحيرة ، ص ٢١
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ، ص ٥٤١

فنقضي لبانات ونلقي أحبة ⠀⠀⠀ ويورق غصن للسرور رطيب[1]

أما الأديرة الخاصة فمنها :

١ – **دير بني مرينا** ، يقع بظاهر الحيرة ، وينسب إلى أسرة مرينا من أشرف أسرات الحيرة . وقد أقيم هذا الدير في موضع جفر الأملاك الذي ضربت فيه أعناق بني حجر بن عمرو بن حجر آكل المرار بأمر المنذر بن النعمان ، وفي هذه الحادثة يقول امرىء القيس :

ألا عين بكى لي شنينا ⠀⠀⠀ وبكى لي الملوك الذاهبينا

ملوك من بني حجر بن عمرو ⠀⠀⠀ يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة أصيبوا ⠀⠀⠀ ولكن في ديار بني مرينا[2]

٢ – **دير الجماجم** ، ينسب إلى أياد ، ويذكر ابن القطامي أنه كانت بينهم وبين بني بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وبين بني القين بن جسر بن شيع الله حرب ، فقتل فيها من إياد عدد كبير ، فلما انتهت الحرب دفنوا قتلاهم عند الدير ، وكان الناس بعد ذلك يحفرون ، فيستخرجون جماجمهم ، فسمى الدير بهذا الاسم[3]. وذكر ياقوت نقلا عن أبي عبيدة معمر أن الجمجمة قدح من الخشب ، فسمى الدير بالجماجم لأنه كان يعمل فيه الأقداح من الخشب[4] . وذكر رواية أخرى لابن الكلبي تفسر سبب التسمية بحرب قامت بين تميم وذبيان ، فبنى بنو عامر الدير بجماجم قتلى تميم ، ثم ينكر ياقوت هذه الرواية لأن وقعة بني عامر وبني تميم وذبيان كانت بشعب جبلة بأرض نجد . ويرجح ياقوت رواية ابن الكلبي التي

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ، ص ٥١٢

(٢) ياقوت ، نفس المصدر ، مادة دير بني مرينا ، ص ٥٠١

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٢٤٧

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير الجماجم ص ٥٠٤

أوردها البلاذري في فتوح البلدان إذ يقول : كان مالك الرماح بن محرز الأيادي قتل قوماً من الفرس ونصب جماجمهم عند الدير ، فسمي دير الجماجم [1] . وعند هذا الدير كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث التي انهزم فيها ابن الأشعث ، وفيها يقول جرير :

ولم تشهد الجونين والشعب ذا الصفا وشدات قيس يوم دير الجماجم [2]

٣ - دير عبد المسيح : بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني ، وسمي بقيلة لأنه خرج على قومه في حلتين خضراوين ، فقالوا له : ما هذا إلا بقيلة. وكان يقوم بظاهر الحيرة في موضع يسمى الجرعة ، وفي هذا الدير دفن عبد المسيح . ثم خرب الدير من بعده وظهر بعد مدة أزج معقود من حجارة فظنوه كنزاً ، ففتحوه فإذا فيه ضريح عبد المسيح بن بقيلة [3] .

* * *

وقد أجرى علماء الآثار حفريات أثرية في أطلال الحيرة في سنة ١٩٣١ تحت إشراف العالمين رتلنكر ورايس أسفرت عن كشف آثار بازيليكيتين مسبحيتين من اللبن والآجر، وقد ثبت من الحفريات أن كنائس الحيرة لم تكن مزودة بحنيات وإنما كانت تنتهي بفتحات مربعة الشكل على النحو الشائع في معابد آشور وبابل، كذلك عثرت البعثة الأثرية على صلبان من البرونز وقناديل من الزجاج [4]. وكانت الجدران مكسوة بكسوة جصية نقشت فيها زخارف نباتية تتجلى فيها التقاليد البيزنطية والساسانية . وقد عثر العالمان الأثريان رتلنكر ورايس في أطلال الحيرة أحد

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٤٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير الجماجم ص ٥٠٤

(٢) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٥٠٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير عبد المسيح ، ص ٥٢١

(٤) يوسف رزق الله غنيمة ، ص ٤٩ — ٥٢

دور الحيرة على زخارف مدهونة في الجدران بالألوان الزاهية والأصباغ يتكرر فيها عنصر الصليب محاط بدائرة . ولكن ما عثر عليه العالمان المذكوران يمثل رسوماً تخلو من صور الإنسان والحيوان ، مع أن النصوص والأشعار تدل على وجود مثل هذه الصور فالأخطل يقول :

حلى يشب بياض النحر واقدة   كما تصور في الدير التماثيل

وياقوت يذكر أن أهل المنذر كانوا يجعلون في حيطان دياراتهم الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور [1] .

وقد وصفت الحيرة عند الأخباريين بالبياض فقالوا الحيرة البيضاء[2]، تعبيراً عن حسن عمارتها ، ووضوح هذا اللون على سائر أبنيتها ، كما وصفوها بالامتداد والاتساع فقالوا : الحيرة الروحاء[3]. وقد يكون تسميتها بالبيضاء بسبب ظهور قصرها المعروف بالقصر الأبيض شامخاً لمن يقبل عليها. وكان صاحب هذا القصر جابر بن شمعون الأسقف أحد بني الأوس بن قلام [4].

ر – الحياة الدينية في الحيرة :

كان أهل الحيرة إما وثنيين يعبدون الأصنام، أو صابئة يعبدون الكواكب، أو مجوس يعبدون النار أو نصارى ويهود . فمن أصنام الحيرة ، صنمان يعرفان بالضيزنين كان جذيمة يستسقي ويستنصر بهما على العدو . ومن أصنام الحيرة صنم يقال له سبد كانوا يحلفون به ويقولون « حق سبد »[5] ، وكان منهم من يعبد

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير نجران ، ص ٥٢٨

(٢) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ١٨١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، ص ٣٢٨

(٤) الأغاني ، ج ٢ ص ٦)

(٥) يوسف غنيمة ، ص ٣٠

العزى ويتقرب إليها بالذبائح . وعرفت الحيرة عبادة القمر. أما الزندقة فقد كان مركزها الحيرة ومنها انتقلت إلى قريش [1]، والمراد بالزندقة الثنوية . كذلك سادت المزدكية في عصر قباذ .

وقد تحدثنا من قبل عن انتشار المسيحية في الحيرة منذ أن نبذ النعمان عبادة الأوثان وتنصر فبنيت البيع والكنائس والأديرة، وأصبحت بالحيرة طائفة هامة هي طائفة العباد .

ويذكر ابن العبري أن المنذر بن امرىء القيس تنصر على المذهب اليعقوبي، ولكن الأستاذ يوسف غنيمة يدحض هذا القول ويثبت أنه كان كاثوليكياً يعتقد في مذهب الطبيعتين [2].

وكان معظم نصارى الحيرة نساطرة ، أما اليعاقبة فقد كانوا قلة . ومع ذلك فقد كانت لليعاقبة أسقفيتان عربيتان : أسقفية عقولا وأسقفية الحيرة [3] .

---

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٠٥ – الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ٢٢٨

(2) يوسف غنيمة ، ص ٢٢

(3) نفس المرجع ، ص ٣٦

البَابُ الرَّابع

الحجــاز

الفصل الخامس : حواضر الحجاز .

الفصل الخامس

حواضر الحجاز

١ – مكة : المدينة المقربة

٢ – مدينة الطائف

٣ – مدينة يثرب

- ١ -

مكة « المدينة المقربة »

١ - أهمية دراسة بلاد الحجاز اقتصادياً :

تعتبر بلاد الحجاز من المناطق الهامة في جزيرة العرب من الناحيتين الاقتصادية والدينية، أما من الناحية الاقتصادية، فقد كان يشقها « شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية، تتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقي، وفي موازاته شريان رئيسي آخر كان له خطره في عالم تجارة ذلك الزمن »[1]، ونقصد بهذا الشريان الثاني طريق البحر الأحمر الموصل إلى الهند، ولذلك كانت الحجاز جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي، وكان لذلك أعظم الأثر في قيام مدن تجارية بالحجاز تعتبر محطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحري، وفي قيام ثغور تجارية تتمير منها سفن الروم بالبضائع ومنتجات الهند مثل ثغر الشعيبة[2] مرفأ مكة القديم قبل ظهور ثغر جدة، وثغر ينبع مرفأً يثرب. أما من الناحية الدينية،

---

(١) جواد علي، ج٤ ص ١٦١

(٢) الأزرقي : أخبار مكة، ج١ ص ١٠١

ومن المعروف أن بلاد الحجاز كانت لها أهميتها الدينية ، ففيها تلاقت جميع الأديان الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية ، وفيها ظهر الإسلام كدين ودولة .

ونستنتج من النقوش الكتابية القديمة التي عثر عليها في أعالي الحجاز ، وترجع إلى ما قبل الميلاد ، أن بلاد الحجاز الشمالية كانت تابعة للمعينيين ، ثم للسبئيين فالحميريين [١] . ولما ضعف شأن الحميريين تخلصت بلاد الحجاز من نفوذ اليمن ، ولكن الأنباط استغلوا هذه الفرصة ، وأخذوا يفرضون سلطانهم على شمال الحجاز ، ويدل عثورنا على كتابات نبطية في العلا ومدائن صالح ترجع إلى القرن الأول الميلادي على أن الأنباط توغلوا في الحجاز ، وبسطوا سلطانهم المادي والروحي عليها ، وفرضوا على أهلها حضارتهم ثقافتهم ، فاتخذ الحجازيون آلهة الأنباط مثل : ذو الشرى واللات والعزى ومناة وهبل ، آلهة لهم ، كما أخذوا يكتبون بالخط النبطي [٢] . ويؤيد ذلك أن بلاد العرب كانت تنقسم عند الجغرافي استرابون إلى قسمين : الشمالي بلاد العرب الصخرية ، والجنوبي بلاد العرب السعيدة ، ويستنتج الأستاذ يحيى نامي من هذا التقسيم أن القسم الشمالي من بلاد العرب كان تابعاً لسلع أي بلاد الأنباط [٣] . ولقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز ، فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن ، فاستغلوا تبعية شمال الحجاز للأنباط ، وسيروا حملتهم بقيادة اليوس جالوس ، استعانوا فيها بفرقة من الأنباط عدتها ألف مقاتل نبطي ، كما استعانوا بوزير الأنباط ويدعى سلبوس أو صالح ليكون مرشداً لهم ودليلاً عبر مفاوز الحجاز [٤] . ثم تجددت منذ أيام جستنيان فكرة السيطرة على الطريق

---

(١) الويس موسل ، شمال الحجاز ، ص ٢٠ ، ٨٦ — جواد علي ، ج ٤ ص ١٦٥

(٢) خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي ، ص ١٠٤

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٥

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢

التجاري إلى الهند[1]، ويذكر بروكوبيوس أن ملك الحبشة المسيحي كان يسعى لفرض حكم مسيحي على بلاد حمير الوثنية ، وتدخل جستنيان بقصد توحيد جميع الأقطار المطلة على البحر الأحمر ضد فارس ، للسيطرة بمساعدتهم على حرير الصين[2] . ولكن فارس التي كانت تسيطر على وادي الرافدين ومصبهما ظلت تحتفظ بمفتاح المواصلات في آسيا الوسطى ، على الرغم من المحاولات الفاشلة التي قام بها البيزنطيون لتحطيم الستار الحديدي[3] .ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم في السيطرة على الطريق البحري عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأحباش الذين استولوا على اليمن ، فانهم أخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأحباش كذلك ، وفشلت حملة أبرهة فشلا ذريعاً[4] ، كما فشلت حملة ايليوس جالوس قبل ذلك بقرون .

ولم يطل مقام الأحباش في اليمن ، إذ حل محلهم الفرس ، وتقلص نفوذ البيزنطيين ، وأصبح يقتصر على فلسطين ، وعاد للطريقين البريين إلى الهند عبر الفرات ودجلة من جهة وعبر اليمن والشام عن طريق مكة من جهة ثانية مكانتهما الأولى ، وجنت الحيرة في ظل المناذرة ، ومكة في ظل بني النضر من وراء ذلك مكاسب هائلة . أما الطريق البحري عبر البحر الأحمر فقد أصبح خالياً من سفن الروم ، ولم تعد البحرية الحبشية تقوى على سد الفراغ فيه ، وأصبح ميداناً لسفن القراصنة بالاضافة إلى صعوبة الملاحة فيه[5] .

---

(1) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, Beyrouth,1924,p.9

(2) Percy Neville Ure, Justinian and his age, Penguin Books series London, 1951, p. 67

(3) Lammens, op. cit. p. 9

(4) جواد علي ، ج٤ ص ١٦٥

(5) احمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٤

وعند نهاية القرن السادس الميلادي احتكرت قريش تجـــارة الهند بفضل جهود زعيمها هاشم بن عبد مناف، الذي يعتبر أول من سن رحلتي قريش : رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة[1] ، وقيل ، رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ، ورحلة الصيف إلى الشام[2] ، ويذكر اليعقوبي في ذلك أن تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فكان القرشيون يعانون ضيقاً بسبب ذلك ، إلى أن رحل هاشم إلى بلاد الشام التابعة لبلاد قيصر ، وشاع عنه الكرم والسماحة ، وبلغ ذلك قيصر ، فأرسل إليه ، فلما رآه وسمع كلامه أعجب بـــه ، فقال له هاشم : « أيها الملك لي قوم وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، ففعل قيصر ذلك ، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف (أي العهد) أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام »[3] . وذكر البلاذري أن هاشم ابن عبد مناف أخذ لقريش « عصماً من ملوك الشام ، فتجـروا آمنين ، ثم إن أخاه عبد شمس أخذ لهم عصماً من صاحب الحبشة ، وإليه كان متجره ، وأخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصماً من ملوك اليمن ، وأخذ لهم نوفل بن عبد مناف عصماً من ملوك العراق ، فألفوا الرحلتين في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ، وفي الصيف إلى الشام »[4] وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي :

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[5]

---

(1) اليعقوبي ، ص ٢ ص ٢٠٢

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٦

(3) اليعقوبي ، ج١ ص ٢٠١

(4) البلاذري ، ص ٥٩ ـ الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٤ ص ٨٤ ، ٨٥

(5) البلاذري ، ص ٦٠

وقد ساعد على احتكار قريش لتجارة الهند والحبشة واليمن الحروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة ، وهي حروب انتهت بتغلب الفرس على الروم[1] وإغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية ، وهكذا أصبحت الحجاز ملتقى القادم إلى اليمن أو المجتاز إلى الطائف أو المتوجه إلى الشام والمشرق[2]، وساعد موقع الحجاز بين الشام واليمن على طريق التجارة بين الشمال والجنوب على قيام مدن تجارية ينزلها التجار ، ويحطون بها للراحة ، فازدهرت مكة والطائف ويثرب . وهناك عامل آخر ساعد على ازدهار هذه المدن ، هو قربها من الأسواق التجارية المشهورة التي كانت تعقد في الأشهر الحرم لتـــأمين الناس أثناءها على أموالهم وأنفسهم[3]، مثل سوق عكاظ الذي كان يقام في بسيط من الأرض بين مكة والطائف وينزلها قريش وسائر العرب وأكثرهم من مضر ، وسوق مجنة وكانت سوقاً بأسفل مكة لبني كنانة ، وسوق حباشة بالقرب من بارق وكانت سوقاً للأزد ، وسوق ذي المجاز ، وكانت لهذيل بالقرب من عرفة . ويذكر الأزرقي أن الناس كانوا يخرجون في موسم الحج في شهر ذي الحجة « فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة ، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ ، والناس على مداعيهم ودراياتهم ، متحازين في المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق ، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عشراً ، أسواقهم قائمة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ، انصرفوا إلى ذي المجاز ، فأقاموا به ثمان ليال ، أسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة ، فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز . . »[4]

---

(1) القرآن ، سورة الروم رقم ٣٠ ، آية ١ — ٢

(٢) البلاذري ، ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٦٦

(٤) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج١ ص ١٢٢ ، ١٢٣

ب – اشتقاق اسم مكة وتفسيره ، وذكر أسمائها الأخرى :

اختلف الأخباريون في اشتقاق كلمة مكة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، ونستعرض فيما يلي مصدر اشتقاق كلمة مكة في الروايات المختلفة :

١ – قال أبو بكر بن الأنباري : سميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم »[١].

٢ – ويقال إنما سميت مكة ولازدحام الناس بها من قولهم :قد امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصاً شديداً » ، ويرد ياقوت على هذا التفسير بقوله : «فغلط في التأويل لا يشبه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس ، وإنما هما قولان »[٢].

٣ – قال الشرقي بن القطامي : « إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بهـــا ، والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض »[٣].

٤ – وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة بمنزلة المكوك[٤].

٥ – هناك تفسير لغوي على أساسه تكون مكة مشتقة من امتك ، من قولهم امتك الفصيل أخلاف الناقة ، إذا جذب جميع ما فيها جذبـــاً شديداً فلم يبق

---

(١) ياقوت « معجم البلدان » مادة مكة ، مجلد ٥ ، ص ١٨١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٢

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر

فيها شيئاً. ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكت الناس أي جذبتهم من جميع الأطراف[1].

٦ – ويرى ياقوت أنها سميت مكة من مك الثدي أي مصه، لقلة مائها لأنهم كانوا يتمكون الماء أي يستخرجونه. وقيل إنها تمك الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً.

٧ – جاء ذكر مدينة مكة في جغرافية بطليموس تحت اسم ماكورابا Macoraba [2]، ويبدو أن هذا الاسم له علاقـــة بالبيت العتيق الذي كان سر شهرتها كعاصمة دينية في الجاهلية، فكلمة ماكورابا قريبة من مكرب التي عرفت عند السبئيين، وتعبر عن لقب كان يحمله الكهنة في سبأ قبل أن يتحولوا إلى ملوك، ومن المرجح أنها تعني « المقرب إلى الله »، لأنها مدينة مقدسة، ويذكر بروكلمان أن مكة مشتقة من مكرب أو مقـــرب العربية الجنوبية ومعناها الهيكل[3]، بينما يذكر آخرون أنها قد تكون مشتقة من مك في البابلية بمعنى البيت[4].

وورد في القرآن الكريم اسم آخر لمكة هو بكة، فذكرت بكة في قوله تعالى: « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين »[5]. وفسر الأخباريون

---

(١) نفس المصدر

(٢) جواد علي، ج٤، ص ١٨٨

Lammens, la Mecque a la veille de l'Hégire,p 22

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ج١ ص ٢٢ – حتي، تاريخ العرب، ص ١١١

(٤) جرجي زيدان، ص ٢٧٥

(٥) القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣ آية ٩٦ – ٩٧

المقصود ببكة فقالوا أن بكة موضع البيت وما حول البيت مكة [1] . وذكر ياقوت رواية أخرى عن مغيرة بن ابراهيم جـــاء فيها أن بكة هو موضع البيت ومكة هو موضع القرية ، وقيل إنما سميت بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أمام البيت ،ونقل عن يحيى بن أبي أنيسة أن بكة موضع البيت ومكة هو الحرم كله ، وعن زيد بن أسلم أن بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادي[2] الذي ذكره الله تعـــالى في قوله : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا »[3]. ويرى بعضهم أن بكة هي نفس مكة أبدلت فيها الميم باء على عادة أهل الجنوب، ويعتقد الدكتور جواد علي أن بكة ليست سوى لهجة من لهجـات القبائل التي تبدل الميم باء[4].

وذكر الأخباريون لمكة أسماء أخرى غير بكة ، منها النساسة ، والناسة ، والباسة لأنها تبس أي تحطم الملحدين ، وقيل تخرجهم ، وسميت أيضاً بأم رحم وأم القرى ،ووردت بهذا الاسم في قوله تعالى :« لتنذر أم القرى ومن حولها »[5]. وسميت أيضاً معاد والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، وسميت البيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة [6] ،والحرم ،وصلاح ، والبلد الأمين ،والعرش ،والقادس لأنها تقدس أي تطهر من الذنوب ، والمقدسة ، وكوثى باسم بقعـــة كانت منزل بني عبد الدار . وسماهـا الله تعالى البلد الأمين ، في قوله تعالى : « والتين والزيتون

(1) الازرقي ، اخبار مكة ، ج ١ ص ١٨٨ — ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٥ ص ١٨٢

(2) ياقوت ، نفس المرجع

(3) القرآن الكريم ، سورة الفتح ، ٤٨ آية ٢٤

(4) جواد علي ، ج٤ ص ١٨٩

(5) القرآن الكريم ، سورة الانعام ٦ آية ٩٢

(6) الازرقي ، ج ١ ص ١٨٦

وطور سينين ، وهذا البلد الأمين »[1]، والبلد في قوله تعالى،« لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد »[2]، والبيت العتيق في قوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق »[3] . وسمى الله تعالى الكعبة البيت الحرام ، في قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس »[4]، والبيت المحرم، في قوله تعالى: « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم »[5] . ونستفيد من جميع التسميات التي أطلقت على مكة . أنها كانت في أول أمرها مقاماً دينياً أسسه ابراهيم ، ولهذا لا نستبعد أن يكون اسم مكة كان يعرف باسم مكرب أي مقدس ، ثم تحول إلى مكة .

ج - جغرافية مكة « الموقع والمناخ »

يتخذ عمران مكة شكل هلال يميل إلى الاستطالة، ويتجه جانباه نحو سفوح جبل قعيقعان، وهي على هذا النحو تبدو وقد ضيقت عليها سلسلتان مزدوجتان من التلال[6] ، فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس ، وإلى الغرب يحدها جبل قعيقعان[7] . ومكة تقوم في بطن وادي يعرف ببطن مكة ، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة[8]. وكانت المناطق المنخفضة نسبياً

---

(1) القرآن الكريم ، سورة التين ٩٥ ، آية ١ ـ ٣

(2) القرآن الكريم ، سورة البلد، ٩٠ ، آية ١ ـ ٢

(3) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٤٩

(4) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية ٩٧

(5) القرآن الكريم ، سورة ابراهيم ١٢ ، آية ٣٧

(6) Lammens, la Mecque à la veille de l'Hegire, p. 86

(7) ابراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ ص ١٧٨

(8) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة، ص ١٨٧

من ساحة مكة تسمى البطحاء [١]، وكل ما نزل عن الحرم يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة [٢]. وفي غامر البطحاء كان يسكن بنو قصي مجتمعين حول الحرم ، وكانت الدور محدقة بالمسجد الحرام من كل جانب، فاضطر عمر بن الخطاب إلى شراء بعضها وهدمه لإفساح ساحة المسجد وتوسعته [٣]. وذكر الأزرقي أن المسجد الحرام كان محاطاً بجدار قصير غير مسقف ، وكان الناس يجلسون حول المسجد بالغداة والعشي يتبعون الأفياء، فإذا قلص الظل انفضت المجالس [٤]. وكانت المنطقة الواقعة بين بيوت أشراف مكة بالبطحاء وبين الحرم تشغلها ساحة ضيقة هي البقعة التي كان يقوم عليها البيت العتيق . أما في الظواهر ، أي عند طرفي الهلال الذي تؤلفه التجمعات العمرانية فتقوم أبنية ساذجة متطامنة الأسقف بينا تتوارى خربات وراء منحنيات الشعب التي حفرها السيل في حفافي الجبال . ومعظم هذه الشعب كانت مسرحاً لحوادث جرت في فجر الإسلام ، فإليها لجأ المسلمون الأوائل للتعبد بعيداً عن أعين الوثنيين من أهل مكة ، واحتفظت كثير من هذه الشعب بأسماء القبائل التي أقامت بها ، ومن بينها شعب بني هاشم . هذه الشعب لا تتصل فيها بينها وبين مكة إلا عن طريق ممر ضيق (عقبة) أشبه بأخدود كانت تتدفق فيه السيول. ومن هذا المجموع العمراني كانت تتألف مدينة لا يراها قاصدها حتى يصل إليها [٥].

ومن جبال مكة : أبو قبيس وهو الجبل الأعظم ، ويقع إلى الجهة الشرقية من مكة ، ويشرف على المسجد الحرام ، وجبل قعيقعان ، وجبل فاضح ،

---

(١) Lammens, op. cit. p. 86

(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٧١ - ياقوت ، نفس المرجع

(٣) الازرقي ، ج٢ ص ٥٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٥

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢١

والمصب ، وثور ، والحجون ، وسقر ، وحراء ، وثبير ، وتفاحة ، والطابخ ، والفلق [1].

وكانت المياه شحيحة في مكة،فكان المكيون يعانون من قلتها، مما دعا بعض الأخباريين إلى تفسير اسم مكة بأنها مشتقة من «مك» أي امتص، لقلة مائها [2]، وذكر الأزرقي أن الماء بمكة كان عزيزاً،وأن الناس كانوا يشربون من آبار خارجة من الحرم [3] ، وكان الماء يسقى من بئر كر آدم بالمفجر ، وبئر خم وكانت لبني مخزوم [4] ، وكانوا يحملون مياه هذه الآبار في المزاد والقرب ، ثم يسكبونه في حياض من أدم بفناء الكعبة ، فيرده الحاج ، وذكر الأزرقي عن ابن عباس أن قريشاً لما انتشرت بمكة ، وكثر ساكنها ، قلت عليهم المياه ، واشتدت المؤنة في الماء ، فحفرت بمكة آباراً،فحفر مرة بن كعب بن لؤي بئراً يقال لها رم بالقرب من عرفات [5] . وذكر ابن هشام أن قريشاً قبل أن يجمعها قصى، وقبل أن تدخل مكة كانت تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعى اليسيرة ، ومن بئر حفرها مرة بن كعب تدعى الروى وهي ما يلي عرفة . ثم حفر كلاب بن مرة خم ورم والجفر بظاهر مكة [6]. ولما تولى قصى رئاسة قريش حفر بمكة بئراً يقال لها العجول كان يردها العرب عندما يقدمون إلى مكة فيسقون منها ويتراجزون عليها ، وفيها قال القائل :

---

(١) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة بكة ، ص ١٨٢

(٣) الازرقي ، ج٢ ص ٦٤

(٤) نفس المصدر ، ج٢ ص ٦٤ ، ص ١٧٢

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧٢

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٥٨

تروي على المجول ثم تنطلق — قبل صدور الحاج من كل أفق

إن قصياً قد وفى وقد صدق — بالشبع الناس دري مغتبق [1]

كذلك حفر قصي بئراً عند الردم الأعلى عند دار أبان بن عثمان ، ثم دثرت فنثلها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياها [2].

أما هاشم بن عبد مناف فتنصب إليه بئرا بذر وسجلة[3]. وحفر عبد شمس ابن عبد مناف بئر الطوى بالبطحاء [4] ، وحفر أمية بن عبد شمس الجفر [5] ، وحفر بنو عبد شمس بئر أم جعلان ، وبئر العلوق بأعلى مكة ، وحفر بنو أسد ابن عبد العزى بئر شفية [6] وحفر بنو عبد الدار بن قصي بئر أم أحراد ، وحفر بنو جمح بئر السنبلة ، وحفر بنو سهم بئر الغمر ، وبنو تيم الثريا ، وحفر حويطب ابن عبد العزى بئر حويطب [7] وحفر ميمون بن الحضرمي حليف بني عبد شمس ابن عبد مناف بئره وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية [8] ، وحفر عبد المطلب بئر زمزم ، فعفت على آبار مكة كلها ، لمكانها من البيت والمسجد وفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر اسماعيل بن ابراهيم [9] . وكان ماء زمزم ثقيلاً ،

---

(1) ابن هشام ، ج1 ص 258 — الازرقي ، ج2 ص 64 ، 174

(2) الازرقي ، ج2 ص 171

(3) ابن هشام ، ج1 ص 257 — الازرقي ، ج2 ص 275 ، 176

(4) نفس المصدر ، ج 1 ص 156 — الازرقي ، ج 2 ص 176

(5) الازرقي ، ج2 ص 65 ، 176

(6) نفس المصدر ، ج 2 ص 65 ، 177

(7) ابن هشام ، ج1 ص 258 — البلاذري ، فتوح البلدان

(8) الازرقي ، ج2 ص 65 ، 179

(9) ابن هشام ، ج1 ص 158 — الازرقي ، ج2 ، ص 24 ، 65 ج1 ص 58 ، 59 الازرقي ، ج2 ص 65 ، 180

فكان عبد المطلب يخففه بلبن ابله ويخلطه بالعسل في حوض من أدم عند زمزم ، ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج ، وكان العباس بن عبد المطلب كرم بالطائف ، فكان يحمل زبيبه إلى زمزم فينبذه في الماء ويسقيه الحاج في أيام الحج [1]. وكان ماء زمزم يعذب في فصول الأمطار الغزيرة إذ يخف غلظه [2].

وكانت مكة في واد غير ذي زرع، وقد كان ذلك سبباً رئيسياً في اعتماد أهل مكة على غيرها في حياتهم المعيشية وفي أقواتها، وكانت الأقوات تأتيها من الطائف ومن السراة. ولهذا السبب اهتم معاوية بن أبي سفيان بعد ظفره بالخلافة بتوصيل المياه إلى بساتين أنشأها في نواحي مكة ، وفي ذلك يقول الأزرقي: « كان معاوية ابن أبي سفيان رحمه الله قد أجرى في الحرم عيوناً ، واتخذ لها أخيافاً ، فكانت حوايط ، وفيها النخل والزرع ، ومنها حايط الحمام وله عين ، وهو من حمام معاوية الذي بالمعلاة إلى موضع بركة أم جعفر »[3]. وفي خلافة سليمان بن عبد الملك أقام خالد بن عبدالله القسري البركة الواقعة عند فم الثقبة ، وشق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام في أنابيب الرصاص [4].

وبينما كانت يثرب بلداً ذات أراض خصبة يكثر بها الزرع ، ويعتمد أهلها على الزراعة ، كان عماد حياة أهل مكة على التجارة والضرائب التي تجبى على القوافل التجارية وما كان ينفقه الحجاج في مواسم الحج . وكان ينبت بمكة في عصور الجاهلية الأولى ، عندما قدمت قبائل جرهم من اليمن ، غياض ملتفة من سلم وسمر ونباتات تسمن مواشيهم [5]، ولكن هذه الغياض أخذت تتلاشى

(1) الأزرقي ، ج٢ ص ٦٥

(2) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢

(3) نفس المصدر ، ج٢ ص ١٨٢

(4) نفس المصدر ، ج٢ ص ٨٦

(5) نفسه ، ج ١ ص ٤٢

تدريجياً ، ولم يعد ينبت بمكة قبل ظهور الإسلام سوى الضغابيس والسنا وهي نباتات كان يؤخذ منها الدواء والسواك [1] . أما الشجر والنخل وما كان ينبت دون زرع فقل ما يظهر ، ولذلك حرم على أهل مكة قطع شجر الحرم للانتفاع به .

أما فيما يختص بمناخ مكة فقد كان قارياً ، فالحرارة تشتد في أثناء النهار والرياح الساخنة تكاد تخمد الأنفاس ، وقد وصف المقدسي مناخ مكة بقوله : « ويكون بالحرم حر عظيم وريح تقتل وذباب في غاية الكثرة » [2] . وكان هذا المناخ يسبب الأوبئة والأمراض ، فقد ذكر ابن هشام أن حليمة السعدية حدثت أم النبي في إبقائه معها في ديارها بعيداً عن مكة خوفاً من الوباء الذي تفشى فيها [3] ، ومن المعروف أن مرض الجدري والحصبة تفشيا في مكة والمدينة في عام الفيل [4] . ويبدو أن درجة الحرارة في مكة كانت ترتفع ارتفاعاً شديداً في فصل الصيف حتى ذكروا أن النبي ﷺ قال : « من صبر على حر مكة تباعد منه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مسيرة مائتي عام » [5] وكان هذا الوعد سبباً في نزول كثير من المجاورين بمكة وملازمتهم الطواف حول الحرم مع شدة الحر بالمطاف ، والمطاف على حد قول ابن بطوطة معروش بالحجارة السود « وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة ، ولقد رأيت السقائين يصبون الماء

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٢٥

وذكر ابن هشام ان اول ما رؤي بارض العرب من مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر كان في عام الفيل (ابن هشام ، ج ١ ص ٥٦)

(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٥

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٧٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٦

(٥) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٧

عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه »[1]. وكان وثنيو مكـــة يعذبون المسلمين بتعريضهم لحرارة الشمس ، إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة »[2] ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرج بلالاً بن رباح إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره [3].

وما يكاد ينتهي الصيف الحار حتى يأتي الخريف ، فيعيش الناس تحت تهديد السيول [4] ، وكانت السيول تشكل خطراً على عمران مكة ، ومن أقدم السيول المخربة سيل حدث في زمن الجرهميين فدخل البيت ، فانهدم ، فأعادته جرهم[5] ، وسيل سال في عهد خزاعة فتدفقت مياهه داخل المسجد الحرام وأحاطت بالكعبة ، ويعرف هذا السيل بسيل فارة[6] . وعلى الرغم من أعمال الإصلاح والإجراءات التي قام بها الخلفاء الراشدون في العصر الإسلامي لتجنب الكوارث التي تسببها السيول ، كإقامة السدود في الأحياء المرتفعة ، وعمل الردم الأعلى وبنائه بالضفاير والصخر وكبسه ، وذلك في خلافة عمر بن الخطـاب عقب سيل أم نهشل الذي اقتلع مقام ابراهيم وجرفه إلى أسفل مكة[7] ، وعمل ضفاير للدور الشارعة على وادي مكة ، وضفاير المسجد الحرام ، وضفاير الدور الواقعة في جنبتي الوادي في

---

(1) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٢

(2) الزبيري ، نسب قريش ، ص ٢٠٨ — ابن هشام ، السيرة ج١ ص ٢٤٢

(3) نفس المصدر ، ص ٢٣٦

(4) Lammens, le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 23 - La Mecque à la veille de l'Hegire, p. 103

(5) الازرقي ، ج١ ص ٢

(6) نفس المصدر ، ج٢ ص ١٢ — الفاسي ، ج٢ ص ٢٦٠

(7) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٦٢ — نفس المصدر ، ج٢ ص ١٢٥

سنة ٨٠ هـ في خلافة عبدالملك بن مروان، وذلك عقب سيل الجحاف[١]، فقد ذكروا أن عبد الملك بعث لعمـــل هذه الضفاير والردوم على أفواه السكك مهندساً نصرانياً[٢]، فإن السيول الجارفـــة اكتسحت بطن مكة ودخلت المسجد الحرام، وأحاطت بالكعبة، وهدمت كثيراً من دور مكة[٣].

وكثيراً ما كانت الأوبئة تتفشى عقب السيول المخربة، فقد أصيب أهل مكة بمرض شديد في أجسادهم وألسنتهم أصابهم منه شبه الخبل، عقب سيل سنة ٨٤هـ، فسمى هـــذا السيل بسيل المخبل[٤]، كما أصيبوا بمرض شديد «من وباء وموت فاش» عقب سيل ابن حنظلة الذي حدث في سنة ٢٠٢ هـ في خلافة المأمون[٥]. ولم تكن هذه الأوبئة تقتصر فقط على مواسم السيول، بل كانت تعقب مواسم الحج بسبب الحرارة الشديدة التي تؤذي العيون وكثرة الذباب[٦]، ويفسر هذا كثرة عدد العميـــان في مكة[٧]، ويبدو أن المقصود «بأولي الضرر» الواردة في القرآن الكريم[٨] الذين أصيبوا بالعمى[٩]. وإلى جانب ما كانت تسببه الحرارة الشديدة من أمراض للعيون، فقد كان الجدب والمحل يسودان البلاد في السنين «الشهباء» حيث لا تجد الماشية ما يشبعها من العشب، فلا تدر ألباناً، ويضطر

---

(١) الازرقي، ج٢، ص ١٢٦ — الفاسي، ص ٢٦١

(٢) البلاذري، ج١ ص ٦٢ — الازرقي، ج٢ ص ١٢٦ — الفاسي، ج٢ ص ٢٦١

(٣) الازرقي، ج٢ ص ١٢٧

(٤) الازرقي، نفس الصفحة — الفاسي، ج٢ ص ٢٦٢

(٥) نفس المصدر — الفاسي، ج٢ ص ٢٦٢

(٦) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٩٥

(٧) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٩٦ — ابن رستة، الاعلاق النفيسة ص ٢١ —

(٨) القرآن الكريم، سورة النساء، آية ٩٥

(٩) Lammens, la Mecque à la veille de l'Hegire. p. 90

القوم إلى النزوح إلى مواطن الكلأ والعشب . وقد تسبب كل ذلك في كثرة الأمراض وانتشار الأوبئة .

ومع ما تسببه السيول من كوارث ، فان مياهها تتجمع في بحيرات طبيعية أو غدران لا تدوم طويلا ، أو تكون بركاً ومواجل وعيوناً جوفية تمسك الماء وحول هذه العيون والغدران تنبت الأعشاب ويكثر النخيل[1] .

د - مصادر الثروة الاقتصادية في مكة في العصر الجاهلي :

رأينا أن مكة كانت قبل الاسلام مركزاً للطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام ، فعليها كانت تتدفق منتجات الشرق الأدنى من دلتا الفرات عن طريق خليج فارس واليمن ، ومنتجات مصر والشام عن طريق الشام . وكانت مكة على اتصال وثيق ببلاد الحبشة ، يدل على ذلك وجود طائفة من الصنائع والشذاذ تعرف بالأحابيش أو عبدان أهل مكة ، أو سودان مكة[2] ، واختيار الحبشة بالذات ملاذاً للمهاجرين المسلمين الأوائل . وكان للمكيين وكلاء عنهم في تبالة وجرش وفي نجران وغيرها من المدن التجارية في شبه الجزيرة . وكانت مكة تقوم بدور الوسيط بين عالمين ، شأنها في ذلك شأن تدمر بالنسبة للبارثيين والرومان ، وقد أتاح موقع مكة الجغرافي من جهة ، ثم حيدة قريش من جهة أخرى ، لها الفرصة لتحقيق نجاح واسع النطاق في هذا المجال ، وعلى الرغم من أن البيزنطيين كانوا يأنفون من التعامل مع العرب ، ويرون إقصاءهم عن بلاد سورية المتحضرة ، فان إقبال بيزنطة الشديد وتهافتها على منتجات الهند والصين ،

---

(1) راجع الآبار والعيون والحوائط في أخبار مكة ، ج٢ ص ١٨١ - ١٧٨ ، ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة ص ١٧٨ -

Lammens, le Berceau de l'Islam, t. I. p. 26-31.

(2) Lammens, l'Arabie occidentale avant l'Hegire, Beyrouth 1928, p. 269

لم تصرفهم عن الاستعانة بالقرشيين كوسطاء للتجارة الهندية، وكانت القسطنطينية تستخدم منتجات الشرق لإبراز مظاهر العظمة والأبهة في البلاط الامبراطوري، فالأباطرة أنفسهم كانوا يحيطون أنفسهم بحاشيات مترفهة تلبس الثياب الحريرية ، وكانت أبهة الكنائس البيزنطية وفخامتها تتطلب مزيداً من البخور والطيوب ومزيداً من الأقمشة الحريرية المصنوعة في الصين والهند ، ومن الأرائك والأسرة المصنوعة من أخشاب الصومال والاعواد التي لا توجد إلا في الشرق، هذا بالإضافة إلى اقبال البيزنطيين الشديد على التوابل الهندية . ولقد سعت مكة إلى التفاوض مع الدول المجاورة لبلاد العرب للحصول على ضمانات لتأمين تجارها[1]. ونجح القرشيون في عقد المعاهدات التجارية مع حكومتي بيزنطة وطيسفون[2] ، وكان يمثل الامبراطور البيزنطي عظيم بصري بينما يمثل كسرى فارس مرزبان البحرين .

ولكن بيزنطة ، حتى مع ارتباطها مع العرب من الناحية التجارية ، لم تكن تقبل التفاوض مع العرب على مبدأ « الباب المفتوح » ، فقد كانت ترى في كل غريب عنها عيناً يجب مراقبته عن كثب ، ولذلك كانت المعاملات التجارية مع العرب تتم على الحدود السورية ، فلم تكن حكومة بيزنطة تسمح لتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا في عدد ثابت من المدن السورية ، ففي فلسطين كان يسمح للعرب بحرية التجارة في مينائي أيلة وغزة ، وفي مدينة القدس ، أما في سورية ، فقد كان سوق بصرى مفتوحاً لهم ، وتردد ذكر بصرى في كثير من أشعار العرب في الجاهلية ، وكانت بصرى مدينة شديدة الحصانة والمنعة، لتقوم بوظيفتها كرقيب وحرس لبلاد الشام ، وكانت تؤلف المحطة التجارية الأخيرة لقوافل قريش، والسوق الكبرى للغلال بالنسبة للحجاز، كما كانت تشتهر بأسلحتها ودروعها ، وكانت أسواق بصرى تعقد خارج أسوارها. وقد قصدها النبي صلى

---

(1) Lammens, la Mecque à l veille de l'Hegire, p. 26

(2) Ibid. p. 32

الله عليه وسلم وهو صغير مع عمه أبي طالب أيام اشتغاله بالتجارة الى الشام[1]، ويذكرون في كتب السيرة قصور بصرى[2] وقصور الشام ، ولعلهم كانوا يعنون بقصور بصرى أسوارها المشرفة الذروة ، وبقصور الشام خط التحصينات الفاصلة بين البادية ومدن الشام . أما غزة فكانت أول ثغر بفلسطين يقابله تجار العرب القادمين من الصحراء، وكانت مخازنها تتدفق عليها بضائع مصر ومنتجات العالم اليوناني الروماني ، فهي كانت تعتبر بحق باب الغرب بالنسبة للعرب .

وقد عقد القرشيون معاهدات مماثلة مع أمراء العرب في الجزيرة العربية ، مع شيوخ قيس وأقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة ، وكانت هذه المعاهدات تسجل في مهارق وصحف أو على الأديم ، ومن بين هذه المعاهدات ، المعاهدة التي عقدها رسول الله مع المكيين في العام السادس للهجرة ، وتعرف بصلح الحديبية ، ويذكر أبو يوسف صاحب كتاب الخراج أن رسول الله لما قدم إلى مكة ، وهبط على الحديبية أرسل إليه أهل مكة أحد صعاليكهم وهو ابن الحلس لرد النبي وصحابته عن مكة ، ثم أرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفي ، فعاد كل منهما إلى أهل مكة وهو يعظم في النبي ، فاضطروا إلى إرسال واحد من رؤسائهم من أولي الشجاعة والعزم هو سهيل بن عمرو الملقب بذي الأنياب ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزي لمفاوضة النبي في عقد معاهدة بين أهل مكة والرسول، وكان المسلمون يقطعون الطريق على تجار قريش وعلى غيرهم ، وقد أدى ذلك إلى إرغام المكيين على التعاقد مع النبي[3]. فمثل قريش في هذه المعاهدة سهيل بن عمرو ، وشهدها أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد أبي وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٩٢

(٢) ابن هشام ، ج١ ص ١٦٦

(٣) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج ، طبعة بولاق ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١٣٠

الجراح ، ومحمد بن مسلمة ، من الجانب الاسلامي ، وحويطب بن عبد العزيز ، ومكرز بن حفص ، من الجانب المكي ، وكتب العقد علي بن أبي طالب ، ونسخ نسختين [1] . وقد نزلت سورة الفتح عند منصرف النبي من الحديبية ، وتعتبر معاهدة الحديبية نصراً أكيداً للمسلمين ، لأن قريشاً بمقتضى هذا العهد اعترفت بمحمد رئيساً لدولة .

وكانت قريش تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف [2] ، ومن بين الضرائب التي كانت تفرضها قريش ضريبة العشور ، فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم [3] . وتشير المصادر العربية إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة ، نزلوها وأقاموا فيها ، واتخذ بعضهم موالي لأشراف أهل مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن أمية [4] ، ويوحنا مولى صهيب الرومي ، وصهيب الرومي نفسه وكان مولى لعبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب ، وكان أسيراً في أرض الروم ، فاشترى منهم ، ثم أسلم [5] . وكان بمكة قبطاً من مصر ، فقد ذكروا أنه كان يقيم فيها نجاراً قبطياً [6] . وكان من الروم من اندس بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب [7] . كما توافد على مكة تجار من الروم والفرس ، ساكنوا المكيين

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٥٨ — الفاسي ، شفاء الغرام ج٢ ص ٧٢

(٣) الازرقي ج١ ص ١٠١

(٤) الاغاني ، ج١ ص ٧٦

(٥) ابن هشام ، ج١ ص ٢٨٠

(٦) قطب الدين النهروالي ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ، ١٨٥٧ ص ٥٠

(٧) جواد علي ، ج٤ ص ٢٠١

وتحالفوا مع أثريائهم، ومنهم من أقام بمكة نظير دفع جزية لحمايته وحفظ أمواله وتجارته. وكان تجار بلاد الشام يجلبون القمح والزيوت والخمور ومصنوعات الشام إلى مكة [1]. وكان تجار الجنوب يحملون حاصلات الهند من ذهب وأحجار كريمة وعاج وخشب الصندل والتوابل والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والزعفران والآنية الفضية والنحاسية، كما كانوا يحملون منتجات إفريقيا الشرقية واليمن كالعطور والأطياب وخشب الأبنوس وريش النعام والأدم واللبان والمر والأحجار الكريمة والجلود، ومنتجات البحرين كاللآلىء واليواقيت [2]. واشتهرت بعض الأسرات المكية بثرواتها من التجارة مثل أبو أحيحة، وعبد الله بن جدعان، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأبو سفيان، وهاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، ونوفل، وقد توفي هؤلاء الثلاثة بعيداً عن مكة، فهاشم توفي بغزة من أرض الشام، والمطلب توفي بردمان من أرض اليمن، ونوفل توفي بسلمان من ناحية العراق، وفي وفاتهم يقول مطرود ابن كعب الخزاعي :

إذا تذكرت أخي نوفلا ذكرني بالأوليات

ذكرني بالأزر الحمر والأردية الصفر القشيبات

أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات

ميت بردمان وميت بسلمان وميت عند غزات [3]

ويكفي للدلالة على كثرة أثرياء مكة ما ذكره كعب بن الأشرف معلقاً على

---

(1) جواد علي ج4 ص 202 — احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة : ص 206

(2) احمد الشريف : المرجع السابق ، ص 206

(3) ابن هشام : السيرة ج1 ص 126

هزيمة المكيين في بدر، قال: « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا »[1] ، وما دفعه أهل مكة من فديات لأسراهم في بدر: فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء يوم بدر أربعة آلاف لكل رجل من أسرة ثرية إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف إلى قوم لا مال لهم، منّ عليهم رسول الله، وكان أبو وداعة بن ضبيرة أول أسير مكي افتدى، ابنه المطلب بأربعة آلاف ، وقد قال عنه الرسول : « إن له بمكة ابناً كيساً له مال وهو فعل فداءه »[2] . ومن مظاهر ثراء أهل مكة أن قافلتهم إلى الشام يوم بدر كانت تتكون من ألف بعير فيها أموال عظام بلغت نحو خمسين ألف دينار، « أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة ، إما مال مع قوم قراض على النصف ، فكانت عامة العير لهم . ويقال إنه كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلف مثقال ، وكان لأمية بن خلف ألفا مثقال ... وكان لبني عبد مناف منها عشرة آلف مثقال ، وكان متجرهم إلى غزة »[3] . هذه الأموال كلها كانت متجمعة في قافلة واحدة ولقبيلة مكية واحدة ، ويمكننا قياساً على ذلك أن نتصور ثراء أهلها من الأسرات التجارية الأخرى ، وتوافر إمكاناتها المالية ، ووضع رؤوس أموالها في التجارة .

وكانت أسرة بني مخزوم من الأسرات المكية فاحشة الثراء ، وظهر منهم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان يعتبر نفسه هو وأبا مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف عظيمي القريتين ، وهو القائل: « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد

---

(1) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) : مغازي رسول الله ، القاهرة ، 1948 ص 90 ، 91

(2) نفس المصدر ، ص 98

(3) نفس المصدر ، ص 17 ، 18

ثقيف ، ونحن عظيما القريتين » [1] ، فأنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » [2] .

وكان عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي من أكبر أغنياء مكة ، تبرع بخمسمائة دينار لمحاربة النبي [3] ، وافتدى كلا من خالد بن هشام بن المغيرة ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة بأثني عشر ألف درهم يوم بدر [4] ، وغنم زيد بن حارثة مولى الرسول قافلة له بالقردة وبلغ الخمس يومئذ ٢٠ ألف درهم [5] .

وكان عبد الله بن جدعان يشتغل بتجارة الرقيق [6] ، وكان عظيم الثراء إلى حد أنه أرسل ألفي بعير إلى الشام تحمل إليه البر والشهد والسمن للفقراء [7] ، وكان صفوان بن أمية ، صاحب مخزن للسلاح ، وكان يشتغل بتجارة الفضة النقر والآنية الفضة [8] .

ويبدو أن اتصال تجار مكة بالحبشة والصومال كان يتم عن طريق آخر غير طريق اليمن البري هو طريق البحر ، فقد كان لمكة ميناء على البحر الأحمر يسمى

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٢٨٧

(٢) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ ، آيه ٣١

(٣) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ٢٢

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٥) نفس المصدر ، ص ١٥٦

(٦) كانت تجارة الرقيق تعتمد على الاسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم او الفرس او العرب المقيمين في البادية فيباعون في اسواق النخاسة ، كما كانت تعتمد على الرقيق الاسود من بقايا الاحباش في الجزيرة العربية أو من زنوج افريقيا .

(٧) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ص ١٠٥

(٨) الواقدي ، ص ١٥٦

الشعيبة، فكان تجار مكة يستخدمون هذا الميناء والموانىء القريبة منه للاتصال بالحبشة والصومال ومصر أيضاً ، ومن المعروف أن قريش لم تكن تملك سفناً في البحر الأحمر ، والأرجح أنهم استخدموا سفناً كانت تعمل لحسابهم [1] .

ومن مصادر ثروة أهل مكة حج البيت ، والحج إلى جانب كونه مظهراً دينياً للعرب في الجاهلية ، وسيلة للاجتماع والالتقاء والتعارف ، كان وسيلة من وسائل التكسب بالتجارة ، فقد كانت تقام في موسمه ، كما سبق أن تحدثنا أسواق تجارية وأدبية مثل سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز ، وفي هذه الأسواق كان العرب من سائر أنحاء شبه الجزيرة يفدون بسلعهم للتبادل والبيع .

وكانت العملات السائدة في مكة والحجاز عامة الدينار والدرهم ، وهما عملتان أجنبيتان ، والدينار لفظة مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية «ديناريوس» ، وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب [2] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوحدة النقدية في قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » [3] ، أما الدرهم فلفظ مشتق من الدراخمة اليونانية ، واستعاره العرب من الفرس . والدرهم وحدة فضية [4] ، ومن المعروف أنه لم تكن ببلاد العرب دار للسكة ، وأن العرب — باعتبارهم وسطاء للتجارة بين الشرق والغرب — كانوا يتعاملون بهاتين الوحدتين النقديتين ، وكانت تجاراتهم مع الدولة الساسانية ومع الدولة البيزنطية تدر عليهم كميات كبيرة من الدنانير والدراهم .

---

(١) احمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢١

(٢) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ، ص ٨

(٣) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ ، آية ٧٥

(٤) عبد الرحمن فهمي ، نفس المرجع ، ص ١٠

ونتج عن اشتغال مكة بالتجارة معرفة أهلها بالكتابة والحساب، وبالمكاييل والموازين والمقاييس ، فمن المكاييل المستخدمة الصاع والمد والمكوك ، ومن الموازين الرطل والأوقية والنش ، وهو نصف الأوقية ، والدرهم والمثقال [1] . وعرف تجار مكة نظام الأمانات والودائع ونظام الصكوك وغير ذلك مما يتطلبه العمل بالتجارة [2].

أما عن الصناعات التي كان يعمل بها أهل مكة فمنها صناعة الأسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال ، وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل ، وكان الوليد بن المغيرة حداداً وكذلك كان العاص بن هشام أخو أبي جهل [3] ، وكان خباب بن الأرت قينا يعمل السيوف [4] . ومنها صناعة الفخار من قدور وجفان وصحاف وأباريق، وهي ألفاظ ورد ذكرها في القرآن الكريم [5] وفي الشعر [6]، وممن اشتغل بهذه الصناعة أمية بن خلف الذي كان يبيع البرم [7]، كما عرفوا صناعة الأسرة والأرائك، وهما أيضاً لفظتان وردتا في القرآن الكريم [8] ، وممن

---

(1) احمد الشريف ، ص ٢١٦ ـ Lammens, La Mecque, p. 128

(2) Lammens, op. cit. p, 130

(3) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٩٤

(4) ابن هشام ، ج١ ص ٢٨٢

(5) القرآن الكريم ، سورة الانسان ٧٦ ، اية ١٥ ــ ١٧ ، الغاشية ٨٨ ، آية ١٥ ــ سورة الواقعة ، ٥٦ آية ١٨ ــ سورة الزخرف ٤٢ آية ٧١

(6) قال رجل من العرب يبكي المطلب بن هاشم بن عبد مناف :

قد مسنـا الحجيـج بعيد المطلب ... بعد الجفان والشراب المنتصب

ليت قريشا بعده على نصب

(الفاسي ، ج٢ ص ٧٧)

(7) ابن قتيبة ، ص ١٩٤

(8) القرآن الكريم : «السرر» في سورة الغاشية ٨٨ آية ١٤ وسورة الواقعة ٥٦ آية ١٥ «الارائك» في سورة الكهف ١٨ آية ٣١ ، وسورة المطففين ٨٣ آية ٢٣ ، وسورة الانسان ٧٦ ، آية ٢٣

اشتغل بالتجارة عتبة بن أبي وقاص [1] .

وقد ارتفع أفق أهـل مكة بـسبب اتصالاتهم التجارية بمن حولهم من الأمم والشعوب ، فمن النبط وأهل الحيرة عرفوا الكتابة ،وعن الأحباش عرفوا بعض الأدوية [2] ، وعن الروم والفرس عرفوا كثيراً من مظاهر الحيـاة الاجتماعية والثقافات .

ه – تاريخ مكة قبيل ظهور الاسلام :

يزعم الاخباريون أن أقدم من حكم مكة والحجاز العمالقة وعليهم السميدع ابن هوبر بن لاوي[3]. وخلفهم بنو جرهم القحطانية .وكان ابراهيم (عليه السلام) قد أسكن ولده اسماعيل مكة مع أمـــه هاجر ، وبنى البيت العتيق بالحجر بمعاونة ابنه اسماعيل . وتزوج اسماعيل امرأة جرهمية ، وكانت منـازل جرهم بمكة وما حولها ، وقام بأمر البيت بعد اسماعيل الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو أول من ولي البيت .

ثم وفدت خزاعة إلى مكة بعد سيل العرم ، فنزلوا بظـاهر مكة ، وغلبوا الجرهميين على مكة ، وطردوهم عنها ، وكان أول من ولي أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحى ، فغير دين ابراهيم وبدله بعبادة الأوثان،فقد ذكروا أنه استحضر معه من البلقاء بالشام أصناماً نصبها حول الكعبـة [5] ، وظلت خزاعة تلي أمر

---

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٦٤

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٤٦٥

(3) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٤٦ — الازرقي ،ج١ ص ٤٠

(4) المسعودي ، ج٢ ،ص ٤٦ — الازرقي ، ج١ ص ٤٨

(5) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام، ص ٨ — ابن هشام، السيرة ، ج١ ص ٧٦ — اليعقوبي ج١ ص ٢١١ — أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، شفاء الغرام باخبار البلـد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ ج٢ ص ٢٢

البيت، أما مضر فقد احتفظت بحق الإجازة بالناس من عرفة والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى [1].

ثم تشعبت مضر وبطون كنانة، وصاروا أحياء وبيوتات، وكانوا يقيمون بظاهر مكة، إلى أن تمكن قصي بن كلاب بن مرة من السيادة في مكة وانتزاع ولاية البيت من خزاعة، من أبي غبشان الخزاعي. وإلى قصي هذا يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة، فميز بين قريش البطاح وقريش الظواهر، وقريش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها، وكان منهم التجار والأثرياء، وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار، وبنو عبد العزي وبنو زهرة، وبنو مخزوم وبنو تيم بن مرة، وبنو جمح، وبنو سهم، وبنو عدي، وبنو عتيك بن عامر. أما قريش الظواهر فقد سكنوا خارج مكة، ومنهم بنو محارب، والحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر ابن لؤي [2].

ولما قسم قصي مكة خططاً ورباعاً بين قريش، واتسقت له طاعتهم وحاز شرف قريش كلها، بنى داره فسميت دار الندوة، «لأنهم كانوا ينتدون فيها فيتحدثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية، ويزوجون من أراد التزويج» [3]. كانت هذه الدار دار مشورة في أمور السلم والحرب، ودار حكومة يديرها «الملأ» أو مجلس شيوخها، وهي تشبه الأكليسيا في أثينا والسناتو في روما [4]. وإلى جانب دار الندوة كانت له الحجابة والرفادة والسقاية

---

(١) المسعودي، ج١ ص ٥٧ — ابن خلدون، ج٢ ص ٦٨٦

(٢) نفس المصدر، ص ٥٩

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ص ٥٢ — اليعقوبي، ج١ ص ١٩٧ — قطب الدين النهروالي، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٤٥

(٤) كان لا يدخل دار الندوة من قريش أو غيرهم الا من بلغ من عمره أربعين سنة، وكان مباحا لأولاد قصي دخولها جميعا (قطب الدين النهروالي، ص ٤٥)

واللواء والقيادة ، وفرض قصي على قريش لرفادة الحجيج ، فكانوا يخرجونه ، ويأمر بانفاقه على طعام الحاج وشرابهم[1] خرجاً. أما الحجابة فكان القائم بها يتلك مفاتيح الكعبة ، وأما الرفادة فهي إطعام من لم يكن له سعة ولا زاد من الحجاج ، وأما السقاية فهي التكفل بسقاية الحجاج عن طريق أحواض من أدم كانت توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفات ، وأمـــا اللواء فراية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى الحرب ، وتدور حوله المعارك ، والقيـادة هي قيادة الجيش عند الحرب يتولاها قصي أو من ينيبه عنه [2].

ولما شاخ قصي جعل لابنه عبد الدار ، وكان يؤثره على بقيـــة بنيه ، دار الندوة والحجابة واللواء والرفادة والسقاية . ويبدو أن قصي آثر عبد الدار بهذه الامتيازات لأن عبد الدار كان ابنه البكر ، ولأن عبد مناف كان قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب [3] ، وقيل أن قصي قسم مهـام مكة بين ولده ، فجعل السقاية والرياسة لعبد منـاف ، ودار الندوة لعبد الدار ، والرفـــادة لعبد العزي ، وحافتي الوادي لعبد قصي[4]. وذكر الأزرقي أنه قسم أمور مكة الستة بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف ، فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ، ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة [5].

والأرجح ما ذكره ابن هشام ، وهو قيام عبد الدار بجميع مهام مكة . فلما هلك قصي بن كلاب ، أجمع بنو عبد مناف بن قصي ، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي ، ورأوا أنهم

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٢٢ ، ١٢٧ ـ البلاذري ، ص ٥٢

(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ص ٨٧، ٨٨

(٣) ابن هشام ، ج١ ص ١٣٦ ـ البلاذري ، ص ٥٣ ـ الفاسي ، شفاء الغرام ج٢ ص ٧٥

(٤) اليعقوبي ، ج١ ص ١٩٦

(٥) الأزرقي ، ج١ ص ٦٢

أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم ، وفضلهم في قومهم ، فتفرقت قريش عند ذلك ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم (بنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر[1] ، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم (بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص ، وبنو عدي بن كعب) عند الكعبة حلفا مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الأحلاف[2] . وأجمع كل من الفريقين على الحرب ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا[3] ، وظلوا على هذا النحو حتى ظهور الاسلام[4] .

أما دار الندوة فقد ظلت لعبد الدار ولولده ، حتى باعها عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية بن أبي سفيان ، فجعلها داراً للامارة بمكة . وأما الحجابة ، فكانت لعبد الدار ، ثم آلت من بعده إلى عثمان ابن عبد الدار ، ثم إلى عبد العزي بن عثمان ، ثم إلى أبي طلحة عبد الله بن عبد العزي ، ثم إلى طلحة بن أبي طلحة . فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة أراد دفع مفتاح الكعبة إلى عمه العباس بن عبد المطلب ، فأنزل الله عليه : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً »[5] . فأعطى النبي

---

(1) ابن هشام ، ج1 ص 128 ، 129 — البلاذري ، ص 56 — الفاسي ج2 ص 76

(2) نفس المصدر ، ص 126 — البلاذري ، ص 56 — الفاسي ، ج2 ص 79

(3) الفاسي ، شفاء الغرام ، ص 76

(4) ابن هشام ، السيرة ، ج1 ص 140

(5) القرآن الكريم ، سورة النساء 4 آية 58

مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وكان قد أسلم في صفر سنة ٨هـ[1].
أما اللواء فإنه لم يزل في بني عبد الدار حتى كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحة ابن أبي طلحة بن عبد العزى ، وبطل اللواء بعد أن أسلم بنو عبد الدار[2].

أما السقاية والرفادة فصارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم للمطلب بن عبد مناف، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب، ثم لأبي طالب ، ولم يكن أبو طالب قادراً على الإنفاق ، فآلت الرفادة والسقاية إلى العباس بن عبد المطلب ، ثم آلت إلى عبدالله بن عباس[3] . وذكر الأزرقي أن السقاية والرفادة كانت لهاشم ابن عبد مناف ، وأن القيادة كانت لعبد شمس بن عبد مناف. وكان هاشم يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، فكان يشتري بما يجتمع لديه دقيقاً ، ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها ، فيجمع ذلك كله ، ثم يحرز به الدقيق ويطعمه الحاج . فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقاً وكعكاً ، فقدم بـه مكة في الموسم ، فهشم ذلك الكعك ، ونحر الجزور وطبخه ، وجعله ثريدا وأطعم الناس حتى أشبعهم[4] ، ثم تولى عبد المطلب الرفادة ، ثم قام بها أبو طالب حتى جاء الاسلام ، أما السقاية فقد ظلت بيد عبد مناف ، ثم آلت إلى هاشم ثم إلى عبد المطلب ، ثم إلى العباس بن عبد المطلب[5].

وذكر الأخباريون أن أول من كسا الكعبة في الجاهلية أسعد تبع الحميري ، كساها الأنطاع ،ثم كساها الوصايل ثياب حبرة من عصب اليمن[6].ثم أصبحت

---

(١) البلاذري ، ص ٥٣ – الأزرقي ، ج١ ص ٦٢ ، ٦٣
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٥
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٧
(٤) الأزرقي ، ج١ ص ٦٣
(٥) نفس المصدر ، ج١ ص ٦٥
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٦٦

تكسى بعد ذلك بمطارف الخز الخضراء والصفراء وبشقاق الشعر والكرار وهو الخيش الرقيق . وذكروا أن الكعبة كانت مكسوة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة لم يهاجر بعد ، بكسى شتى من وصايل وأنطاع وكرار وخزو نمارق عراقية وبرود[1] . وذكر بعض الأخباريين أن قريش كانت في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة ، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب إلى أن ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى من المال، فكان يكسوها وحده سنة،وجميع قريش تكسوها سنة أخرى على التعاقب[2].

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكسو الكعبة بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان القباطي ، ثم كساها الحجاج الديباج[3].

---

(1) نفس المصدر ، ج1 ص 166

(2) نفس المصدر ، ص 167

(3) ابن هشام ، ج1 ص 21 — الأزرقي ، ج1 ص 168

- ٢ -

مدينة الطائف

(أ) جغرافية الطائف : الموقع والمناخ :

الطائف مدينة صغيرة قديمة البنيان ، تقع قريباً من مكة ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رجلا من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك - وكان تاجراً ثرياً - قتل ابن عم له بحضرموت، ثم خرج هاربا حتى نزل بأرض الطائف ، فحالف مسعود بن معتب الثقفي، وتزوج من ثقيف. وفي مقابل ذلك أقام لهم طوفاً مثل الحائط حتى لا يصل إلى ثقيف أحد من العرب ، ويكون هذا الطوف حصناً لثقيف ، فبناه بماله ، وسمى الموضع لذلك بالطائف[1] ، وأعتقد أن الطائف إنما سميت كذلك من الطواف حول بيت اللات ، وأن التسمية بالطائف كانت نتيجة لأهمية الطائف الدينية باعتبارها المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة .

وكانت الطائف تسمى في القديم باسم وج وهو اسم وادي وج الذي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العماليق .

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة ، وبغزوان قبائل

---

(١) البكري : معجم ما استعجم، ج١ ص ٦٧ - ياقوت : معجم البلدان (مادة طائف) مجلد ٤ ص ٩ .

هذيل[1]، والطائف محلتان : محلة إلى جـانب من وادي وج تسكنه ثقيف ، والأخرى على الجانب المقابل ويقال لها الوهط[2] . وقد ظل اسم وج يطلق على موضع من الطائف يقع على الوادي يقال له برد في العصر العباسي، إذ أقامت فيه زبيدة زوجة هارون الرشيد حائطين ، يقال لهما وج[3] ، ووادي الطائف الذي يعرف بوادي وج تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ بها الأديم[4] .

ويشرف جبل غزوان ، أعظم جبال السراة ، على المدينة . وجبال السراة تمتد بحذاء البحر الأحمر، وكان يعتقد أنها تبدأ من اليمن لكي تصل إلى الشام[5] ، وواجهة السراة الشرقية تشرف على هضاب متفتحة = بلادالعربية الوسطى عن طريق أفجاج وشعب وأودية تنتهي إلى البحر،وقد سهلت هذه الشعب الاتصال بين القبائل الضاربة في الداخل والمدن التجارية بالحجاز ، ومن بين هذه الوديان وادي نعمان بين الطائف وعرفة ، وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة[6]. وجبال السراة جنوبي الطائف امتداد لجبـال اليمن ، وهي جبال كانت تتخذ أسماء القبائل التي سكنتها مثل سراة بني علي وفهم وسراة بجيلة والأزد بن سلامان وسراة ألمع ودوس وعازر[7] .ويحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين تمتد إلى نحو ثلاثة أو أربعة كيلومترات من المركز العمراني بالمدينة ، ويطوق جبل غزوان جانباً من هذه المزارع بينما ينفتح سهل الطائف تجاه مكة[8] . وبالقرب من الطائف تقع قرية العرج المعروفة بعرج الطائف ، ، وهي قرية جامعة في واد

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٧٩ — ياقوت ، المرجع السابق

(٢) ياقوت ، نفس المرجع

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٠

(٤) المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، المرجع السابق

(٥) الهمداني ، ص ٤٨

(٦) نفس المصدر ، ص ١٢١

(٧) نفس المصدر ، ص ١٢١

(٨) Lammens, La cité Arabe de Taif à la veille de l'Hégire, Beyrouth. 1922. p. 20

ن نواحي الطائف، وإليها ينسب العرجي الشاعر، وهو عبدالله بن عمر بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهي أول تهامة » .

وذكروا أن العرجي كان له حائط يقال له العرج ، وكان العرج وادياً يبعد عن الطائف بنحو ساعة من الزمان[1] . وإلى الجنوب الغربي من الطائف تقع قرية سلامة ، وكان لأم الخليفة المقتدر فيها حائط[2] . ومن نواحي الطائف المشهورة الفتق وجلدان ، وجلدان هذا كان وادياً ينقلب إلى نجد ، وكانت تسكنه قبائل بني هلال[3] . ووهط قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج، كانت لعمرو بن العاص، وقد سميت كذلك لكثرة ما كان فيها من كروم، فقد غرس فيها عمرو ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة[4] . وإلى الشرق من الطائف يقع وادي لية ، وكان يسكنه بنو نصر من هوازن . وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الموضع عند منصرفه من حنين متجهاً إلى الطائف ، وأمر وهو بلية بهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان ، وقد اشتهر وادي لية بكرومه وفي ذلك يقول خفاف بن ندبة :

سرت كل واد دون رهوة دافع وجلدان أو كرم بليـــة محدق[5]

وبالقرب من الطائف يقع وادي ركبة ، ووادي مطار[6] .

وكانت الطائف المدينة الثانية في الحجـاز من حيث الأهمية الاقتصادية ، واسمها يقترن عادة بمكة فيقال مكة من الطائف والطائف من مكة ، وكانتا تسميان بالقريتين[7] كما عرفنا بالمكتين من قول ورقة بن نوفل :

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عرج ، ج٤ ، ص ٩٩

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢١

(٣) نفس المصدر

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة وهط ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٦

(٥) ياقوت ، نفس المرجع ، مادة لية ، مجلد ٥ ، ص ٣٠

(٦) الهمداني ، ص ١٢٠ ، ١٢٤ — ياقوت ، مادة ركبة، مجلد ٣ ص ٦٣ — مادة مطار ، مجلد ٥ ص ١٤٧

(٧) من قوله تعالى : «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» سورة الزخرف ، ٤٣ ، آية ٣١

ببطن المكتين على رجـــائي حديثك أن أرى منه خروجا[1]

وقد يكون المقصود بالمكتين البطاح والظواهر، أو قد يكون المراد باللفظة التثنية فحسب ، كما يقولون الكوفان والرقتان والمروتان والمشرقان والمغربان والنجدان[2]. والطريق بين مكة والطائف طريقان، واحدة من ثلاثة مراحل، والأخرى مختصرة من مرحلتين[3].

ومناخ الطائف معتدل ، فقد عرفت بأنهـا طيبة الهواء شمالية[4] ، وذكر المقدسي أنها شامية الهواء باردة الماء[5] ، فكانت مصيفاً لأهل مكة ، يقبلون إليها في الصيف عندما تشتد حرارة مكة[6]. ومما لا شك فيه أن موقع الطائف في منطقة مرتفعة ، وتفتحها للرياح الشمالية كان سبباً في تلطيف مناخها أثناء الصيف . أما في فصل الشتاء فيسود البرد إلى حد تتجمد معه المياه[7] .

ب – الحياة الاقتصادية في الطائف :

ساعد اعتدال حرارة الطائف وجودة تربتها بالاضافة إلى توافـــر مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعي على نطاق واسع ،وتعتبر الحنطة الانتاج الزراعي الأول في الطائف ،وعلى حنطة الطائف كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة ، فكانت العير تقبل من السراة والطائف تحمل الحنطة والحبوب والسمن

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٢٠٢

(٢) Lammens, op. cit p. 12

(٣) المقدسي ، ص ١١٢

(٤) ياقوت ، مادة الطائف ، ص ٩

(٥) المقدسي ، ص ٧٩

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٥ ، وفي ذلك قال محمد بن عبد الله النميري يذكر ما كانت عليه زينب بنت يوسف أخت الحجاج من نعمة ورفاهية :

تشتو بمكة نعمـــة ومصيفهـــا بالطائـــف

(راجع ياقوت ، ص ١٢)

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طائف ــ الالوسي (بلوغ الارب) ج ١ ص ١٩١

والعسل إلى مكة[١]. كذلك اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع ، ففيها يكثر النخل والأعناب والموز والرمان، والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ[٢]، وأكثر فواكه مكة تحمل من الطائف[٣] ، وأهم هذه الفواكه على الاطلاق التمر والعنب ، أما تمر الطائف فكان يتمتع بشهرة كبيرة ، فهو تمر طري ممتلىء يوحل فيه الضرس[٤] ، أما العنب فعليه تعتمد ثروة الطائف الاقتصادية، وكان إنتاجها من الكثرة بحيث يذكرون أن سليمان بن عبد الملك لما أدى فريضة الحج مر بالطائف، فرأى بيادر الزبيب فقال: ما هذه الحرار؟ قالوا : ليست حراراً ولكنها بيادر الزبيب[٥]. وذكر المقدسي أن في أكناف الطائف كروم على جوانب جبلها ، « فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل »[٦]. وكان بوهط من الطائف كرم كثير لعمرو بن العاص بلغ عدد شجره ألف ألف عود على ألف ألف خشبة[٧]. وذكروا أن شاعر الطائف أبا محجن الثقفي قال :

إذا مت فادفنوني إلى أصل كرمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنـــوني بالفلاة فإنني ... أخـــاف إذا مت ألا أذوقها

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف سبوه وتصايحوا به وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن

---

(١) الازرقي ، ج ٢ ص ١٩٢ - Lammens, La cité de Taif, p. 32
Lammens, le Berceau de l'Islam, t. I, p. 83

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٦ — المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الطائف ، ص ٩ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٢ ، ١٥٤

(٣) المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الطائف — الازرقي، ج ٢ ص ١٦٣

(٤) Lammens, la cité de Taif, p. 33

(٥) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ٣ ص ٢٢٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ١٢

(٦) المقدسي ، ص ٧٩

(٧) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٢ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة وهط ، ج ٥ ص ٣٨٦

ربيعة ، فجلس الرسول في ظل حبلة من عنب[١] .

وإلى جانب حرفة الزراعة، كان أهل الطائف يشتغلون بثلاثة حرف أخرى هي الصيد وتربية النحل واستخراج العسل ثم حرفة التجارة .

أما الصيد ، فكان يتم في الغابات المجاورة للطائف على سفوح جبل غزوان ، فهذه الغابات إلى جانب ما كان يستفاد من أشجارها في اتخاذ الحطب للوقود وصناعة الفحم ، وما كان يستخرج من قطران ، كانت ميداناً للصيد ، ففي هذه الغابات كان جماعات الصيادين يأتون من مكة ومعهم كلاب الصيد والبزاة لصيد الحيوانات والفهود[٢] . وأما تربية النحل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثروة الطائف، وكان أصحاب النحل يؤدون إلى الرسول من كل عشر قرب عسل قربة ، ثم انقطعوا عن أدائها بعد وفاته ، فكتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأمره بأن يؤدوا إليه ما كانوا يؤدونه إلى النبي ، ومن المعروف أن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، إما إذا كان في أرض الخراج وفي المفاوز والجبال وعلى الأشجار وفي الكهوف ، فلا يؤخذ عليه العشر ، لأنه يكون بمنزلة الثمار[٣] .

وكان العرب يعتبرون العسل من أشهى الأطعمة ، وكان عسل الطائف مما يهادى به في مكة، فقد ذكر البلاذري أن أم سلمة زوج الرسول كان لها نسيب بالطائف يهديها عسلا[٤]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب شرب العسل عند زوجاته ثم حرمه على نفسه[٥]، فنزلت الآية الكريمة : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم »[٦] . ولقد وعد الله

---

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٦١

(٢) Lammens, La cité de Taif, p. 32

(٣) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦٠ ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٧ ومايليها

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٤٢٧

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

(٦) القرآن الكريم ، سورة التحريم ٦٦ اية ١

المسلمين بجنات تجري فيها أنهار من ماء غير آسن ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن عسل مصفى[١] ، وكان العسل دواء يعالج به المرضى ، من قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »[٢] . ولذلك كان العسل من الأطعمة الممتازة عند العرب، وكانوا يستخرجونه من بيوت الجبال ومن الشجر، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون »[٣] . وكان عسل الطائف يطلب في سائر أنحاء بلاد العرب في الجاهلية والاسلام، فقد ذكر الأصمعي أن بعض الخلفاء كتب إلى عامله بالطائف « أن أرسل إلى بعسل أخضر في سقاء أبيض في الإناء من عسل الندغ والسحاء من حداب بني شبابة » ، وكان بنو شبابة يسكنون في السراة مما يلي الطائف[٤] .

أما التجارة فكانت من الحرف الهامة في الطائف، وكانوا يتجرون في الزبيب والحنطة والعسل والأديم ، وكانت القوافل تخرج إلى مكة حاملة هذه السلع كل يوم . وقد عانى أهل مكة كثيراً عندما كان يخرج زيد بن حارثة يترصد هو وجماعة من المسلمين تجارة قريش من الطائف في أرض نخلة[٥] . وكان غيلان ابن سلمة الثقفي أحد وجوه ثقيف بالطائف يشتغل بالتجارة إلى العراق وفارس، وقد بنى له كسرى بالطائف أطما ، وكان قصراً مبنياً بالحجارة[٧] .

ج – سكان الطائف وعلاقتهم بأهل مكة :

كان سكان الطائف من ثقيف ، وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وكان سبب نزوله في الطائف أن

(١) القرآن الكريم ، سورة محمد ٤٧ آية ١٥
(٢) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦ ، آية ٦٩
(٣) القرآن الكريم ، سورة النحل آية ٦٨
(٤) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج٣ ص ٢٠٥
(٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ص ٢٣٧
(٦) الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ٢٢١

قسي هذا كان له ابن خالة يقال له النخع بن عمرو ، فخرجا منتجعين ومعهما شياه وعنزلبون يشربان لبنها ، فتعرض لهما مصدق لبعض ملوك اليمن ، فطمع في شاة لهم ، وأراد أخذها ، فمنعاه من ذلك ، ورمى أحدهما المصدق فقتله ، فقال أحدهما للآخر : والله ما تحملنا أرض واحدة ، فاتفقا على الافتراق فمضى النخع شرقاً حتى نزل بيشة من أرض اليمن ، أما قسي فقد غرب حتى أتى وادي القرى ، ونزل على عجوز يهودية لا ولد لها ، فاتخذته ولداً ، ولما حضرتها الوفاة أعطته مالاً وقضبان من العنب ، ونصحته بأن يغرسها ، في واد ينزل به فيه ماء ، ففعل ما أمرته به ، وأخذ المال وقضبان العنب بعد موتهـــا ، ومضى سائراً حتى إذا كان قريباً من وج وهي الطائف ، إذا هو بأمة حبشية ترعى مائة شاة ، فطمع فيها وهم بقتلها ، فحذرته الأمة ألا يفعـــل حتى لا يتعرض لغضب صاحب الغنم وهو عامر بن الظرب العدواني سيد قيس وحكمها ، ونصحته بأن ينزل عنده ، فأتاه قسي واستجاره فزوجه ابنته ، ثم غرس قسي قضبان الكرم بوادي وج ، فنبتت ، فلمـا أثمرت قالوا : « قاتله الله كيف ثقف عامراً حتى بلغ فيه ما بلغ ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء » ، فسمي ثقيفاً من يومئذ . وما زال ثقيف مع عدوان حتى كثر ولده وربلوا ، وقوي جأشهم ، وجرت بينهم وبين عدوان حروب انتهت بإخراج عدوان عن أرض الطائف ، واستخلصها بنو ثقيف لأنفسهم ، وغرسوا فيها كرومهم ، « وأصبحت ثقيف أعز الناس بلداً ، وأمنعه جانباً ، وأفضله مسكناً ، وأخصبه جناباً ، مع توسطهم الحجاز ، وإحاطة قبائل مضر واليمن ، وقضاعة بهم من كل وجه ، فحمت دارها وكاوحت العرب عنها »[1] . وضربوا بثقيف المثل في حماية بلدهم ، فقال أبو طالب ابن عبد المطلب :

منعنا أرضنـــا من كل حي   كما امتنعت بطائفها ثقيف

---

(1) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٣٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ص ٦٤ — ٦٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طائف ، مجلد ٤ ص ١٠

أتاهم معشر كي يسلبوهم ... فحالت دون ذلكم السيوف

وقال بعض الأنصار :

فكونوا دون بيضكم كقوم ... حموا أعنابهم من كل عادي [١]

وكان يسكن بالطائف إلى بني ثقيف جماعة من حمير وقوم من قريش ، فالحميريون من أزد السراة ، والقرشيون من كنانة وعذرة ، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة . وكان يسكن غزوان قبائل هذيل [٢]. وكان المكيون يرتبطون بأهل الطائف ارتباطاً وثيقاً ، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فمن الناحية الاجتماعية كان يقال : قرشي وختناه ثقفيان ، أو ثقفي وختناه قرشيان [٣]. وكان كثير من قريش يمتلكون في الطائف مزارع وبساتين ، كما كانت لهم فيها تجارات وأموال ، فالعاصي بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص كانت له أموال ومزارع بوهط ، ومات وهو في شعب من شعب الطائف [٤] ، كذلك توفي أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بالطائف [٥] . وكان لعمرو بن العاص كروم كثير في وهط بالطائف ، كما كانت لعمر بن الخطاب أملاكاً بركبة من أرض الطائف . وكان للعباس بن عبد المطلب أرض بالطائف مزروعة بالكروم ، وكان الزبيب يحمل منها إلى مكة فينبذ في السقاية للحجيج ، وكان لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها [٦] . وإلى جانب هذه الطبقة من العرب ، كان يسكن الطائف جماعات من اليهود أقاموا فيها للتجارة ، ومن بعضهم

---

(١) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٩

(٣) Lammens, la cité de Taif, p. 12

(٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ١٣٩

(٥) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٥٧ — فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٦ — الأزرقي ، ج ٢ ص ٦٥

ابتاع معاوية أمواله بالطائف ، كما سكنها قوم من الروم، فقد ذكر البلاذري من بينهم الأزرق والد نافع بن الأزرق الخارجي ، وكان عبداً رومياً حداداً ، كما ذكر بالطائف عبداً رومياً يقال له عبيد، تزوج سمية أمة الحارث بن كلدة الثقفي، وكان طبيب العرب[1]، وذكر ابن هشام اسم غلام لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس وكان نصرانياً من نينوي[2].

د ـ مركز الطائف الديني :

كانت الطائف المركز الديني الثاني في بلاد العربيـة الغربية بعد مكة ، فقد كان لثقيف بالطائف بيت يسترونه بالثيـاب ويهدون له الهدى ويطوفون حوله ويسمونه الربة ، يعظمونه كتعظيم أهل مكة الكعبة[3] ، هذا البيت كان يضم صخرة مربعة تعرف باللات ، وكان سدنتها من ثقيف وهم بنو عتاب بن مالك ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها[4]. فلما عزم الرسول ﷺ على فتح الطائف، في العام الثامن للهجرة عند منصرفه من حنين ، امتنع أهل الطائف في حصنهم ، فنصب عليها منجنيقا اتخذها سلمان الفارسي ، وكان مع المسلمين دبابة يقـال أن خالد بن سعيد بن العاص قدم بها من جرش ، فحاصر النبي أهـل الطائف خمسة عشر يوما[5] ، وقيل شهراً[6] ، فلما استهل ذو الحجة رجع معتمراً إلى مكة ، ثم تجهز بعد الأشهر الحرم لمعاودة حصار الطـائف ، فلما بلغ أهل الطائف ذلك بعثوا وفدهم إلى النبي للمفاوضة في الصلح فطلبوا الصلح على الشروط التالية : ألا

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٨١ ، ١٠٤ ـ فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن هشام ، ج ٢ ص ٦٢

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٩ ـ محمد نعمان الجارم ، اديان العرب فـي الجاهلية ، القاهرة ١٩٢٣ ص ١٤٩

(٤) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٦

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٣٦٦

(٦) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ٢٣٨

يحشروا وألا يعشروا وألا يجنوا وأن يتمتعوا باللات سنة [1] . فأعرض عنهم رسول الله ، فقبلوا أن تكسر اللات،وتولى كسرها كما يزعمون المغيرة بن شعبة، وقيل هدمها وأحرقها بالنار ، وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرقت ينهى ثقيفاً عن العود إليها :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها	وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟
إن التي حرقت بالنار فاشتعلت	ولم تقاتل لدى أحجارها هدر
إن الرسول متى ينزل بساحتكم	يظعن، وليس بها من أهلها بشر [2]

(1) نفس المصدر ، ص ٢٢٦

(2) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٧

- ٣ -

يـــثرب

أسماء يثرب :

يثرب مدينة قديمة ، ورد ذكرها في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي أقامت فيها جاليات من معين ، ثم آل أمرها إلى السبئيين بعد أن دالت دولة المعينيين . ومن المعروف أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهمــا على بلاد العرب الشمالية . كذلك جـــاء ذكر يثرب في جغرافية بطليموس فذكرت مرة باسم Iathrippe ومرة باسم Iathrippa ، وذكرهـــا اصطيفانوس البيزنطي باسم Iathrippa Polis [1].

وعرفت عند الأخباريين باسم أثرب ويثرب [2] ، وذكروا أن يثرب هي أم قرى المدينة ، وحددوا امتدادها ما بين طرف « قناة » إلى طرف « الجرف » ، وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى « زبالة » [3] . ويزعم بعض الأخباريين

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ٢٩٥ — ج ٤ ، ص ١٨١

(٢) محمد بن محمود بن النجار ، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢٢ أبو الحسن بن عبد الله السمهودي ، كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ١ ص ٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة يثرب ، مجلد ٥ ، ص ٤٣٠ — أحمد ابن عبد الحميد العباسي ، كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار ، ص ٤

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٢

أنها سميت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح ، وهو أول من نزلهـا عند تفرق ذرية نوح [١]. وزعم آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التثريب أي المؤاخذة بالذنب ، وذكروا أن النبي ﷺ نهى عن تسمية يثرب بيثرب ، وسماها طيبة وطابة كراهية للتثريب[٢]. وذكر البلاذري أن يثرب سميت باسم رئيس العماليق الذين نزلوهـا بعد أن أخرجوا منها بني عبيل بن عوص بن إرم بن سام من ولد نوح [٣]. وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقوله المنافقون ، يقول تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون أن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً »[٤]، ويشير السمهودي إلى أن ما وقع في القرآن الكريم من تسميتها بهذا الاسم إنما هو حكاية عن قول المنافقين [٥].

فالاسم القديم لمدينة الرسول إذن هو يثرب ، وقد اختلفوا فيما إذا كان إسماً للمدينة نفسها أو لموضع مخصص من أرضها ، أو أنها إسم للناحية التي منها مدينة الرسول [٦] . أما اسم « المدينة » الذي أطلق على يثرب بعد الهجرة النبوية فقد يكون مأخوذاً من لفظة مدينتا Medinta الآرامية ومعناها الحمى أو المدينة ، وقد يكون اختصاراً من « مدينة الرسول »، وأعتقد أنه في كلتي الحالتين أطلق عليها بعد الهجرة ، ولم يكن يطلق عليها قبل ذلك وإن كان بعض المستشرقين يرى أن اليهود المتأثرين بالثقافة الآرامية أو بعض المتهودة من بني إرم الذين نزلوا

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٨ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٤٣٠ — عمدة الاخبار ، ص ٤١ .

(٢) ياقوت ، نفس المرجع — السمهودي ، ج ١ ص ٨ — عمدة الاخبار ، ص ٤٢

(٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦ — المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٢

(٤) القرآن الكريم ، سورة الاحزاب ٣٣ ، آية ١٢ ، ١٣

(٥) السمهودي ، ج ١ ص ٨

(٦) نفس المصدر ، ص ٧

بيثرب دعوها مدينتا ، ومن هذه اللفظة جاءت لفظة « المدينة » أي أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل ظهور الإسلام على يثرب[1] .

ويتفق الأخباريون على أن يثرب سميت بمدينة الرسول لنزول رسول الله بها[2]، ولنفوره من اسمها القديم سواء كان بمعنى التثريب أو الافساد أو لأنه اسم رئيس من العمالقة الذين نزلوا بها في العصور القديمة فيما يقرب من سنة ٢٦٠٠ق.م. على حد قول بعض الباحثين المحدثين[3].

وذكر الأخباريون أن ليثرب أو المدينة ٢٩ اسماً ، هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبورة ، ويثرب ، والناجية ، والموفية ، وأكالة البلدان ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والمجنة ، والقدسية ، والعاصمة ، والمرزوقة ، والشافية ، والخيرة ، والمحبوبة ، والمرحومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرمة ، والقاصمة ، وطبابا[4] . وأضاف إليها بعضهم البحرة ، والبارة ، والبرة ، وتندر ، والحسيبة ، ودار الأبرار ، وحسنة ، ودار الأخيار ، ودار الإيمان ، ودار السنة ، ودار الهجرة ، والمختارة ، وغلبة ، وقبة الاسلام ، والمحفوظة ، ومدخل صدق ، والمقدسة[5] . وجعلها السمهودي ٩٤ اسماً[6] ، أما ابن زبالة فيجعل أسماءها ١١ اسماً هي المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، وجابرة ، والمجبورة ، والمرحومه ، والعذراء ، والمحبة ، والمحبوبة ، وقاصمة[7] .

---

(١) راجع جواد علي ، ج ٤ ص ١٨١

(٢) ياقوت ، مادة يثرب ص ٢٠) ــ ومادة مدينة يثرب ، مجلد ٥ ص ٨٢

(٣) مولاي محمد علي ، محمد رسول الله ، ترجمة الاستاذ مصطفى فهمي ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٤

(٥) عمدة الاخبار ، ص ٤١

(٦) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٩

(٧) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٢

وكل هذه الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة ، أي في العصر الاسلامي باعتبارها دار الهجرة ، ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين[1] وهناك اسم عرفت به بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين حرتي واقم ووبرة ، فهي ذات الحرار أو ذات الأحرين[2]. ومعظم أسمائها صفات لها وصفت بها لتعظيمها وإظهار فضائلها ومآثرها .

ب - جغرافية يثرب : الموقع والمناخ :

تقع مدينة يثرب على بعد نحو ٥٠٠ كيلو متراً إلى الشمال من مكة في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات[3] ، في حرة سبخة الأرض كثيرة المياه والشجر والدوحات ، وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد ، ويقع شمال يثرب[4]، في حين يقع جبل عير في جنوبها الغربي . وجبل عير جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق : أحدهما عير الوارد ، والآخر عير الصادر[5] . وإلى الشرق من يثرب بقيع الغرقد ، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين عما يلي القبلة ، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرع على الطريق المؤدية إلى مكة .

ووادي العقيق من أخصب مناطق يثرب ، ويبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال ، وقيل بستة أميال ، والعقيق مجموعة أعقة (أي أودية شقتها السيول) : « أحدها عقيق المدينة ، عق عن حرتها وهذا العقيق الأصغر ، وفيه بئر رومة »[6] ، وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربي من يثرب على مسيرة ساعة منها ، بالقرب من مجتمع الأسيال ، في براح من الأرض ، وكانت ملكاً ليهودي

---

(١) احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٩٢

(٢) السمهودي ، ج ١ ص ١١

(٣) مرآة الحرمين ، ج ١ ص ٤٠٧

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٢

(٥) نفس المصدر ، مادة عير ، مجلد ٤ ص ١٧٢

(٦) نفس المصدر ، مادة عقيق ، ص١٣٩ — الدرة الثمينة ، ص ٢٤٤

في الجاهلية ، فاشتراها منه عثمان بن عفان بماله ، وتصدق بها على المسلمين في عهد الرسول [1] . ويحيط العقيق بيثرب أيضاً من جهة الجنوب الغربي ، ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة ، فهو يقع بعد قباء ، إلى الشمال من وادي النقيع ، وكانت تشغله غابات كثيفة . أما من جهة الغرب فكان يمتد إلى ما بعد ذي الحليفة عند آبار علي ، وكان الرسول ﷺ قد أقطعه بلال بن الحارث المزني ، ثم أقطعه عمر الناس .

ومن وديان المدينة الأخرى : وادي بطحان ويقع إلى الغرب من يثرب ، ووادي رانون ، ويبدأ من جبل عير قبلي المدينة ، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان . ومن أوديتها أيضاً وادي مذينيب في الجنوب الشرقي ، وهو شعبة من بطحان ، ووادي قناة ، ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب ، ووادي مهزور في الجنوب الشرقي ، ويأتي من الحرة الشرقية حرة واقم [2] . وبالعتيق عرصتان : هما عرصة البقل وعرصة الماء ، وثلاث جماوات هي جماء تضارع ، وجماء أم خالد ، وجماء العاقر . والعرصة أرض فضاء متسعة لا يقوم فيها بناء ، أما الجماء فهضبة مسطحة لا قمم لها ، والعرصتان من أكرم بقاع المدينة .

وحرات المدينة ثلاث : هي حرة واقم في الشرق ، وحرة الوبرة في الغرب ، وحرة قباء في الجنوب ، وبالقرب من المدينة ثلاث حرات أخريات هي : حرة شوران وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة [3] ، وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن ذبيان ، يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة ، وحرة النار بالقرب من حرة ليلى [4] .

---

(١) مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٤٣٠

(٢) السمهودي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ وما يليها — عمدة الأخبار ، ص ٢٨٠ وما يليها — ، الحرمين ، ج ١ ، ص ٤٣٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حرة ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٧ — عمدة الأخبار ، ص ٢٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ — عمدة الأخبار ، ص ٢٦٢ وما يليها

أما حرة واقم الواقعة إلى الجهة الشرقية من يثرب فمن أشهر حرات بلاد العرب، وتربتها من أخصب بقاع يثرب، وذكروا أن واقم اسم رجل من العماليق سميت به، وقيل أنه اسم أطم من آطام بني الأشهل إليه تضاف الحرة [1] وكانت تسكن أرض هذه الحرة بطون من الأوس منهـا بنو عبد الأشهل، وبنو ظفر، وبنو معاوية، كما كانت تسكنها أيضاً قبائل من اليهود من بني قريظة والنضير. وبهذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣هـ [2].

وقد عرفت حرة واقم أيضاً بحرة قريظة، لأنهم كانوا ينزلون بطرفها القبلي، كما عرفت أيضاً بحرة زهرة لمجاورتها لها. وزهرة قرية من أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والسافلة وكان بها ٣٠٠ صائغ [3].

أما الحرة الغربية، فتعرف بحرة بني بياضة أو حرة الوبر، وتقع على ثلاثة أميال من يثرب، وتشرف هذه الحرة على وادي العقيق الذي يليها غرباً [4]، ويبدأ من موضعها الطريق إلى مكة [5]. ويشبه مناخ يثرب مناخ مكة، فالحرارة تشتد في الصيف، والبرودة تشتد في الشتاء [6]، وتسقط الأمطار وتحدث سيولاً في كثير من الأحيان، فقد سال وادي مهزور، من بدايتـه عند حرة سوران والتقائه مع وادي بطحان في زغابة ملتقى السيول، سال هذا الوادي في خلافة عثمان بن عفان سيلا عظيماً على المدينة خشي منه عليها من الغرق، فأقـام عثمان الردم الذي يقع عند بئر مدرى لرد السيل عن المسجد وعن المدينة. وسال مرة أخرى في خلافة أبي جعفر المنصور في سنة ١٥٦ هـ، فندب والي المدينة الناس

---

(١) السمهودي، ج ٢، ص ١٨٩

(٢) ياقوت، مادة الحرة — عيدة الاخبار، ص ٢٦٦

(٣) السمهودي، ج ٢، ص ٢٢٠

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٠

(٥) احمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٨٨

(٦) وفي ذلك روى ابو هريرة ان النبي قال « من صبر على أوار المدينة وحرها كنت له يوم القيامة شفيعا وشاهدا » (ياقوت، معجم البلدان، مادة مدينة يثرب، ص ٨٣)

انصرف مياهه في وادي البطحان [١]. وتسقط الأمطار عادة في أوقات قصيرة ، ولكنها تهطل في عنف فتحدث هذه السيول ، وقد حدث أن غابت الأمطار ، وعزت على المدينة فترة طويلة ، ولكنها لم تلبث أن جاءت بعد أن صلى النبي بالمسلمين صلاة الاستسقاء ، وامتد سقوطها أسبوعاً حتى بدأت بعض بيوت المدينة تنهار ، وانقطع المرعى عن الماشية بسبب كثرة مياه الأمطار ، فاضطر الرسول إلى أن يسأل الله اللطف ، ورفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم حوالينا » أي أنزل المطر حوالينا ، ولا تنزله علينا ، والمراد صرفه عن الأبنية [٢] . وتتخلف عن الأمطار غدران ومستنقعات وبرك ، ومن الغدران المشهورة بوادي العقيق غدير السدر وغدير السدر ، وغدير خم ، وغدير ... وغدير البيوت ، وغدير حصير ، وغدير الجاز ، وغدير المرسى [٣] . وكانت هذه الغدران والبرك عندما تتعرض لعوامل البخر ، تزداد ملوحة مياهها بالإضافة إلى ما يسببه ركود المياه فيها من أمراض وحميات ، وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها. فقد قدم الرسول وأصحابه إلى المدينة ، وهي وبية ، فاشتكى أبو بكر ، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وحول حماها إلى الجحفة » [٤]. فالمدينة كانت على حد قول بلال « أرض الوباء » [٥]. وكان سبب هذه الحمى أن مياه بطحان كانت أجنة ، وروى ابن اسحق ، أنه « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرفه الله عن نبيه ﷺ . قالت (عائشة) : فكان

---

(١) السمهودي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨

(٢) احمد بن محمد القسطلاني ، كتاب ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ وما يليها (القاهرة ١٢٨٨ هـ)

Lammens, le berceau de l'Islam, t. I. p. 23

(٣) السمهودي ، ج ٢ ص ٢١١

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٢٣٨ — السمهودي ، ج ١ ص ٣٧

(٥) نفس المصدر

أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت : كيف تجدك يا أبت أي كيف تجد نفسك ؟ فقال :

كل امرىء مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... ان الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمي جلده بروقه

قالت : فقلت ما يدري عامر ما يقول. وقالت: وكان بلال إذا تركته الحمى، اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته وقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولي أذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل[1]

ويجمع الأخباريون على أن الوباء كان شديداً عند دخول النبي يثرب ، وذكر ابن اسحق عن هشام بن عروة قال : « وكان وباؤها معروفاً في الجاهلية»[2].

وكان مناخ يثرب معتدلاً بوجه عام [3] ، وقد هيأ ذلك الجمال بالإضافة إلى توافر المياه وخصوبة التربة إلى اشتغال سكانها بالزراعة، وجل زراعة يثرب تقوم على النخيل والشعير والقمح ، وعلى الفواكه مثل العنب والرمان والموز والليمون

---

(1) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٢٤٨ — الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، ص ٣٢١ — السمهودي ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٤٠ — عمدة الأخبار ، ص ٢٨٢ . والشامة والطفيل جبلان بمكة ، ومجنة اسم سوق بأسفل مكة .

(2) نفس المصدر ، ص ٤١

(3) يذكر ياقوت « انها طيبة الريح » (مادة مدينة يثرب ، ص ٨٧)

والبطيخ ، والخضروات [1] . وقد أثرى كثير من أهل يثرب من الزراعة ومنهم مخيريق اليهودي الذي أثرى وكثرت أمواله من النخل [2] .

ج - سكان يثرب :

يزعم الأخباريون أن أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخيل ، وعمر بها الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع ، العماليق ، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان يسكن المدينة منهم بنو هف وسعد بن هفان ، وبنو مطرويل [3] ، ثم نزل اليهود بيثرب ، وكان سبب نزولهم بيثرب وأعراضها وفقاً لروايات الأخباريين أن موسى ابن عمران بعث بعثاً منهم إلى العماليق فقاتلوهم حتى قتلوهم ، وكان هذا أول سكنى اليهود بالحجاز ويثرب [4] . ويستبعد الدكتور جواد علي هذه الرواية لافتقارها إلى سند [5] . ولكن بني قريظة يزعمون أن « الروم ظهروا على الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً ، فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم ، فلما فصلوا من الشام وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم ، فأعجزوا رسله وفاتوهم » [6] . وذكر بعض الرواة والأخباريين أن علماء اليهود كانوا يجدون في التوراة صفة النبي ، ﷺ ، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة حرصاً منهم على اتباعه ، فلما رأوا تيماء ، وقيل المدينة ، وفيها النخل عرفوا صفته ، وقالوا هو البلد الذي نريده ، فنزلوا [7] . ويميل الدكتور جواد علي إلى الأخذ برواية بني قريظة إذ تتضمن شيئاً من الحق .

---

(1) أحمد الشريف ، ص ٣٥٦ وما يليها

(2) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٦

(3) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٤ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١١٠

(4) السمهودي ، نفس المصدر ، ص ١١٢

(5) جواد علي ، ج ٤ ، ص ١٨٢

(6) ياقوت ، نفس المصدر — السمهودي ، ص ١١٢

(7) نفس المصدر — السمهودي ، ص ١١٦

فلما كان سيل العرم ، نزل يثرب قبائل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة ابن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وأمهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ، وقيل قيلة بنت هالك بن عذرة من قضاعة ، وقيل قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد ، ولذلك سمي الأوس والخزرج بنو قيلة . وكان ملك بني إسرائيل على يثرب الفيطوان ، وقيل القطيون ، وكان رجلاً مستبداً يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله منهم مالك بن العجلان بن زيد السالمي الخزرجي وفر إلى الشام ، فنزل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة ، وقيل فر إلى اليمن وقصد تبع الأصغر بن حسان تبع ، ويميل الأخباريون إلى الأخذ بفراره إلى الشام . فوعد أبو جبيلة الغساني [1] بنصرة الخزرجي ، وسار إلى يثرب ، وتحايل على قتل رؤساء اليهود ، فصار الأوس والخزرج منذ ذلك الحين سادة يثرب وصارت لهم الأموال والآطام ، وتفرق الأوس والخزرج في عالية المدينة (جنوبها) وسافلتها (شمالها حتى أحد) [2] . وقصة استبداد القطيون بيثرب واعتدائه على نساء الأوس والخزرج تشبه قصة استبداد عملوق الطسمي في اليمامة بجديس واعتدائه على نسائها الأمر الذي دعا الأسود بن عفار سيد جديس إلى قتل عملوق [3] .

كانت يثرب في الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من السكان: اليهود والعرب :

١ ـ اليهود :

أدت الثورات التي قام بها اليهود في أورشليم على الرومان إلى قيام هؤلاء

---

(١) لعله الحارث بن جبلة الغساني

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٦ ـ السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٦ وما يليها

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٢٦ وما يليها

بتشتيتهم وطردهم من فلسطين ، وتهديم معبدهم على يد الامبراطور الروماني طيطس ، في سنة ٧٠ م ، وفرت جموع كثيرة من اليهود على أثر ذلك إلى جزيرة العرب ، فاستوطن بعضهم أخصب بقاع الحجاز في يثرب وفدك وخيبر ووادي القرى وتيماء ، كما نزل بعضهم اليمن ، وتمكنوا من تهويد جماعة من أهلها [١] .
وكان يعيش في يثرب عند هجرة اليهود إليها جماعات يهودية قديمة كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة ، وتغلبت عليها من أصحابها العماليق ، فمجتمع يثرب سنة ٧٠ م كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على البقي يثرب [٢] ، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم [٣] ، واختاروا من جزيرة العرب أخصب مواضعها مثل وادي القرى ، وهو واد خصب غزير المياه كان محطة من محطات الطريق التجاري القديم الذي يصل بين الشام واليمن ، ومثل واحة خيبر وهي حرة خصبة ذات مياه وفيرة .

وفي يثرب أقام اليهود آطاماً وهي حصون يلجأون إليها في أوقات الغارات ويتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتال ، كما حدث عند حصار الرسول ليهود بني النضير في العام الرابع للهجرة ، فتحصنوا منه في الحصون [٤] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما أصاب الله اليهود من نقمته في قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار » [٥] .

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ، ص ١٧٨
(٢) محمد احمد براتق (ومحمد يوسف المحجوب) محمد واليهود ، سلسلة « مع العرب » عدد ٤) ص ١٦ — محمد جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلاميه ، ص ٤٢
(٣) محمد احمد براتق ، ص ١٦
(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ص ٢٠٠
(٥) القرآن الكريم ، سورة الحشر ٥٩ آية ٢

كان يهود يثرب يتجمعون في قرى أعدوا فيها هذه الحصون والآطام ، وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى هذه القرى ، في قوله تعالى « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »[1]. وكان ليهود يثرب بيت يعرف باسم بيت المدراس[2] كان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم وربانيوهم يتدارسون التوراة ويفصلون فيما شجر بينهم . وكان اليهود عندما نزل بينهم وحولهم الأوس والخزرج يزيدون على عشرين قبيلة ، وذكر ابن النجار أن آطامهم كانت تسعة وخمسين أطما ، وللعرب النازلين عليهم قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما[3].
وكان ممن بقي من يهود يثرب عند نزول الأوس والخزرج : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو محجم ، وبنو زعورا ، وبنو قينقاع ، وبنو ثعلبة ، وأهل زهرة ، وأهل زبالة ، وأهل يثرب ، وبنو القصيص ، وبنو ناعصة ، وبنو ماسكة ، وبنو القمعة ، وبنو زيد اللات وهم رهط عبدالله ، وبنو عكوة ، وبنو مرانة[4]. وكان جمهور اليهود ينزلون بمجتمع السيول : سيل بطحان والعقيق وسيل قناة ، وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وعمرو ، فنزلوا بالعالية على واديي مذينيب ومهزور ، فنزل بنو النضير على مذينيب ، ونزل بنو قريظة وهذل على مهزور ، وكانوا أول من احتفر بها الآبار واغترس الأشجار ، وابتنوا الآطام والمنازل[5]. ومن أولاد هذل أو هدل ثعلبة وأسد ابنا سعية ، وأسد بن عبيد ، ورفاعة بن سموأل ، وسخيت ومنبه ابنا هذل[6] . وكان بنو قينقاع يسكنون عند منتهى جسر

(1) القرآن الكريم : سورة الحشر ٥٩ آية ١٤
(2) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ص ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢
(3) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٥ ــ السمهودي ، ج ١ ص ١١٦ . وذكر ابن النجار انه نزل المدينة قبل الاوس والخزرج أحياء من العرب من انيف من بلى ومن بني مريد ، وبني معاوية من الحارث بن بهثة بن قيس عيلان وبني الجذماحي من اليمن.
(4) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦ ــ السمهودي ج ١ ، ص ١١٢
(5) نفس المصدر ، ص ٣٢٥
(6) السمهودي ، ج ١ ، ص ١١٤

بطحان مما يلي العالية ، ونزل بنو حجر عند المشربة التي عند الجسر ، ونزل بنو زعورا عند مشربة أم ابراهيم ، ونزل بنو زيد اللات قريباً من بني غصينة [1].

وأكبر هذه القبائل اليهودية ثلاث : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع عاشت في منازلها من يثرب ، وبجوارهم أقامت بطون يهودية صغيرة ، وتأثر اليهود بجيرانهم العرب ، فانقسموا إلى قبائل وبطون ، واتخذوا أسماء عربية ، وكانوا يتخاطبون بالعربية ، ولكنها كانت عربية تتداخل فيها رطانة عبرية[2]، ولكنهم مع ذلك ظلوا يؤلفون طبقة متحاجزة عن "عرب" فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التي قدموا منها، كما أنهم سموا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية ، فوادي بطحان يعني بالعبرية، الاعتماد، ووادي مهزور معناه مجرى الماء، وبئر أريس لا ينسب إلى شخص بهذا الاسم ، ولكن أريس تعني في اللغة العبرية الفلاح الحارث [3]. وكان اليهود يخشون على أنفسهم من جيرانهم العرب ، ولعلهم أدركوا أن قراهم الخصبة ومزارعهم الغنية بالأشجار والثمار ، ووديانهم التي تفيض بالمياه ، وآبارهم وعيونهم العديدة ، سوف توجه إليهم أنظار عرب الصحراء ، ولذلك عمدوا إلى الإكثار من بناء الآطام والحصون، وازدادت هذه الحصون كثرة بعد نزول الأوس والخزرج وتطلعهم إلى السيادة والغلبة .

٢ – العرب :

كان يسكن يثرب قبل نزول اليهود الأوائل قبائل عربية تنسب إلى العماليق، وقد تغلب اليهود الوافدون على العرب ، وأصبحت لهم السيادة عليهم ، فلما تكاثر اليهود في المدينة عقب هجرتهم من أورشليم بعد عام ٧٠ م ، أصبحت لهم الغلبة على يثرب وعلى القبائل العربية التي كانت تسكنها ، فقد ذكر ابن النجار أنه كان يسكن يثرب مع اليهود بطون عربية من اليمن ومن بلي ومن سليم بن منصور بن

(١) المرجع السابق ، ص ١١٦

(٢) ولفنسون (اسرائيل) : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٠

(٣) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٦٨

عكرمة من قيس عيلان ، وبقايا من العماليق [١] .

ثم كانت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب بعد هدم سد مأرب ، والأوس والخزرج في روايات الأخباريين ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس الذي يرتفع نسبه إلى الأزد بن الغوث بن مالك بن كهلان . وينسبون قبـــائل الأوس إلى أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقـــاء ابن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثـة الغطريف بن امرىء القيس البطريق [٢] .

نزل الأوس والخزرج في يثرب وأقاموا مـــع اليهود ، وكانت الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، وكانت الغلبـة والمنعة لهم أيضاً ، فسألهم الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم من بعض ، فتعاقدوا وتحالفوا ، واشتركوا وتعاملوا [٣] . أما الأوس فقد سكنوا جنوب وشرق يثرب ، وأما الخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب ، وجاوروا قبيلة بني قينقاع اليهودية .

بنو الأوس

أنجب الأوس بن حارثة مالكا ، فأنجب مالك بن الأوس عوفاً وعمراً (وهو النبيت) ومرة (وهم الجعـادرة) وجشم ، وامرئ القيس ، وأمهم كلهم هند بنت الخزرج . أما عوف فأنجب من الأولاد عمراً والحارث ، وهما أهل قباء ، ومن أولاد عمرو بن عوف : عوف وثعلبة وحبيب ووائل ولوذان. أما عمرو بن مالك فقد أنجب الخزرج بن عمرو، وعامر بن عمرو (وهم النبيت)، فمن الخزرج ابن عمرو : الحارث وكعب ، فكان للحارث بن الخزرج جشم وحارثة ، وكان

---

(١) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٥

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٣١٢

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦ ـ السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٥

لجشم عبد الأشهل وزعوراء وعمرو والجريش .

أما جشم بن مالك بن الأوس فكان له من الولد : عبد الله (وهو خطمة) ، وأما امرىء القيس بن مالك : فقد كان له من الولد : مالك والسلم.

وأما بنو مرة بن مالك وهم الجعادرة فهم : عامر وسعد ، فكان لعامر من الولد قيس .

بنو الخزرج :

ولد للخزرج بن حارثة خمسة هم : عمرو وعوف وجشم وكعب والحارث

أما عمرو فأنجب ثعلبة ، وأنجب ثعلبة تيم الله وهو النجار ، وأنجب النجار مالك وعدى ومازن ودينار .

وأما عوف فقد كان له من الولد . عمرو وغنم وقطن ،فأنجب عمرو بن عوف عوفاً وسالماً وغنما وعنزاً .

وأما جشم ، فكان له من الأولاد : غضب وتزيد ، ومن ولد غضب مالك ، وأنجب تزيد بن جشم ساردة .

وأما الحارث فأنجب الخزرج وجشما وزيداً وعوفاً وصخراً وجرد شا .

وأما كعب بن الخزرج فكان من ولده ساعدة ، فأنجب ساعدة الخزرج ، فأنجب الخزرج طريفاً وعمراً ، ومنهم سعد بن عبادة [1] .

★ ★ ★

رأينا أن الأوس والخزرج الوافدين عقدوا مع اليهود المتغلبين على يثرب وأصحاب العدد والقوة جواراً وحلفاً ، يأمن به بعضهم من بعض ، ويمنعون به

---

(1) ابن قتيبة : المعارف : ص ٣٦ ، ٣٧ — ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣١٢ — ٣٢١ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ص ٥٩٨ وما يليها

من سواهم [1] . ويبدو أن يهود يثرب رحبوا بعقد هـذا الحلف لضمان سيادتهم على يثرب ، ولكي يستخدموا حلفاءهم في رد أي غزو خارجي على يثرب ، ثم أنهم كانوا يسمون إلى الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب في المدن والتجمعات العمرانية المجـاورة ليثرب ، ووجود أحلاف لهم في يثرب يمكّن نفوذهم على المدينة من جهة ، ويقوي تظاهرهم بالاندماج بين العرب من جهـة ثانية ، ويسبغ على سيادتهم على يثرب نوعاً من الشرعية . ولعلهم كانوا يفكرون في الإفادة من خبرات هؤلاء الوافدين من عرب اليمن في المجـال الزراعي وهي خبرات اكتسـبوها منذ القدم في أراضيهم اليمنية التي هاجروا منها ، فأرادوا أن يتخذوا منهم أعوانـاً في فلاحة الأرض ، ويصطنعوهم في الأعمال التجارية التي برع عرب الجنوب فيهـا ، فيشتغلون لحسابهم ، وبذلك تنمو ثرواتهم ، وتزداد أموالهم .

وقنع الأوس والخزرج باديء ذي بدء بتحالفهم مع اليهود وبالاشتغال لهم ، علهم يصيبوا من وراء ذلك مكاسب تهيىء لهم مشاركة اليهود في استغلال مصادر الثروة في يثرب ، والاستئثار مستقبلا بهذه الثروات عندما يقوون عليهم . ومع أن الأوس والخزرج قنعوا بمجاورة اليهود ، ومع أن هؤلاء كانوا متفوقين على العرب من حيث الغلبة العددية والقوة ، فقد كانوا يخشون أن يقوى العرب عليهم ذات يوم ، فيتمكنوا من انتزاع السيادة على يثرب من أيديهم ، فتراهم يكثرون من اتخاذ الآطام والحصون ، ويراقبون العرب عن كثب . ومضى على الحلف المنعقد بين اليهود والعرب زمان طويل ، فأثرى الأوس والخزرج ، وصار لهم مال وعدد ، « فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم ، وقد حطم الحلف الذي كان بينهم ، وكانت قريظة أعدوا وأكثروا ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود ، حتى نجم منهم مالك بن العجلان ، أخو بني سالم بن عوف

(1) ابن رستة ، ص ٦٢ ـ الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦

ابن الخزرج [1] .

واستبد اليهود بعرب يثرب ، وكانت اليهود بعد الغلبة والكثرة ، وعز على العرب أن يستبد بهم أغراب لا تربطهم بالعرب صلة، وكان قد ظهر من بين الأوس والخزرج شاب قوي طموح هو مالك بن العجلان ، سوده الحيان عليهما ، وأنف مالك أن يظل قومه تحت رحمة اليهود في الوقت الذي استطاع ذووه من بني عمرو ابن عامر الأزد أن يصيبوا ملكاً لهم في الشام ، والعراق والبحرين ، فعزم على أن يضع حداً لتسود اليهود على قومه ، فوثب بزعيم يهودي يقال له الفطيون وقتله ، وخرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جبيلة الغساني ، من ملوك غسان [2] ، وقيل أن مالك أرسل إلى أبي جبيلة الغساني رسولاً من قومه هو الدمق بن زيد ابن امرىء القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج [3] . ويستبعد السمهودي ما ذكره الأخباريون من اعتداء الفطيون ملك يهود يثرب على بنات الأوس والخزرج، وسواء أرسل مالك رسولاً من قبله أم ذهب هو بنفسه إلى ملك غسان لالتماس نصرته على يهود يثرب ، فإن الملك الغساني لم يتردد في تسيير حشد من قواته إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج ، ويذكر الرواة وأصحاب الأخبار أن ملك غسان « عاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلهم ويصيرهم تحت يد الأوس والخزرج » ، وذكروا أنه سار إلى بلاد العرب متظاهراً بقصد بلاد اليمن حتى اقترب من يثرب ، واتصل بوفد من الأوس والخزرج ، فاتفق معهم على أن يتكتموا خبر وصوله حتى لا يتحصن اليهود في آطامهم فلا يقدر العرب عليهم ، ونصحه الأوس والخزرج بأن يدعوهم للقائه ، ويتلطف بهم ،

---

(١) ابن رسته ، ص ٦٢ — الدرة الثمينة ، ص ٣٢٧ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٥

(٢) ذكر ابن حزم ان ابا جبيلة الملك الغساني الذي استنصر به مالك بن العجلان لقتل يهود المدينة كان ابنا لعبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. (ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٣٣٦) . ولكننا لم نسمع عن احد ملوك غسان يحمل هذا الاسم او ينتسب الى الخزرج ، وليس من بطون الخزرج غساني (راجع السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٦) ، والارجح انه احد بني الخزرج سار الى الشام ونزل في ديار الغساسنة وانتسب اليهم ، واصبح اميرا من امرائهم .

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٧

حتى يأمنوا جانبه فيتمكن منهم ، فصنع ملك غسان لليهود طعاماً ، وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فقدموا ، ثم وثب بهم وقتلهم عن آخرهم . فلما تم له ذلك أصبح للعرب الغلبة على يهود يثرب ، « فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال »، وتفرقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها ، وبعضهم نزل في مناطق لم تكن مأهولة ، فعمرها ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قرى يثرب ، واتخذوا الأموال والآطام ، فابتنوا مائة وسبعة وعشرين أطماً[1] .
وروى السمهودي عن ابن زبالة أن بني عبد الأشهل بن جشم ، وبني حارثة بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك نزلوا دار بني عبد الأشهل بطرف الحرة الشرقية ، وابتنى بنو عبد الأشهل أطماً يقال له واقم ، وبه سميت الناحية كما ابتنوا أطماً يقال له الرعل ، وآطاماً أخرى غيرهما . وابتنى بنو حارثة أطماً اسمه المسير ، آلت ملكيته إلى بني عبد الأشهل بعد خروج بني حارثة من ديارهم إلى موضعهم الذي نزلوه في الشمال الشرقي من يثرب ، وذلك عقب حرب قامت بينهم وبين بني عبد الأشهل . ونزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قباء ، فابتنوا أطماً يقال له الشنيف ، وأطماً آخر يقال له واقم بقباء في جنوب يثرب . وكان في رحبة بني زيد بن مالك بن عوف ١٤ أطماً يقال لها الصياصي ، كما ينسب إليهم أطم بالمكينة إلى الشرق من مسجد قباء ، وأطم يقال له المستظل . ونزل بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف وراء بقيع الغرقد ، وابتنى بنو لوذان أطماً يقال له السعدان ، وابتنى بنو واقف بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس أطماً يقال له الزيدان ، ونزل بنو خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، ومن بين آطامهم أطم يقال له صع درع جعلوه كالحصن للقتال . أما بنو الحارث بن الخزرج فنزلوا دارهم بالعوالي أي شرقي وادي بطحان ، وابتنوا أطماً يقال له السنح وبه سميت الناحية . ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج دارهم المعروفة بدار بني سالم ، وتقع على طرف الحرة الغربية ،

(١) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٧ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ١٢٤

غربي الوادي ، ببطن رانونا ، وابتنوا آطاما منها المزدلف الذي بناه عتبان بن مالك، ومنها الشماخ والقواقل . وآطام بني الخزرج كثيرة لا تتسع لها صفحات هذا البحث[1] . ويربط بعض المؤرخين المحدثين نكبة يهود يثرب بنكبة يهود اليمن ، ويجعلون النكبة الأولى نتيجة من نتائج النكبة الثانية ، ويعزون أسباب هاتين النكبتين إلى سياسة الدولة البيزنطية التي دفعت الأحباش في الجنوب إلى هدم كيان اليهود في اليمن ممثلا في الدولة الحميرية الثانية،والغساسنة في الشمال،إلى التدخل في يثرب لتعضيد الأوس والخزرج ونصرتهم على اليهود[2]. ولكننا نستبعد أن يكون لتدخل الغساسنة في شؤون يثرب صلة بنكبة يهود اليمن، فمن المعروف أن هذا التدخل لم يكن ليتم لولا استنجاد أحد بني الخزرج بأمير من قومه انتسب إلى غسان هو أبو جبيلة الغساني الذي يجعله ابن حزم من ولد عبدالله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، الذي لم يتردد في نصرة قومه ، فسار بجمع من الغساسنة إلى يثرب، أقل من أن يكون فرقة من جيش، بحيث نصحه جماعة من الأوس والخزرج باصطناع المكر والخديعة في القضاء على رؤساء اليهود ووجوههم على النحو الذي ذكرناه . وقد رأينا من قبل أن قصى بن كلاب،عندما جد الجد واصطدم مع خزاعة في مكة، أرسل إلى أخيه رزاح بن ربيعة بن حرام القضاعي يدعوه إلى نصرته ، فقدم إليه رزاح في جموع من بني عذرة وقضاعة ، وانتهى الأمر بانتصار قصى .

ولو أن البيزنطيين هم الذين دفعوا الغساسنة ضد يهود الحجاز ، فلماذا اقتصر ذلك على يثرب دون غيرها من مناطق نفوذ اليهود في الحجاز مثل خيبر وتبوك وتيماء ووادي القرى ؟

أقام الأوس والخزرج بعد غلبتهم على يهود يثرب متفقي الكلمة ، متحدي الصفوف ، حينا من الزمن ، ثم ساءت العلاقات بين الأخوين ، ووقع الخلاف ، وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما كثيرة امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية، أولها

(١) راجع منازل الأوس والخزرج وآطامهم ، في السمهودي ، ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥

(٢) ولفنسون ، ص ٥٩ — ٦١

حرب سمير ، ثم يوم السرارة ، ثم يوم الديك ، ويوم فارع ، ويوم الفجار الأول والثاني ، وكان آخرها يوم بعاث ، وقد حدثت هذه الحرب قبل الهجرة بخمس سنوات [1]. وفي هذه الأيام والحروب استعان فريق من العرب على الآخر بقبيلة يهودية تحالف معها على خصومه من بني جلسه . ويبدو أنه كان لليهود في يثرب يد في نشوب الخلاف بين العرب بعضهم بعضاً ، وأنهم كانوا يسعون إلى تفتيت وحدتهم حتى ينالوا منهم وتعود لهم السيادة في يثرب [2] . وكانت الغلبة في جميع الأيام السابقة لبعاث للخزرج على الأوس ، و فلما رأت الخزرج أنها قد ظفرت بالأوس افتخروا عليهم في أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البياضي : يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي غسلاً حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير وأقتل رهنهم . وكانت لهم غزار المياه وكرام النخيل ، [3] . وعلى هذا النحو التقت أهداف الأوس ويهود قريظة والنضير ، فتحالفوا . وقامت الحرب بين الأوس والخزرج على أثر ذلك في بعاث وهو حصن ، وانتهى اليوم بهزيمة الخزرج [4] ، وفيه تقول عائشة رضي الله عنها : « كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم ، وجرحوا ، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام » [5] .

وأصل النزاع الذي نشب بين حيي العرب في يثرب يرجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية ، أما الاقتصادية فيدل عليها أن رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي كان يتطلع إلى إنزال قومه في منازل بني قريظة والنضير ، وكانت أكثر مياهاً وأكرم نخلاً من منازل الأوس . وأما الأسباب السياسية

---

(١) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٥٥

(٢) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٢٨

(٣) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٥٢

(٤) ابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤١٨ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١٥٤

(٥) صحيح البخاري ، طبعة مصر ، ١٣٤٨ هـ ، ج ٥ ، ص ٢٠٨

فرجحها أن انتصار العرب على اليهود تم على يد مالك بن العجلان والخزرجي ، فالمسألة أصبحت في نظر الأوس والخزرج مسألة تنافس سياسي على الرئاسة في يثرب، إذ لم يقبل الأوس أن يتباهى عليهم الخزرج،ويصبح لهم الذكر والشرف في يثرب .

ومهما كان أصل النزاع ، فإن نتيجته في النهاية وإن كانت في صالح الأوس ، لم تؤد إلى القضاء نهائياً على الخزرج، بل إن الأوس لم ينساقوا وراء يهود بني قريظة والنضير ، وقنعوا بحد سطوة الخزرج، وفطن الأوس والخزرج معاً إلى ما يسعى إليه اليهود من ضرب فريق منهم بالآخر حتى تصبح لهم السيادة ، وكانت الحرب بينهما قد سببت لهم خسائر كثيرة في الأرواح وفي الأموال والأملاك ، فسعدوا إلى تحقيق السلام في يثرب ، وفكروا في تولية واحد منهم أميراً وسيداً عليهم، ويبدو أنهم توصلوا إلى اتفاق نهائي في هذا الشأن ، فكان سيد الخزرج عبد الله ابن أبي بن سلول العوفي، وكان سيد الأوس أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد ، وقد شقي هذان السيدان بشرفهما عند ظهور الإسلام. أما عبد الله بن أبي بن سلول،«فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الاسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن »[1]. وأما أبو عامر بن عبد عمر بن صيفي « فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله ﷺ » ، وظل مقيماً بمكة حتى افتتحها النبي ، فخرج إلى الطائف . فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريداً غريباً وحيداً[2].

---

(1) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

(2) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٥

د – الحياة الاقتصادية :

أرض يثرب من أخصب أراضي الحجاز ، فهي أرض بركانية خصبة، تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون ، وأرض على هذا النحو من الخصب تكون صالحة للزراعة ، وقد رأينا أن النخيل كان أهم مزروعات يثرب ، وعليه كان يعتمد سكانها [١] . وتمر يثرب الصيحاني يفوق تمور غيرهـا [٢] . وكان الشعير يؤلف المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعيـة ، وكان طعام الناس بيثرب الشعير والتمر ، أما الموسر منهم فكان يبتاع من الدرمك ما يخص به نفسه [٣] . وكان يزرع أيضاً القمح والكرم وفواكه أخرى كالرمان والموز . ومن مصادر الثروة الزراعية أيضاً حب البان ، ومنها كان يحمل إلى سائر البلدان [٤] . وإلى جانب الاشتغال بالزراعة ، كان الاشتغال بالتجارة من الأعمال الرئيسية في يثرب، ففيها نشطت حركة التجارة الداخلية ، وكانت تقام بيثرب الأسواق المختلفة لبيع التمور والشعير والحطب والصوف والسلاح . ومن الأسواق المعروفة في الجاهلية سوق بني قينقـاع ، وسوق زبالة ، وسوق الجسر ، وسوق الصفاصف ، وسوق البطحاء ، وفيها كان بنو سليم يبيعون الخيل والإبل والغنم والسمن [٥] ، وكانوا يجلبون إلى أسواق يثرب من الطائف الزبيب ، ومن اليمن المنسوجات القطنيـة والحريرية ، ومن الشام الحنطة . وكانت التجارة مع الشام واليمن تتبع الطريق البري المعروف والطريق البحري عبر البحر الأحمر. ويذكر اليعقوبي أن « البحر الأعظم (أي البحر الأحمر) منها على ثلاثة أيام ، وساحلها موضع يقال له الجار ، وإليه ترسي مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام من مصر » [٦]. وكانت الجار على حد قول ياقوت : « فرضة ترفأ إليهـا السفن من أرض الحبشة ومصر

---

(١) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٧

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٢٧٨

(٤) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٢٥ — ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٨٧

(٥) السمهودي ، ج ١ ، ص ٥٤٤

(٦) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٣

وعدن والصين وسائر بلاد الهند... وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلاً في ميل ، لا يعبر إليها إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة ، يقال لها قراف ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار »[1].

ولقد قامت في يثرب بعض الصناعات التي تعتمد على الإنتـاج الزراعي مثل صناعة الخمور من التمر ، وصناعة المكاتل والقفف من سعف النخل ، والنجارة من شجر الطرفاء والأثل ، وهو شجر يكثر في غابة يثرب[2]. واختصت يثرب أيضاً بصناعة التحف المصنوعة من المعادن كالحلى وأدوات الزينة وبصناعة الأسلحة والدروع. وقد احترف اليهود وخاصة يهود بني قينقاع هاتين الصناعتين[3]، ولذلك غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع من المدينـــة كثيراً من الدروع والسيوف والأقواس ، ووجدوا في حصونهم سلاحاً كثيراً وآلة للصياغة[4]. كذلك غنم المسلمين من بني قريظـة ألفاً وخمسمائة سيف وألفي رمح وألفاً وخمسمائة ترس وحجفة وثلاث مائة درع[5].

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الجار ، مجلد ٢ ص ٩٢
(٢) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٦
(٣) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٩٨
(٤) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ١٤٢
(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ قسم ١ ص ٥٤ طبعة ليدن ١٣٢٥ هـ)

البَابْ الخامِسْ

الحياة الاجتماعية والدينية

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي

(١) النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي

(أ) القبيلة أساس التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي
(ب) المثل العربي في إيثار القوة والبغي واستطابة الموت في ساحة المعركة
(ج) النظم الحربية في العصر الجاهلي
(د) أيام العرب

(٢) الحياة الاجتماعية

(أ) المجتمع القبلي في الجاهلية : طبقات المجتمع العربي
(ب) الأغنياء والفقراء
(ج) صفات العرب : الكرم - الشجاعة - العفة - الوفاء
(د) المرأة في المجتمع الجاهلي
١ - الأسرة ٢ - دور المرأة في السلم والحروب

– ١ –

النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي

ا – القبيلة أساس التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي :

تعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية ، ذلك لأن القبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ، ورابطة العصبية هي شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ،وهي على هذا النحو مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة ، وتعادل في وقتنا الحاضر الشعور القومي عند شعب من الشعوب [١] ، وإن كانت رابطة الدم فيهـــا أقوى وأوضح من الرابطة القوميـــة ، لأن العصبية تدعو إلى نصرة الفرد لأفراد قبيلته ظالمين كانوا أم مظلومين . وتقوم العصبية على النسب ، وهي لذلك تختلف باختلاف الالتحام بالأنساب [٢].

والعصبية عند العرب نوعان :(١)عصبية الدم، وهي أساس القرابة في البيت

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٣٤ – جواد علي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ – الحسنة القديمة ، مكة والمدينة ، ص ٥٠

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ، ص ٢٤

الواحد ، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة . (٢) عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه [١] .

هذا النحو لم تكن للمجتمع الجاهلي نزعة قومية شاملة ، لأن الوعي السياسي فيه كان ضيقاً محدوداً ، لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى الجد ، « فقوميتها قومية ضيقة ، وجنسيتها جنسية النسب ، من انتمى إليها بنسب كان منها ، ومن لم يمت إلى نسبها عد غريباً عنها ، فلا تشمله العصبية »[٢] . وهكذا كان المجتمع العربي في الجاهلية مجتمعاً مفتتاً من الناحيـــة السياسية إلى وحدات سياسية متعددة ، قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة ، إذ أن العصبية فيه قضت على فكرة الترابط السياسي ، حتى في حالة الانتساب إلى إحـــدى المجموعتين الكبيرتين : العدنانية والقحطانية ، مما أدى إلى قيام صراع بين هاتين العصبيتين ، وهو صراع كان من أثره إضعاف الدولة الأموية وسقوطها ، في نهاية الأمر .

والقبيلة في البادية دولة صغيرة ، تنطبق عليهـا مقومات الدولة ، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فمن المعروف أن أهل الوبر لم تكن لهم أوطان ثابتة بسبب تنقلهم الدائم وراء مصادر الماء والعشب ، وكان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لهذه القبائل المتبدية على التنقل والتحرك ، كما كان سبباً في اعتزازهم بالعصبية ، التي أملتها الظروف الصعبة المحيطة بهم . وبفضل العصبية أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها ، والتغلب على غيرها ، لتضمن لنفسها مورداً لحياتها . ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية صراعاً دائماً ، والصراع هجوم ودفاع ، فالهجوم يتم بقصد الحصول على مزيد من الرزق ، والدفاع يقومون بـه للحفاظ على وجود القبيلة ، والدفاع والهجوم يتطلبان التكتل والدخول في أحلاف

(١) جواد علي ، ج ١ ، ص ٢١٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٢١٤

مع القبائل الأخرى . ولهذا اعتبر قانون البادية قانون الغاب ، وقوامه « الحق في جانب القوة » ، فمن كان سيفه أمضى وأقوى ، كانت له الكلمة والغلبة وكان الحق في جانبه[1] . »

وكان النظام القبلي أيضاً دعامة الحياة السياسية في الممالك العربية والامارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب ، وفي حواضر الحجاز وفي الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق ، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن والحواضر في شعب واحد ، كالشعب الروماني أو الشعب الفارسي ، وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلي[2] ، على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها ، بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم[3] .

ومن الملاحظ أن احتفاظ القبائل ببداوتها ووحشيتها يضمن لها الاحتفاظ بقوتها والتغلب على غيرها ، وذلك لأنها تعتمد في حياة البادية على العصبية مصدر قوتها . أما إذا اختلطت هذه القبائل بمناطق متحضرة ، فان خشونتها لا تلبث أن تتلاشى وتزول[4] . والسبب في ذلك يرجع إلى عوامل منها : الزواج من أعجميات ، أو بالنقلة من قبيلة إلى أخرى أو بالاستلحاق أي بانتساب عبد من العبيد لقبيلة عن طريق زواجه بامرأة من نسائها أو عن طريق إلحاق أبناء أم ولد بنسب رجل عربي . ومن هذه العوامل أيضاً الولاء ، وهو دخول خليع ، أي شخص خلعته قبيلته ، في قبيلة أخرى بقصد أن تحميه فيصبح مولى لها ، ويدخل نسبه بمرور الزمن في نسبها ، ومنها أيضاً الحلف ، وهو تحالف فريقين من قبيلتين مختلفتين وتعايشهما وانصهار أحدهما وهو الاضعف في الفريق الآخر وهو الأقوى[5] . وعلى الرغم من اعتزاز أهل القبيلة في البادية بفرديتهم ، فانها فردية

---

(١) جواد علي ، ج ١ ، ص ٢١١

(٢) أحمد الشريف ، ص ٢٤

(٣) ابن خلدون : المقدمة : ٢ : ص ٢٦)

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٣٨

(٥) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ١٥٠

منسجمة ومتماسكة مع الجماعة ، بحكم رابطة العصبية ، فالفرد يلبي نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها في ساعات الخطر ، فينصرها وينصر إخوانــه ظالمين كانوا أم مظلومين ، ثم إنه يقبل تحمل بعض مسؤولية أعمال غـيره ، فيساهم في دفع الديات للقتلى من القبيلة الأخرى أو الفداء عن الأسرى من قبيلته ، ولهذا فان روح الديموقراطية والمساواة كانت الأساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي، وكان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم[1] ، وكانوا يسمونه بالرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد[2]،وكانوا يشترطون في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة ، وأشدهم عصبية ، وأكثرهم مالاً ، وأكبرهم سنـــاً ، وأعظمهم نفوذاً، كذلك كان من الضروري أن تتوافر فيه صفات محمودة كالسخاء والبيان والحلم والحنكة والحكمة والشجاعة، فرب هفوة صغيرة تصدر منه تثير حرباً أو تسبب كارثة للقبيلة وللحلف الذي تتزعمه ، ذلك لأن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها أقل الكلمات ، لا سيما إذا كان الامر يتعلق بالشرف والجاه[3] ، ولهذا السبب كانت القبيلة تعتز بكرامتها ، وقد يؤدي هجاء شاعر من الشعراء لشيخ من شيوخها أو لفرد منها إلى قيام الحرب بين قبيلة هذا الشيخ أو الفرد وبين قبيلة الشاعر ، وكان للشاعر لذلك شأن كبير في حيـاة القبيلة ، ومنزلة[4] ، وكان إذا نبغ في إحدى القبائل شاعر أتت القبائل،فهنأتها بذلك. كذلك كان للخطباء أثر كبير في الدفاع عن القبيلة ، وفي تعظيمها عند غيرها ،

---

(١) لم يكن العرب يتقبلون مبدأ الوراثة في الرئاسة ، بل كانـــوا يأنفون من التسود عن طريق الوراثة ، والى هذا المعنى يشير عامر بن الطفيل احد سادات بني عامر :

واني وان كنـت ابـن سيد عامر	وفي السر منهـا والصريح المهذب
فما سودتني عامر عـن وراثـة	ابـى الله ان اسمو بـأم ولا اب
ولكنني احمي حماهـا واتقـي	اذاها وارمي من رماهـا بمقنـب

(المسعودي ، المروج ، ج ٢ ، ص ٥٥)

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦٤ — احمد الشريف ، ص ٢٥

(٣) جواد علي ، ج ٤ ، ص ٢١٥

(٤) الالوسي ، ج ٢ ، ص ٨٤ — جواد علي ، ج ٤ ، ص ٢١٦ — عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٥١ — احمد الشريف ، ص ٢٦

أو في دفعها إلى الحرب[1] ، ففصاحة الخطيب ، وقدرته على الإقناع تدفع الناس إلى الانقياد إليه والامتثال لأوامره ، والناس في الجاهلية كانوا أحوج إلى ما يستنهض هممهم ، ويفتح أعينهم، ويقيم قاعدهم، ويشجع جبانهم،ويشد جنانهم، ويثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ، صيانة لعزهم أن يستهان ، وتشفياً بأخذ الثار ، وتحرزاً من عار الغلبة وذل الدمار ، فكانوا أحوج إلى الخطب بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأييد مفاخرهم[2] .

وكان على شيخ القبيلة أيضاً أن يعين الضعفاء، ويفتح بيته للنزلاء والأضياف، ويدفع الديات عن فقراء قبيلته . وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته إلى جانب امتيازاته الأخرى في المرباع (أي ربع الغنيمة) ، والصفايا (أي ما يصطفيه شيخ القبيلة من الغنائم قبل أن يجري القسمة) ، والحكم (أي إمارة الجند) ، والنشيطة ، (أي ما أصيب من المال قبل اللقاء) ، والفضول (ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة)[3] ، فقد كان من النادر أن يستبد في حكمه وفي رئاسته للقبيلة ،لأنه كان مضطراً إلى مبايعة أهل الرأي في القبيلة . ولا يختلف الأمر عن ذلك كثيراً في المجتمعات الحضرية ، فمن المعروف أن مجتمع الحواضر كان ينقسم إلى قسمين :

١ - القبيل أو الجماعة ، وهم جمهور القبيلة وعامتها

٢ - الملأ ، وهم علية القوم وأشراف القبيلة وكبار أعيانها

ويجتمع الملأ في مجلس يعرف بدار الندوة ، أو المنتدى ، أو النادي (كما جاء في القرآن الكريم) لتصريف أمور قبيلتهم ، وكان مجلس القبيلة أو دار الندوة في الحاضرة يجتمع للفصل في الخصومات ، والتباحث في مشاكل القبيلة .

---

(١) الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٢ ، ص ١٥١ وما يليها — أحمد الشريف ، ص ٢٦

(٢) الالوسي ، نفس المصدر

(٣) ابن الاثير ، ج ١ ، ص٣٧٥ ،حاشية رقم (١) . ويجمل عبد الله بن عنمة الضبي حقوق شيخ القبيلة في البيت التالي :

لك المرباع والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ب – المثل العربي في ايثار القوة والبغي واستطابة الموت في المعركة ،

كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية ، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان ، ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الطريق، ويعبر عمرو بن كلثوم عن ذلك في قوله :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمينا وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا[1]

وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق ، فالحق هو القوة أو الحق في جانب القوة ، وفي هذا المعنى الفلسفي العميق يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

وفي سبيل التوصل إلى الحق استطاب العربي الموت في ساحة الوغى، وازدرى الموت حتف الأنف ، وأنف منه ،فالميتة الكريمة هي أن يموت الرجل في ميدان الحرب ، ويعبر عمرو بن معد يكرب عن هذا المعنى بقوله :

وقرب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد[3]

كذلك يشف عن هذا المثل العربي قول الشاعر عمرو بن كلثوم :

معاذ الاله أن تنوح نساؤنا على هالك أو نضج من القتل

---

(١) تراجم أصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ، ١٣٢٩ م ، معلقة عمرو بن كلثوم ،ص٥٦

(٢) أبو العباس احمد بن يحيى الشيباني ، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٣٠ – تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٢٣

(٣) البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد ، كتاب الحماسة ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٠ ، ص ٣٦

قراع السيوف بالسيوف أحلنا ... بأرض براح ذي أراك وذي أثل (١)

ويقول السموأل بن عادياء صاحب حصن تيماء :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل (٢)

ويعبر دريد بن الصمة عن حياة العربي في دوام التاهب للحرب إما في طلب الثأر لنفسه أو توقعاً لثأر منه ، فيقول :

أبى القتل إلا آل صمة أنهم ... أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر

فإما ترينا لا تزال دماؤنا ... لدى واتر يسعى بها آخر الدهر

فإنا للحم السيف غير نكيرة ... ونلحمه أحياناً وليس بذي نكر

يغار علينا واترين فيشتفي ... منا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطر (٣)

وقد ظلت هذه الروح الجاهلية مغروسة في قلب الجاهلي حتى جاء الإسلام فخمد أوارها بعض الشيء ، ثم انبعثت في أقل من نصف قرن عندما تنازعت العصبيتان المضرية واليمنية ، وفي ذلك يقول قطري بن الفجاءة :

ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة ... يعصرها من ماء مقلته عصرا

---

(١) الالوسى ، بلوغ الارب ، ج ١ ، ص ١١٣

(٢) ديوان السموأل ، تحقيق عيسى سابا ، بيروت ١٩٥١ ، ص ١٦

(٣) احمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٥٨
— شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٤

وإنا إناس ما تفيض دموعنا ... على هالك وإن قصم الظهرا

ولكني أشفي الفؤاد بغارة ... ألهب في قطري كتائبها جمرا

ج – النظم الحربية في العصر الجاهلي :

لم يكن عند قبائل العرب المتبدية جيوش منظمة، ولكن جميع أفراد القبيلة شيوخاً وشباناً كانوا يلبون نداء القبيلة عندما يستنفرهم رئيسها، وقد رأينا أن العرب، كانوا يندفعون في ذلك وراء العصبية. وكانت النساء يشاركن الرجال في الحرب، إما لبعث الحمية والحماسة في قلوب الرجال، كما فعلت نساء شيبان وبكر بن وائل وعجل في يوم ذي قار، فأنشدت إمرأة منهن :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل ... إيها فداء لكم بني عجل[1]

وأنشدت ابن القرين الشيبانية تحث قومها الاستبسال :

إيها بني شيبان صفاً بعد صف ... أن تهزموا يصبغوا فينا القلف[2]

وكما فعلت مذحج يوم فيف الريح، وكان بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب[3]، عندما حملت معها النساء والذراري حتى لا يفر الرجال من المعركة، ويعبر ابن كلثوم عن ذلك بقوله :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً ... إذا لاقوا كتائب معلمينا

ليستلبن أفراساً وبيضاً ... وأسرى في الحديد مقرنينا

---

(١) ابن الاثير، ج ١ ص ٢٩٠

(٢) نفس المصدر، ص ٢٩١

(٣) نفس المصدر، ص ٣٨٧ – محمد احمد جاد المولى وآخرون، ايام العرب، القاهرة، ١٩٤٢، ص ١٣٢

يقتن جيـــادنا ويقلن لستم   بعولتنـــا إذا لم تمنعونا[1]

وفي موقعة أحـــد اشتركت نساء قريش الوثنيات في المعركة ، لتشجيع المشركين فخرج أبو سفيان بامرأتين : هند بنت عتبة، وأمية بنت سعد بن وهب ابن أشيم من كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفي والنعوم بنت المعذل من كنانة ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد الأوسية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته أم حكيم بنت الحارث ابن هشام، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه بن الحجاج، وخرجت خناس بنت مالك ابن المضرب مع ابنها أبي عزيز بن عمير العبدري ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق بن علقمة ، وخرج سفيان بن عويف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط من صؤاب الحبشي غلام أبي طلحة بعد أن قطعت يداه ، وأخذه بصدره وعنقه حتى قتل، وظلت ترفعه حتى تراجعت قريش [2].

وجعلت نساء المشركين قبل المعركة يضربن بالأكبار والدفاف والغرابيل في مقدمة صفوف المشركين ، ومعهن المكاحـــل والمراود ، ثم يرجعن إلى مؤخرة الصفوف ، وجعلن كلما ولى رجل حرضنه وذكرنه قتلاهم ببدر[3]. وكانت هند بنت عتبة وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال ويقلن :

نحن بنات طـــارق   نمشي على النـــمارق
إن تقبـــلوا نعانق   أو تدبروا نفـــارق
فراق غـــير وامق[4]

---

(1) محمد احمد الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠
(2) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ١٥٩ — ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ٦٠، ٨١
(3) الواقدي ، نفس المصدر ، ص ١٧٩
(4) نفس المصدر ، ص ١٧٦ — ابن هشام ، ج ٢ ص ٧٢

ومما قالته هند أيضاً :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار [1]

وفي معسكر المسلمين كانت النساء المسلمات وعلى رأسهن فاطمة بنت الرسول يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، فكانت أم سليم بنت ملحان، وعائشة أم المؤمنين تحملان على ظهريهما القرب ، وكانت حمينة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن تسقي الجرحى[2]. وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب مع المسلمين كالرجال عندما بدت علامات الإعياء على مقاتلة المسلمين ، وقد حجزت ثوبها على وسطها ، وأخذت تذب عن الرسول بسيفها ، ورمت المشركين بقوسها ، وأبلت يوم أحد بلاء حسناً ، وكان جهادها مفخرة من مفاخر الإسلام . وذكروا أنها جرحت اثني عشر جرحاً ما بين طعنة برمح أو ضربة بسيف [3].

أما في الممالك والإمارات ، فقد كان اعتماد المملكة أو الامارة على جيوش دائمة ، بالاضافة إلى ما كانت تقدمه القبائل التابعة لها من رجال في وقت الحرب، فكان لملك الحيرة كتيبتان إحداهما فارسية يقال لها الشهباء، والثانية عربية تسمى دوسر [4]. وعرف عرب الحيرة نظام الكراديس والكمائن عن الفرس ، فتمكن بنو شيبان بفضل مهارتهم في تعبئة الكراديس وتنظيمها من التغلب على الفرس وأنصارهم في يوم ذي قار [5] .

---

(١) ابن هشام ، ج ٣ ص ٧٢

(٢) الواقدي ، ص ١٦٥

(٣) الواقدي ، ص ٢١٠ ، ٢١١ — ابن هشام ، ج ٣ ص ٨٧

(٤) راجع ما ذكرناه عن هذه الكتائب بينما كتبناه عن النعمان الاول بن امرىء القيس الثاني في القسم المخصص للمناذرة .

(٥) راجع ما كتبناه عن هذه الموقعة في القسم المخصص للمناذرة ، وراجع أيضاً الحوفي ص ١٦٨ — احمد الشريف ، ص ٧٨

كذلك عرف العرب نظام الميمنة والميسرة [١] ، ففي موقعة أحـد ، صف المشركون صفوفهم ، فوضعوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ، وكانت لهم مجنبتان تتألفان من مائتي فارس[٢] ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص ، وعلى الرماة عبدالله بن أبي ربيعة ، وكانوا مائتي رام ، وتولى حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة. كذلك صف الرسول أصحابه ، فجعل على الرماة عبدالله بن جبير وقيل سعد بن أبي وقاص ، وجعل جبل أحد خلفه مستقبلاً المدينة ، وعدل لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عبادة [٣].

وكان العرب يستخدمون العيون لترصد العدو ، واستطلاع حالته ، كما حدث عندما أرسل امرىء القيس عيونه إلى بني أسد [٤].

واستعمل العرب في حروبهم ١ ــ **السيوف** ، ومنها السيوف المشرفية ، وهي سيوف تنسب إلى مشارف الشام ، وهي قرى قرب حوران [٥] ، وفي السيوف المشرفية يقول الشاعر :

نجيــد الطعن بالسمر العوالي   ونضرب بالسيوف المشرفيـــة [٦]

ومنها السيوف الهندية أو المهندة ، وتنسب إلى الهند ، وفيها يقول عنترة :

---

(١) وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وكنـــا الايمنـين اذا التقينـــا   وكان الايسريـــن بنـــو ابينـــا

(تراجم اصحاب المعلقات العشر ، ص ٥٦)

(٢) ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٧٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٠ وما يليها ــ محمد أحمد الحوفي ، ص ١٦٨ ، ١٦٧

(٤) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٠٧

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مشارف ، مجلد ٥ ص ١٣١

(٦) الحوفي ، ص ١٧٨

أقحمت مهري تحت ظل عجاجة ... بسنان رمح ذابــل ومهند [1]

ويقول أيضاً :

وتطربني سيوف الهنـد حتى ... أهيم إلى مضاربهــا اشتياقا [2]

ومنها السيوف السريجية نسبة إلى سريج أحد بني معرض بن عمرو بن أسد ابن خزيمة ، وكانوا قيوناً [3] . ومنها السيوف اليمنية ، التي يقول فيها عنترة :

بأسمر من رماح الخط لدن ... وأبيض صارم ذكر يمان [4]

٢ – ومن آلاتهم الرماح، وأجودها الآزنيــة أو اليزنية [5] نسبة إلى ذي يزن الملك ، والرماح الخطية ، نسبة إلى خط وهو موضع بالبحرين ، كان يجلب إليه الرمــاح القنا من الهند ، فتقوم فيه وتباع على العرب [6] ، وفيهـا يقول عمرو ابن كلثوم :

بسمر من قنا الخطى لدن ... ذوابــل أو ببيض يختلينا [7]

ويقول عنترة بن شداد :

بأسمر من رمــاح الخط لدن ... وأبيض صــارم ذكر يمان

ومنها أيضاً الرماح الردينية نسبة إلى امرأة تدعى ردينــة ، كانت تصنع الرماح ، وفي هذه الرماح يقول عنترة :

---

(١) شرح ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبــي ، بدون تاريخ ، ص ٧١

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٤

(٣) الالوسي ، ج ٢ ص ٦٣

(٤) شرح ديوان عنترة ، ص ١٧٩

(٥) الالوسي ، ج ٢ ، ص ٦١

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الخط ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٨

(٧) كتاب تراجم اصحاب المعلقات العشر ، ص ٤٧

إذا خصمي تقاضاني بـــديني ... قضيت الدين بالرمـح الرديني[1]

ومنها السمهرية ، نسبة إلى زوج ردينة ، وفيها يقول عنترة :

وأطعن في الهيجا إذا الخيل صدها ... غداة الصبـاح السمهري المقصد[2]

والرمح إذا طالت العنزة وفيها سنان دقيق تسمى نيزك ومطرد ، فإذا زاد طولها وزودت بسنان عريض سميت حربة . ومن الأسنة نوع يقال له القعضبية نسبة إلى قعضب القشيري ، وكان يصنعها ، ومنها الشرعبية .

٣ – ومن آلاتهم القسي والسهام ، وأجودهـــا الصفورية والماسخية[3] . والكنانة هي حافظة النبال ، والنبال هي سهام مريشة ذات نصال .

٤ – ومن الآلات الحربية الدرع ، وهو الرداء المتخذ من الزرد ، وقوامـه حلقات متصلة من الحديـد تغطي الظهر والصدر . ومن الدروع : الفرعونية ، والحطمية ، والسلوقية[4] .

٥ – ومنها البيضة أو المغفر ، وهي الخوذة توضع على الرأس لوقايتـه من ضربات السيوف ، وفي البيض يقول عمرو بن كلثوم :

علينـا البيض واليلب اليماني ... وأسياف يقمن وينحنينا[5]

٦ – ومنهـــا المجن ، وهو الترس أو الدرق ، وكانت تصنع من الجلود بلا خشب[6] .

---

(١) شرح ديوان عنترة ، ص ١٧٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٧

(٣) الآلوسي ، ج ٢ ص ٦٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٦

(٥) كتاب تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٥٣

(٦) الآلوسي ، ج ٢ ص ٦٦

٧ – ومن آلاتهم أيضاً المنجنيق والعرادة ، وهما آلتان لرمي الحجارة [١] .

★★★

وكان الأسرى يساقون بعد المعركة مصفدين بالأغلال ، ويعبر عن ذلك عمرو ابن كلثوم إذ يقول :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا [٢]

وقوله :

للستلبن أفراساً وبيضاً وأسرى في الحديد مقرنينا [٣]

ويستخدم الأسرى عبيداً عند الغالبين ، يسخرونهم لخدمتهم ، إلى أن يفتديهم أهلوهم بمال ، والفداء عادة يكون بدفع عدد كبير من البعير ، ويتفاوت الفداء حسب مقدرة أهل الأسير . وقد يتعرض الأسرى للقتل كما فعل المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة بأسرى بني حجر بن عمرو [٤] ، وكما فعل المنذر مع أسرى بكر بن وائل ، إذ قتلهم ذبحاً على قلة جبل أوارة [٥] ، وقتل الأسير كان من الأمور المستقبحة عند العرب [٦] ، وقد يكتفي بجز ناصية الأسير وإطلاق سراحه بعد ذلك إذلالاً له ، واعتزازاً بالعفو عنه عند المقدرة ، ويحتفظ الغالب بناصية الأسير رمزاً لانتصاره [٧] ، وتعبر الخنساء عن ذلك بقولها :

---

(١) نفس المرجع ، ص ٦٨ – الحوفي ، ص ١٨٢ – ١٨٨

(٢) كتاب تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٥٢

(٣) نفس المرجع ، ص ٥٤

(٤) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ٣٠٥ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير بني مرينا ، ص ٥٠١ ، وفيهم يقول امرؤ القيس الشاعر :

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا

(٥) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٢٤

(٦) الحوفي ، ص ١٩٧

(٧) الألوسي ، ج ٢ ص ١٥ – الحوفي ، ص ١٩٧

جززنا نواصي فرسانهم … وكانوا يظنون أن لا تجزا
ومن ظن ممن يلاقي الحروب … بأن لا يصاب فقد ظن عجزا
نضيف ونعرف حق القرى … ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس في الحرب سرد الحديد … وفي السلم خزا وعصبا وقزا [1]

وكان العرب، في بعض الأحيان، إذا أسروا شاعراً ربطوا لسانه بنسعة حتى لا يهجوهم إذ كان الهجاء في الجاهلية أخف وقعاً على الأعداء من وقع الرماح وفي ذلك يقول عبد قيس بن خفاف البرجمي :

وأصبحت أعددت للنائبات … عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحد السنان … ورمحاً طويل القناة عسولا [2]

وفي ربط لسان الشاعر يقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي من قصيدة، عندما أسرته تيم في يوم الكلاب :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة … أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا [3]

أما السبايا من النساء، فكن يتخذن زوجات أو أمهات ولد .

وإذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى، كان لزاماً على قبيلة القتيل أن تطلب الثأر من القاتل، فتطالب بتسليمه لتقتص منه، ولكن تسليم القاتل يعتبر عاراً على قبيلته، كما أن قبول الدية من قبيلة القاتل يعتبر عاراً لقبيلة القتيل التي تسعى إلى الظفر بالقاتل. فإذا امتنعت قبيلة القاتل أن تسلمه إلى قبيلة القتيل، وعمدت إلى حمايته والذود عنه، فإنها تدخل في حرب بينها وبين قبيلة القتيل، وقد تمتد الحرب بذلك سنيناً حتى يتدخل لفضها وسطاء الخير من قبائل أخرى. وقد تقبل بعض القبائل دفع الديات، وكانت دية النفس عند عامة القبائل مائة من الإبل، ولكن دية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بعير [4].

---

(١) نفس المرجع، ج ٣ ص١٧

(٢) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، بيروت ١٩٦٦، ص ٧٢

(٣) الالوسي، ج ٣ ص ١٧ — الحوفي، ص ١٩٩

(٤) الالوسي، ج ٣ ص ٢٤

ويعتبر أهل القتيل في العادة أنفسهم مرضى نفسانياً حتى يدركوا وترهم ، وكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية منها جز الشعور وشق الجيوب وخمش الوجوه وخروج الأبكار وذوات الخدر [1] ، كما فعل آل كليب عندمـــا قتله جساس ، وفي ذلك يقول مهلهل :

كنا نغـار على العواتق أن ترى ... بالأمس خارجة من الأوطان

فخرجن حين ثوى كليب حسرا ... مستيقنـات بعـــده بهوان

يخمشن من أدم الوجوه حواسراً ... من بعده ويعدن بالأزمـان

كذلك يقصرون الثياب ويمتنعون عن أكل اللحم وشرب الخمر والاختلاط بالنساء ويحرمون القمار ، كما حدث عندما امتنع امرىء القيس ، عندما بلغه نبأ مقتل أبيه ، عن أكل اللحم وشرب الخمر والتطيب والاقتراب من النساء ، حتى يدرك ثأره [2].

د – أيام العرب :

نقصد بأيام العرب الوقائع والمعارك التي نشبت بين قبائل العرب في الجاهلية ، وهي وقائع كانت تنشب لأسباب متعددة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعيـة أو نفسية ، فبعض القبـائل كانت ترى الغزو أمراً طبيعياً لتسود وتسيطر وتستأثر بالرئاسة والسؤدد ، كالحرب التي قامت في يثرب بين الأوس والخزرج ، أو لتتخلص من حكم أجنبي ، كالحرب التي قامت بين ربيعة واليمن بقصد رغبة ربيعـة في التحرر من طاعة اليمن . وقد يكون الهدف اقتصادياً ، فإن ضيق أسباب الحياة في الجزيرة العربية أوجد حركة مستمرة نحو الماء والمرعى ، والتسابق على موارد المياه ومنابت العشب كان سبباً في قيام الحرب بين المتسابقين [3] ، أو بين الوافدين

---

(1) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣١٦

(2) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣١٨ – ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ص ٥٢ – شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢٣٧

(3) جواد علي ، ج ٤ ص ٣١٤

والنازلين بهذا الموضع من قبلهم. وقد يكون الدافع للحرب مجرد الرغبة في الغزو كالوقائع التي قامت بين تميم وبكر في يوم النباج وثيتل [1] ، أو الاستجابة لما تتطلبه التبعية للروم أو للفرس مثل يوم عين أباغ ويوم حليمة. وقد تكون لأسباب نفسية نابعة من الرغبة في الدفاع عن الكرامة والشرف ، أو بسبب اعتداء على ضيف أو حليف ، أو بسبب قصيدة في الهجاء ، أو بسبب العصبية .

وهكذا كانت حياة العرب قتال في قتال ، دماء تسفك ، ودماء تراق ، ولم يكن يطفىء الدم إلا سفك دم جديد ، ويتجدد القتل والثأر ، وتتوارث القبائل المتخاصمة الثارات ، حتى إذا تفاقم الأمر وأتت الحرب على الحرث والنسل ، تداعوا إلى الصلح ، وتحمل الديات والمغارم [2] . ولكثرة سفك الدماء اصطلح العرب على أشهر أربعة حرموا فيها القتال تعرف بالأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب [3] ، ومع ذلك فقد كان النسأة ينسئون الشهور أي يؤخرونها ويحرمون مكانها أشهراً يحل فيها القتال ، وأول من نسأ الشهور حذيفة ابن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، وفي ذلك يقول عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك يفخر بالنسأة على العرب:

لقد علمت معد أن قومي ... كرام الناس أن لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما ؟ [4]

وأيام العرب كثيرة للغاية ، وعلى الرغم من كثرة ما رواه الأخباريون عنها ،

---

(1) جرجي زيدان ، ص٢٥٧
(2) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٦٢
(3) ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ص ٥١
(4) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

فإنهم لم ينقلوا منها إلا عدداً قليلاً من الأيام التي كان لهـــا أهمية خاصة وأهملوا الأيام التي لم تكن لها آثار هامة في حياة العرب. وذكروا أن أبا عبيدة (ت سنة ٢١١ هـ) صنف كتاباً أفرده لرواية ١٢٠٠ يوم من أيام العرب، وللأسف لم يصل إلينا [1] . ومعظم هذه الأيام تحمل أسماء المواضع التي قامت بجوارها أو قريباً منها مثل يوم ذي طلوح ، ويوم النباج ، ويوم خزاز ، ويوم جدود ، ويوم ذي قار ، ويوم فلج ، ويوم أوارة ، ويوم الوقيظ ، ويوم عـين أباغ ، ويوم قشاوة ، ويوم الشيطين ، ويوم الرحرحان ، ويوم الذنائب . وقد تسمى بعض أيام العرب بأسماء من تسبب في قيامها ، مثل حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء أو بالمناسبة التي حدثت فيها مثل حرب الفجار .

وتختلف أيام العرب بحسب وقوعها بين المتخاصمين ، فهناك أيام حدثت بين القبائل القحطانية وحدها ، وأيام وقعت بين العدنانية وحدهـــا ، وأيام وقعت بـين القبائل القحطانية والعدنانيـــة ، وأيام وقعت بين الغساسنة أتباع الروم والمناذرة أتباع الفرس ، ومنها يومان وقعا بين العرب والفرس هما يوم ذي قــار ويوم الصفقة .

وأيام العرب غير متسقة وفقاً لترتيب وقوعها وتسلسل أزمانهـــا ، بحيث يصعب على الباحث تنظيمها على أساس تاريخي . وسنقتصر هنا على تلخيص بعض الأيام المشهورة :

١ - يوم خزاز (أو خزازي) :

ذكر ياقوت أن خزاز جبل بطخفة بنجد ما بين البصرة إلى مكة [2] ، ويوم خزاز من الوقائع الكبرى التي وقعت بين العدنانية والقحطانية، بين معد ومذحج

---

(١) وذكر الألوسي ، أن أبا الفرج الأصفهاني استقصى حسب امكانه أيام العرب في كتاب أفرده لذلك فكانت ألفاً وسبعمائة يوم (الألوسي ، ج ٢ ص ٦٨)

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، مادة خزاز ، ص ٣٦٥

وانتهت بانتصار معد ، وإلى هذه الواقعة يرجع الفضل في تحرر عرب عدنان من التبعية لحمير . وسبب هـذا اليوم أن مضر وربيعة اجتمعوا على أن يجعلوا منهم ملكاً يقضي بينهم ، فكل أراد أن يكون منهم ، ثم تراضوا على أن يكون من ربيعة ملك ، ومن مضر ملك ، ثم اختلفت بطون مضر وربيعة على ذلك ، وأخيراً اتفقوا على أن يتخذوا ملكاً من اليمن ، فملكت بنو عامر شراحيل بن الحارث ابن عمرو المقصور الذي يرتفع نسبه إلى كندة ، وملكت بنو تميم وضبة محرق بن الحارث ، وملكت وائل شرحبيل بن الحارث ، وملكت تغلب وبكر سلمة بن الحارث ، وملكت بقية قيس غلفاء وهو معد يكرب بن الحارث ، وملكت بنو أسد وكنانة حجر بن الحـارث ، ثم ثار بنو أسد بحجر وقتلوه ، ونهضت بنو عامر على شراحيل فقتلوه ، وقتلت بنو تميم محرقاً ، وقتلت وائل شرحبيل ، ولم يبق من بني آكل المرار غير سلمة .[1]

وأراد سلمة بن الحارث أن يثأر لإخوته ، فجمع جموع اليمن وزحف إلى الشمال ليقتل نزاراً ، وبلغ ذلك نزاراً ، فاجتمع منهم بنو عامر بن صعصعة وبنو وائل تغلب وبكر ، وبلغ الخبر إلى كليب وائل[2] فجمع ربيعة ، وقدم على مقدمته السفاح التغلبي واسمه سلمة بن خالد ، وأمره بأن يعلو جبل خزازي ، فيوقد به النار ليهتدي الجيش بناره ، وأوصاه أن يوقد نارين إذا غشيه العدو ، وأقبل سلمة ومعه جموع قبائل مذحج ، وهجمت مذحج على خزازي ليلاً ، فرفع السفاح نارين ، فأقبل كليب في جموع ربيعة إليهم ، فصبحهم بخزازي ، واشتبك الفريقان وانتهى ذلك بانتصار ربيعة وهزيمة اليمن . وفي انتصار معد يقول عمرو ابن كلثوم التغلبي :

ونحن غداة أوقد في خزازي　　رفدنا فوق رفـــد الرافدينا

برأس من بني جشم بن بكر　　ندق بــه السهولة والحزونا

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في دراسات في تاريخ العرب ، ص ١٢١ — ١٢٥

(٢) هو وائل بن ربيعة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل

وفي يوم خزازي يقول عمرو بن زيد :

كانت لنا بخزازي وقعة عجب	لما التقينا، وحادي الموت يحديها
ملنا على وائل في وسط بلدتها	وذو الفخار كليب العز يحميها
قد فوضوه وساروا تحت رايته	سارت إليه معد من أقاصيها
وحمير قومنا صارت مقاولها	ومذحج الغر صارت في تعانيها

ويوم خزاز على حد قول أبي زياد الكلابي أعظم يوم التقته العرب في الجاهلية ، ففيه تحررت معد من سيطرة حمير ، وظلت معد ممتنعة قاهرة اليمن حتى جاء الإسلام [1].

٢ - حرب البسوس :

تعتبر من الحروب الهامة في تاريخ العرب في الجاهلية ، فقد كانت حرب البسوس معارك متفرقة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، ودامت وقائعها نحواً من أربعين سنة منذ نشبت في العشر سنين الأخيرة من القرن الخامس الميلادي إلى أن انسحب عدي بن ربيعة المعروف بمهلهل فيما يقرب من سنة ٥٢٥ م [2] . وقد ضرب العرب بحرب البسوس المثل ، فقالوا : « أشأم من سراب » .

وتفصيل حرب البسوس أن لواء ربيعة بن نزار كان يتوارث بين بنيه من الأكبر إلى الأكبر من ولده ، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة ، ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد ، ثم تحول إلى النمر بن قاسط بن هنب ، ثم إلى بكر بن وائل ثم إلى تغلب ، فوليه وائل بن ربيعة ،

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٣١٠ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة خزاز ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ — جرجي زيدان ، ص ٢٥٤ — عمر فروخ ، ص ٩٧ ، ٩٨

(٢) عمر فروخ ، ص ٩٨

المعروف بكليب[1]، بطل يوم خزازي ، وكانت معد قد شرفته فجعلت له التاج والطاعة وأصبح سيد بني معد ، فدخله زهو شديد وبغى على قومه ، وكان لكليب حمى من العالية لا يقربه أحد قط ، ولا يتجرأ شخص أن يطأه ، وجعل في حمايته بعض أنواع الوحش حتى كان يقول: «وحش أرض كذا في جواري فلا يصاده»[2].

وأصبح الناس لا يرعون إبلهم مع إبله ، ولا يوقدون ناراً مع ناره ، ولا يتجرأ أحد أن يمر بين بيوته . ثم تزوج كليب امرأة من شيبان من بكر هي جليلة بنت مرة بن شيبان أخت جساس بن مرة ، واتفق أن رجلاً يقال له سعد بن شميس ابن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس ، وكان للجرمي ناقة اسمها سراب تركها ترعى مع نوق جساس في حمى كليب . فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها ، فأتاها وتردد فيها ، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة ، فنظر كليب إلى سراب ، فأنكرها وسأل جساساً ، وكان في صحبته ، عن أمرها ، فأخبره بخبرها ، فأمره كليب بإبعادها عن حماه ، فاستاء جساس من ذلك لأن الجرمي نزيله وضيفه وله عليه حق الجوار ، فلم يملك غضبه وقـال لكليب ، « لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها » ، فقال كليب: « لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها » ، فرد عليه جساس بقوله : « لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك »[3] . وافترقا ، فذهب كليب إلى زوجته وقص عليها ما حدث بينه وبين أخيها جساس ، فخافت عاقبة التنافر والتحدي ، وأصبحت إذا أراد الخروج إلى الحمى منعته وناشدته الله أن لا يقطع رحمه ، وكانت تنهى أخاها جساساً أن يسرح إبله . وخرج كليب يوماً إلى الحمى ، وجعل يتصفح إبله ، فرأى ناقة الجرمي ، فرمى ضرعها ، فأنفذه ، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء

---

(1) لقب بكليب لانه كان اذا سار أخذ معه جرو كلب ، فاذا مر بروضة أو بموضع اعجبه ضربه ثم القاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي ، فلا يسمع عواءه أحد الا تجنبه (ابـــن الاثير ، ج 1 ص ٣١٢)

(2) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣١٣

(3) نفس المصدر

صاحبها . فلما رأى ما بها صرخ بالذل، وسمعت البسوس صراخ جارها، فخرجت إليه ، فلما رأت ما حل بناقته ، وضعت يدها على رأسها وصاحت : «واذلاه»، وكان جساس حاضراً ، فأسكتها وسكن الجرمي ، وقال لها: « إني سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالا » ، وكان غلال فحل إبل كليب ، وكان جساس يقصد بمقالته كليباً، وخرج جساس يتحين الفرص لينال مرامه من كليب فخرج كليب يوماً آمناً ، فلما بعد عن البيوت، ركب جساس فرسه وحمل رمحه وسار في أثره يتعقبه ، حتى أدركه ، وقال لكليب: « يا كليب الرمح وراءك »، فقال: « إن كنت صادقاً فاقبل إلى من أمامي » ، فلم يعبأ جساس بما قاله، وطعنه من الخلف فأرداه قتيلا ، ولما علم قوم كليب بقتله دفنوه . وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه ، وخرجت الأبكار وذوات الخدور إليه ، وطردوا جليلة بنت مرة لأنها أخت قاتل كليب . وكان لكليب أخ اسمه مهلهل ، يضرب به المثل في الشجاعة ، وكان يوم مقتل أخيه عاكفاً على الشراب، فلما بلغه مقتله جز شعره ، وقصر ثوبه وهجر النساء ، وترك الغزل ، وحرم القمار والشراب ، وجمع قومه للثأر ، وأرسل منهم وفداً إلى بني شيبان وعليهم مرة بن ذهل بن شيبان في نادي قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقـــة ، وقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة . وإنا نعرض عليك خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع: إما أن تحيي لنا كليباً ، أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به أو هماما فإنــه كفء له ، أو تمكننا من نفسك ، فإن فيك وفاء لدمه » . فقال لهم: « أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه ، وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل ، فما أتعجل الموت . ولكن لكم عندي خصلتان : أما إحداهمـا فهؤلاء أبنائي الباقون ، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، وأما الأخرى ،فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر

الوبر »[1] . فغضب القوم ، ونشبت الحرب بينهم ، فكان أول قتال بينهم ، في قول ، يوم عنيزة عند فلج تكافأ فيه الفريقان ، ثم التقوا بعد فترة في ماء يقال له النهي ،ثم التقوا بالذنائب وهي أعظم وقائع البسوس، فظفرت بنو تغلب وقتل شراحيل بن مرة بن همام بن ذهل وقتل الحارث بن مرة،وقتل عمرو بن سدوس ابن شيبان ، وغيرهم من رؤساء بكر . ثم التقوا يوم واردات ، فظفرت تغلب أيضاً وكثر القتل في بكر ، فقتل همام بن مرة .

ومن أيام البسوس أيضاً ، يوم القصيبات ، ويوم قضة ، ويوم النقية ، ويوم الفصيل ، ودامت الحرب أربعين سنة قتل فيها جساس على يدي المجرس بن كليب . ولم تنته الحرب إلا بعد أن قام قيس بن شراحيل بن مرة بالصلح بين بكر وتغلب ، بعد أن ترك مهلهل ديار قومه إشفاقاً عليهم من استمرار الحرب، ومضى إلى اليمن ، ونزل في جنب وهي حي من مذحج[2] .

٣ – حرب داحس والغبراء :

تعتبر هذه الحرب من أيام العدنانية المشهورة ، وحدثت بين بني عبس وبين بني ذبيان وبني غطفان ، وكانت مناوشات استمرت زهاء أربعين سنة (من ٥٦٨ إلى ٦٠٨ م) . وكان سببها أن حذيفة بن بدر الفزاري كانت له خيل كثيرة ، فقدم إليه فتى من عبس يقال له ورد بن مالك ، وقال له : ولو اتخذت من خيل قيس[3] فحلاً يكون أصلاً لخيلك . فقال حذيفة : خيلي خير من خيل قيس ، ولجا في ذلك حتى تراهنا على فرسين من خيل قيس هما الخطار والحنفاء، وفرسين من خيل حذيفة هما ، داحس والغبراء ، وقيل أن الرهن على التسابق كان على فرسي داحس والغبراء . واتفق حذيفة وقيس على أن يكون السباق قدر مائة وعشرين غلوة ، والسبق مائة بعير ، فخاف حذيفة أن يظفر قيس بالرهن فأقام رجلاً من بني أسد في الطريق ، وأمره أن يعترض داحساً والغبراء في وادي ذات

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣١٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ – صبح الاعشى ، ج ١ ص ٣٦١

(٣) يقصد قيس بن زهير العبسي سيد عبس

الاصاد ويعوقها عن السباق ، فلما وصل داحس إلى الثنية ، وكان سابقاً،اعترضه الأسدي ، ثم وصلت الغبراء بعده مصلية (أي الثانية) ، وتجنب راكبها طريق الثنية حتى لا يعترضه الأسدي وانتهى السباق بسبق الغبراء،وتبعها الخطار فرس حذيفة ، ثم الحنفاء فرسه أيضاً ثم جاء داحس بعد ذلك،واختلف قيس وحذيفة في السبق، وطالب حذيفة بالرهن وأرسل ابنه إلى قيس يطالبه به، فقتله قيس، فقامت الحرب بين عبس وذبيان فكانت أولى الوقائع بينهما على ماء يقال له العذق ، ومن أيامها يوم البوار ويوم ذات الجراجر ، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن تدخل الحارث بن عوف بن حارثة المري ، وهرم بن سنان ، وتم الصلح بين عبس وذبيان [1].

---

(1) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٤٣ — ٣٥٥

- ٣ -

الحياة الاجتماعية

١ ـ المجتمع القبلي في الجاهلية :

(١) طبقات المجتمع :

كان المجتمع القبلي في الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية : طبقة القبيل أو جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، وطبقة الموالى الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار ، ثم طبقة العبيد والرقيق .

أما طبقة الصرحاء فهم أبناء القبيلة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم ، وهم جمهور القبيلة ودعامتها، وكانوا يهبون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها ، وتمنحهم حق التصرف كالاجارة ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج على العرف والتقاليد ، فإذا سلك الفرد سلوكاً شائناً يسيء إلى سمعة القبيلة، ويجلب عليها العار ، نبذته القبيلة، وأخرجته منها [١] ، فيعتبر خليع قبيلته ، وعندئذ يلجأ إلى قبيلة أخرى ، فيعتبر جاراً لها أو مولى من مواليها، أو يلجأ إلى الصحراء، ويعيش على قائم سيفه وحد نصله، ويصبح صعلوكاً من صعاليك العرب ، أو مغامراً ، ليتخلص من شقاء الفقر [٢]

---

(١) أحمد الشريف ، ص ٣٤

(٢) الحوفي ، ص ٢٣٠ ــ الشريف ، ص ٣٤

وذل الفاقة ، إذ كان أبي النفس ذا أنفة .

أما طبقة الموالى ، فيدخل فيها الحلفاء وهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنها وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها ، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار ، وكان الخلع يتم في الأسواق والمحافل ، كما يدخل فيها الصعاليك المغامرون [1] كما يدخل في طبقة الموالى أيضاً العتقاء، وكانوا في الأصل عبيداً ثم أعتقوا [2].

وكان لهؤلاء الموالى سواء كانوا حلفاء أو عتقاء نفس حقوق أفراد القبيلة التي يوالونها وعليهم نفس الواجبات، ولكن رابطة الجوار كانت موقوتة ، فهي تبقى ببقاء الجار في كنف مجيره ، وتحل بخروجه ، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حل من حمايته . ولكن رابطة الحلف تبقى ، فهي رابطة قوية غير مؤقتة ، وكانت هناك أحلاف فردية وأحلاف جماعية كأن تتحالف قبيلة مع قبيلة أخرى، والحلف في هذه الحالة أشبه بمعاهدة . وقد شاع نظام الحلف في العصر الجاهلي وانتشر انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام حتى أن القبائل التي اعتمدت على نفسها ولم تدخل في أحلاف سميت جمرات العرب ، لاعتمادها على شجاعة أبنائها الفردية . ويتم الحلف عن طريق المواثيق والعهود [3] ومن أمثال الأحلاف العربية : حلف المطيبين وحلف الفضول ، وحلف الرباب ، وحلف الحمس ، وحلف قريش والأحابيش [4] . أما العتقاء فهم موالى أيضاً ، ويرتبط المعتق بسيده العاتق برابطة الولاء .

أما طبقة الرقيق فكانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع القبلي في الجاهلية ،

---

(1) من بين الصعاليك المشهورين تأبط شراً والسليك بن السلكة ، والشنفري ، وعروة ابن الورد .

(2) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ؛ ص ٦٧ — الحوفي ، ص ٢١٤

(3) كان العرب يعقدون الحلف على دم الذبائح ، أو بغمس الايدي في جفان مملوءة بالدماء أو بغمسها في الطيب كحلف المطيبين ، أو في الرب وهو عصارة الثمار ، كحلف الرباب

(4) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٧٦ — الشريف ، ص ٣١ — ٤٧

والرقيق إما أبيض أو أسود ، ومعظمهم يشترى في الأسواق ، وبعضهم يجلب من أسرى الحروب . وكان العدد الأعظم من الرقيـــق عبيداً سوداً يعرفون بالأحابيش [1] يستقدمون من الحبشة أو السودان ، ولكن بعضهم كان من بين الأسرى في الحروب ، روماً كانوا أم فرساً [2]،وكان أبناء الإماء البيض من آباء عرب يعرفون بالمجناء ، أمـــا أبناء الإماء السود ، فيطلقون عليهم اسم أغربة العرب ، ومن هؤلاء عنترة بن شداد .

وكانت طبقة العبيد في المجتمع الجاهلي طبقة محرومة من الامتيازات، بل على العكس من ذلك كانت طبقة مثقلة بالواجبـات نحو ساداتها ، وكان يوكل إليهم بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها مثل الرعي والحدادة والحجامة والتجارة. وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره.

ب — الأغنياء والفقراء :

كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف،وفريق يعاني مرارة الفقر والبؤس، أما الفريق الأول فكانوا إما يشتغلون بالتجارة،فكونوا ثرواتهم من هذا الطريق، وإما كانوا يشتغلون بالزراعة في أطراف الصحراء العربية في اليمن وفي الحيرة وفي مشارف الشام وفي الواحات الداخلية والحرات،وكان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بفقرائهم الذين يؤلفون جمهور سكان البادية .

---

(1) راجع الفصل الخاص بالاحابيش في :
Lammens, L'Arabie Occidentale avânt l'Hegire, pp. 244-257

(2) كان للرسول مولى رومي هو صهيب الرومي ، وموليان حبشيان هما بلال بن رباح وانجشة، ومولى فارسي هو سلمان ، ومولى نوبي هو يسار او بشار (راجع الفصل الخاص بموالي رسول الله في : انساب الاشراف للبلاذري ، ص ٤٦٧ — ٥٠٧ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٨، ٦٩)

ولقد صور الشعراء ما كان ينعم به أغنياء غسان والحيرة واليمن ، فالنابغة يصور ترف بني غسان ، فيصفهم بأنهم يلبسون النعال الرقاق، والثياب المصنوعة من الخز الأحمر شعار الملوك ، فيقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم ... يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الإضريج فوق المشاجب [1]

وتصف الخنساء ثياب قومها في السلم فتقول :

ونلبس في الحرب سرد الحديد ... وفي السلم خزا وعصبا وقزا [2]

أما سراة الحجاز ، فقد كونوا ثرواتهم من اشتغالهم بالتجارة والزراعة في الواحات ، وكان كل سراة قريش تجاراً ، لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار ، [3] فكانوا ينظمون عيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة فيحملونها إلى الحجاز ، وعيرا في الصيف إلى الشام، فيفرغونها في أسواق غزة وبصرى وغيرهما .

وقد أدى اختلاط القرشيين بالروم والفرس والأحباش إلى أخذهم الكثير من تقاليد هذه الشعوب ، فتأثروا بهم ، وأفادوا منهم ، وقلدوهم في اللباس والزي ، وفي الطعام والشراب ، فعبدالله بن جدعان أتى إلى العرب بطعام لا عهد لهم به ، هو الفالوذج الفارسي ، ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك ، فكان يتخذ القيان يغنينه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم ، وكان شاعره أمية ابن أبي الصلت يلقب عند العرب بحاسي الذهب [4] . ومن مظاهر ثراء قريش أن عثمان بن عفان جهز وحده جيش العسرة (تبوك) بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمها

---

(1) الحوفي ، ص ٢٢٢

(٢) الالوسي ، ج ٣ ص ١٧

(٣) سعيد الافغاني ، أسواق العرب ، ص ٩٥

(٤) الالوسي ، ج ١ ص ٨٧ ـ سعيد الافغاني ، المرجع السابق ، ص ١١٥

ألفاً بخمسين فرساً ، وهو الذي اشترى بئر رومة في يثرب ، اشترى نصفها أول الأمر باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، ثم اشترى النصف الثانية بثمانية آلاف درهم[1]. ويروي ابن سعد أنه كان له عند خازنه يوم قتل ثلاثين ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، ومائة وخمسين ألف دينار انتهبت كلها، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار [2]. وكانت تركة عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان في جملة ما تركه ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة ، كان نصيب كل امرأة منهن ثمانين ألف درهم [3].

ومن مصادر ثروات العرب الأسواق التي كانت تقوم على فرض البحر مثل سوق عدن ، وصنعاء وعمان ، أو الداخلية كحجر وحضرموت وعكاظ وذي المجاز والجنة والمربد ، وقد حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب ، فأسرفوا في ارتداء البرود والثياب الحريرية ، وحمل السيوف ، واستخدام الطيب [4].

أما الفقراء فكانوا يؤلفون سواد العرب، وقد سجل الشعر العربي أسماء كثير من الفقراء الذين عبروا بشعرهم عن الحرمان والفاقة ، فهذا عروة بن الورد يحس بازدراء الناس له لفقره ، وتفرقهم من حوله ، فيقول :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسب وخير

---

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٢

(2) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ص ٥٣

(3) نفس المصدر ، ص ٩٦ ـ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٨٠

(4) سعيد الأفغاني ، ص ١٦٧

ويقصي في الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير[1]

وهذا عبيد بن الأبرص الشاعر، لا يحفل بفراق زوجته التي لم تعد تهتم به لفقره، وأساءت معاشرتها له، فيقول :

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ألبين تريد أم لدلال
إن يكن طبك الفراق فلا أحفل أن تعطفي صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ آتيك نشوان مرخياً أذيالي
فاتركي مط حاجبيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال[2]

وصعاليك العرب، هم جماعة أصابهم الفقر، فتاقوا إلى الغنى، عن طريق المغامرة والغزو اعتقاداً منهم أن المال مال الله، وأن من حق المحروم أن يأخذ من الموسر عنوة وقسراً، وكان الصعاليك مغامرين يتسمون بالشجاعة والأنفة، ولذلك عدت الصعلكة عند العرب مفخرة ومزية لأنها شيمة الشجعان[3]، فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا في المخاطر والمغامرات وركوب الصعاب ويعبر عن ذلك بقوله :

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله مضى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر[4]

ويعتز صعلوك آخر هو أبو النشناش باللصوصية ويعجب من الفتى القانع الخانع الذي يرضى بالفقر بينما يرى الثراء أمامه مبذولاً للفتى المغامر فيقول :

---

(١) الحوفي، ص ٢٢٤، ٢٢٥

(٢) ديوان عبيد بن الابرص، ص ١١ ـ الحوفي، ص ٢٢٥

(٣) الحوفي، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٤

(٤) محمد حسين، الهجاء والهجاءون، ص ٨٢،٨٣

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه [1]

ج – صفات العرب :

١ – الكرم :

كان العربي في أوقات السلم سخياً يبالغ في كرمه ويستهين في ذلك بالمال ، فهو يعتبر الكرم إحدى مظاهر التسيد ، وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد ... وما كنت لولا ما تقولون سيدا [2]

وكان لعبهم بالميسر منبعثاً عن السخاء والكرم ، فان أثرياءهم كانوا في شدة البرد وكلب الزمان ييسرون بالقداح على جزور يجزؤونها ، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة والفقراء ، وكان الشعراء يمدحون من يأخذ القداح ، ويعيبون من لا ييسر ويسمونه البرم ، وفي ذلك يقول لبيد بن مالك :

وجزور أيسار دعوت لحتفها ... بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل ... بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصباً أهضامها [3]

فالشاعر يشير إلى جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعا ندماءه لنحرها بسهام الميسر ، حتى يبذل لحمها للجيران ، فيشبعون كأنهم نزلوا بوادي تبالة ذي السهول الخصيبة [4] .

ويتجلى كرمهم في الاحتفاء بالضيف والترحيب به ، وفي إكرام الأرامل

---

(١) نفســـه ، ص ٨٤

(٢) الحوفي ، ص ٢٣٦

(٣) الألوسي ، ج ١ ص ٧١

(٤) الحوفي ، ص ٢٣٦

واليتامى والسائلين إذا ما اشتد البرد ، وشح المطر ، ولم يجد الناس طعاماً ، وفي ذلك تقول الخنساء :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وقال مضرس بن ربعي :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما   كسى الأرض نضاح الجليد وجامده
أبيت أعشيه السديف وإنني   بما نال حتى يترك الحي حامده[1]

وكانوا يتباهون بكثرة الأضياف ، فيسمون إلى اجتذابهم في الليالي الباردة بإيقاد النار حتى يراها المسافر فيقصدها ، كذلك كانوا يجتذبون الضيف بنباح الكلاب ، وفي ذلك يقول شريح بن الأحوص :

ومستنبح يبغي المبيت ودونه   من الليل سجفا ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها   زجرت كلابي أن يهر عقورها [2]

وكان من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية إطفاء النار عندما تستنبح الأضياف الكلاب ، ويعبر عن ذلك الأخطل في هجائه لجرير بقوله :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار [3]

وممن اشتهر بالجود والكرم وضرب به المثل في السخاء حاتم الطائي ، وهو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي ، أحد شعراء الجاهلية ، وكان يعتز بأنه عبد للضيف ، وفي ذلك يقول :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً   وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد [4]

---

(1) الالوسي ، ج ١ ص ٦٢ . والسديف شحم السنام ، وكان تقديم السديف من مفاخر العرب

(2) الالوسي ، ص ٦٦

(3) محمد حسين : الهجاء والهجاؤون ، ص ٤٠

(4) الالوسي ، ص ٧٥

وفي شعر له يعد غلامه بعتقه إذا جلب ضيفاً ، فيقول :

أوقد فإن الليل ليـــل قمر والريح يا واقد ريـــح صر
عـــل يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفـاً فأنت حر[1]

ومنهم كعب بن مامة الإيادي الذي اقترن اسمه بحاتم الطائي في قول القائل:

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلا من طارف وتليد[2]

ومنهم أوس بن حارثة بن لام الطائي ، وهرم بن سنان ، وعبدالله بن حبيب العنبري ، وعبدالله بن جدعان ، وقيس بن سعد .

٢ – الشجاعة :

اتصف العرب بالشجاعـة والبأس وعدم المبالاة بالموت ، إمـــا دفاعاً عن ذمـــار القبيلة التي ينتسبون إليها أو ذبا عن الحريم وصوناً لهن من المهانة وذل السبي . وعرب البادية كانوا أكثر شجاعة من أهل المدن ، والسبب في ذلك كما يذكر ابن خلدون « أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم ، والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد ، فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم الأسوار والأبواب ، قائمون بالدفاع عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال ، وفوق الأقتاب ، ويتوجسون للنبآت ، والهيعات ، ويتفردون في القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ،

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٢

قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ »[1].

وليس أدل على صدق ما ذكره ابن خلدون من أن قريشاً عندما أثرت بسبب التجارة انصرفت عن شئون الحرب ، والبدو يحقرون التجارة بطبيعتهم ، فصاروا يعيرونها بها ، وطارت لهم أشعار في ذلك منها ما يحقر التجارة ومنها ما يقصد إلى قريش ، ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب[2] . فالمكان الأول عند العرب للفارس المقاتل والشجاع الباسل ، أما حياة الخمول كالصناعة والزراعة وهي حياة لا تكلف صاحبها أخطار المغامرة فللسوقة . ويعبر الأعشى عن ذلك ، إذ يعير إياداً بأنهم زراع ، بقوله :

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها	تكريت تنظر حبها أن يحصدا
قوماً يعالج قمّلاً أبناؤهم	وسلاسلاً أجُداً وباباً مؤصدا
جعل الإله طعامنا في مالنا	رزقاً تضمنه لنا لن ينفدا
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا	فإذا تراع فإنها لن تطردا[3]

وممن اشتهر بالشجاعة من العرب خالد بن جعفر بن كلاب العامري ، وعتيبة ابن حارث ، وعنترة العبسي ، وزيد الخيل ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن معد يكرب ، وعمرو بن كلثوم .

٣ — العفة :

إذا كان قد وجد من العرب في الجاهلية من انغمس في الملذات وتغزل في النساء

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٤١٩

(٢) سعيد الافغاني ، أسواق العرب ، ص ١٠٦

(٣) محمد حسين ، الهجاء والهجاءون ، ص ٨٥ — ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣٤

غزلاً بعيداً عن البراءة ، فقد كان من العرب من اتصف بالعفة ، وغض النظر عن نساء غيره ، وكانت العفة من شروط السيادة كالشجاعة والكرم ، وكانوا يفتخرون بالعفة ويمدحون بها ، فهذا عنترة بن شداد يقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ورثت الخنساء أخاها صخراً فنوهت بعفته وغضه الطرف عن النساء فقالت:

لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار [1]

٤ – الوفاء :

عرف العرب بالوفاء بالعهود ، وبكراهية النكث والغدر ، وضربوا المثل في الوفاء بالسموأل الذي أبى أن يسلم الحارث بن أبي شمر الغساني دروع امرىء القيس التي أودعها عنده ، وتحصن في قصره بتيماء ، فهدده الحارث بقتل ابن له ، فلم يزد ذلك السموأل إلا إصراراً ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف ، وفي ذلك يقول السموأل :

وفيت بذمة الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت

وقصة وفاء هانىء بن مسعود الشيباني لودائع النعمان معروفة ، وقد أدى وفاؤه إلى قيام الحرب بين العرب والفرس في ذي قار . كذلك ضرب المثل بوفاء حنظلة بن عفراء ، إذ حكم عليه المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء بالموت ، لأنه مر بالحيرة في بعض أيام بؤسه ، فتكفل به شريك بن عمرو لمدة سنة إذا لم يعد بعدها قتل مكانه ، ولما انتهى الأجل المحدد ، وأعد كل شيء لقتل شريك بن عمرو مكان حنظلة ، وأيقن القوم بهلاك شريك ، أقبل حنظلة من بعيد ومعه نادبته ، فتعجب المنذر من وفائه ، فأطلق سراحه وعفا عنه [2].

---

(١) الحوفي ، ص ٢٨٢

(٢) ياقوت ، سادة لعربان ، مجلد ٤ ص ١٩٨ – الألوسي ، ج ١ ، ص ١٢١

د - المرأة في المجتمع الجاهلي :

١ - الأسرة :

كان العربي في الجاهلية لا يكتفي بزوجة واحدة، إما بقصد إعالتهن أو لغرض سياسي ، إذا كان رئيساً بين قومه ، بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل ، حتى يرتبط معهـــا برابطة المصاهرة ، أو بقصد الإكثار من الذرية والتناسل . وكان الزواج أنواعاً منها :

(١) **زواج الصداق أو البعولة** : ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته ، فيصدقها بصداق يحدده مقداره ثم يعقد عليها ، وكانت قريش وكثير من قبائل العرب يؤثرون هذا النوع من الزواج .

(٢) **زواج المتعة** : وهو تزويج المرأة إلى أجل، فإذا انقضى افترقت عنه ، وفي هذا الزواج ، يقدم الزوج صداقاً معيناً ويكون لأولاده حق الانتساب إليه وحق الإرث . وقد نهى الرسول عن زواج المتعة [١] .

(٣) **زواج السبي** : ويقضي بأن يتزوج الرجـل المحارب من إحدى النساء اللائي وقعن سبياً ، ولا يشترط في هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقاً.

(٤) **زواج الاماء** : من حق العربي أن يتزوج من أمته ، فإذا أنجب منهـا أبناء لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه ، بل يظلوا عبيداً له ، وقد يعتقهم إذا رغب في ذلك .

(٥) **زواج المقت** ، وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه[٢].

وهناك أنواع أخرى من الزواج كانت معروفة في الجاهلية ولكن المجتمع العربي لم يكن يقرها ، مثل الاستبضاع والمخادنة والبدل والشغار والرهط [٣] . وكان

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٧ ص ٢١ — جواد علي ، ج ٥ ص ٢٥٤

(٢) الالوسي ، ج ٢ ص ٥٢ — عمر فروخ ، ص ١٥٦

(٣) الالوسي ، ج ٢ ص ٣—٦ — الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٤، ص ٢١٠ — علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٠ ص ١٦٢ ، ١٦٣

العرب في الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثاً على التفرقة [١] ، أو على الخلع أي تخلع منه بمال ، فإذا طلقت المرأة أو مات زوجها كان عليها أن تقضي عدة حول لا تتزوج خلاله حتى يتضح إذا ما كانت قد حملت من زوجها أو لم تحمل، حفاظاً على الأنساب، وقد أبطل الاسلام ذلك، فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً [٢].

وكان العرب يؤثرون البنين على البنات ، وهو أمر طبيعي في مجتمع قبلي يقوم على العصبية والنسب ، أما البنات فكن في منزلة أدنى ، وذلك لاعتماد العرب على الذكور في الصيد والغزو والحروب ، بجانب المحافظة على النسب، وما زال الميل إلى إنجاب البنين واضحاً في المجتمع العربي المعاصر وخاصة في البادية والريف . ومع ذلك فقد كان كثير من العرب يعطفون على بناتهم ويدللونهن ، ولعل ذلك يرجع إلى ضعفهن ، وحنوهن على آبائهن. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن معن بن أوس الشاعر كان مئناثاً ، وكانت له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن، وكان يرى البنات أكثر وفاء على الآباء من الصبيان ، فيقول :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم ... وفيهن لا تكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى ... عوائــد لا يمللنه ونوائح [٣]

وهذا لبيد يشفق على ابنتيه أن تحزنا عليه بعد موته فتخمشا الوجه وتحلقا الشعر ، فينصحهما بعدم التمادي في الحزن فيقول :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وفي ابني نزار أسوة إن جزعتما ... وإن تسألاهم تخبرا منهم الخبر

فإن حان يوم أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٥ ــ علي الهاشمي ، ص ١٧٢

(٢) نفس المرجع ــ الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٢١ ــ علي الهاشمي ، ص ١٧٧

(٣) الاغاني ، ج ١٠ ص ٢٤٧

وقولا هو المرء الذي لا خليله   أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[1]

ومن مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم أن كان بعضهم يكنى بأسماء بناته ، فكان ربيعة بن رياح والد زهير الشاعر يكنى بأبي سلمى[2] ، والنابغة الذبياني كان يكنى بأبي أمامة[3] .

ومع ذلك فقد كان عدد كبير من عرب الجاهلية يكرهون البنات ، وقد أشار الله تعالى إلى كراهيتهم للبنات في قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون »[4] ، وفي قوله عز وجل : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم »[5] . هذا التصوير النفسي الرائع لحالة الرجل في الجاهلية إذا بشروه بولادة بنت له ، فيحزن ويسود وجهه من الحزن ، ويختلي بنفسه ، ويفكر في الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان في ذلك أو دفنها حية . هذه المشكلة التي صورها القرآن الكريم هذا التصوير واستهجنها ، كانت من المشاكل الاجتماعية البارزة في مجتمع الجاهلية ، ويروي الأخباريون كثيراً من الأمثلة على شيوع كراهية العرب للبنت عند ولادتها ، ومن ذلك أن رجلا يدعى أبو حمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى ، فهجرها ، وأخذ يبيت عند جيرانه ، فمر بخبائها يوماً فسمعها تقول لابنتها :

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا

(١) الأغاني ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨
(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٢٩٤
(٣) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٢٦
(٤) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦ آية ٥٨ — ٥٩
(٥) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ آية ١٧

غضبان ألا نلد البنينـــا تالله ما ذلك في أيدينـا

وإنما نأخذ ما أعطينـــا ونحن كالأرض لزارعينـا

ننبت ما قـد زرعوه فينا

فأسف الرجل عند سماع ذلك ، وأقبل إلى زوجته وصالحها، بأن قبل رأس امرأته وابنتها وقال : « ظلمتكما ورب الكعبة »[1].

وقد بالغ بعض الناس في بغضهم للبنات عند ولادتهن إلى حد الوأد وهو أن يحفر الرجل للمولودة حفرة ، ثم يضع ابنته فيها ، ويهيل عليها التراب ، فيدفنها حية . وشاعت هذه العادة الذميمة في تميم وقيس وهذيـــل وكندة وبكر وقريش . وقد اختلف الباحثون في توضيح أسباب الوأد، ونلخص هذه الأسباب فيما يلي :

١ – أرجع بعضهم سبب الوأد إلى شعور العربي في الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذي تجلبه بناته إذا كبرن وتعرضن للسبي ، وذكروا أن أول من وأد بناته في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري من تميم ، وكان قيسٌ هذا من وجوه قومه ومن ذوي الأموال فيهم ، وسبب وأده لبناته أن النعمان بن المنذر لما امتنع بنو تميم عن دفع الإتاوة له ، غزاهم بجيش على رأسه الريان بن المنذر ومعه بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبى الذراري ، وخير النعمان كل امرأة من السبي بـين البقاء مع صاحبها أو العودة إلى أبيها ، فكلهن اخترن آباءهن ما عدا ابنة قيس ابن عاصم ، اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج فنذر قيس ألا يولد له ابنـة إلا قتلها ، واقتدى به العرب . وذكر أبو الفرج أن هذه البنت لم تكن ابنة قيس وإنما كانت بنت أخته[2] .

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبين ، ج ١ طبعة السندوبي ، القاهرة ١٩٣٢ ص ١٦٢ ج ٢ ص ٢٥٠

(٢) الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٢١٧ – النويري ، نهاية الأرب ، ج ٣ ص ١٢٧

ويشك الدكتور أحمد الحوفي في أن يكون قيس بن عاصم أول وائد لبناته، لأنه أدرك الإسلام وأسلم، فليس من المنطقي أن ينشأ الوأد قبيل الاسلام بسنوات، ويشيع في بعض القبائل بهذه السرعة الزمنية [1].

وذكر بعضهم أن عادة وأد البنات نشأت بادىء ذي بدء في ربيعة، وذكروا أنه لما أغير عليهم سبيت بنت أمير لهم، فاستردها بعد الصلح، فخيرت بين أبيها ومن هي عنده، فاختارت من كانت عنده وآثرته على أبيها، فغضب وسن لقومه الوأد، ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع [2]، فشاع ذلك بين العرب. وترجع بعض الروايات الوأد إلى كندة [3].

٢ – ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والإملاق، فيقول سبحانه وتعالى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً» [4]. ويقول تعالى أيضاً: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» [5]. وتقديم رزق الآباء على الأبناء في هذه الآية يتضمن توقع الفقر والخوف منه، والمقصود بهؤلاء الآباء الأغنياء منهم. أما تقديم رزق الأبناء على الآباء في الآية السابقة فيشير إلى حدوث فقر، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل [6].

فالخوف من توقع الفقر عند الأغنياء أو الرغبة في التخفف من الفقر عند الفقراء كان دافعاً على الوأد، ذلك لأن بلاد العرب كانت شحيحة بالزاد والخير، وكثيراً ما انتابها القحط والجدب، وقاسى سكانها مرارة الجوع للجفاف والجدب،

---

(١) احمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٥

(٢) الالوسي، بلوغ الارب، ج ٣ ص ٤٢

(٣) الالوسي، ج ٣ ص ٤٢ – علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٥

(٤) القرآن الكريم، سورة الاسراء، ١٧، آية ٣١

(٥) القرآن الكريم، سورة الانعام ٦، آية ١٥١

(٦) ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن الكريم، ج ٢، القاهرة ١٩٣٧، ص ١٨٨ – ج ٢ ص ٣٨ – الالوسي، ج ٣ ص ٤٤، ٤٥ – الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٣

وظاهرة وأد الإناث بالذات كانت ظاهرة شائعة عند العرب ، لأن ولادة البنت مع الفقر أو مع توقعه تعتبر نكبة على الأب الجاهلي ، أما الصبيان فكان يرجى منهم النفع ، فلا ضرر من الابقاء عليهم مع الفقر والفاقة لأن الصبيان كانوا أقدر على الكسب من البنات . وليس معنى هذا أن الوأد كان قاصراً على الإناث فقد وجد في الجاهلية من نذر قتل الابن العاشر من الذكور كما فعل عبد المطلب عندما هم بقتل ابنه عبدالله ، فحماه أخواله وافتدى عبدالله بمائة بعير .

٣ – أرجع بعضهم سبب الوأد إلى صفات في الموؤدة كان يتشاءم منها أهلها ، فكان بعضهم يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء[١] .

٤ – وأرجع آخرون الوأد إلى أسباب دينية ، كإظهار الشكر لله على نعمه ، ويذكرون أن ذلك كان أثراً من آثار تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة ، تقرباً إلى الآلهة ، كما كان يفعل الفراعنة مثلاً ، فيختارون في كل عام فتاة جميلة يرمونها في النيل تقرباً للإله حعبي ، وكانت هذه العادة موجودة عند اليونان والرومان وشعوب أخرى[٢] .

٥ – وأرجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل اجتماعية ، منها ماله علاقة بصحة الطفل إذا ولد ضعيفاً أو مشوهاً ، أو إذا أصيب بمرض لا يرجى منه الشفاء بحيث يصبح عالة على أهله ، ومنها ماله علاقة بكثرة عدد البنات[٣] .

ومما لا شك فيه أن العامل الاقتصادي هو أقوى هذه العوامل جميعاً ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الفقر أو أثر توقع حدوثه في إقبال بعض الناس على وأد بناتهم ، ونهى الله تعالى عن ذلك ، لأن الله تعالى يرزق الأبناء والآباء كما يرزق

---

(١) الالوسي ، ج ٣ ص ٤٣ . والشيماء السوداء ، والبرشاء اي البرصاء
(٢) جواد علي ، ج ٥ ص ٢٠٢ — علي الهاشمي ، ص ٢٢٧
(٣) علي الهاشمي ، ص ٢٢٨ — الحوفي ، الحياة العربية ، ص ١٦١

الآباء والأبناء . ولا أنكر أيضاً أثر خوف العرب من العار إذا تعرضت بناتهم للسبي في أيام الحروب والغزوات ، وحياة العرب كلها صراع وحروب ، والسبي أثر من آثار الحروب .

ومع ذلك فقد وجد إناس كانوا يسعون إلى منع الوأد، وذلك بشراء الموؤودة، مثل ذلك أن صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق الشاعر أنقذ ثمانين ومائتي موؤودة، اشترى كل منها بناقتين عشراوين وجمل [1].

٢ – دور المرأة في السلم والحرب :

لعبت المرأة العربية دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، في السلم وفي الحرب ، وحظيت بمكانة كبيرة في المجتمع العربي بحيث لم يجد بعض الملوك بأساً من الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٥١٢ – ٥٥٤ م) ، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف ، لقبت به لجمالها [2]، وعمرو ابن المنذر المعروف بعمرو بن هند (٥٥٤ – ٥٤٧٤) نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر [3] . وليس أدل على علو منزلة المرأة كأم من افتخار أبنائها بنسبهم إليها وزهوهم بحريتها ، فهذا القتال الكلابي يفتخر بأمه الحرة عمرة بنت جرقة فيقول :

لقــد ولدتني حــرة ربعيــة   من اللاء لم يحضرن في القيظ دندنا [4]

والشنفري الشاعر الصعلوك يعتز بأمه الحرة فيقول :

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٣ ص ١٢٧

(٢) الطبري ، ج ١ قسم٢ ص ٩٠٠

(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٢ . وفيه يقول عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

(٤) الاغاني ، ج ٢٠ ص٣٨١

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا   وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها [1]

كذلك كانت للمرأة كزوجة مكانتها في المجتمع الجاهلي، فقد كانت شريكة الرجل في حياته في السلم وفي الحرب، ولذلك كانت موضع تقديره ورعايته وإعزازه، إلى حد أن بعض الشعراء تغزلوا في زوجاتهم [2]. وكما كانت الزوجة محل إعزاز الزوج، فقد كان الزوج كل شيء في حياة الزوجة، فكانت ترعاه، وتخاف عليه من القتل، فإذا قتل أو مات ناحت عليه وحزنت أكثر من حزنها على أقرب الناس إليها، وليس أدل على ذلك مما فعلته حمنة بنت جحش على أثر هزيمة المسلمين في أحد، فلما أبلغت باستشهاد خالها حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «انا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، ولما أخبرها الرسول بمقتل أخيها عبد الله قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، فلما أبلغها الرسول بمقتل زوجها مصعب بن عمير، قالت: «واحزناه»، ويقال أنها قالت: «واعقراه»، فعلق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد» [3]. وقد تزهد المرأة الزواج مرة ثانية بعد قتل زوجها وتقضي بقية حياتها وفية لذكراه، وقد تترهب كما فعلت هند بنت النعمان ابن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدي بن زيد، فحبست نفسها في ديرها المنسوب إليها، وأبت أن تتزوج من بعده.

والمرأة في السلم تقضي وقتها بين مساعدة زوجها في الزراعة إذا كانت تعيش في مناطق زراعية أو في الطهي وإعداد الطعام لزوجها وحلب الأغنام له أو تقوم بغزل الصوف ونسجه، وكثيراً ما كانت تحترف بعض الأعمال التي تكتسب من ورائها مالاً تعتمد عليه في حياتها كالتجارة أو الرضاع أو الغناء أو

---

(1) الأغاني، ج21 ص 205

(2) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص 158 وما يليها

(3) الواقدي، مغازي رسول الله، ص 226

النسيج أو تقويم الرماح أو دبغ الجلود . أما في الحرب فكانت تصحب زوجها في الغزو لتشجيعه على القتال واستثارة نخوته ، أو تداوي الجرحى ، أو تسقي المقاتلين ، وفي بعض الأحيان كانت تشترك في القتال،مثل نسيبة أم عمارة بنت كعب المازنية التي دافعت عن الرسول في يوم أحد ، ومثل الربيع بنت معوذ بن عفية الأنصارية ، وصفية بنت عبد المطلب ، وخولة بنت الأزور [1] .

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٨٦

الفصل السابع

أديان العرب في الجاهلية

(١) تطور الفكر الديني عند العرب في الجاهلية

(٢) أصنام العرب في الجاهلية

(٣) عبدة الكواكب والنار

(٤) النصرانية واليهودية

(٥) الحنيفية

- ١ -

تطور الفكر الديني عند العرب في الجاهلية

نستدل من أسماء قبائل العرب على أنهم كانوا قريبي عهد بمذهب الطوطمية[1]، والطواطم كائنات كانت تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوطمه ، وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً، وهو يحمي صاحبه ويدافع عنه، ولذلك احترمه صاحبه وقدسه ، فإذا كان حيواناً أبقى عليه، وإذا كان نباتاً لم يتجرأ على قطعه أو أكله إلا في أوقات الشدة[2] . وتتمثل الطوطمية من حيث وجهتها الدينيـة في كثير من مظاهر حياة العرب في الجاهلية :

١ – فالعرب كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مثل : بنو أسد وبنو فهد وبنو ضبيعة وبنو كلب ، ومثل بر وثور وقرد وذئب وقنفذ وظبيان، أو بأسماء طيور مثل عقاب ونسر ، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش ، أو بأسماء نباتات مثل حنظلة ، ونبت ، أو بأسماء أجزاء من الأرض كفهر وصخر، أو بأسماء حشرات

---

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٨٦

(٢) محمد عبد المعيد خان ، الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥٥

مثل حية وحنش [١] . هذه التسميات وإن كانت من قبيل التفاؤل فإنها تشير إلى تقديس العرب للحيوانات أو النباتات. ومن الملاحظ أن العرب كانوا يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحنظلة ومرة وضرار وحرب ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كفلاح ونجاح ونحوهما ، ويعلل القلقشندي ذلك بما روى من أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا »[٢].

٢ — ثم إن العرب كانوا يقدسون الحيوان ويعبدونه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم ، وإن كان الغرض من تقديس الحيوان يختلف عند العرب عما بقصد أصحاب الطوطم . فقد كان هؤلاء يهدفون من وراء عبادته إلى إجلال الآباء ، أما العرب فكانوا يقدسونه لمجرد تحصيل البركة [٣].

٣ — كذلك كان العرب يعتقدون أن الطوطم يحمي أهله عند وقوع الخطر ، فكانوا يحملونه معهم في المعارك ، كما فعل أبو سفيان عندما حمل معه اللات والعزى يوم أحد . وذكروا أن يغوث دافع عن قبيلته في ساحة القتال كما قال الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد ‏ ‏ ‏ ‏ فناجزناهم قبل الصباح [٤]

وكان العربي يتفاءل بالطير كالحامسة وبنباح الكلاب على مجيء الضيوف ، ويتشاءم من الثور الأعضب مكسور القرن ومن الغراب ، وكانوا يضربون بالغراب المثل في الشؤم فقالوا : فلان أشأم من غراب البين ، ويذكر الألوسي

---

(١) صبح الأعشى ، ج١ ص ٣١٢ — محمد عبد المعيد خان ، ص ٨٢ — جواد علي ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١ ص ٣١٢

(٣) الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٦٦ — ٨٨

(٤) ابن الكلبي ، كتاب الأصنام ، ص ١٠ — الأساطير ، ص ٧٩

أن الاسم لزمه، لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أي طلب الكلأ في موضعه وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم ، فلتشاءموا به ، وتطيروا منه ، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا ، فسموه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر ، صافي العين حتى قالوا : أصفى من عين الغراب ، كما قالوا : أصفى من عين الديك ، وسموه الأعور كناية ، كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصيرة ، وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم ... »[1].

٤ – وكان العرب يحرمون لمس الطوطم والتلفظ باسمه ، فيكنون عن الملدوغ بالسليم ، ويسمون النعامة بالجمل ، ويلقبون الأسد بأبي الحارث ، والثعلب بابن آوى ، والضبع بأم عامر [2] .

٥ – وكان العربي إذا مات حيوان من نوع طوطم قبيلته احتفـــل بدفنه وحزن عليه ، فكان بنو الحارث إذا وجدوا غزالاً ميتاً غطوه وكفنوه ودفنوه ، وتحزن عليه القبيلة إلى ستة أيام . وكانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثه ، ويفتونها على رأسه ويقولون: روثة راث ثائرك ، وفي ذلك يقول الشاعر :

طرحنا عليه الروث والزجر صادق فراث علينا ثاره والطوائل [3]

٦ – وكان العربي يتجنب قتل الحيوان اعتقــــاداً منه أنه لو قتله جوزي بقتله ، كما كان يمتنع عن قطع النبات وأكله إلا عند الضرورة ، كما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال بعضهم :

أكلت حنيفة ربهـــا	زمن التقحم والمجاعـــة
لم يحـــذروا من ربهم	سوء العواقب والتباعـــة [4]

---

(١) الالوسي ، ج٢ ، ص ٣٢٥

(٢) الاساطير ، ص ٧٨

(٣) الالوسي ، ج٢ ص ٣٥٨

(٤) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٠٥ ـ صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم ، طبعة بمصر (بمطبعة التقدم) ، بدون تاريخ ، ص ٥٧

ومما لا شك فيه أن العربي في البادية كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية كامنة ، مؤثرة في العالم والإنسان ، في بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد، وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب [1] ، فربط بين هذه الكائنات والموجودات والظواهر الطبيعية وبين القوى الخفية وقدسها ، ثم تطورت وثنية العربي إلى عبادة قطع الصخور التي يستحسن مظهرها وهيئتها ، ومعظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم والجمل ولبنها [2] . ومن أمثلة هذه الصخور الجلسد وكان صنماً بحضرموت على شكل « جثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كرأس أسود ، وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان » [3] ، ومنهـــا ذو الخلصة وكان صخرة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن [4] ، ومنها سعد وكان صخرة طويلة بفلاة بساحـــل جدة [5] ، وكانت ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء كان العرب في الجاهليـة يأتونها كل سنة تعظيماً لها ، فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، وكانت هذه الشجرة مغروسة بالقرب من مكة [6] ، وكانت ببطن نخلة من مكة ثلاث سمرات (شجرات) فبني عليها بيت للعزى ، وأقيم لها غبغب ، أي منحر ، ينحرون فيه ضحاياهم [7] .

نسج العربي حول الجبال والآبار والأشجار ، ممـــا كان يحيط به ، قصصاً وأساطير ، ورسم صوراً خيالية في الأحجار التي كان يبحث عنها في الوديان ، فقد صور خيـــاله الصفا والمروة ، وهما صخرتان ، رجلا وامرأة مسخهما الله

---

(1) جواد علي ، ج5 ص 22

(2) الأساطير العربية ، ص 98

(3) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد 2 ، مادة جلسد ، ص 151

(4) ابن الكلبي ، ص 34

(5) ابن الكلبي ، ص 37 — ابن هشام ، السيرة ، ج1 ، ص 83

(6) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد 1 مادة أنواط ، ص 273 — محمد نعمان الجارم ، أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ، 1923 ، ص 127

(7) ابن الكلبي ، ص25

حجرين ، وصور خياله أيضاً أسافاً ونائلة رجلاً وامرأة ممسوخين حجرين على موضع زمزم [1] .

ولم يكن تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية وعبادته لها على أنها تمثل أرباباً ، ولكن شعوره نحوها لم يكن يعدو الإجلال ، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالق البشر أو الكائنات ، لأنه تارة يستقسم عنده ، وتارة يسبه ، ومرة ثالثة يأكله في وقت الشدة [2] . ولم يصبح الوثن في تصور العربي رباً إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، عندما تأثر بالوثنية المجاورة ، ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمنية [3] ، وعلى الرغم من تعرض الوثنية الحجازية منذ انكسار سد مأرب ، وهجرة القبائل اليمنية إلى الشمال لتأثير الوثنية اليمنية ، فإنها لم تتأثر بوثنية اليمن كما تأثرت بوثنية العرب الشماليين وبالوثنية البابلية [4] .

والوثنية اليمنية تأثرت بوثنية بلاد الرافدين ، فإن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين ، وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب ، وقوامها ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة [5] هو نفس الثالوث الكوكبي البابلي : القمر ويمثله الإله سين والشمس ويمثلها الإله شمش وكوكب الزهرة وتمثله الإلهة عشتر [6] ، والإله القمري سين له المكانة الأولى في هذه المجموعة الثلاثية باعتباره الأب للإله سين ، وكان يرمز للإله سين بالهلال . أما الإله شمش فأقل مرتبة من الاله القمر في حين كانت الإلهة عشتر تمثل كوكب

---

(١) ابن هشام ، ج١ ، ص ٨٤

(٢) الاساطير العربية ، ص ١٠٧

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٧

(٤) نفس المرجع ، ص ١١١

(٥) جواد علي ، ج٥ ، ص ١٢٠ — شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢٩

(٦) رشيد الناضوري ، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ١١٣

الزهرة . كذلك كان للقمر أهميته في الوثنية اليمنية ،فكان الإله الأكبر ، ويليه الشمس ، وهي اللات ، والإلهة ، وكانت في نظرهم زوجة القمر ،ومنهما ولد عثتر وهو الزهرة. والقمر كان يسمى عند المعينيين «ود» ، وعرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ ، وسين على نفس تسمية البابليين ، وهوبس ، والمقه ، وشهر ، وكهل ، وأبم ، باعتباره أكبر الآلهة سناً والمقدم عليها جميعاً ، وكان يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو « ال » أو « ايل » أي الله أو الإله ،ويقابله بعل أو هبل عند العرب الشماليين . وكانت للقمر منزلة عظمى كما هو الحال عند البابليين ، وهو الإله الأثير ، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس (اللات) التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف تعرف باسم ذات حمم أو ذات حم ، ولكن القمر كان هو دليل الحادي ، ورسول القافلة ، ولذلك لقب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمبارك والمعين والحامي [1]، وقد أصبحت هذه الأسماء في الإسلام صفات لله الواحد الأحد .

أما الشمس فصنم عبده العرب قبل الميلاد وبه تسمى كثير من الأشخاص فعرفوا بعبد شمس ، وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد الشمس. والشمس أنثى في العربية الجنوبية ، فهي إلهة ،ولكنها في كتابات تدمر مذكر ،وفي الوثنية البابلية مذكر ،وكانت تسمى عند المعينيين باسم نكرح ، وعند السبئيين بذات حمم وذات بعدن وذات غضرن وذات برن . وعثتر في العربية الجنوبية هو إله مذكر ، وفي العربية الشمالية إلهة أنثى ، وهي العزى [2] وفي بابل إلهة أنثى هي عشتار ، أما في الجنوب فهو إله الزهرة ، والزهرة هو المعني به في القرآن الكريم « النجم الثاقب » [3] ، وهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً ، ويعرف بعزيز ، نجم الصباح ، الذي يسبق الشمس قبل

---

(1) ديتلف نلسون : الديانة العربية القديمة ، ص ٢٠٩

(2) جواد علي : ج٥ ص ١٢١

(3) القرآن الكريم : سورة الطارق ، ٨٦ آية ٣

شروقها [١] ، وقد عرف أيضاً « بذي الخلصة » و « ملك » ، ولما كان الملك يرمز له بالتاج ، فإن ما ذكره ابن الكلبي خاصاً بالإله ذي الخلصة في تبالة يؤكد هذا القول [٢] .

وهكذا كان القمر يحتل في ديانة العرب الجنوبيين المركز الأول ، ورمز للقمر بالثور ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنين يشبهان الهلال [٣] ، وقد قدم أهل اليمن القمر على الشمس كما فعل البابليون والكلدان [٤] .

أما الوثنية في العربية الشمالية فكانت صورة تقليدية للوثنية البابلية ، ومما يدل على تأثر العرب بكلدة وآشور تقديمهم الليالي على الأيام ، لأن شهورهم مبنية على مسير القمر ، مقيدة بحركاته ، وهو ما يتفق ونظرة الكلدان ويختلف مع نظرة الروم والفرس . ومن مظاهر تأثر العرب بوثنية الكلدان وآشور أن كلمة صنم أصلها صلم Salm العبرانية [٥] ، أو الآرامية [٦] وقد دخلت هذه الكلمة في بلاد العرب مع دخول الأصنام ، ومن الثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام ، لجهلهم بفنون النحت ، وأن الأصنام جلبت إليهم من الخارج ، ومنها هبل وهو بعل ، واللات وهي اللاتو البابلية ، ومناة وهي ما مناتو البابلية ، بنت الإله ، كما جلبوا العزى وهي عشتار البابلية [٧] .

---

(١) ديتلف نلسون ، ص ٢٢٣ . وواضح أن عزيز هو نفس العزى .

(٢) ذكر ابن الكلبي أن ذا الخلصة كان مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج (ص٣٤)

(٣) جواد علي ، ج٥ ص ١٢٢

(٤) الاساطير ، ص ١١٠

(٥) جواد علي ، ج٥ ، ص ٧٨

(٦) الاساطير العربية ، ص ١١٣

(٧) نفس المرجع ، ص ١٢٠

- ٢ -

أصنام العرب في الجاهلية

استعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها في الجاهلية، هما «أصنام»، و«أوثان»، ولفظة أصنام مفردها صنم وهو تمثال، وقد رأينا أن كلمة صنم مأخوذة من كلمة صلم العبرانية أو الآرامية، وأن صلم وصلمن من الكلمات التي وردت في نصوص المسند بمعنى تمثال. أما وثن فهي أيضاً من الكلمات العربية القديمة التي وردت في نصوص المسند ويقصد بـه الصنم الذي يرمز إلى الإله، ويتضح من ورود اللفظتين في المسند في مواضع مختلفة أن هناك فرقاً بينهما، ويذكر هشام بن محمد الكلبي أن التمثال «إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو من فضة صورة انسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن»[١]. وكانت الأصنام تقدم إلى الآلهـة لتوضع في معابدها تقرباً إليها، لإجابتها دعـاء من يدعوهـا إلى شفائه من مرض أو قضاء حاجة، فهي تقدم إلى الآلهة لنذر، أما الأوثان فكانت تماثيل منحوتة في الحجر ترمز إلى الإله، وإليها تذبح الذبائح وتقدم القرابين[٢].

(١) ابن الكلبي، كتاب الاصنام، ص ٥٢. راجع اختلاف الاراء حول الصنم والوثن في: اديان العرب في الجاهلية ص١٣٢

(٢) جواد علي، ج٥ ص ٧٨

والأنصاب أو النصب التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »[1] وفي قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »[2]هي أحجار كانت تنصب في الجاهلية ويذبح عليها العرب ذبائحهم، وهي المذبح الذي تذبح عليه القرابين والضحايا، أو النحر الذي ينحرون فيه ويسمونه الغبغب. وقد يكون النصب حجراً للعبادة أو منحراً تحول إلى صنم يعبدونه ويقدسونه بمرور الأيام يطوفون به ويعترون سده[3]وروى عن رسول الله أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذاك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم، فأبى أن يأكل منها ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه »[4].

وكانت أصنام العرب في الجاهلية على أشكال متنوعة فمنها ما كان على صورة الانسان، ومنها ما كان على صورة الحيوان، والأصنام تصنع من مواد مختلفة، فبعضها يصنع من الخشب، وبعضها من الحجارة، وبعضها الآخر من معادن شتى، وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده[5].

وأول من اتخذ الأصنام من بني اسماعيل بن ابراهيم وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين اسماعيل هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، اتخذوا سواعاً، فكان لهم برهاط من أرض ينبع، وكلب بن وبرة من قضاعة، اتخذوا وداً بدومة الجندل، وأنعم

---

(١) القرآن الكريم، سورة المائدة ٥ آية ٣

(٢) القرآن الكريم، سورة المائدة ٥ آية ٩٠

(٣) ابن الكلبي، ص ٤٢

(٤) صحيح البخاري، ج٧ ص ١٦٥

(٥) جواد علي، ج٥ ص ٨١

من طيىء، وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش ، وخيوان وهم بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرض همدان من بلاد اليمن ، وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسراً بأرض حمير [1] . وقد وردت أسماء هذه الأصنام الخمسة في القرآن الكريم في قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »[2]. وهناك رواية لابن الكلبي جاء فيها أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق نسراً كانوا قوماً صالحين ، « ماتوا في شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بني قابيل : يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً : قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها »[3]، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، وأقيمت هذه الأصنام على عهد يردي بن مهلايل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم .

وذكر ابن الكلبي أن عمراً بن لحى أتى ضف جدة فوجد بها أصناماً معدة كان قد قذفها ماء البحر إلى شط جدة، فوارتها الأتربة ، فحملها حتى أتى تهامة، فدعا العرب إلى عبادتها ، فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور ، فدفع إليه وداً ، فحمله إلى وادي القرى فأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمي به ، وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له . وقد تولى خالد بن الوليد هدم هذا الصنم بعد غزوة النبي ﷺ لتبوك [4] . وكان ود تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [5]. وهو يشبه

---

(1) ابن الكلبي ، ص ٦ — ١١ ، ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٨١ ، ٨٢

(2) القرآن الكريم، سورة نوح ٧١ آية ٢١ — ٢٣

(3) ابن الكلبي ، ص ٥١ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة ود ، ص ٣٦٧

(4) ابن الكلبي ، ص ٥٥

(5) نفس المصدر ، ص ٥٦

في ذلك تمثال ايروس اليوناني [١].

وقد ذكرنا فيما سبق أن ود اسم للقمر، وورد اسمه في النصوص العربية الجنوبية، كما ورد في النصوص الثمودية وفي النصوص اللحيانية، كذلك روى أن قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود[٢]، وورد هذا وفقاً لرواية ابن الكلبي وياقوت أقدم عهداً من اللات لأن عمرو بن لحى سلم وداً لعوف بن عذرة بن زيد اللات[٣].

أما سواع فقد دفعه عمرو بن لحى إلى رجل من هذيل، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة، فعبده أعقابه من بني مضر، في ذلك يقول أحد شعراء العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفاً   كما عكفت هذيل على سواع [٤]

وأجابت عمرو بن لحى قبيلة مذحج، فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث، فكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج تعبده مذحج ومن والاها. وظل هذا الصنم في بني أنعم إلى أن قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد، فهربوا بـــه إلى نجران. فأقروه عند بني النار من الضباب من بني الحارث بن كعب واجتمعوا عليه جميعاً. وكان بنو مراد من أشد العرب، فأنفذوا إلى بني الحارث يلتمسون رد يغوث، ويطالبونهم بدمائهم عليهم، فاستنجد بنو الحارث قبائل همدان، فنشبت الحرب بينهم، وكانت بينهم وقعة الرزم التي اتفق وقوعها في يوم بدر، فهزم بنو الحارث مراداً هزيمة نكراء، وظل يغوث قائماً في بني الحارث[٥]. ومن المعروف أن واقعة بدر حدثت سنة ٦٢٣، ومعنى هذا أن يوم الرزم حدث فيما يقرب من هذا التاريخ.

---

(١) جواد علي ص ،ج٥ ص ١٣٠ ـ الاساطير العربية ، ص ١٣٠ ـ ولا يعني هذا التشابه ان يكون ود من اصل يوناني وان العرب اخذوه من اليونان

(٢) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، مادة ود ، ص ٣٦٦

(٣) جواد علي ،ج ٥ ص١٢٨

(٤) ابن الكلبي ، ص ٥٧

(٥) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، مادة يغوث ، ص ٤٣٦

وكان يغوث على هيئة أسد[1]، وقد تسمى به عدد كبير من عرب مذحج وهوازن وتغلب ، وعرف هؤلاء بعبد يغوث .

ويعتقد بعض الباحثين أن يغوث جلب من مصر، وعللوا ذلك بأنه وجد بين آلهة المصريين صنم على صورة أسد يسمونه تغنوت ، فعبده العرب ونسبوه إلى أسمائهم فتسموا بعبد الأسد وعبد يغوث [2] . ومن الملاحظ أن العرب عبدوا من الحيوانات ما كان حياً فقط ، ولم ينحتوا أصناماً على صورة الحيوان ، وإذا كان قد وجدت عند العرب أصنام الحيوانات وطيور مثل النسر ويغوث ويعوق، فإنما كانت مجلوبة من البلاد المجاورة .

أما يعوق فقد دفعه عمرو بن لحى الخزاعي إلى مالك بن مرثد بن جشم بن خيران من همدان ، لما أجابه بنو همدان ، فوضع بقرية خيوان، وعبدته همدان ومن والاها من أرض اليمن [3]، وخيوان قرية من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة ، وأشار ابن الكلبي إلى أنه لم يسمع أن همدان سمت بهذا الصنم ، فلم ينتسبوا إليه كما فعل بنو مذحج إذ تسموا بيغوث ، كما يذكر أنه لم يسمع لهمدان ولا لغيرها شعراً قيل في يعوق ، ويعلل ذلك بأنهم قربوا من صنعاء ، واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام يهود ذى نواس ، فتهودوا معه [4]. وكان يعوق على شكل فرس [5] ، شأنه في ذلك شأن اليعبوب ، وكان صنماً لجديلة طيىء[6].

أما نسر فقد أعطاه عمرو بن لحى إلى رجل من ذى رعين يقـــال له معد يكرب ، وذلك لما أجابته حمير ، فوضعوه في موضع من أرض سبأ يقال له خلع ،

---

(1) جواد على ، ج٥ ص ٨٦ ــ الاساطير العربية ، ص ٨١

(2) الاساطير العربية ، ص ٨٢

(3) ابن الكلبي ، ص ٥٧

(4) ابن الكلبي ، ص ١٠ ــ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، مادة يعوق ، ص ٤٣٨

(5) الاساطير العربية ص ٨١

(6) ابن الكلبي ، ص ٦٣ ، حاشية رقم ١

وعبدته حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس[١]،ويذكر ابن الكلبي أنه لم يسمع أن حمير سمت به أحداً ، وأنه لم يسمع له ذكراً في أشعار حمير ولا أشعار أحد من العرب، ويعلل ذلك بانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية[٢]. وكان نسر من أصنام بني إرم ، فهو « نشر » في العبرانية ، وهو «نشرا » الوارد ذكره في التلمود [٣] ، كذلك ورد ذكر نسر عند السبئيين [٤] . وقد انتشرت عبادة نسر في أعالي الحجاز ، إذ وجدت هناك أصنام على صورة نسر منحوتة في الصخور [٥] .

وذكروا أيضاً أن عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية [٦]، وذكروا أيضاً أنه مرض مرضاً شديداً ، فرحل إلى البلقاء بالشام ليستشفي في إحدى حماتها ، فأتاها واستحم بهذه الحمة فبرأ ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام ، فقال: « ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة »[٧] . وذكر ابن هشام أنه خرج إلى مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ،فرآهم يعبدون الأصنام،فسألهم عنها،فأجابوه قائلين: « هذه أصنام نعبدها،فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم ، أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة،فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه »[٨].

---

(١) ابن الكلبي ، ص ٨

(٢) نفسه ، ص ١١

(٣) جواد علي ج ٥ ص ٨٨

(٤) ديتلف نلسون ، تاريخ العلم ، ص ٤٤ — جواد علي ج٥ ص ٨٨

(٥) جواد علي ، ص ٨٨

(٦) ابن الكلبي ، ص ٨ — ابن هشام ، ج١ ص ٧٩

(٧) نفس المصدر ، ص ٨ — جواد علي ، ج٥ ص ٧٣

(٨) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٧٩

ومن أصنام العرب القديمة ، بل أقدمها كلها على حد قول ابن الكلبي مناة ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد [١] ، بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله . « وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ، ويهدون له » [٢] ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج ، فكانوا يحجون إليه ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده ، وفي تعظيم الأوس والخزرج لمناة يقول عبد العزي بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صدق برة ... بمناة عند محل آل الخزرج [٣]

كذلك عظمته قريش [٤] وخزاعة وهذيل [٥] ، وجميع العرب من الأزد والغساسنة . وكان مناة صخرة ولذلك أنثوه لأن صخرة مؤنثة [٦] ، وإليه أضيف زيد مناة وعبد مناة وأوس مناة ، وظل هذا الصنم محل تعظيم العرب حتى عام فتح مكة ، وهو عام ٨ هـ ، فعهد الرسول إلى علي بن أبي طالب بهدمه ، فهدمه ، وكان فيما أخذه من حرمه سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما له ، أحدهما يسمى مخذماً والآخر رسوباً ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره ، فقال :

مظاهر سربالي حديد عليهما ... عقيلا سيوف : مخذم ورسوب

فوهبهما النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ، فيقال : « إن ذا الفقار ، سيف علي ، أحدهما » [٧] . ومناة هذه هي التي ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى : « أفرأيتم

---

(١) ابن الكلبي ، ص ١٣ — ياقوت ، مادة مناة ، ص ٢٠٤
(٢) ابن الكلبي ، ص ١٣
(٣) نفس المصدر ، ص ١٤ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مناة ، ج٥ ، ص ٢٠٥
(٤) نفسه ، ص ١٥ — ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥
(٥) نفسه ، ص ١٤ — ياقوت ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٥
(٦) ياقوت ، ص ٢٠٤
(٧) ابن الكلبي ، ص ١٥

اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان»[١]، والأصنام الثلاثة المذكورة في القرآن الكريم إناث عند عرب الجاهلية .

ومناة لفظة مشتقة من المنا والمنية وهو الموت أو القدر[٢] ، ومن المنية المنون ، ومنها منى ، وهو موضع بمكة كان يمنى فيه ، أي يراق الدم فيه ، وكانت مناة من آلهة الموت والقدر عند البابليين وتعرف باسم ما مناتو[٣] ، كذلك كانت من الأصنام المعروفة عند النبط ، وورد اسمها في أقدم النقوش النبطية .

وقد مثلت مناة الموت عند العرب كما مثلته أيضاً عند البابليين ، ولكنها لم تمثل القدر الذي تمثله مناة البابلية ، لأن القدر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا امرأة ، وقد يفسر هذا استقسام العرب عند هبل وذي الخلصة بالأزلام ، وحلقهم فقط أمام مناة . ويؤكد صفة مناة ، ما ذكرناه من أن سيفي الحارث الغساني مخذوم ورسوب عثر عليهما علي بن أبي طالب عند مناة حينما هدمت ، لأن السيف رمز العدالة والانصاف عند أهل البادية[٤] .

والصنم الثاني من أصنام العرب المشهورة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم هو اللات الإلهة الأنثى ، واللات اسم إلهة تمثل فصل الصيف عند البابليين (اللاتو) ، وكانت أيضاً من آلهة تدمر والنبط والصفويين ، وكان النبط يعتبرونها إله الشمس ، أما العرب فنسبوا إليها فصل الصيف[٥] . واللات أحدث عهداً من مناة[٦] ، وهي أيضاً من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب ، أخذها

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النجم ، ٥٣ آية ١٩ — ٢٣

(٢) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣) الاساطير العربية ، ص ١٢٨

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٩

(٥) قال العرب في ذلك « ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف » الازرقي ، ص ٧٤

(٦) ابن الكلبي ، ص ١٦

من النبط ، وكانت صخرة مربعة بيضاء كما كانت كذلك عند النبط [1].

واللات أسطورة رواها الأخباريون جاء فيها : أن عمرو بن لحي الخزاعي حين غلبت خزاعة على البيت ، ونفت عنه جرهم ، جعلت العرب عمر بن لحي رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة ، وكان اللات وهو رجل من ثقيف يلت له السويق للحج على صخرة تسمى صخرة اللات ، فلما مات اللات أشاع عمرو بن لحي أنه لم يمت وإنما دخل في الصخرة ، ثم أمرهم بعبادتها ، وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات [2]. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى [3]. وذكر ياقوت نقلاً عن ابن حبيب أن اللات كانت بيتاً لثقيف بالطائف على صخرة ، « وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهئون به الكعبة وله حجبة وكسوة ، وكانوا يحرمون واديه » [4]. وذكر ابن الكلبي أن سدنتها هم بنو عتاب بن مالك ، وأن قريش وسائر العرب كانوا يعظمونها ، وكان بيتها يقوم في الموضع الذي تقوم عليه في عهده منارة مسجد الطائف اليسرى [5].

ولا يستبعد الدكتور جواد علي أن تكون اللات نصباً من الأنصاب التي كانت تستخدم لتقديم الذبائح والقرابين ، ثم اختلط أمرها مع مرور الوقت على الناس ، فظنوا أنه الصنم نفسه ، كما لا يستبعد أن تكون من بقايا الوثنية البدائية التي تعبد فيها الأحجار حتى ولو كانت مجرد صخرة لا شكل لها ، وفي هذه الحالة تدخل عبادتها في المذهب الفيتشي ، بدليل أن ياقوت أشار إلى أنه كان في صخرة اللات وفي العزى شيطانان يكلمان الناس [6] ، والاعتقاد بوجود شيطان أو روح ميت

---

(1) ابن الكلبي ، ص ١٦ — ياقـوت ، معجم البلدان ج٤ ، مادة اللات ص ٤ — الأساطير العربية ص ١١٦

(2) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٤

(3) ابن الكلبي ، ص ٢٧

(4) ياقوت ، ص ٤

(5) ابن الكلبي ، ص ١٦

(6) ياقوت ، ص ٤

حلت فيها شرح لعقيدة عبادة الروح في الأشياء ، أي الفيتشية [1].

وظلت اللات ربة ثقيف [2] حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول ﷺ المغيرة ابن شعبة إليها فهدمها ، وحرقها بالنار ، واستولى على أموالها وحليها .

وقد اعتبر الأنباط اللات أماً للآلهة ، وكان العرب يقولون عن اللات والعزى ومناة أنهن بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن إليه ، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى» [3] .

أما العزى فهي صنم أنثى ، وهي أحدث من اللات ومناة لأن العرب سمت بها قبل العزى ، وكانت العزى شجرة بنخلة عندها وثن تعبده غطفان ، وسدنتها من بني صرمة بن مرة ، وذكروا أنها سمرة بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة [4] . وروى ابن الكلبي أنها كانت بواد من نخلة الشآمية ، يقال له حراض ، بإزاء الغمير ، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، فبني عليها بساً (أي بيتاً) ، وكانوا يسمعون فيه الصوت [5] .

وكلمة العزى من لغة بني طيء ، سموها عوزى ، وهي نفس عشتار ابنة الإله سين عند البابليين ، وهي أيضاً نفس كوكب الزهرة المعروف عند عرب الجنوب بعثتر [6] ، وكما كانت عشتار تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية ، ثم مثلت الخصب والحب والجمال ، وأصبحت بنت الإله ، ثم أصبحت الزهرة عند الإغريق ، كانت العزى رمزاً للشتاء في قول عمرو بن لحي لعمرو بن ربيعة

---

(١) جواد علي ، ج ٥ ص ٦٤

(٢) ابن الكلبي ، تكملة ، ص١٠٩

(٣) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ آية ١٩ — ٢٢

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عزى ، مجلد ٤ ص ١١٦

(٥) ابن الكلبي ، ص ١٨

(٦) الاساطير العربية ، ص ١٢٠ ، ١٢١

والحارث بن كعب : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة [١] ، ثم أصبحت العزى عند العرب إلهة الخصر ، حينما قامت على ثلاث سمرات في وادي نخلة [٢] ، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء وعرفت بالزهرة [٣] ، وكما كانت عشتار إلهة الحب والعشق الجسدي [٤] ، كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج ، فكانت الفتاة إذا طلبت الزواج ، نشرت جانباً من شعرها ، وكحلت إحدى عينيها ، وحجلت على إحدى رجليها ليلاً ، وقالت عبارة معناها أنها تدعو أن تتزوج « قبل الصباح » [٥] ، أي قبل أن يطلع نجم الصباح وهو الزهرة .

وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبح ، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . فإنهن الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » [٦] وكان للعزى منحر ينحرون فيه هداياها يقال له الغبغب .

ولما افتتح النبي ﷺ مكة في العام الثامن للهجرة ، عهد إلى خالد بن الوليد بقطع شجر العزى ، وهدم البيت ، وكسر الوثن [٧] .

ولم تكن العزى وثن قريش فحسب ، بل كانت وثناً لكثير من قبائل العرب مثل غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان [٨] ، كذلك عبدت

---

(١) الأزرقي ، ج١ ص ٧٤

(٢) ابن الكلبي ، ص ٢٥

(٣) الأساطير العربية ، ص ١٢٢

(٤) نجيب ميخائيل : حضارة العراق القديمة ، ج٦ ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ١٣٢

(٥) الألوسي ، ج٢ ص ٢٣٠

(٦) ابن الكلبي ، ص ١٩

(٧) ابن حزم ، جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، ص ٢٣٥

(٨) جواد علي ، ج٥ ، ص ٩٧

في الحيرة زمن المناذرة ، وكان ملوك الحيرة يقدمون لها البشر قرابين في بعض الأحيان ، وقد ورد في المصادر السريانية أن المنذر قدم عدداً من الإماء الأسرى إلى افروديت (العزى) قرباناً . وذكر بروكوبيوس أن المنذر نفسه قدم ابن الملك الحارث ، وكان أسيره ، إلى العزى قرباناً [١] ، ويرى نلدكة أن الغريين المشهورين هما نصبان يرمزان إلى كوكبي العشاء والصباح ، ويراد بهما العزى ، وترتبط قصة الغريين بالقتل ، ومن هنا كانت العزى من الآلهة التي كان الناس يتقربون إليها بالقرابين البشرية [٢] .

أما هبل فكان أعظم أصنام قريش، وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فأضافوا إليه يداً من ذهب [٣] . وعرف هبل بهبل خزيمة لأن أول من نصبه في جوف الكعبة خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكان يستفتى في مشكلات الناس الشخصية كالزواج والولادة والرحلة ، والعمل ، فكانوا يستقسمون عنده بالقداح ، فما خرج عملوا به ، وانتهوا إليه [٤] ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبدالله . ويرجح الباحثون في ديانات العرب في الجاهلية أن هبل هو نفس الإله بعل عند العبرانيين ، ومن المعتقد أنه هو الإله مردوك سيد آلهة بابل، ثم دخل بعل عند بني إسرائيل، وأصبح إله الخصب والزراعة ، ويبدو أنه كان إله الخصب عند العرب أيضاً بدليل أن الأزرقي يذكر أن عمرو بن لحي قدم به من هيت من أرض الجزيرة [٥] ، ونصبه على البئر في بطن الكعبة ، وتعرف هذه البئر بالأخشف ، وإقامة هبل على بئر يشير إلى وجود علاقة بينه وبين الخصب ، واعتبره العرب لذلك سيد الآلهة ، وهو الذي عناه عمرو بن لحي عندما قال : إن ربكم يتصيف باللات

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٢ ــ الاساطير العربية ، ص ١٢١

(٢) جواد علي ، ص ١٠٢

(٣) ابن الكلبي ، ص ٢٨

(٤) نفس المرجع

(٥) الأزرقي ، ج١ ص ٦٤

لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة [1]

ومن أصنام العرب إساف ونائلة ، أحدهما كان منصوباً بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، ثم وضعت قريش الأول بجوار الثاني، فكانوا ينحرون عندهما . ومنها رضى ، وكان من الأصنام المعروفة عند الثموديين ، كما انتشرت عبادته بين عرب الشمال ، فورد في نصوص تدمر وفي الكتابات الصفوية على هذا الشكل « رضو » [2] . ومنها مناف وذو الخلصة وسعد . وسعد هذا كان صنماً بساحل جدة لبني مالك وملكان بن كنانة وكان صخرة طويلة . وذكر ابن الكلبي أن رجلاً من بني كنانة أقبل بإبل له ليقفها عليه تبركاً ، فلما أدناها منه ، نفرت منه ، وكان يراق عليه الدم ، فذهبت في كل وجه ، وتفرقت عليه ، وأسف ، فتناول حجراً فرماه به ، وقال « لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت علي إبلي » ، وأنشد يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[3]

ومن أصنام العرب ذو الكفين ، وكان لدوس ، ثم لبني منهب بن دوس ،وقد أحرق ذو الكفين على يدي الطفيل بن عمرو الدوسي عندما أمره رسول الله بتحريقه [4] ، ونستدل من ذلك على أنه كان مصنوعاً من الخشب . ومن أصنام عرب الشمال ذو الشرى ، وكان صنماً لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد ، وقد ورد « Dusares » ،اسم هذا الصنم، في نقوش البتراء وبصرى ،وهو يقابل ديو نيسيوس عند اليونان [5] .

---

(1) الأساطير العربية ص ١١٧

(2) جواد علي ، ج٥ ،ص ١٠٥

(3) ابن الكلبي ، ص ٣٧

(4) نفس المصدر

(5) جواد علي ، ج٥ ص ١٠٩

ومن أصنامهم أيضاً الأقيصر ، وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان بمشارف الشام ، ومنها نهم وكان لمزينة ، وعائم وكان لأزد السراة ، وسعير وكان لعنزة ، وعميانس لخولان . ومنها عرق ، وباجر ، واليعبوب ، وتيم ، والأسحم ، والأشهل ، وبليح ، وجريش ، وجهار ، والدار ، وذو الرجل ، والشارق ، والضيزن ، رحمودا ، والعيعب ، وعوض ، وعوف ، والكسعة ، ومنهب ، وياليل ، وذريح ، والجد ، وغنم ، وقزح ، وقيس ، وأدال ، ومرحب ، والمدان ، وكثرى ، والسعيدة ، والسجة ، ورئام ، وبوانة ، البعيم[1] .

---

(1) نفس المرجع ، ص ١١٣ — ١١٩

- ٣ -

عبدة الكواكب والنار

رأينا أن طائفة من العرب عبدت الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة ، ونضيف إلى هذه الكواكب الثلاثة كواكب أخرى كالدبران والعيوق والثريا والشعري والمرزم وعطارد وسهيل . فكنانة كانت تعبد القمر والدبران، وجرهم كانت تسجد للمشترى ، وطيىء عبدت الثريا والمرزم وسهيل ، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم ، وطائفة من تميم عبدت الدبران ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور وهي الشعرى اليمانية .

وأول من سن للعرب عبادة الشعرى العبور هو أبو كبشة، وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم رسول الله ﷺ ، والشعرى هي التي أشار إليها الله تعالى في قوله : « وإنه هو رب الشعرى » [1] ، والشعرى من نجوم الجوزاء وسمي العبور لأنه عبرة المجرة ، وانضم إلى سهيل فصار يمانيا . وكان الشعرى العبور في الأصل مجتمعاً مع الغميصاء، فلما عبر الشعرى المجرة بقيت الغميصاء، والشعرى أكثر ضياء من الغميصاء [2].

والثريا مجموعة من النجوم الصغيرة مجتمعة ، عددها يصل إلى عشرين

(١) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ ، آية ٤٩

(٢) الألوسي ، ج٢ ص ٢٢٩

نجماً [١] . أما المرزم فهو نجمان ، أحدهما يتبع الشعرى العبور ويسمى « كف الكلب » ، والآخر يعرف « بالكوكب الأخفى » [٢].

وقد عرف عبدة الكواكب بالصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٣] ، وفي قوله عز وجل : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٤]، وفي قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » [٥] . وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر ، فالصابئة المؤمنون هم الصابئة الحنفاء والصابئة الكافرون هم المشركون. وكان المشركون من الصابئة يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ويصورونها في هياكلهم ، وكان لكل كوكب يعبدونه هيكل ، فللشمس هيكل ، وللقمر هيكل ، وللزهرة هيكل، وللمريخ هيكل (إلى آخره) ، وأصل دين هؤلاء الصابئة ، فيما زعموا ، أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة أي خارجين ، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين [٦].

أما الحنفاء منهم فقد شاركوا أهل الاسلام في الحنيفية، بينما شارك المشركون منهم عباد الأصنام .

كذلك عرف العرب عبادة النار أو المجوسية عن طريق الفرس في الحيرة ،

---

(١) الالوسي ، ج٢ ، ص ٢٣٦ ـ أديان العرب في الجاهلية ، ص ١٨٦
(٢) الالوسي ، ص ٢٤٠
(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ٦٢
(٤) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ ، آية ٦٩
(٥) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ١٧
(٦) الالوسي ، ، ج٢ ، ص ٢٢٥ ـ جواد علي ، ج٥ ، ص ٣٦٨

وفي اليمن، وفي البحرين، وكانت المجوسية عند عرب الجاهلية في تميم: منهم زرارة ابن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان [1].

كذلك انتقلت الزندقة إلى العرب من الحيرة، ووجدت الزندقة في قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة. والزندقة نوعان: زندقة ثنوية، وهي القول بالنور والظلمة، ومنها المزدكية والمانوية والزرادشتية، وزندقة دهرية لقول من يؤمن بها بالدهر، وفي ذلك يقول تعالى: « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »[2]، وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والاعادة وقالوا « بالطبع المحيي والدهر المفني »[3].

---

(١) ابن قتيبة «المعارف» ص ٢٠٥ — الالوسي، ج٢، ص ٢٢٥

(٢) القرآن الكريم «سورة الجاثية ٤٥»، آية ٢٤

(٣) الالوسي، ج٢، ص ٢٢٠

- ٤ -

النصرانية واليهودية

لا نعرف على وجه اليقين تاريخ بداية تغلغل النصرانية في شبه جزيرة العرب، كذلك يحيط الغموض بمغزى زيارة القديس بولس إلى بلاد العرب بعد تحوله إلى النصرانية مباشرة، وإن كان بعضهم يعتقد أنه شغل أثناءهـا بمهمة تبشيرية، ويعارض بل هذا الرأي مرجحاً أن القديس بولس كان في حاجة بعد تنصره إلى الاختلاء والعزلة فترة من الوقت بعيداً عن المجتمعات التي عاش فيها قبل ذلك، وليتيح لنفسه فرصة رسم سياسته المقبلة[1]. ففي القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد على الأقل لم تكن المسيحية قد انتشرت بعد في جزيرة العرب، ولكن من المرجح انتشارها فقط في المناطق التي عاش فيها العرب جنباً إلى جنب مع عناصر يونانية أو رومانية. صحيح أن المسيحية انتشرت بين كثير من قبائل العرب قبل ظهور الاسلام، والشعر الجاهلي يتضمن كثيراً من الشواهد على انتشارها إلا أن جذور المسيحية لم تستطع أن تمتد بعمق في قلب شبه جزيرة العرب نفسها[2].

ويرجع سبب انتشار المسيحية في جزيرة العرب إلى التأثير الذي مارسته

---

(١) Richard Bell, The Origin of Islam in its Christian environment, pp. 15-17

(٢) Ibid. p. 17

ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة لبلاد العرب هي: سورية في الشمال الغربي، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر وفي الجنوب عن طريق اليمن.

والكنيسة السورية كانت أهم دعائم النصرانية على الاطلاق، ومن مراكزها في بيت المقدس ودمشق وأنطاكية تشعت تأثيراتها إلى صحراء العرب، وأصبحنا نسمع قبل نهاية القرن الثالث الميلادي عن أساقفة في بصرى وتدمر. وأصبحت المسيحية إبان القرنين الخامس والسادس الميلاديين، في بلاد سورية البيزنطية، الديانة السائدة، وانتشرت بين العرب المقيمين في الشام في حماية الدولة البيزنطية، ونعني بهم الغساسنة. ومنذ أن تبين لجستنيان سنة ٥٣٠ م أن سياسة اضطهاد المونوفيزيت خطأ كبير، من شأنه أن يضعف الامبراطورية البيزنطية في الشرق، عمد في سنة ٥٤٣ إلى تنصيب أسقفين مونوفيزيين مستقلين للمناطق الواقعة على الحدود العربية هما يعقوب البرادعي وتيودور، ونجح الأسقف يعقوب في طبع هذه الكنيسة المونوفيزية المستقلة بطابعه إلى حد أنها أصبحت تسمى بالكنيسة اليعقوبية، وساعد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة في تمكين المذهب اليعقوبي في جنوب الشام. ومن بلاطه في الجابية من أرض الجولان انتشرت المسيحية على المذهب اليعقوبي في مجالات بعيدة بين العرب في شمال شبه الجزيرة العربية. ولقد اتهم المنذر بن الحارث الغساني في القسطنطينية بممالأة الفرس، ونتج عن ذلك شيوع الفوضى بين العرب على الحدود البيزنطية، وكان لذلك أعظم الأثر في ضعف الجبهة البيزنطية في الوقت الذي بزغ فيه نور الاسلام [١].

وفي الشمال الشرقي من شبه جزيرة العرب، كانت المسيحية قد تأصلت في الرها ونصيبين وإربل وجنديسابور وسلوقية طيسفون التي أصبحت كرسياً لبطريرك الكنيسة النسطورية، وانتشرت إلى أدنى الفرات وعبر دجلة. ومن هناك انتشرت في بلاد البحرين وعمان بفضل البعثات التبشيرية، ومارست كنيسة

---

(١) R. Bell, op. cit. p. 24

الحيرة نشاطها في عزم ، ونتج عن ذلك أن تحول كثير من عربها إلى المسيحية وعرفوا بالعباد [1] . ولكن على الرغم من اتخاذ الحيرة مركزاً أسقفياً في سنة ٤١٠ ، فإن ملوك الحيرة ، فيما يرجح ، لم يتنصروا إلا منذ أواخر القرن السادس الميلادي ، فقد قيل أن أول من تنصر منهم النعمان بن المنذر ، وكان قد نشأ وثنياً ثم تنصر على يد الجاثليق صبر يشوع ، وقيل على يد عدي بن زيد العبادي [2] ، وكان معظم ملوك الحيرة وثنيين ، فقد ذكروا أن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من الأسرى إلى العزي [3] . وكانت إحدى نسائه وتدعى هند بنت النعمان ، أخت الأمير الغساني ، مسيحية : فنشأ ابنها عمرو بن المنذر الذي تولى حكم الحيرة فيما بين عامي ٥٥٤ ، ٥٦٩ م مسيحياً ، وإلى هند هذه ينسب دير هند الكبرى بالحيرة .

وقد دان بالنصرانية كثير من قبائل العرب النازلين بالحيرة أو بالمنطقة المحيطة بها ، من بينهم تغلب وبطون من بكر بن وائل الذين تركوا اسمهم في منطقة من شمال العراق تعرف باسم « ديار بكر » .

أما في الجنوب وفي الجنوب الغربي ، فقد كانت بلاد الحبشة أيضاً من المراكز التي تشعت منهـــا المسيحية إلى بلاد اليمن وبلاد الحجاز ، ومن المعروف أن المسيحية انتشرت في بلاد الحبشة منذ أن قام أحد المبشرين النصارى من أبناء سورية بحملة تبشيرية إلى بلاد الحبشة فيما يقرب من عام ٣٢٠ م ، فقد تمكن هذا المبشر من إقناع النجاشي بنبذ الوثنية واعتناق المسيحية [4] ولم يمض عشر سنوات على انتشار المسيحية على المذهب المونوفيزيتي هناك حتى عين فرومنتيوس أول

---

(1) Ibid p. 26 ـ اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٤

(2) اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٥

(3) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٢٢ ـ Bell, op. cit. p. 26 - اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٥

(4) فؤاد حسنين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠١

أسقف في آكسوم من قبل أثاناسيوس أسقف الاسكندرية وذلك في سنة ٣٥٦م[١]. ولكن اعتناق ملوك أكسوم للنصرانية لم يثبت تاريخياً إلا منذ عصر النجاشي تازانا (في نهاية القرن الخامس) [٢]. ومن بلاد الحبشة انتقلت المسيحية إلى الطرف الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ، وساعد على انتشار المسيحية قيام بعض المبشرين السوريين بالتبشير فيها ، ونخص بالذكر منهم فيميون الراهب. وتذكر المصادر العربية أن سيارة من بعض العرب اختطفوه وباعوه في نجران حيث حمل أهلها على النصرانية [٣] وأسس بها كنيسة يعقوبية . وفي سنة ٣٥٦ م أرسل الإمبراطور البيزنطي قنسطنطيوس بعثة إلى جنوب بلاد العرب ، على رأسها رجل يقال له تيوفيلوس ، حمّله الامبراطور هدايا نفيسة إلى ملك حمير ، وكان من آثار هذه البعثة أن ملك حمير اعتنق المسيحية ، وأسس في بلاده ثلاث كنائس ، إحداها في عدن والأخريان في نجران . ثم نجح الأحباش في الاستيلاء على اليمن ، وفر ملك حمير وهو أب كرب أسعد ويقال أنه أسعد الكامل أل تبع إلى يثرب حيث تهود . وفي سنة ٣٥٧ م تمكن الحميريون من استرجاع بلادهم على يدي ملك كرب يوهنعم [٤] ، ثم كان الغزو الحبشي الثاني لليمن في سنة ٥٢٥ م وعلى أثره انتشرت المسيحية في اليمن انتشاراً واسع النطاق ، واتخذ أبرهة من نجران مركزاً رئيسياً لهذا الغرض ، ولقد قدم إلى الرسول من نجران وفد برئاسة راهبين هما السيد والعاقب ، سألاه الصلح ، فصالحهما عن أهل نجران[٥].

انتشرت المسيحية في بلاد العرب ، وانتشرت بوجه خاص في طيء ودومة الجندل ، ولكن تدينهم بالمسيحية كان ظاهرياً ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، يدل على ذلك قول عدي بن زيد العبادي :

---

(١) Bell, op cit , pp· 30,31

(٢) Ibid p 31

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٣٤

(٤) فؤاد حسنين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠٢

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٧٦ — الالوسي ، ج٢ ص ٢٤٤

سعى الأعداء لا يألون شراً   علي وربِّ مكة والصليب

فالشاعر يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية والصليب [1].

وممن اعتنق المسيحية من مشاهير العرب أرباب بن رئاب من عبد القيس وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي دانس من بني النجار ، وورقة ابن نوفل ، وعبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر ، وبحيرى الراهب .

أما اليهودية فقد انتشرت في بلاد اليمن بوجه خاص عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب ، ومن المعروف أن جماعات يهودية كثيرة هاجرت إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز ، بعد أن دمر الرومان أورشليم سنة ٧٠ م ، واستقرت هذه الجماعات في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب وتعايشهم معهم ، واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات ، كالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ، والصيرفة والتجارة ، وعلى الرغم أيضاً من تعربهم بحكم مجاورتهم للعرب واحتكاكهم بهم ، فإنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب ، ويرجع ذلك إلى أسباب ، منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك ، ومنها احتقار العرب لهم باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن ، ولما عرفوا به من صفات ذميمة كالتهافت على جمع المال ونقض العهود والغدر ، ومنها أن شعائر اليهودية المعقدة نفرت من التقيد بها [2] .

---

(١) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص ١٠١

(٢) علي حسني الخربوطلي ، العرب واليهود في العصر الاسلامي ، من سلسلة كتب قومية ، عدد ٢٤٧ ، ص ٢٠ ، ٢٥

٥

الحنيفية

ظهرت قبيل الاسلام حركة جديدة أصحابها جماعة من عقلاء العرب ، نحت نفوسهم عن عبادة الأوثان ، ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية ، وإنما قالوا بوحدانية الله ، ويعرف هؤلاء بالأحناف أو الحنفاء أو المتحنفين ، وهي جمع لحنيف (صفة ابراهيم عليه السلام) الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[1] وفي قوله تعالى : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[2] ، وفي قوله أيضاً : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخذ الله ابراهيم خليلا »[3] ، وفي قوله تعالى أيضاً : « قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[4] ، وفي قوله تعالى أيضاً : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ١٣٥

(٢) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ ، آية ٦٧

(٣) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤ ، آية ٢٥

(٤) القرآن الكريم ، سورة الانعام ٦ ، آية ٦١

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[1].

ولا تستهدف الحنيفية ديناً جديداً كالنصرانية واليهودية والاسلام، وإنما كانت مجرد حركة دينية وصف دعاتها بالحنفاء أتباع ابراهيم عليه السلام[2]، ومن أشهر المتحنفين : قس بن ساعدة الايادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية بن أبي الصلت ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعد أبو كرب الحميري، وورقة بن نوفل القرشي ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن لؤي بن غالب ، وعثمان بن الحارث ، وقد كان معظم هؤلاء نساكاً تشككوا في عبادة الأصنام ، وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، أو زهدوا في المجتمعات الوثنية ، واعتزلوا عن الناس في كهوف للتأمل والعبادة والصلاة ، واعتقدوا بوحدانية لله خالصة كالوحدانية التي نادى بها ابراهيم دون أن يشركوا فيها أحداً ، ولقد كان لهذه الأفكار أعظم الأثر في تقويض الوثنية في شبه جزيرة العرب ، فأخذت الديانات الوثنية تتداعى أمام هذه الأفكار، ولهذا السبب كثر إحتقار الآلهة قبل الاسلام، من ذلك أن امرىء القيس الشاعر لما قتل أبوه ، وأراد طلب ثأره، استقسم عند ذي الخلصة بالأزلام ، فخرج السهم بنهاه عن ذلك، فسب الصنم، وكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم ، وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا [3]

فلم يستقسم عنده أحد بعد حتى جاء الاسلام ، وكان امرىء القيس أول من

---

(1) القرآن الكريم سورة الانعام ، ٦ آية ٧٦ - ٧٩

(2) جواد علي ، ج٥ ص ٣٧٠

(3) ابن الكلبي ، ص ٣٥ - ابن هشام ، ج١ ص ٨٨

أخفره [1] .

وذكروا أن رجلاً من كنانة أتى بإبل له إلى صنم يقال له سعد ، ليقفها عليه ويتبرك لها به ، فلما أدناها من الصنم ، نفرت منه وتفرقت عليه ، فأسف الرجل وتناول حجراً فرمى الصنم به وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت عليّ إبلي ، ثم خرج في طلب إبله ، وانصرف عن الصنم وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعي لغي ولا رشد [2]

وروى ابن الكلبي في سبب تنصر عدي بن حاتم أن سادن الصنم المعروف بالفلس ، أوقف ناقة لامرأة من كلب في فناء الصنم ، فأرسلت المرأة جارها مالك ابن كلثوم الشمجي ، ليطلقها ، فأطلق سبيلها برمحه ، فغضب السادن ، ونظر إلى مالك ، ورفع يده إلى الصنم ، وقال يحرض الصنم على مالك :

يا رب إن مالك بن كلثوم ... أخفرك اليوم بناب علكوم

وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان عدي بن حاتم يومئذ قد عتر عند الصنم ، وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك ، وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال : أنظروا ما يصيبه في يومه هذا . فمضت له أيام لم يصبه شيء . فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام ، وتنصر ، فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالاسلام ، فأسلم [3].

أما المتحنفون فقد أنفوا من عبادة الأصنام ودعوا إلى التوحيد ، وفي ذلك يقول زيد بن عمرو بن نفيل عندما تحنف وترك عبادة الأصنام :

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

---

(1) نفس المصدر ، ص ٤٧ — الالوسي ، ج٢ ص ٦٧

(٢) ابن الكلبي ، ص ٣٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٦١

عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان ربا ... لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات ... وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا ... كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم ... فيربل منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً ... كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور[1]

وذكروا أنه كان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة والدم، وذلك قبل أن يبعث النبي ﷺ ، وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء[2].

وقد آمن المتحنفون بالله وبيوم الحساب ، وفي إيمانهم بالله يقول عبد الطابخة ابن ثعلب بن وبرة بن قضاعة :

أدعوك يا رب بما أنت أهله ... دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله ... وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذي لم يحصه الدهر ثانياً ... ولم ير عبد منك في صالح وجم

ويقول علاف بن شهاب التميمي :

---

(١) الالوسي ، ج٢ ص ٢٢٦ . وفي رواية ابن الكلبي أنه قال :

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى ادين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني غنم ازور
ولا هبلا ازور وكان ربا ... لنا في الدهر اذ حلمي صغير

(ابن الكلبي ، ص ٢٢)

(٢) الالوسي ، ج٢ ص ٢٥١

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المقتـــال
وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال [1]

وكان كعب بن لؤي بن غالب ، أحـــد أجداد الرسول ، متحنفاً ، يأمر قريش بالتفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهـــد ، ويذكرهم بالموت وأهواله ، ويبشرهم بمبعث رسول الله [2] .

ولقد كان للحنيفية أثر واضح في إعداد العرب قبل الاسلام للنقلة ، وفي إضعاف المثل الدينية الجاهلية والميل إلى ترك الوثنية ونبذها، والاتجاه نحو التوحيد.

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٦
(٢) الآلوسي ، ج٢ ص ٢٨٢

مراجع الكتاب

المراجـــع

١ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم): كتاب الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨ هـ

٢ - « « : أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، تحقيق الأستاذ محمد صبيح، القاهرة، ١٩٦٤

٣ - أحمد (الأستاذ يوسف) : المحمل والحج، القاهرة، ١٩٣٧

٤ - الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »، نشره دوزي ودي غوية، ليدن، ١٨٩٣

٥ - الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله): كتاب أخبار مكة، وما جاء فيها من آثار، نشره الأستاذ رشدي الصالح ملحس، في جزأين، مكة، ١٣٥٢ هـ

٦ - ارنولد (توماس) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن، القاهرة، ١٩٤٧

٧ - الإصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي): كتاب المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٩٢٧

٨ - الأصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الأغاني، طبعة بيروت، ٢١

جزءا ، ١٩٥٦

٩ – الأصفهاني (حمزه بن الحسن) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ، ١٣٤٠ ﻫ

١٠ – الأصمعي (عبد الملك بن قريب) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ، ١٩٥٩

١١ – الأفغاني (الأستاذ سعيد) : أسواق العرب ، دمشق ، ١٩٣٧

١٢ – الألوسي (الأستاذ محمود شكري) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٤

١٣ – أمين (الأستاذ أحمد) : فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٤ – » : ضحى الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨

١٥ – أور (برسي نفيل) : جستنيان وعصره ، مجموعة كتب بنجوين ، لندن ، ١٩٥١ (بالانجليزية)

Ure (Percy Neville) : Justinian and his age, Penguin Books Series, London, 1951

١٦ – بارتون الأصول السامية والحامية ، لندن ، ١٩٣٤ (بالانجليزية)

Barton : Semitic and Hametic origins, London, 1934

١٧ – البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد) : كتاب الحماسة ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٠

١٨ – البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : صحيح البخاري ،

طبعة مصر ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة، ١٣٤٨هـ

١٩ – البني (الأستاذ عدنان): حول المشروع التدمري الاستثنائي، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٦٣

٢٠ – براتق (الأستاذ محمد أحمد) والمحجوب (الأستاذ محمد يوسف) : محمد واليهود ، سلسلة مع العرب ، عدد ٤

٢١ – دي برسيفال (كوسان) : دراسة في تاريخ العرب ، ٣ مجلدات ، باريس ، ١٨٤٧ (بالفرنسية)

De Perceval (Caussin) : Essai sur l'histoire des Arabes, 3 vols. , Paris, 1847

٢٢ – بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة الأستاذين نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ، ١٩٤٨

٢٣ – ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي) : رحلة ابن بطوطة، مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠

٢٤ – بفان (ا. ر.) اليهود ، بحث في موسوعة كامبردج في تاريخ العصور الوسطى ، المجلد التاسع (بالانجليزية)

Bevan (E.R.) The Jews, in Cambridge Medievial History, vol. IX

٢٥ – البكري (أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

٢٦ – بل (ريتشارد) : أصل الإسلام ، لندن ، ١٩٢٦ ، (بالانجليزية)

Bell (Richard) : The origin of Islam in its Christian environment, London. 1926

٢٧ – البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦–١٩٥٧

٢٨ – « أنساب الأشراف ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، القاهرة ، ١٩٥٩

٢٩ – بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلى الاسبانية إجناثيو جنثالث ، مدريد ، ١٩١٨ (بالاسبانية)

Benjamin de Tudela, Viajes de Benjamin de Tudela, trad. espanola por Ignacio Gonzalez, Madrid, 1918

٣٠ – بهل : تدمر ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية)

Buhl, Tadmur, dans Encyclopédie de l'Islam

٣١ – بيرين (جاكلين) : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت ، ١٩٦٣

٣٢ – تراجم أصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ

٣٣ – توفيق (الأستاذ محمد) : آثار معين في جوف اليمن ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥١

٣٤ – تومبسون (كاتون) : المقابر ومعبد القمر في حريضة، أكسفورد ١٩٤٤ (بالانجليزية)

Thompson (Caton) : The tombs and Moon temple of Hureidha, Oxford, 1944

٣٥ – جابرييلي (فرانسكو) : العرب ، باريس ، ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Gabrieli (Francisco) : Les Arabes, Paris, 1963

٣٦ – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : كتاب البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

٣٧ – جاد المولى (الأستاذ محمد أحمد) وآخرون : أيام العرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

٣٨ – الجارم (الأستاذ محمد نعمان) : أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

٣٩ – جب (هاملتون) : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد نجم والدكتور محمود زايد ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٤٠ – جروهمان (أدولف) : مقال عن « العرب » بدائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة (بالانجليزية) .

Grohmann (A.) al-Arab, in Encyclopaedia of Islam, New edition

٤١ – جليان (أندريه) : تاريخ إفريقيا الشمالية ، باريس ، ١٩٥٥ (بالفرنسية)

Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1955

٤٢ – جويدي (اجناسيو) : بلاد العرب قبل الاسلام ، باريس ، ١٨٢١ (بالفرنسية) .

Guidi (Ignacio) : L'Arabie antéislamique,
Paris, 1921

٤٣ – حتي (الدكتور فيليب) : تاريخ العرب ، ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع ، القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤ – « « : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، والأستاذ عبد الكريم رافق ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٥٨ .

٤٥ – ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٤٦ – « : جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، مجموعة تراث الاسلام ، عدد ٢ .

٤٧ – « حجة الوداع ، تحقيق الدكتور ممدوح حقي ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٤٨ – حزين (الدكتور سليمان) : التغير التاريخي للمناخ والطبيعة في بلاد العرب الجنوبية ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ٣ ، قسم ١ ، مايو ١٨٣٥ (بالفرنسية) ،

Huzayyin (S.) : Changement historique du
climat et du Paysage de l'Arabie du
Sud, Bulletin of the Faculty of Arts,
University of Egypt, vol. III, Part
I, May , 1935

٤٩ – حسن (الدكتور زكي محمد) : دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي ، مقال بمجلة كلية الآداب ،

جامعة القاهرة ، المجلد ١٢ ، ج ١ مايو ، ١٩٦٠ .

٥٠ – حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الإسلام السياسي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥١ – حسنين (الدكتور فؤاد) : استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، القاهرة ، ١٩٥٨

٥٢ – حسين (الدكتور طه) : في الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٢٧ ، وطبعة ١٩٣٣

٥٣ – الحسيني (دكتور عبد المحسن) : تقويم العرب في الجاهلية ، الاسكندرية ، ١٩٦٣

٥٤ – الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٥٥ – الحوفي (الدكتور أحمد محمد) :الحياة العربية من الشعر الجاهلي القاهرة ، ١٩٤٩ ، وطبعة ١٩٥٦

٥٦ – ، :المرأة في الشعر الجاهلي القاهرة ، ١٩٥٤

٥٧ – ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد) كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٣ .

٥٨ – ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) : قطعة من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، من عهد الأمير عبدالله ، القسم الثالث ، تحقيق الأب ملشور أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧

٥٩ – الحيمي (الحسن بن أحمد) كتاب سيرة الحبشة ، ومقدمته للدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٥٨

٦٠ – الخازن (الشيخ نسيب وهيبة) : من الساميين إلى العرب ، بيروت ، ١٩٦٢

٦١ – خان (الأستاذ محمد عبد المعيد) : الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ، ١٩٣٧

٦٢ – الخربوطلي (الدكتور علي حسني) : العرب واليهود في العصر الاسلامي ، من سلسلة كتب قومية ، عدد ٢٤٧

٦٣ – » : : الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠

٦٤ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٥٧ (في أربعة أجزاء)

٦٥ – » » : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الثاني ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥

٦٦ – دوزي (رينهارت) : تاريخ مسلمي الأندلس ، ليدن ، ٣ أجزاء ، ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932

٦٧ – ديسو (رينيه) : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩

Dussaud (René) : Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris. 1907

٦٨ – ديمومبين (جودفروا) : النظم الإسلامية ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشماع ، بيروت ، ١٩٦١

٦٩ – الدينوري (أبو حنيفة): الأخبار الطوال ، تحقيق الأستاذ عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦٠

٧٠ – ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين ، بيروت ، ١٩٦٨

٧١ – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ

٧٢ – ديوان السموأل ، شرح عيسى سابا ، بيروت ، ١٩٥١

٧٣ – ديوان الشريف الرضي (محمد بن أبي أحمد الحسين)، طبعة بيروت، ١٣٠٧ هـ

٧٤ – ديوان النابغة الذبياني ، نشر وتحقيق الأستاذ محمد جمال ، بيروت ، ١٩٢٩

٧٥ – رابين (ك) : مقال بعنوان « العربية » ، بدائرة المعارف الإسلامية ، (بالفرنسية)

Rabin (C.) : Ency. de l'Islam, article «Arabiyya»

٧٦ – ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة ،الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دى غوية ، ليدن ، ١٨٩٢

٧٧ – رفعت (الأستاذ ابراهيم) : مرآة الحرمين، القاهرة ، ج ١ ، ١٩٢٥

٧٨ – رودوكاناكيس (نيكولوس) : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ،

من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٩ – روزنثال (فرانز) : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، بغداد ، ١٩٦٣

٨٠ – رينان (ارنست) : تاريخ بني اسرائيل ، باريس ، ١٩٢٥ (بالفرنسية)

Renan (E.) : Histoire du Peuple d'Israël, Paris, 1925

٨١ – « « : تاريخ عام اللغات السامية ، ج ١ ، باريس ، ١٨٥٥ (بالفرنسية)

Renan (E.) : Histoire générale des langues sémitiques, t. I, Paris, 1855

٨٢ – الزبيدي (أبو الفيض مرتضى بن محمد) : تاج العروس ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ

٨٣ – الزبيري (أبو عبدالله المصعب) : كتاب نسب قريش ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٣

٨٤ – الزمخشري : الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٢٥

٨٥ – زيدان (الأستاذ جرجي) : العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ، بمراجعة الدكتور حسين مؤنس .

٨٦ – سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٨٧ – « المآذن المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩

٨٨ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : تخطيط الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٦٣

٨٩ « التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، المجلة سبتمبر ١٩٥٧

٩٠ — « « : المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٩١ — « التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧

٩٢ — « دراسات في تاريخ العرب ، الجزء الأول : عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨

٩٣ — « : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العالم الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩

٩٤ — سترابو ، جغرافية سترابو ، (الترجمة الإنجليزية) لجونز ، لندن ، ١٩٤٩ (بالانجليزية)

Strabo, the Geography of Strabo, trans. H.L. Jones, London, 1949

٩٥ — السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) : الإعلان بالتوبيخ لن ذم أهل التاريخ ، نص نشره روزنثال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، بغداد ، ١٩٦٣

٩٦ — سرور (الدكتور محمد جمال الدين) : قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ ، القاهرة ، ١٩٥٦

٩٧ — « : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد

الهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٠

٩٨ – ابن سعد (أبو عبدالله محمد) : الطبقات الكبرى ، طبعة ليدن ، تحقيق الدكتور ستوستين ، ١٣٢٢ هـ (١٠٩٥ م) وطبعة بيروت ١٩٥٧

٩٩ – السمهودي (أبو الحسن بن عبد الله) : كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، جزآن القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٠٠ – سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٤٨

١٠١ – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : بغية الوعاة ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٠٢ – » » : المزهر في علوم اللغة ، شرح الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

١٠٣ – » » : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ١ ، طبعة مصر ، ١٣٢٧ هـ

١٠٤ – الشابشتي : كتاب الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥١

١٠٥ – الشريف (الأستاذ أحمد ابراهيم) : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٧

١٠٦ – » » : الدولة الاسلامية الأولى ، المكتبة التاريخية ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٠٧ – شلبي (الأستاذ عبد المنعم عبدالرؤوف) : شرح ديوان عنترة

ابن شداد ، بدون تاريخ .

١٠٨ – الشنقيطي (أحمد بن الأمين) : تراجم أصحاب المعلقات العشر وأخبارهم ، القاهرة ، ١٣٢٩

١٠٩ – الشيباني (أبو العباس أحمد بن يحيى) : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ، ١٩٦٦

١١٠ – الصالح (الدكتور صبحي) : مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢

١١١ – « « : دراسات في فقه اللغة ، دمشق ، ١٩٦٠

١١٢ – صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، طبعة مصر ، مطبعة التقدم (بدون تاريخ)

١١٣ – صفدي (الاستاذ جبل) : اللغة العربية : تطورها ، كتابتها وتعليمها ، البرازيل .

١١٤ – ضيف (الدكتور شوقي) : العصر الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٥ – الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، وطبعة ليدن ، ١٨٨١–١٨٨٢

١١٦ – طلس (الأستاذ محمد أسعد) : تاريخ الأمة العربية ، عصر الانبثاق ، بيروت ، ١٩٥٧

١١٧ – عبادة (الأستاذ عبد الفتاح) : انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي ، القاهرة ، ١٩١٥

١١٨ – العباسي (أحمد بن عبد الحميد) : كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار .

١١٩ – ابن عبدالحق (صفي الدين عبد المؤمن) : كتاب مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، طبعة جوينبل Juynboll ٤ أجزاء، ليدن، ١٨٥٢–١٨٥٣

١٢٠ – عبدالحق (الأستاذ سليم عادل) : نظريات في الفن السوري قبل الإسلام، مجلة الحوليات الأثرية السورية، مجلد ١١، ١٢، سنة ٦١–١٩٦٢

١٢١ – ابن عبدالحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) : فتوح مصر وافريقية والأندلس، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١

١٢٢ – ابن عبد ربه : العقد الفريد، القاهرة، ١٩٢٨

١٢٣ – ابن العبري (غريغوريوس الملطي) : تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨

١٢٤ – عبيد بن شرية : أخبار عبيد بن شرية، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير، طبعة حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧ هـ

١٢٥ – العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٦٣

١٢٦ – ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب، ج ٢، بيروت، ١٩٥٠

١٢٧ – عزام (الأستاذ عبدالوهاب) : مهد العرب، سلسلة اقرأ، عدد ٤٠ القاهرة، ١٩٤٦

١٢٨ – العظم (الأستاذ نزيه مؤيد) : رحلة في بلاد العربية السعيدة، من مصر إلى صنعاء، القاهرة ١٩٣٨

١٢٩ - العلي (دكتور صالح أحمد) : محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٥٩

١٣٠ — « « : منطقة الحيرة ، دراسة طبوغرافية مستندة على المصادر العربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ٥ ، نيسان ١٩٦٢

١٣١ — علي (الدكتور جواد) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، من مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ثمانية أجزاء ، بغداد ، ١٩٥٠-١٩٥٩

١٣٢ — علي (مولاي محمد) : محمد رسول الله ، ترجمة الأستاذ مصطفى فهمي ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٣٣ — العمري (شهاب الدين بن فضل الله) : كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الجزء الأول ، نشره وحققه الأستاذ أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤

١٣٤ — العناني (الأستاذ علي) وحرز (الأستاذ ليون) : كتاب الأساس في الأمم السامية وقواعد اللغة العبرية وآدابها ، القاهرة ، ١٩٣٥

١٣٥ — غنيمة (الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة) : الحيرة ، المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦

١٣٦ — الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٣٧ — فخري (الدكتور أحمد) : اليمن : ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٥٧

١٣٨ – فخري (الدكتور أحمد) : رحلة أثرية إلى اليمن ، ٣ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٢ (بالانجليزية)

Fakhry (A.): An archaeological journey to Yemen.3 vols., Cairo, 1952

١٣٩ – « « : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق وسوريا واليمن وإيران ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٤٠ – « « اليمن ، بحث في المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية الذي عقد في فاس سنة ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

١٤١ – أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

١٤٢ – فرج (الاستاذ محمد) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، مجموعة مذاهب وشخصيات ، عدد ٢٤

١٤٣ – فروخ (الدكتور عمر) : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤

١٤٤ – ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

١٤٥ – فكري (الدكتور أحمد) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١

١٤٦ – فلبي (هاري سان جون بريدجر) : بلاد العرب ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Philby (Harry St. John Bridger): Arabia, in Ency - Britanica, 14 edition, 1922

١٤٧ – فلبي : هضبة بلاد العرب ، نيويورك ، ١٩٥٢ (بالانجليزية) .
Philby(H.): Arabian Highlands, New York, 1952

١٤٨ – » : مهد الإسلام ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ (بالانجليزية)
Philby, the background of Islam, Alexandria, 1947

١٤٩ – فيلبس (وندل) : قتبان وسبأ ، لندن ، ١٩٥٥ (بالانجليزية)
philips (Wendell) : Qataban and Sheba, London, 1945

١٥٠ – فهمي (الدكتور عبد الرحمن) : النقود العربية ، ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٥

١٥١ – » » : فجر السكة العربية ، من مجموعات متحف الفن الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٥٢ – فهمي (دكتور علي محمد) : القوى البحرية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٦ (بالانجليزية).
Fahmy (Dr. Aly Moh.) ; Muslim Sea power in the Eastern Mediterranean, Cairo, 1966.

١٥٣ – ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ

١٥٤ – » » : الشعر والشعراء ، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ

١٥٥ – » » : عيون الأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٣

١٥٦ – » » : الإمامة والسياسة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٣٧

١٥٧ – القرآن الكريم .

١٥٨ – القرشي جمهرة أشعار العرب ، بولاق ، ١٣٣٨هـ

١٥٩ – القسطلاني (أحمد بن محمد) : كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، القاهرة ، ١٢٨٨ هـ

١٦٠ – القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٤

١٦١ – » » : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الإبياري ، القاهرة ١٩٥٩

١٦٢ – كاشف (دكتوره سيدة اسماعيل) : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠

١٦٣ – الكتاب المقدس ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٣

١٦٤ – ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : تفسير القرآن الكريم ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٧

١٦٥ – » » : السيرة النبوية ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ١٩٦٤

١٦٦ – كرد علي (الأستاذ محمد) : الإسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٦٧ – كرزول فجر العمارة الإسلامية ، الأمويون ، والعباسيون في العصر الأول ، والطولونيون ، مجلدان ، اكسفورد ، ١٩٣٢ – ١٩٤٠ (بالانجليزية)

Creswell (K.A.C.) : Early Muslim Architecture Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, Folio, 2 vols., Oxford, 1932 - 1940

١٦٨ – كرزول : مختصر لفجر العمارة الإسلامية ، مجموعة كتب بنجوين ، ١٩٥٨ (بالانجليزية)

Creswell, A short account of early Muslim architecture, Penguin Books, 1958 .

١٦٩ - ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الأصنام ، نشره أحمد زكي باشا ، صورته الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٧٠ - كنتينو (جورج) : حضارات الشرق الأدنى القديم ، باريس ، ١٩٥٥ (بالفرنسية)

Contenau (Georges); Les civilisations anciennes du Proche Orient, Paris, 1955.

١٧١ - كوك بلميرا ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Cooke (G.A.) : Palmyra in Ency, Britanica- t. 16, 1964

١٧٢ - « « : النبط ، مقال في دائرة المعارف والأخلاق ، المجلد التاسع ، ١٩٣٠ (بالانجليزية)

Cooke (G. A.) Nabataei, in Ency. of Religion and Ethics, vol. 9, 1930.

١٧٣ - « « : النقوش السامية الشمالية ، اكسفورد ، ١٩٠٣ (بالانجليزية)

Cooke (G. A.) : A text book of North Semitic inscriptions, Oxford, 1903.

١٧٤ - كيتاني : دراسة لتاريخ الشرق ، ميلانو ، ١٩١١ (بالايطالية)

Caetani (L) , Studi di storia Orientale, vol. I Milano, 1911

١٧٥ - كوبار : (بول) وعبد الحق (سليم) وديون) أرماندو : تقرير لبعثة اليونسكو إلى سورية في ١٩٥٣ ، باريس ، ١٩٥٤ (بالفرنسية) .

Collart (Paul) . Abdul Hak (Selim) et Dillon (Armando) :

Rapport de la mission envoyée par l'Unesco à la Syrie en 1953, Paris, 1954 .

١٧٦ – لابيير (بول بوفيه) : موجز تاريخ مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٢ (بالفرنسية) .

Lapierre (Paul-Bovier) ; précis de l'histoire d'Egypte, t. I, le Caire 1932.

١٧٧ – لامنس (هـ.) : مهد الإسلام ، الجزء الأول ، رومة ، ١٩١٤ (بالفرنسية) .

Lammens (H.) : Le Berceau de l'Islam , t. I Rome. 1914

١٧٨ – « مدينة الطائف العربية قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٢ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : la cité arabe de Taif à la veille de l'Hegire, Beyrouth, 1922.

١٧٩ – « « : مكة قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٤ (بالفرنسية)

Lammens (H.): La Mecque à la veille de l'Hegire Beyrouth, 1924

١٨٠ – لامنس (هـ.) : بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٨ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : L'Arabie Occidentale avant l'Hegire,Beyrouth, 1928

١٨١ – لويس (برنارد) : العرب في التاريخ ، تعريب الأستاذين نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ، ١٩٥٤

١٨٢ – ماجد (الدكتور عبد المنعم) : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٣

١٨٣ – ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣

١٨٤ – مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مقال عن الحفريات البولونية في تدمر ، المجلد العاشر ، دمشق ، ١٩٦٠

١٨٥ – محمد حسين (الدكتور محمد) : الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٠

١٨٦ – محمود (الدكتور حسن) قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧

١٨٧ – المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أربعة أجزاء ، طبعة الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٨٨ – « « : التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت (مكتبة خياط) ١٩٦٥

١٨٩ – المقدسي (المطهر بن طاهر) : كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ، باريس ١٩٠٣

١٩٠ – المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦

١٩١ المقري (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩

١٩٢ -- المقريزي (تقي الدين أحمد) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ.

١٩٣ ـ المقريزي : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق الأستاذ محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٤١

١٩٤ ـ ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥

١٩٥ ـ مورينو (جومث) : الفن الاسلامي في اسبانيا ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع ، والدكتور عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨

١٩٦ ـ موسكاتي (ساباتينو) تاريخ وحضرة الشعوب السامية ، باريس ١٩٥٤ (بالفرنسية) .

Moscati (Sabatino) : Histoire et civilisation des peuples sémitiques, Paris, 1954

١٩٧ ـ موسل (ألويس) : شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢

١٩٨ ـ « تدمر ، نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Palmyrena, New York, 1928

١٩٩ ـ « : شمال نجد ، نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Northern Negd. New York, 1928

٢٠٠ ـ « بلاد العرب الصخرية ، فيينا ، ١٩٠٧ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Arabia petraea. Wien, 1907

٢٠١ ـ ميخائيل (دكتور نجيب) : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث من موسوعة مصر والشرق الأدنى القديم ، (سورية) الاسكندرية ، ١٩٦٦

٢٠٢ ـ « : حضارة العراق القديمة ، الجزء السادس من

موسوعة مصر والشرق الأدنى القديم ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٢٠٣ ـ الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) : مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ

٢٠٤ ـ الناضوري (الدكتور رشيد) : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩

٢٠٥ ـ نامي (الدكتور خليل يحيى) : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، مايو ١٩٣٥

٢٠٦ ـ « « : نقوش خربة براقش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤

٢٠٧ ـ النجار (محمد بن محمود) : كتاب الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، القاهرة ، ١٩٥٦

٢٠٨ ـ نلدكة (ثيودور) : أمراء غسان ، ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٣

٢٠٩ ـ النويري (شهاب الدين أحمد) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ، ج٢

٢١٠ ـ نيكلسون (ر. ا.) تاريخ الأدب العربي ، كامبردج ، ١٥٩٣ ، بالانجليزية)

Nicholson(R. A.):A literary history of the Arabs. Cambridge. 1953

٢١١ نيلسون(ديتلف) : تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، القاهرة ١٩٥٨

٢١٢ - « « : الديانة العربية القديمة ، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢١٣ - النهروالي (قطب الدين) : كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ، ١٨٥٧

٢١٤ - هاردنج (لانكستر) : آثار الأردن ، تعريب الأستاذ سليمان موسى ، عمان ، ١٩٦٥

٢١٥ - الهاشمي (الدكتور علي) : المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٠

٢١٦ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : كتاب سيرة النبي ، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٥٥

٢١٧ - الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد) : كتاب الإكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق الدكتور نبيه فارس ، برنستن ١٩٤٠ ، والجزء العاشر ، تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٢١٨ - « « : صفة جزيرة العرب ، نشره

الأستاذ محمد بن عبدالله بن بليهيد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣

٢١٩ – الهمذاني (ابن الفقيه) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٨٥

٢٢٠ – الهندي (الأستاذ هاني) ، ومحسن ابراهيم : اسرائيل ، بيروت ، ١٩٥٨

٢٢١ – هومل (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢٢٢ – الواقدي (أبو عبدالله محمد بن عمر) : مغازي رسول الله ، القاهرة ، ١٩٤٨ (وطبعة اكسفورد تحقيق مارسدن جونس ، ١٩٦٦)

٢٢٣ – ولفنسون (اسرائيل) : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٢٧

٢٢٤ – وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ

٢٢٥ – ويتمر (جون) : تدمر : درس من التاريخ ، في مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ١٠ ، ١٩٦٠ (بالفرنسية)

Witmer (John): Palmyre, apprendre de l'histoire dans : Annales archéologiques de Syrie, vol. X, 1960.

٢٢٦ – ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٢٢٧ – اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) . كتاب البلدان ، نشره دي غوية مع الأعلاق النفيسة لابن رسته ، في الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٩٢

٢٢٨ – « « : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، طبعة النجف ، ١٣٨٥ هـ .

٢٢٩ – أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) : كتاب الخراج ، طبعة بولاق، ١٣٠٢ هـ .

٢٣٠ – يوسيفوس : تاريخ يوسيفوس ، طبعة دار صادر ، بيروت

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

صفحة

الباب الثاني

عرب الجنوب

الفصل الاول

اليمن منذ قيام الدولة المعينية حتى سقوط الدولة الحميرية

الفصل الثاني

اليمن في ظل الأحباش

الباب الثالث

الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق

الفصل الثالث

الأنباط والتدمريون

الفصل الرابع

الغساسنة والمناذرة

الباب الرابع

الحجـــاز

الفصل الخامس

حواضر الحجاز

الباب الخامس

الحياة الاجتماعية والدينية

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي

الفصل السابع

أديان العرب في الجاهلية

(لوحة رقم ١) مدينة مأرب الحالية وتقوم على أنقاض مأرب القديمة

(عن كتاب الاكتشافات الأثرية في جنوب بلاد العرب)
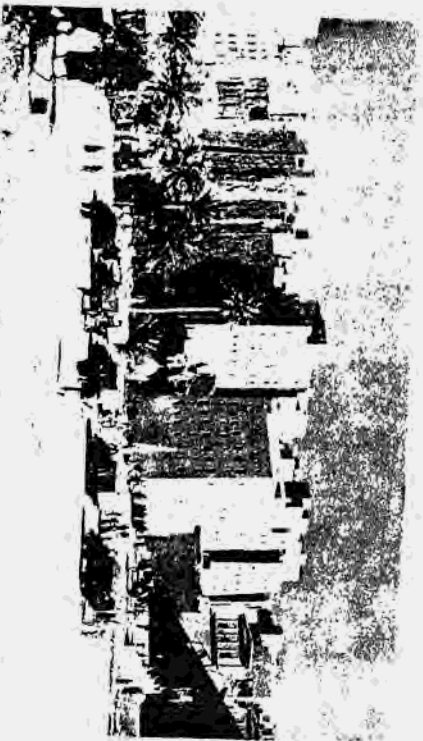
(لوحة رقم ٢) مدينة شبام من مدن اليمن القديمة وتبدو المنازل مقامة على النظام القديم كالحصون

(عن كتاب قتبان وسبأ)

لوحة رقم ٣ / جانب من سد مأرب القديم (عن كتاب قتبان وسبأ)
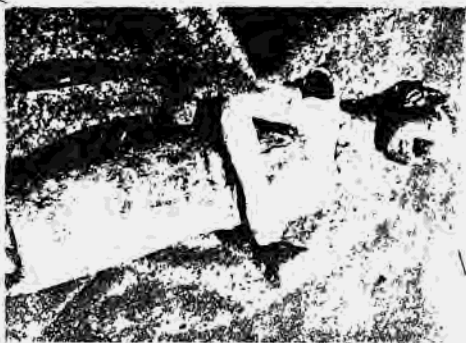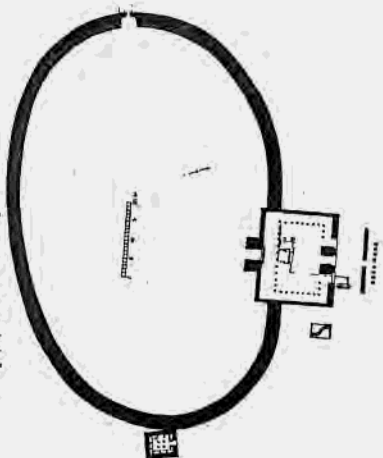
(لوحة رقم ٤)

ـ تمثال من البرونز من معبد المواهد (محرم بلقيس) بمأرب

ب ـ تخطيط لمعبد محرم بلقيس بمأرب

(عن كتاب قتبان وسبأ)

(لوحة رقم ٥ تمثال من البرونز من مدينة تمنع عاصمة قتبان (٧٥ - ٥٠ ق.م) (عن كتاب قتبان وسبأ)

(لوحة رقم ٦) بائكة على امتداد الشارع الرئيسي بتدمر
ويرى القوس الذي ينفتح على أحد الشوارع الجانبية
(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)

(لوحة رقم ٧) بوابة المدخل الشرقي لمعبد الاله بعل في تدمر

(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)

(لوحة رقم ٨) تماثيل من تدمر

ا ـ نقش على تابوت يمثل امرأة تسمى حرتهون بنت مقيمو ، وتبدو فيه المرأة وقد تزينت بقرطين وأسورة ذات حزرات وعلى رأسها نسيج من المخرمات الدقيقة .

ب ـ نقش يمثل فتاتين تلبس كل منهما ملاءة من قماش حريري تبدو طياته وتغطي رأسيهما

ج ـ نقش بارز يمثل امرأة تسمى حمنه بنت مقيمو بن ربديبل وتحمل في يدها اليمنى مفتاحاً وفي اليسرى مغزلاً وحول رقبتها قلادة من خمسة أدوار

د ـ تمثال صغير لامرأة مستخرج من مجموعة نقوش حزبية وتحمل في يدها اليسرى ثلاثة مفاتيح نقش على واحد منها عبارة « الدار الأبدية » (عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)

قسيمة اشتراك

إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاســـــــم ....

العنـــــــوان ....

رقم التليفـــون ....

حوالة بريدية رقم : .... باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة   بمبلغ ....

التوقيع :

م	اسم السلسلة	موعد الاصدار	قيمة الاشتراك ٦ أشهر		قيمة الاشتراك سنة كاملة	
١	أصـــوات أدبيـــة	نصف شهرية	١٢		٢٤	
٢	إبداعـــــات	نصف شهرية	٦		١٢	
٣	كـتـابات أدبيـــة	شـــهرية	١٢		٢٤	
٤	آفاق الترجـمـة	شـــهرية	١٢		٢٤	
٥	آفـاق الكتـابة	شـــهرية	٦		١٢	
٦	الـذخـــائر	شـــهرية	٣٠		٦٠	
٧	ذاكـرة الكتـابة	شـــهرية	١٨		٣٦	
٨	مطبوعات الهيئة	شـــهرية	١٢		٢٤	
٩	الدراسات الشعبية	شـــهرية	١٢		٢٤	
١٠	عين صـــقر	شـــهرية	٦		١٢	
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شـــهرية	٩		١٨	
١٢	مـجلة قطر الندى	نصف شهرية	١٦		٣٢	
١٣	مـجلة آفاق المسرح	فـصليـة	٤		٨	
١٤	آفاق الفن التشكيلى	شـــهرية	٢٤		٤٨	
١٥	الجـــوائز	شـــهرية	٦		١٢	
١٦	آفاق السينما	فـصليـة	١٨		٣٦	

ضع علامة (✓) أمام السلاسل التى تريد الاشتراك فيها فى المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ أ ش أمين سامى – قصر العينى – القاهرة

ت : ٢٥٦٤٨٤١ – ٢٥٦٤٨٤٢ – فاكس : ٢٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدى : ١١٥٦٢

إن تاريخ العرب قبل الاسلام بتجلياته السياسية والاجتماعية يحتاج إلى دراسة منابته الأولى، وجذوره ... خاصة بعد الاهتمام المتزايد من ... الوطن العربى، ممن ... معرفة ماضى أمتهم ... قوميتهم، بغية الرد على أباطيل أعدائهم، والتزود من أحداث ووقائع الماضى، إضافة الى تجارب أجدادهم القدامى والاستفادة من تراثهم الذى قد يعينهم على إدراك المناطق التاريخية الشاغرة فى حلقات العروبة المتصلة، من هنا تأتى أهمية تقديم هذا الكتاب كى يسهم فى إضاءة تاريخ العرب قبل الإسلام .

ثلاث جنيهات

شركة الأمل للطباعة والنشر